

نَهْائِيَةُ الْأَدَبِ

فِي

فُنُونِ الْأَدَبِ

تَأَلَّفَتْ

شَهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ النَّوِيرِيِّ

الْمُتَوَفَّى ٧٣٣ هـ

الجزء العاشر

تَحْقِيقُ

الدَّكْتُورُ يُوسُفُ الطَّوِيلُ

مَنْشُورَاتُ

مَحْتَدِجَاتُ بَيْهَوْتِ

دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ

بِكَبُوتِ - لُبَّكَانِ

ذَكَرُ مَا وَصَفَتْ بِهِ الْعَرَبُ الْخَيْلَ

مِنْ تَرْتِيبِهَا فِي السَّنِّ، وَتَسْمِيَةِ أَعْضَائِهَا، وَأَبْعَاضِهَا، وَأَلْوَانِهَا، وَشَيَاتِهَا، وَغُرَرِهَا، وَحُجُولِهَا، وَغُصَمِهَا، وَدَوَائِرِهَا، وَمَا قِيلَ فِي طِبَائِعِهَا وَعَادَاتِهَا، وَالْمَحْمُودِ مِنْ صِفَاتِهَا وَمَحَاسِنِهَا، وَالْعَلَامَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى جَوْدَتِهَا وَنَجَابَتِهَا، وَعَدُّ عِيُوبِهَا الَّتِي تَكُونُ فِي خَلْقِهَا وَجَرِيهَا، وَالْعِيُوبِ الَّتِي تَطْرَأُ عَلَيْهَا وَتَحْدُثُ فِيهَا.

أَمَّا تَرْتِيبُهَا فِي السَّنِّ - فَالْعَرَبُ تَقُولُ: سِنَّ الْفَرَسِ إِذَا وَضَعَتْهُ أُمُّهُ فَهُوَ «مُهْرٌ». ثُمَّ هُوَ «فُلُوٌّ». فَإِذَا أَسْتَكْمَلَ سَنَةً فَهُوَ «حَوْلِيٌّ». ثُمَّ هُوَ فِي الثَّانِيَةِ «جَذَعٌ». ثُمَّ فِي الثَّلَاثَةِ «ثَنِيٌّ». ثُمَّ فِي الرَّابِعَةِ «رَبَاعٌ»، ثُمَّ فِي الْخَامِسَةِ «قَارِخٌ». ثُمَّ هُوَ إِلَى نَهَايَةِ عَمْرِهِ «مَذَكٌ».

وَأَمَّا مَا قِيلَ فِي تَسْمِيَتِهَا، وَتَسْمِيَةِ أَعْضَائِهَا وَأَبْعَاضِهَا - فَقَدْ قَالُوا: الْخَيْلُ مُؤَنَّثَةٌ، وَلَا وَاحِدَ لَهَا مِنْ جِنْسِهَا، وَجَمْعُهَا خِيُولٌ. وَيُقَالُ فِي صِفَاتِهَا: «أُذُنٌ مُؤَلَّلَةٌ» وَ«مُرْهَفَةٌ»، أَيُّ مُحَدَّدَةِ الطَّرَفِ. قَالَ عَدِيُّ بْنُ الرَّقَاعِ^(١): [مِنْ الْبَسِيطِ]

تَخُوضُ فِي فُرْجَاتِ النَّقْعِ دَامِيَةً كَأَنَّ أَذَانَهَا أَطْرَافُ أَقْلَامٍ^(٢)

و«حَشْرَةٌ»، صَغِيرَةٌ مُسْتَدِيرَةٌ، وَ«مَقْدُودَةٌ»، مُدَوَّرَةٌ، وَأُذُنٌ «غَضَنْفَرَةٌ»، أَيُّ غَلِيظَةٌ، وَ«زِبْعَرَةٌ» أَيُّ غَلِيظَةٌ شَعْرَاءَ، وَ«خَذَاوِيَّةٌ»، أَيُّ خَفِيفَةُ السَّمْعِ. قَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ^(٣):

لَهُ أُذُنَانِ خَذَاوِيَّتَانِ وَالْعَيْنُ تُبْصِرُ مَا فِي الظُّلُمِ

ثُمَّ «النَّاصِيَةُ»، وَهِيَ الشَّعْرُ السَّائِلُ عَلَى الْجَبْهَةِ، يُقَالُ: «وَارِدَةٌ» وَهِيَ الطَّوِيلَةُ. وَ«جَثْلَةٌ» وَهِيَ الْكَثِيرَةُ الْمَلْتَفَّةُ، وَ«الْفَاشِغَةُ» وَ«الْعَمَاءُ»، وَهِيَ الْكَثِيرَةُ الْمُنْتَشِرَةُ، وَ«السَّفَوَاءُ»، وَهِيَ الْقَلِيلَةُ، وَ«غُصْفُورُهَا»، أَصْلُ مَنْبِتِ شَعْرِهَا. وَ«قَوْنَسُهَا»: الْعَظْمُ النَّاتِيءُ بَيْنَ الْأُذُنَيْنِ.

(١) هُوَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الرَّقَاعِ الْعَامِلِيِّ - وَنَسَبُهُ النَّاسُ إِلَى «الرَّقَاعِ» وَهُوَ جَدُّ جَدِّهِ لَشَهْرَتِهِ، وَكَانَ شَاعِرًا مُقَدِّمًا عِنْدَ بَنِي أُمَيَّةٍ، خَاصًّا بِالْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ. . . وَقَدْ تَعَرَّضَ لَجَرِيرٍ وَنَاقَضَهُ فِي مَجْلِسِ الْوَلِيدِ. (الْأَغَانِي ٨: ١٧٢ - ١٧٧).

(٢) النَّقْعُ: الْمَاءُ الْمَجْتَمِعُ فِي الْغَدِيرِ؛ أَوْ هُوَ الْأَرْضُ الْحَرَّةُ الطِّينُ الْمُسْتَوِيَّةُ لَيْسَ فِيهَا حَزُونَةٌ.

(٣) هُوَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدِ بْنِ حَمَادِ بْنِ أَيُّوبَ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ وَكَانَ يَسْكُنُ بِالْحَيْرَةِ، وَيَدْخُلُ الْأَرْيَافَ مَثَلُ لِسَانِهِ، وَاحْتَمَلَ عَنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ جَدًّا. . . (الشَّعْرُ وَالشَّعْرَاءُ ص ٩٧).

وأما الوجه وما فيه مما لم يُذكر في خَلْق الإنسان - «الثَوَاهِقُ»، وهما عَظْمان شاحِصان في وجهه من الجَبْهَةِ إلى المَنَحْرَيْن، و«اللَّهْزِمَتَانِ»: ما أَجْتَمَعَ من اللحم في مُعْظَم الجَبِين، و«عَيْنٌ مُغْرَبَةٌ» أي بيضاء الحَمَالِقِ^(١) وما حَوْلَها. و«خَيْفَاءُ»، إذا كانت إحداهما سوداء والأخرى زرقاء، و«المُحْمَلِقَةُ»، التي حَوْلَ مُقْلَتَيْهَا بياضٌ لم يُخَالِفِ السَّوَادَ.

و«أَنْفٌ مُصَفَّحٌ» أي مُعْتَدِلُ القَصْبَةِ. و«السَّمُ»: ثَقْبُهُ، قال:

* وَمَنْخَرًا وَاسِعَةً سُمُوْمُهُ *

وقال مُزَاحِمُ بن طُفَيْل الغَنَوِي^(٢) وقيل: العباس بن مرداس السَّلَمِي^(٣):

مِلءُ الْجِرَامَيْنِ وَمِلءُ الْعَيْنِ يَنْفُسُ عِنْدَ الرَّبِّو مَنَحْرَيْنِ^(٤)

* كَنَفَشٍ كِيرَيْنِ بِكَفِّي قَيْنِ^(٥) *

و«الْجَحْفَلَةُ»: الشَّفَّةُ، و«الْفَيْدُ»: الشَّعْرُ النَّابِتُ عليها. و«الشُّدْقَانِ»: مَسَقُ الفَمِ

إلى حَدِّ اللِّجَامِ.

وأما العُنُقُ وما فيه - «الْمَعْرِفَةُ»: موضع العُرْفِ. و«العُرْفُ»: شعر أعلى العُنُقِ. و«العُذْرَةُ»: ما على المَنَسَجِ يَقْبِضُ عليه الفارسُ إذا ركب، و«العُرْشَانِ»: اللحمان من جانبي العُرْفِ، و«الجِرَانُ»: جِلْدُ أسفلِ العنق. و«الدَّسِيعُ»: مُرْكَبُ العُنُقِ في الكاهل. قال سَلَامَةُ بن جَنْدَل^(٦):

يَرْقَى الدَّسِيعُ إِلَى هَادٍ لَهُ بَتِيعٌ فِي جَوْجُو كَمْدَاكِ الطَّيْبِ مَخْضُوبِ^(٧)

و«اللَّبَانُ»: ما جرى عليه اللَّبَبُ. ويقال: «عُنُقُ قَوْذَاءٍ» أي طويلة. و«سَطْعَاءُ»، أي طويلة منتصبَة غليظة. و«تَلْعَاءُ»: منتصبَة غليظة الأصل مَجْدُولَة الأعلى. و«دَنَاءُ» أي

(١) حملاق الصين، وحملقها، وحملوقها: ما يسوده الكحل في باطن أجفانها. جمع حمالق.

(٢) هو مزاحم بن طفيل بن كعب الغنوي كان والده من أوصف الناس للخيل وكان يقال له في الجاهلية المحبر لحسن شعره.

(٣) هو العباس بن مرداس السلمي، وكان يهاجي خفاف ابن نذبة السلمي ثم تمادى الأمر بينهما إلى أن احتربا وكثرت القتلى بينهما، وقد أسلم العباس قبل فتح مكة، وحضر مع النبي ﷺ يوم الفتح... (طبقات الشعراء ص ٣٨٤).

(٤) الربو: البهر وانتفاخ الجوف.

(٥) القين: الحداد.

(٦) هو من بني عامر بن عبيد بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم جاهلي قديم وهو من فرسان تميم المعدودين... (الشعر والشعراء ص ١٢٢).

(٧) البتيع: شدة العنق وإشرافها - والجوجو: الصدر - والمداك: حجر يسحق عليه الطيب.

مطمئنة من أصلها. و«هنعاء»: مطمئنة من وسطها، و«وقصاء»: قصيرة، و«مرهقة»: رقيقة.

وأما الظهر وما اتصل به من الوركين - فمنه: «المثنان» وهما لحمان يكتنِفان الظهر من مُركَّب العُنُق إلى عُلُو: ظهر الذئب. و«الحارك»: عَظْمٌ مشرفٌ من بين فُرْعِي الكَتِفَيْن. و«الْقُرْدُودَةُ»: حَدُّ الْفَقَارِ. و«الْفَقَار»: المنتظمة في الصُّلْب. و«الصَّهْوَةُ»: مَقْعَدُ الْفَارَسِ. و«الْقَطَاة»: مَقْعَدُ الرِّذْفِ خَلْفَهُ. و«الْمَعْدَانِ»: موضع السَّرَجِ من جَنْبَيْهِ. قال شاعر^(١):

فإِذَا زَالَ سَرَجِي عَنْ مَعْدٍ وَأَجْدِرَ بِالْحَوَادِثِ أَنْ تَكُونَا

و«الصُّرْدُ»: بياضٌ على الظهر. و«الْغَرَابَانِ»: مُلْتَقَى أَعَالِي الْوَرَكَيْنِ فِي نَاحِيَةِ الصُّلْبِ. و«الصِّلَوَانِ»: مَا أَسْهَلَ مِنْ جَانِبِي الْوَرَكَيْنِ. و«العَجَبُ»: مَا أَرْتَفَعَ مِنْ أَصْلِ الذَّئْبِ. و«الْعُلُوَّةُ»: أَصْلُهُ، و«العَسِيبُ»: عَظْمُ الذَّئْبِ. وَالْأَعْوَجُ الْعَسِيبُ: «أَعَزَلُ».

وأما الصدر وما اتصل به من البطن - فمنه: «الْكَلْكَلُ»: مَا مَسَّ الْأَرْضَ مِنْ فَهْدَتَيْهِ. و«الْفَهْدَتَانِ»: اللَّحْمَتَانِ النَّاتَتَانِ فِي الصَّدْرِ، و«الْمَخْزِمُ»: مَا شُدَّ عَلَيْهِ الْحِزَامُ، و«الناحِرَانِ»: عِزْقَانِ يُودَجُ^(٢) مِنْهُمَا.

وأما الذراعان وما دونهما - «الْمِرْقَقَانِ»: مَا خَيْرُ رُؤُوسِ الذَّرَاعِ. و«الْخَصِيلَةُ»: لَحْمَةُ الذَّرَاعِ مَعَ الْعَصَبِ. و«الصَّافِنُ»: عِزْقُ الذَّرَاعِ، و«الْحِبَالُ»: عَصَبُهَا. و«الرَّقْمَتَانِ»: لَحْمَتَانِ فِي بَاطِنِهَا لَا تُنْبِتَانِ شُغْرًا، و«الرُّكْبَةُ»: مُوَصِّلُ مَا بَيْنَ الذَّرَاعِ وَالْوُظِيفِ. و«الْوُظِيفَانِ»: الْعِظْمَانِ تَحْتَ الرِّكْبَتَيْنِ وَالْعُرْقُوبَيْنِ، و«الرَّضْفَتَانِ»: عِظْمَانِ مُسْتَدِيرَانِ عَلَى الرُّكْبَةِ، و«السُّنْبُكُ»: ظَرْفُ مُقَدِّمِ الْحَافِرِ. و«النَّسْرُ»: مَا يَنْتَظِيرُ مِنْ أَسْفَلِهِ كَالثَّوَى. و«الْمَنْقَلُ»: مُجْتَمَعُ الْحَافِرِ مِنْ بَاطِنِهِ، و«أَلْيَةُ الْحَافِرِ»: مُؤَخَّرُهُ. وَيَقَاتِلُ: حَافِرٌ أَرَحٌ: مُنْبَطِحُ السَّنَابِكِ. و«فَرَشَاخُ» أَي مُنْبَطِحٌ. و«وَأَبُ»^(٣)، مُقْعَبٌ. و«مَضْرُورٌ»: مَضْمُومٌ صَغِيرٌ، و«مُكْنَبٌ» أَي كَثِيفٌ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

وأما ألوانها وشيئاتها وُغُرُّها وَحُجُولُها وَعُصْمُها وما فيها من الدوائر - من ألوانها: «الْبَهِيمُ وَالْمُضْمَتُ»: كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَاحِدٍ لَا شَيْءَ فِيهِ، إِلَّا الْأَشْهَبُ فَإِنَّهُ لَا يَقَالُ لَهُ بَهِيمٌ. يَقَالُ: فَرَسٌ مُضْمَتٌ، وَالْأُنْثَى مُضْمَتَةٌ، وَالْجَمْعُ مَصَامِتٌ. وَكَذَلِكَ يَقَالُ فِي

(١) هو عمرو بن أحمر بن فرائص بن معن بن أعصر وكان أعور وماه رجل يقال له مخشي بسهم فذهب عينه. (الشعر والشعراء ص ١٦٨).

(٢) يقال: ودج الذبيحة أي قطع ودجها.

(٣) الواب: انضمام السنايك.

قوائم الفرس إذا لم يكن بهنّ تحجيل. قال أبو حاتم^(١):

* مُبَهَمَةٌ مُضْمَنَةُ الْقَوَائِمِ *

ومن ألوان الخيل: «الدَّهْمُ»، وهي سته: «أدهم غيّه» وهو أشدها سواداً، والأنثى غيّهة. والغنيّه: الظلمة، والجمع غياهب. وكذلك «الغريب»، و«الحالك»، و«أدهم دجوجي»: صافي السّواد؛ وقيل: هو مأخوذ من الدُّجّة، وهي شدة السّواد والظلمة. و«أدهم يخموم وأدهم أحم»، وهو الذي أشرّبت سرائه^(٢) وحجّزته حمرة. قال أبو تمام^(٣):

أو أدهم فيه كمتة أمم كأنه قطعة من العّلس^(٤)

ثم «أدهم أكهب»، وهو إلى الكدرة.

ثم «أحوى» والجمع حو؛ وهو أهون سواداً من الجّون، ومناخره مخرمة، وشاكيلته مصفرة. والأحوى أربعة ألوان: «أحوى أحم»، وهو المشاكيل للدهمة والخضرة؛ ولا فرق بينه وبين الأخضر الأحمر إلا بأحمرار مناخره وأصفرار شاكيلته. و«أحوى أصبغ» وهو الذي تقلّ حمرة مناخره فتصير إلى السّواد ويكون البياض فيه غالباً على أطراف المنخرين. و«أحوى أطحل»، وهو الذي تعتريه صفرة وخضرة مخالطتان لكدرية، و«أحوى أكهب»، والكهب: قلّة ماء اللّون وكدرته في موضع المنخرين في حمريتهما وفي سواد السّراة في بياض الأقارب.

ومنها الخضّر - وهي أربعة: «أخضر أحم»، وهو أدناها إلى الدهمة، قال

الشاعر:

* خَضْرَاءُ حَمَاءُ كَلَوْنَ الْعَوْهَقِ^(٥) *

وهو اللازورد^(٦). و«أخضر أدغم» وهو الأخطب لون وجهه وأذنيه ومناخره،

(١) هو أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد الجشمي السجستاني النحوي اللغوي المقرئ، نزيل البصرة وعالمها، كان إماماً في علوم الأداب، وعنه أخذ علماء عصره كابي بكر محمد بن دريد والمبرد وغيرهما. (وفيات الأعيان ٢: ٤٣٠).

(٢) سرة الفرس: أعلى متنه.

(٣) هو حبيب بن أوس.

(٤) العّلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

(٥) العوهق: لون الرماد. والعوهق: شجر، وقيل: العوهق من شجر النبع الذي تتخذ منه القسي أجوده. (اللسان مادة عهق).

(٦) اللازورد: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سماوي أو بنفسجي، يكثر في أفغانستان، وأمريكا، يستعمل للزينة.

وهذا اللون يُسمى بالفارسيّة «دِيزْجَا»، و«أخضر أطلّ» وهو الذي تعلو خُضرته صُفرة، و«أخضر أوزق»، وهو الذي كلون الرّماد.

ومنها الكُميت - والجمع كُمّت، والذكر والأنثى فيه كُميت، وهي تسعة، قالوا: وكُميت من الأسماء المصغرة المرخمة التي لا تكبير لها، من أكمّت بمنزلة حُميد من أحمد، غير أن أكمّت لم يستعمل. والكُميت بين الأحوى والأصدا، وهو أقرب من الشقر والوراد إلى السواد وأشدّ منها حمرة، والفرق ما بين الكُميت والأشقر بالعرف والذنب، فإن كانا أحمرين فهو أشقر، وإن كانا أسودين فهو كُميت، والوزد بينهما. والكُميت أحبّ الألوان إلى العرب. ومن ألوانه: «كُميت أحمر» وهو الذي يُشاكل الأحوى، غير أنه تفصل بينهما حمرة أقربائه ومراقه ومُرِطائيه، والمُرِطاء: الجلدّة التي بين العانة والسرّة، والأقارب: من الشاكلة التي هي الخاصرة إلى مَرَق^(١) البطن، واحدها: قُرَب وقُرْب. قال الأصمعي: أشدّ الخيل جلوداً وحوافر الكُمّت الحُم. و«كُميت أضخم»، وهو الأسود الذي يضرب إلى الصُفرة. و«كُميت أطخم»، والطُخمة: سواد في مُقدّم الأنف. و«كُميت مدّمي»، وهو الشديد الحمرة وكلّما انحدر إلى مَرَق البطن يزداد صفاء. و«كُميت أحمر» وهو أشدّ حمرة من المدّمي، وهو أحسن الكُمّت. و«كُميت مُذهّب»، وهو الذي تعلو حمرة صُفرة. و«كُميت مُخلف»، وهو أدنى الكُمّت إلى الشقرة وطاهر شعر ذنبه وعُرفه كلون جسده وباطنه أسود، والأنثى مُحلّقة. وأنشدوا^(٢):

كُميت غير مُخلّقة ولكن كلون الصُرف غلّ به الأديم^(٣)

قال أبو خيرة: المُخلّف بين الأصهب والأحمر، وهو من الإبل الأصخر. و«كُميت أكلف» وهو الذي لم تصف حُمته ويَرى في أطراف شعره سواد. و«كُميت أصداً» وهو الذي فيه صُداة أي كُدرة بصفرة قليلة، شُبّهت بلون صدأ الحديد.

ومنها الوراد - وهي جمع وزد وهي ثلاثة - والوزد هو الذي تغلّوه حمرة إلى الشقرة الخلوقيّة^(٤) وجلده وأصول شعره سود. وقيل: الوزدة: حمرة تضرب إلى الصُفرة. وتحقيقه أنه بين الكُميت الأحمر وبين الأشقر - منها: «وزد خالص»، و«وزد مُصامص» وهو الخالص أيضاً، والأنثى مُصامصة. و«وزد أغبس» تدعوه العجم «السّمند» وهو الذي لونه كلون الرّماد.

(١) مرق البطن: مرق منه ولا في أسافله ونحوها.

(٢) هذا البيت لابن كلبة اليربوعي بن عبد مناف وكلبة أمه. (اللسان مادة حلف).

(٣) المحلفة: الخالصة اللون لا يحلف عليها أنها ليست كذلك. (اللسان مادة حلف).

(٤) الخلو: ضرب من الطيب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب. والخلوقة نسبة إليه.

ومنها الشقر - وهي تسعة - والأشقر: أشد حُمرة من الورد - يقال: «أشقر أدبس» وهو الذي لونه بين السواد والحمرة. و«أشقر خلوقي»، و«أشقر أضيح»، وهو قريب من الأصهب. والصُّهبة: الشقرة في شعر الرأس. و«أشقر سلغذ» وهو الذي خلصت شقرته، والأنثى سلغدة، والجمع سلغذات، قال شاعر:

أشقر سلغذ وأخوى أدعج أصك أظمى وحيفس أفلج^(١)

و«أشقر قرف» والأنثى قرفة، والجمع قروف وقراف وأقراف وهو كالسلغذ. و«أشقر مذمي»، وهو الشديد الحمرة. و«أشقر أفهب». والقُهبه غبرة إلى سواد. وقال ابن الأعرابي^(٢): الأفهب: الذي فيه حُمرة فيها غبرة. و«أشقر أمغر»، وهو الذي تعلو شقرته مُغرة، أي كدرة، و«أشقر أفصح»: بين الفُضحة، وهي البياض ليس بالشديد.

ومنها الصُفر - وهي أربعة: «أصفر فاقع». و«أصفر أعفر» وهو بياض تعلوه حمرة. و«أصفر ناصع». و«أصفر ذهبي» وهو الذي يضرب إلى البياض، وهو السوسني^(٣).

ومنها الشهب - وهي خمسة. والأشهب: كل فرس تكون شقرته على لونين ثم تفرق شعراته فلا تجمع واحداً من اللونين شعرات تخلص بلون كقدر النكتة^(٤) فما فوقها. وقيل: الأشهب الأبيض الشقرة ليس بالبياض الصافي القِرطاسي وجلده أسود يقال له «أشهب أبيض»، والشُّهبة في الألوان: البياض الذي يغلب على السواد. ويقال للأشهب أيضاً: أضحى، والأنثى ضحياء. وأسماء ألوانه: «أشهب ناصع»، و«أشهب أحمر» وهو أسود تنفذ شعرات بيض. و«أشهب زُرُوري»، وهو الذي اعتدل فيه السواد والبياض. و«أشهب مُفلّس» وهو الذي خالط بياضه سواداً أو حُمرة. و«أشهب سامري»، وهو الذي شهبته بسواد أوزق.

ومنها الجُون - وهو اختلاط بياض بحُمرة الأشقر أو الكُميت.

ومنها الصَّنَابِي - وهو دُهمَة فيها شُهبة، أو كُمته فيها شُهبة أقل من بياض الأشهب. نُسب إلى الصَّناب وهو الخَزْدَل بالزبيب.

(١) الأظمى: الذي ليس به رهل - والحيفس: القصير الغليظ.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي الكوفي صاحب اللغة، وهو من موالى بني هاشم. . . وكان أبوه زياد عبداً سندياً، وقيل إنه من موالى بني شيان. . . وكان أحول، راوية لأشعار القبائل ناسباً. (وفيات الأعيان ٤: ٣٠٦).

(٣) السوسني: نسبة إلى السوسن، وهو نبات طيب الرائحة وأجnasه كثيرة وأطيهه الأبيض.

(٤) النكتة: النقطة في الشيء تخالف لونه.

ومنها الأغبر - وهو أشقر شملت شقرته شهبه.

ومنها الأبرش - وهو الذي فيه لمع بياض كالرُّقْط^(١)، وقيل: وهو الذي يكون في شعره نكت صغار تُخالف سائر لونه، وإنما يكون ذلك في الدُّهْم والشُّقْر خاصة، وربما أصابها ذلك من شدة العطش. فإذا عظمَت النكت فهو «مُدْتَر». وإذا كان في جسده بقع متفرقة مخالفة لونه فهو «مُلْمَع» و«أَبْقَع»، و«أَشِيم». وقيل: الأَشِيم: أن تكون فيه شامة بيضاء؛ وقيل: قد تكون الشامة غير بيضاء. وإذا كان في الشامة استطالة فهو «مُولَع»، وقال ابن بنين^(٢): إذا كان في الدابة عدة ألوان من غير بَلَقٍ فذلك التوليع، يقال: بِرْدُونٌ مُولَعٌ، وإذا كانت الشامة في مؤخره أو شيقه الأيمن كُرِهَتْ.

ومنها العرسي - وهو الذي يشبه لونَ ابنِ عرس.

ومنها الأنمر - وهو الذي يكون فيه بقعة بيضاء وبقعة أخرى من أي لون كان.

ومنها الأبلق - وهو ما يكون نصف لونه أو ما قارب النصف أبيض، والنصف الآخر أسود أو أحمر.

ومنها الأغشى (بالغين المعجمة) - وهو ما أبيض رأسه دون جسده مثل الأرخم^(٣).

ومنها الأبيض - وهو الذي أبيض شعره بياضاً مثل بياض الأوضح أشد ما يكون من البياض وأصفاه لا يخالطه شيء من الألوان فيقال: فيه: أبيض قرطاسي. وربما كان أزرق العين أو أسود أو أكحل. ويدعى بما في عينيه من زُرقة وسَوَادٍ وَكَحَلٍ؛ ولا يكون أكحل حتى تسود أشفار عينيه وجفونه.

قال الشيخ^(٤) رحمه الله تعالى في كتابه «فضل الخيل»: «والوان الخيل أدهم، وأخضر، وأخوي، وكُميت، وأشقر، وأصفر، وأشهب، وأبرش، ومُلْمَع، ومُولَع، وأشيم». هذا قول أبي عبيدة^(٥). وقال الأبيوزدي^(٦) في رسالته: الدُّهْمَةُ، ثم الحُوَّةُ،

(١) الرقطة: جمع أرقط، والرقطة: سواد يشوبه نقط بياض أو بياض يشوبه نقط سواد.

(٢) هو سليمان بن بنين بن خلف النحوي المصري. كانت وفاته سنة ٦١٤ هـ.

(٣) الأرخم: الذي أبيض رأسه واسود سائر.

(٤) هو الحافظ الدميطي.

(٥) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى، التيمي بالولاء، تيم قريش، البصري النحوي العلامة... (وفيات الأعيان ٥: ٢٣٥).

(٦) هو أبو المظفر بن أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي العباس أحمد بن إسحاق بن أبي العباس الإمام محمد بن إسحاق... قرشي أموي، نسابة شاعر ظريف... كان من أخير الناس بعلم الأنساب، نقل عنه الحفاظ الأثبات الثبات... (وفيات الأعيان ٤: ٤٤٤).

ثم الصُّدَاةُ، ثم الحُضْرَةُ، ثم الكُمْتَةُ، ثم الوُزْدَةُ، ثم الشُّقْرَةُ، ثم الصُّفْرَةُ، ثم العُفْرَةُ، ثم الشُّهْبَةُ. هذا ما وقفنا عليه من ألوانها. والله أعلم.

وأما الشَّيَّةُ وجمعها شَيَات - فقالوا: كلُّ لَوْنٍ يُخَالِفُ مُعْظَمَ لَوْنِ الْفَرَسِ فهو «شَيَّةٌ». فإذا لم يكن فيه شَيَّةٌ فهو «أَصَمٌ»، و«بَهِيمٌ» من أيِّ الألوان كان، والأنثى أيضاً بهيم. وكذلك فرسٌ «مُضْمَتٌ» بمنزلة البهيم من أيِّ لون كان، والأنثى مُضْمَتَةٌ، والجمع مَصَامِثُ. وقد تقدّم ذكر ذلك. فلنذكر الشَّيَات.

من الشَّيَّةِ -: العُرَّةُ، والقُرْحَةُ، والرُّنْمَةُ، والتَّحْجِيلُ، والسَّعْفُ، والنَّبْطُ، والصَّبْغُ، والشَّعْلُ، واللَّمْظُ، واليعسوبُ، والتعميمُ، والبلقُ.

فالعُرَّةُ -: البياضُ في الوجه؛ وهي أنواع: لَطِيمٌ، وشادخةٌ، وسائلةٌ، وشِمْرَاخٌ، ومُتَقَطَّعةٌ، وشُهْبَاءُ.

فـ «الْأَلْطِيمُ»: الذي يُصِيبُ الْبَيَاضُ عَيْنِيهِ أَوْ إِحْدَاهُمَا أَوْ خَدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا، وَالْأُنْثَى أَيْضاً لَطِيمٌ. فإذا فَشَتْ فِي الْوَجْهِ وَلَمْ تُصَبِّ الْعَيْنَ فَهِيَ «شَادِخَةٌ». فإذا أَعْتَدَلَتْ عَلَى قَصْبَةِ الْأَنْفِ وَإِنْ عَرُضَتْ فِي الْجَنْبَةِ فَهِيَ «سَائِلَةٌ». وإذا دَقَّتْ وَسَالَتْ فِي الْجَبْهَةِ وَعَلَى قَصْبَةِ الْأَنْفِ وَلَمْ تَبْلُغِ الْجَحْفَلَةَ فَهِيَ «شِمْرَاخٌ»، وكلُّ بَيَاضٍ فِي جَبْهَةِ الْفَرَسِ فَشَا أَوْ قَلَّ يَنْحَدِرُ حَتَّى يَبْلُغَ الْمَرْسِينَ^(١) ثُمَّ يَنْقَطِعُ فَهِيَ غُرَّةٌ «مُتَقَطَّعَةٌ»، وإذا كَانَ الْبَيَاضُ فِي مَنْخَرِيهِ ثُمَّ ارْتَفَعَ مُصْعِداً حَتَّى يَبْلُغَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ يَبْلُغِ جَبْهَتَهُ فَهِيَ أَيْضاً غُرَّةٌ مُتَقَطَّعَةٌ.

وإذا كَانَ فِي الْغُرَّةِ شَعْرٌ يَخَالِفُ الْبَيَاضَ فَهِيَ غُرَّةٌ «شُهْبَاءُ». وقال أَبْنُ قَتَيْبَةَ^(٢): «إِنْ سَالَتْ غُرَّتُهُ وَدَقَّتْ فَلَمْ تُجَاوِزِ الْعَيْنَيْنِ فَهِيَ «الْمُعْصُفُورُ»، وَإِنْ أَخَذَتْ جَمِيعَ وَجْهِهِ غَيْرَ أَنَّهُ يَنْظُرُ فِي سَوَادٍ فَهِيَ «الْمَبْرِقَّةُ»، فَإِنْ فَشَتْ حَتَّى تَأْخُذَ الْعَيْنَيْنِ فَتَبْيِضَ أَشْفَارُهُمَا فَهُوَ «مُغْرَبٌ». فَإِنْ كَانَتْ إِحْدَى عَيْنَيْهِ زَرْقَاءَ وَالْأُخْرَى كَحْلَاءَ فَهُوَ «أَخِيفٌ».

وأما الْقُرْحَةُ - وهي دُونُ الْغُرَّةِ؛ فَقَالَ أَبْنُ قَتَيْبَةَ: الْغُرَّةُ: مَا فَوْقَ الدَّرْهِمِ، وَالْقُرْحَةُ: قَدْرُ الدَّرْهِمِ فَمَا دُونَهُ. قالوا: وَالْقُرْحُ: كُلُّ بَيَاضٍ كَانَ فِي جَبْهَةِ الْفَرَسِ ثُمَّ انْقَطَعَ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الْمَرْسِينَ. وَتُنَسَّبُ الْقُرْحَةُ إِلَى خِلْقَتِهَا فِي الْإِسْتِدَارَةِ وَالتَّثْلِيثِ وَالتَّرْبِيعِ وَالْإِسْطَالَةِ وَالْقَلَّةِ؛ فَإِذَا قَلَّتْ قِيلَ: «خَفِيَّةٌ». وإذا كَانَ فِي الْقُرْحَةِ شَعْرٌ يَخَالِفُ الْبَيَاضَ فَهِيَ «قُرْحَةٌ شُهْبَاءُ».

(١) المرسن: موضع الرسن من أنف الفرس.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل المروزي، النحوي، اللغوي صاحب كتاب «أدب الكاتب» و«المعارف»: كان ثقة فاضلاً، سكن بغداد، وحدث بها عن إسحاق بن راهويه وغيره... (وفيات الأعيان ٣: ٤٢).

وأما الرُثْمَة (بالثاء المثلثة) - فكلُّ بياض أصاب الجَحْفَلَة ^(١) الغُلْيَا قَلَّ أو كَثُرَ فهو «رَثَمٌ» إلى أن يبلغَ المَرَسِينَ، وتُنْسَبُ الرُثْمَة إذا هي فَشَتْ إلى الشُدُوخ. وإذا لم تُجَاوِزِ المَنَحْرِينَ نُسِبَتْ إلى الاعتدال. وإذا قَلَّتْ واشتَدَّ بياضُها نُسِبَتْ إلى الاستنارة. وإذا لم يظهر بياضُها للنَّاظر حتى يدنو نُسِبَتْ إلى الخِفْيَة.

واللُّمْظَة - كلُّ بياض أصاب الجَحْفَلَة السُّفْلَى قَلَّ أو كَثُرَ فهو «لَمْظٌ» والفرس المظ.

واليعسوب -: كلُّ بياض يكون على قَصَبَة الأنف قَلَّ أو كَثُرَ ما لم يبلغَ العينين. وإذا شاب الناصية بياضٌ فهو «أَسْعَفُ». فإذا خَلَصَ البياضُ في الناصية فهو «أَصْبَغُ»، فإذا انحدر البياضُ إلى مَنَبِتِ الناصية فهو «المَعَمَّمُ». وإذا كان في عَرْضِ الذَّنْبِ بياضٌ فهو «أشعل». والعرب تكره شُغْلَة الذَّنْبِ. وإذا كان في قَمْعَة ^(٢) الذَّنْبِ، وهي طَرَفُه، بياضٌ فهو «أَصْبَغُ». وإذا أرتفع البياضُ حتى يبلغَ البطنَ فهو «أَنْبَطُ». وإذا ظهر البياضُ وزاد فهو «أَبْلَقُ». وقال ابنُ قُتَيْبَة وابنُ الأجدابي ^(٣): إذا كان الفرس أبيضَ الظَّهْرِ فهو «أَرْحَلُ»، وإن كان أبيضَ البطنِ فهو «أَنْبَطُ». وقال غيرهما: «الأدْرَعُ» من الخيل والشاء: الذي أسودَ رأسُه ولوْثَ سائرُه أبيضُ، والأنثى «دَرْعَاءُ»، من الدَّرْعَة ^(٤). و«الأَخْصَفُ» من الخيل والغنم: الأبيضُ الخاصرتين الذي أرتفعَ البَلَقُ من بطنه إلى جنبه، ولونه كلون الرَّمَادِ فيه سوادٌ وبياضٌ. وقيل: كلُّ ذي لَوْنَيْنِ مجتمعين فهو خَصِيفٌ وأخْصَفُ؛ وأكثر ذلك السوادُ والبياضُ. ويقال: فرسٌ «أَزْرُ» إذا كان أبيضُ العَجَزِ.

ومن الشَّيْءِ التحجِيلُ - وهو البياضُ في قوائم الفرس الأربع، أو في ثلاث منها، أو في رجله قَلَّ أو كَثُرَ إذا استدار حتى يُطِيفَ بها. وأصل الحُجْلَة من الحُجْل (بفتح الحاء وكسرهما) وهو القيْدُ والخلخالُ. قال ابنُ الأجدابي: فإن كانت قوائمه الأربعُ بيضاء لا يبلغُ البياضُ منها الرَكْبَتَيْنِ فهو «مُحَجَّلٌ»، وطَلِيقُ اليَدِ وطلوق اليَدِ (بفتح الطاء وإسكان اللام وبضمهما أيضاً): إذا كانت على لون البدن ولم يكن بها بياضٌ. فإذا أصاب البياضُ القوائم كلها فهو «مُحَجَّلُ أربع». وإن كان في ثلاث قوائم فهو «مُحَجَّلُ ثلاثٍ»، مُطْلَقُ يَدٍ أو رجلٍ يُمنَى أو يُسرى. وكلُّ قائمة بها بياضٌ فهي «مُمَسَّكَة». وكل قائمة ليس بها وضَحٌ فهي «مُطْلَقَة». فإن كان البياضُ في الرجلين جميعاً فهو «مُحَجَّلُ

(١) الجحفلة لذوات الحافر من الخيل والبغال والحمير، كالشفة للإنسان.

(٢) قمعة الذنب: طرفه.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن عبد الله المعروف بابن الأجدابي الطرابلسي.

(٤) الدرعة: هو سواد مقدم الفرس أو الشاة وبياض سائرهما.

الرجلين»، وإن كان في إحداهما فهو «الْأَزْجَلُ»؛ وقد ذكرناه.

ولا يكون التَّحْجِيلُ واقعاً بيد ما لم يكن معها رجلٌ أو رجلان، ولا بيدَين ما لم يكن معهما رجلٌ أو رجلان أو وَضَحَ بالوجه. فإن كان التحجيلُ في يد ورجل من شِقٍّ واحدٍ فهو مُمَسِّكُ الأيامن مُطْلَقُ الأياسر، أو مُمَسِّكُ الأياسر مُطْلَقُ الأيامن، ويقال: الأيمنين والأيسرين، وإن كان من خلافٍ قلَّ أو كثر فهو «مَشْكُولٌ»؛ وهو مكروه في الحديث. وقد تقدَّم ذكره.

ومنها الْعَصَمُ - وهو إذا كان البياض بإحدى يديه قلَّ أو كثر فهو «أَعْصَمُ» اليمنى أو اليسرى. وأسمُ الْعُصْمَةِ مأخوذة من الْمِغْصَم وهو مَوْضِعُ السَّوَارِ من الساعد. فإن كان البياضُ في يده اليسرى قيل: «مَنْكُوسٌ»؛ وهو مكروه. وإن كان البياضُ بيديه جميعاً فهو أَعْصَمُ اليدين، إلا أن يكون بوجهه وَضَحَ فهو «مُحْجَلٌ» ذهب عنه الْعَصَمُ. فإن كان بوجهه وَضَحَ وإحدى يديه بياضٌ فهو أَعْصَمُ، لا يُوقَعُ عليه وَضَحُ الوجه أَسَمُ التَّحْجِيلِ إذا كان البياضُ بيد واحدة.

وَوَضَحَ القوائم: الخاتم، والإنعال، والتَّخْدِيم، والصَّبْع، والتَّجِيب، والمُسْرُولُ والأَخْرَجُ، والتَّسْرِيعُ. فأقلُّ وَضَحِ القوائم «الخاتم» وهو شَعْرَاتُ بِيضٍ. فإذا جاوز ذلك حتى يكون البياضُ واضحاً فهو «إِنْعَالٌ» ما دام في مؤخَّرِ رُسْغِهِ مما يلي الحافر. فإذا جاوز الأرساعَ فهو «تَخْدِيمٌ». وإذا أَبْيَضَتِ الثُّنَّةُ^(١) كُلُّهَا ولم يَتَّصِلْ بياضُها ببياضِ التحجيل فهو «أَصْبَعٌ»، وإذا ارتفع البياضُ في القوائم إلى الجُجَبِ^(٢) فما فوق ذلك ما لم يَبْلُغِ الركبتين والعُرْقَوَيْنِ فهو «التَّجِيبُ»، فإذا بلغ التَّجِيبُ الركبتين والعُرْقَوَيْنِ فهو «مُسْرُولٌ» حتى يَخْرُجَ من الذراعين والساقين. فإذا خرج من الذراعين والساقين فهو «أَخْرَجٌ». وكلُّ بياضٍ في التحجيلٍ مستطيلٍ فهو «تَسْرِيعٌ»، والله أعلم.

وأما ما في الفرس من الدوائر - فمنها: «دَائِرَةُ المَحْيَا» وهي اللَّاصِقَةُ بِأَسْفَلِ النَّاصِيَةِ. و«دَائِرَةُ اللَّطْمَةِ» في وَسْطِ الجبهة، فإن كانت دائرتان في الجبهة قيل: فَرَسٌ نَطِيعٌ. و«دَائِرَةُ اللَّاهِزِ»: التي تكون في اللَّهْزِمَةِ^(٣). و«دَائِرَةُ الْعَمُودِ» وتُسَمَّى المَعْمُودُ أيضاً وهي في موضعِ القلادة. و«دَائِرَةُ السَّمَامَةِ» في وَسْطِ العنق. و«دَائِرَةُ النَّيْقَيْنِ» وهما اللَّتان في نَحْرِ الفرس. و«دَائِرَةُ النَّاجِرِ»^(٤): التي في الجِردان^(٥) إلى أسفل من

(١) الثُّنَّة: الشعرات التي في مؤخَّرِ رَسْغِ الدابة.

(٢) الجِيب واحدتها الجبة، وهي مغرزُ الوظيف في الحافر.

(٣) اللهزمة: عظم ناتئ في اللحي تحت الحنك.

(٤) الناجر: عرق في صدر الفرس.

(٥) الجردان: باطن العنق.

ذلك. و«دائرة القاليع»: التي تكون تحت اللبد. و«دائرة الهقعة» في الشقنين، وتُدعى النافذة أيضاً، وقيل: هي التي تكون في عُرْض زوره. و«دائرة النافذة» وهي دائرة الجزام. و«دائرتا الصقيرين» في الحَجَبَتَيْنِ والقُضْرَيْنِ - والحَجَبَةُ: رأس الورك. والقُضْرَى: الضِّلَع التي تلي الشاكلة - و«دائرة الحَرَب» تكون تحت الصقيرين. و«دائرة الناحس» تكون تحت الجَاعِرَتَيْنِ إلى الفَائِلَيْنِ. وهما عِرْقَانِ فِي الفَخِذِ. والجَاعِرَتَانِ: حَزَفَا الِوَرِكَيْنِ المُشْرِفَانِ عَلَى الفَخِذَيْنِ، وهما مَضْرِبُ الفرسِ بَذَنِبِهِ عَلَى فِخْذِهِ، وهما موضع الرِّقْمَتَيْنِ مِنْ أَسْتِ الحِمَارِ.

وكانت العرب تَسْتَحِبُّ مِنْ هَذِهِ الدَّوَابِّ: المَعْوَذَ، والسَّمَامَةَ، والهَقْعَةَ. وقيل: أَسْتَحَبُّوا الهَقْعَةَ ثُمَّ كَرِهُوهَا. يقال: إِنَّ المَهْقُوعَ لَا يَسْبِقُ أَبَداً. وكانوا يَكْرَهُونَ النَّطِيحَ وَاللَّاهِزَ، والقَالِيعَ، وقيل: الناحس أيضاً. وما سوى هذه الدواب غير مكروه.

وقال أَبْنُ قُتَيْبَةَ: «والدواب ثمانِي عشرة دَائِرَةٌ، تُكْرَهُ مِنْهَا «الهَقْعَةُ» وهي التي تكون فِي عُرْضِ زوره، ويقال: إِنَّ أَبْقَى الْخَيْلِ المَهْقُوعُ. و«دائرة القَالِيع» هي التي تكون تحت اللبد. و«دائرة الناحس» هي التي تكون تحت الجَاعِرَتَيْنِ إِلَى الفَائِلَيْنِ. و«دائرة اللَّطَاة»، فِي وَسْطِ الْجَبْهَةِ، وَلَيْسَتْ تُكْرَهُ إِذَا كَانَتْ وَاحِدَةً؛ فَإِذَا كَانَتْ هُنَاكَ دَائِرَتَانِ قَالُوا: فَرَسٌ نَطِيحٌ؛ وَذَلِكَ مَكْرُوهٌ. وما سوى هذه الدواب غير مكروهة».

ومن الدواب التي ذكرتها الهند في البركة والشؤم - قالوا: إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعٍ حَكَمَتُهُ^(١) دَائِرَةٌ أَوْ عَلَى جَحْفَلَتِهِ^(٢) الْعُلْيَا دَائِرَةٌ كَانَ مِمَّا يُرْتَبِطُ. وما كان منها ليس في وجهه ولا في صدره دارة^(٣) فمكروه أرتباطه. وما كان في صدره دارة إلى التربيع، أو كان في رأسه دَارَتَانِ، أو على خَاصِرَتِهِ أو على مَذْبَحِهِ دارة، أو في عُنُقِهِ أو على خَطْمِهِ^(٤) أو على أُذُنِهِ شَعْرٌ نَابِتٌ كَزَهْرَةِ النَّبَاتِ، كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يُرْتَبِطُ وَتُقْضَى عَلَيْهِ الْحَوَائِجُ، وَيَكُونُ صَاحِبُهُ مَظْفُوراً فِي الْحُرُوبِ وَلَا يَرَى فِي أُمُورِهِ إِلَّا خَيْراً.

وذكروا أيضاً: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْتَبِطَ مِنَ الدَّوَابِّ مَا كَانَ مِنْهَا فِي مُقَدِّمِ يَدِهِ دَائِرَةً، وَمَا كَانَ أَسْفَلَ مِنْ عَيْنَيْهِ دارة، أو فِي أَصْلِ أُذُنَيْهِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ دَارَتَانِ، أو عَلَى مَأْبِضِهِ^(٥) دارة، أو عَلَى مَخْجَرِهِ^(٦) دارة، أو فِي خَذِهِ أو فِي جَحْفَلَتِهِ السُّفْلَى أو عَلَى مَلْتَقَى لَحْيَيْهِ

(١) الحكمة: حكم اللجام: حديثه التي تكون في فم الفرس ويتصل بها العذاران.

(٢) الجحفلة: لدوات الحافر كالشفة للإنسان.

(٣) المراد بالدارة: الدائرة.

(٤) الخطم: الأنف أو مقدمه.

(٥) المأبض: باطن الركبة.

(٦) مخجر العين: ما يبدو من النقاب.

دائرة، أو في بطنه شعر منتشر، أو على سُرته دائرة، أو كانت أسنانه طالعة على جحفلة، أو له ستان ناتئان بمنزلة أنياب الخنزير، أو في لسانه خُطَط سود لا خُضر، وما كان منها أذبس^(١) أو أبيض أو أصفر أو أشهب تعلوه حمرة وداخل جحافله ولَهواته^(٢) وخارج لَحْيِيه سواد. وما كان منها أدهم وداخل جحافله أبيض، أو في لهواته وداخل شِدْقَه نُقْط سود وجَحْفَلَتُه خارجها مُنْقَط كحب السمسم، أو على مِشْجِه دَارَتَان، أو على خُصْيِيه وَبَر أسود مخالف للونه، أو كان في جَبْهَيْه شَعْرَات مُخَالَفَةً للونه، أو ما كان منها حين يُنْتَج يرى خُصِيَاه ظاهرين - فهذه العلامات زعم حنّة الهندي أنه لا ينبغي لأحد أن يرتبط دابة بها شيء منها. وزعم أنه يُسْتَحَب أن يرتبط ما كان في صدره أربع نُقْط في أربعة مواضع، أو شعر ملتف عَرَضاً وطولاً، أو شعر ملتوٍ.

وأما ما قيل في طبائعها، وعاداتها، والمحمود من صفاتها، ومحاسنها، والعلامات الدالة على جودة الفرس ونجابهته

قالت العرب: والخيّل نوعان: عتيق وهو المسمى فرساً، وهجين وهو المسمى برذوناً، والفرق بينهما أن عظم البرذون أغلظ من عظم الفرس؛ وعظم الفرس أصلب وأثقل من عظم البرذون، والبرذون أحمل من الفرس، والفرس أسرع من البرذون؛ والعتيق بمنزلة الغزال، والبرذون بمنزلة الشاة.

وفي طبع الفرس: الزهو، والخيلاء، والعُجْب، والسرور بنفسه، والمحبة لصاحبه. وفي طبعه: أنه لا يشرب الماء إلا كِدراً؛ حتى إنه يرد الماء وهو صاف فيضرب بيده فيه حتى يَكْدُرُه ويعكّره. وربما ورد الماء الصافي وهو عطشان فيرى خياله فيه فيتحاماه ويأباه، وذلك لفزعه من الخيال الذي يراه في الماء. وهو يُوصف بحدة البصر. وفي طبعه: أنه متى وطئ أثر الذنب خدّرت قوائمه حتى لا يكاد يتحرك، ويخرج الدخان من جلده؛ وإذا وطئته الأنثى وهي حامل أزلقت^(٣). والأنثى من الخيل تحمّل سنة كاملة؛ هذا هو المعروف من عاداتها. وأخبرني بعض من أثق إلى قوله إنه كان يملك جِجراً^(٤) تحمّل ثلاثة عشر شهراً. وسمعت أن عند التتر جنساً من خيلها تحمّل الفرس منها تسعة أشهر وتَضَع. وقال لي الناقل: إن هذا أمر مشهور عندهم معروف مألوف لا ينكرونه ولا يتعجبون.

(١) اللبسة: حمرة مشربة سواداً.

(٢) اللهوات واحدها اللهاة، وهي لحماء معلقة على عكدة اللسان.

(٣) يقال: أزلقت الفرس: إذا أسقطت حملها لغير تمامه.

(٤) الحجر: الأنثى من الخيل.

فصل - والعلامات الجامعة لنجابة الفرس الدالة على جودته، ما ذكره أيوب ابن القرية^(١) وقد سأله الحجاج عن صفة الجواد من الخيل فقال: القصير الثلاث، الطويل الثلاث، الرّحَب الثلاث، الصافي الثلاث. فقال: صفهنّ؛ فقال: أمّا الثلاث الطّوال فالأُذن والعُنُق والذّرّاع. وأمّا الثلاث القصار فالظّهر والسّاق والعسيب^(٢). وأمّا الثلاث الرّحبة فالجبهة والمنخر والجوف. وأمّا الثلاث الصافية فالأديم والعينان والحافر. وقد جمع بعض الشعراء ذلك في بيت واحد فقال: [من المتقارب]

وقد أغتدي قبل ضوء الصّباح وورّد القَطَا في الغَطَاط الحثّاث^(٣)

بصافي الثلاث عريض الثلاث قصير الثلاث طويل الثلاث

وهذه الحكاية أيضاً نقلت عن صغصعة بن صوحان وقد سأله معاوية: أيّ الخيل أفضل؟ فقال: الطويل الثلاث، العريض الثلاث، القصير الثلاث، الصافي الثلاث. قال معاوية: فسّر لنا؛ قال: أما الطويل الثلاث فالأذن والعنق والجزام. وأما القصير الثلاث فالصلب والعسيب والقضيب. وأما العريض الثلاث فالجبهة والمنخر والورك. وأما الصافي الثلاث فالأديم والعين والحافر.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمر بن مَعْدِي كَرِب: كيف معرفتك بعَرَاب الخيل؟ قال: معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده؛ فأمر بأفراس فعرضت عليه؛ فقال: قدّموا إليها الماء في التراس^(٤)، فمن شرب ولم يكتف^(٥) فهو من العراب، وما نئي سُبُكّه فليس منها.

وقيل: أهدى عمرو بن العاص لمعاوية بن أبي سفيان ثلاثين فرساً من خيل مصر؛ فعرضت عليه وعنده غُثبة بن سفيان بن يزيد الحارثي؛ فقال له معاوية: كيف ترى هذه يا أبا سفيان؟ فإن عمراً قد أطنب في وصفها؛ فقال: أراها يا أمير المؤمنين كما وصف؛ وإنها لسامية العيون، لاحقة البطون؛ مُضْغِيَةُ الآذان، قَبَاءُ^(٦) الأسنان؛ ضِحَامُ الرُّكَبات، مُشْرِفات الحَجَبات؛ رِحَابُ المناخر، صِلَابُ الحوافر؛ وضعها تحليل، ورفعها تقليل؛ فهي إن طُلِبَتْ سَبَقَتْ، وإن طُلِبَتْ لَحِقَتْ. فقال معاوية:

(١) هو أيوب بن زيد بن قيس والقرية أمه، وكان خطيباً، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي لانهامه بالميل لابن الأشعث.

(٢) العسيب: عسيب الذنب: عظمه، أو منبت الشعر منه.

(٣) الغطاط: واحدتها غطاطة، وهي ضرب من القطا.

(٤) التراس: جمع ترس، وهو معروف.

(٥) يقال: كتفت الخيل: إذا ارتفعت فروع أكتافها.

(٦) يقال: قبت نابه: إذا صوتت وقعقت.

أضربها إلى دارك، فإن بنا عنها غنى، ويفتيانك إليها حاجة.

وقال أبو عبيدة: يُستدلّ على عتق الفرس برقة جحافله وأزنبته، وسعة منخرنيه، وعُزّي نواهقه، ودقة حَقْوِه وما ظهر من أعالي أذنيه، ورقة سالفتيه وأديمه، ولين شعره؛ وأبين من ذلك كله لِينُ شَكِير^(١) ناصيته وعُزْفه.

وكانوا يقولون: إذا اشتدّ نَفْسُه، ورَحِبَ مُتَنَفِّسُه، وطال عنقه، وأشدّ حَقْوُه، وأنْهَرَتْ^(٢) شِدْقُه، وعَظُمَتْ فَخْذَاهُ، وأنشَجَتْ^(٣) أنساؤه^(٤)، وعَظُمَتْ فصوصُه، وصَلَبَتْ حوافره ووقحت^(٥)، لحق بجياد الخيل، والله أعلم.

ومما يستحب من أوصافها في الخلق - الأذن المؤلّلة، والناصية المعتدلة التي ليست بسفواء ولا غمّاء، والجبهة الواسعة، والعين الطامحة السامية، والخذ الأسيل، ورُحْب المَنُخَرين، وهَرَّت الشَّدقين - قال الشاعر^(٦):

هَرِيتُ قَصِيرَ عِذَارِ اللَّجَامِ أَسِيلٌ طَوِيلُ عِذَارِ الرَّسَنِ^(٧)

قوله: «قصير عذار اللجام»: لم يُرد به قَصَر خذّه، وإنما أراد طولَ شَقِّ الفمِّ. ويدلُّ على ذلك قوله في البيت:

* أَسِيلٌ طَوِيلُ عِذَارِ الرَّسَنِ *

يريد طولَ خذّه - وَقَوْدَ العنق (لينيها حتى لا تكون جاسئة)^(٨)، ورقة الجَحْفَلَتَيْنِ، وارتفاع الكَتِفَيْنِ والحارك والكاהל.

قالوا: ويستحب أن يشتدّ مُرْكَبُ عنقه في كاهله لأنه يتساند إليه إذا أخْضَرَ^(٩) وعِرَضُ الصدر، وضيق الزُّور، وارتفاع اللسان، وأن يشتدّ حَقْوُه لأنه مُعَلَّقٌ وَرَكْنِيه ورجليه في صُلْبِه، وعِظْمُ جوفه وجنبه، وأنطواء كَشْحِه، وإشراف القَطَاة، وقصر العَيسِب، وطول الذنب، وشَجَّ النَّسَا، وأستواء الكَفَل حتى لا يكون أقرن، وملاسة

(١) الشكير: ما أطاف بالناصية من قصير الشعر، وهو ما يستدل به على العنق.

(٢) انهرت: وسعت.

(٣) انشجعت: تقلصت.

(٤) الأنساء: جمع نسء، وهو اللبن الرقيق الكثير الماء.

(٥) وقحت: صلبت.

(٦) هو تميم بن أبي بن مقبل، أحد شعراء الجاهلية، مخضرم.

(٧) الهرث: الواسع الشدقين الطويل شق الفم.

(٨) الجاسئة: الصلبة الخشنة.

(٩) أخضر الفرس: أي وثب في عدوه.

الكفل، وقصر الساقين، وطول الفخذين، وتوتير الرجلين حتى لا يكون أقسط، وتأنيف^(١) العرقوبين حتى لا يكون أقمع، وغلظ الرُئُغ، وأن تكون الحوافر صلاباً سوداً أو خضراً.

وحكي أن هارون الرشيد ركب في سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلبة، قال الأصمعي: فدخلت الميدان لشهودها، فجاء فرس أدهم لهارون الرشيد سابقاً يقال له «الزبد»؛ فُسِّر به الرشيد وأبتهج وقال: علي بالأصمعي، فتوديت من كل جانب، فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه، فقال: يا أصمعي، خذ بناصية «الزبد» ثم صِفْه من قُوْنِسِه إلى سُنْبِكِه، فإنه يقال: إن فيه عشرين أسماً من أسماء الطير؛ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، وأنشدك شعراً جامعاً لها من قول أبي حَزْرَةَ^(٢)؛ قال: فأنشدنا الله أبوك؛ فأنشدته:

وأقْبَ كَالسُّرْحَانِ تَمَّ لَهُ مَا بَيْنَ هَامَتِهِ إِلَى التَّنَسْرِ^(٣)
الهامة: أعلى الرأس. والتسر: ما أرتفع من بطن الحافر من أعلاه. وهما من أسماء الطير.

رَحُبَتْ نَعَامَتُهُ وَوُقِرَ فَرْخُهُ وَتَمَكَّنَ الصُّرْدَانُ فِي النَّحْرِ^(٤)
النعام: جلدة الرأس التي تُعْطِي الدِّمَاغَ. والفرخ: الدماغ، والصُّرْدَانُ: عِرْقَانِ فِي أَصْلِ اللِّسَانِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُمَا عِرْقَانِ يَكْتَفِنَانِ بَاطِنَ اللِّسَانِ. وَفِي الظَّهْرِ أَيْضاً صُرْدٌ يَكُونُ فِي مَوْضِعِ السَّرَجِ مِنْ أَثَرِ الدَّبَرِ. وَالنَّعَامَةُ وَالْفَرْخُ وَالصُّرْدَانُ مِنْ أَسْمَاءِ الطَّيْرِ:
وَأَنَافُ بِالْعَصْفُورِ فِي سَعَفٍ هَامِ أَشْمَ مَوْثِقِ الْجِذْرِ^(٥)
العصفور: أَصْلُ مَنْبِتِ شَعْرِ النَّاصِيَةِ، وَهُوَ أَيْضاً عَظْمٌ نَاتِيءٌ فِي كُلِّ جَبِينٍ، وَهُوَ أَيْضاً مِنَ الْغُرَرِ. وَالسَّعَفُ: يُقَالُ: فَرَسٌ أَسْعَفٌ إِذَا سَالَتْ نَاصِيَتُهُ. وَهَامُ أَيُّ سَائِلٍ. وَالشَّمَمُ: ارْتِفَاعُ قَصْبَةِ الْأَنْفِ. وَمَوْثِقُ الْجِذْرِ أَيُّ شَدِيدٍ. وَالْجِذْرُ: الْأَصْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وَأَزْدَانُ بِالذِّكَيْنِ صَلَّصْلُهُ وَنَبَتْ دَجَاجَتُهُ عَنِ الصَّدْرِ
الديكان: واحدهما ديك وهو العظم الناتيء خلف الأذن، وهو الذي يقال له

(١) تأنيف العرقوبين: تحديد طرفيهما.

(٢) أبو حزره: هي كنية جرير بن عطية الخطفي الشاعر المشهور.

(٣) الأتب: الضامر - والسرْحَان: الذئب.

(٤) رحب: اتسع - ووفر: تم وكمل.

(٥) أناف: أشرف.

الْخُشَاءُ وَالْخُشْشَاءُ. والصلصل: بياض في طَرْفِ الناصية، ويقال: هو أصل الناصية. والدَّجاجة: اللَّحْمُ الذي على زَوْره بين يديه. والدَّيْكُ والصلصل والدَّجاجة من الطير.

وَالنَّاهِضَانِ أَمَرَ جَلَزُهُمَا فكَأَنَّمَا عُثِمَا عَلَى كَسَرٍ

الناهضان: واحدهما ناهض، وهو لحم المنكبين، ويقال: هو اللحم الذي يلي العَضْدَيْنِ من أعلاهما. والناهض: فرخ الْعُقَابِ. وقوله: «أَمَرَ جَلَزُهُمَا» أي قُتِلَ وأُخِصِمَ، يقال: أَمَرْتُ الحبل أي قَتَلْتُهُ. والجَلَزُ: الشَّدُّ. وقوله:

* فكَأَنَّمَا عُثِمَا عَلَى كَسَرٍ *

أي كأنهما كُسِرَا ثم جُبِرَا. والعُثْمُ: الجبر على عُقْدَةٍ وَعَوَجٍ.

مُسَحَّنْفِرِ الْجَنْبَيْنِ مُلْتَمِّمٍ مَا بَيْنَ شِمْتِهِ إِلَى الْغُرِّ
قوله: «مسحنفر الجنبين» أي متفخهما. ملتئم أي معتدل. والشيمة: من قولك: فرس أشيم: بَيْنَ الشَّامَةِ. والغَرَّ في الطير الأغلب الذي يسمَّى الرَّخْمَةَ. وهي من الفرس عَضْلَةُ السَّاقِ.

وَصَفَّتْ سُمَانَاهُ وَحَافِرُهُ وَأَدِيمُهُ وَمَنَابِثُ الشَّعْرِ
السُّمَانَى: طائر وهو موضع من الفرس ربما أراد به السَّامَةَ، وهي دائرة تكون في سَالِفَةِ الفرس. والسَّامَةُ أيضاً من الطير. وأديمه: جلده.

وَسَمَا الْغَرَابُ لِمَوْقَعِيهِ مَعَاً فَأُبَيِّنُ بَيْنَهُمَا عَلَى قَدَرِ
الغراب: رَأْسُ الْوَرِكِ، ويقال لِلصُّلُوكَيْنِ الْغَرَابَانِ، وهما مُكْتَنِفَا عَجْمٍ^(١) الذنب، ويقال: هما ملتقى أعلى الْوَرِكَيْنِ. والموقعان: ما في أعالي الْخَاصِرَتَيْنِ. وقوله:

* فَأُبَيِّنُ بَيْنَهُمَا عَلَى قَدَرٍ *

أي فَرَّقَ بَيْنَمَا عَلَى أَسْتَوَاءٍ وَأَعْتَدَالٍ.

وَأَكْتَنَ دُونَ قَبِيحِهِ خُطَافُهُ وَنَأَتْ سَمَامَتُهُ عَلَى الصُّقْرِ

قوله: وَاكْتَنَ أي أَسْتَتَرَ. والقبيحُ: ملتقى الساقين، ويقال: إنه مُرَكَّبُ الذراعين في الْعَضْدَيْنِ. والخطاف: هو حيث أدركتْ عَقِبُ^(٢) الْفَارِسِ إِذَا حَرَكَ رَجْلِيهِ؛ ويقال لهذين الموضعين من الفرس الْمَرْكَلَانِ. ونأَتْ أي بَعُدَتْ. والسَّامَةُ: دائرة تكون في عنق الفرس. والصقر: دائرة في الرَّأْسِ. وَالْخُطَافُ والسَّامَةُ والصقر من أسماء الطير.

(١) عجم الذنب: أصله، أي العصعص.

(٢) العقب: مؤخر القدم.

وتقدّمت عنه القَطَاةُ له فنأث بموقّعها عن الحُرّ
القَطَاة: مَقْعَدُ الرَدف. والحُرّ: سوادٌ في ظاهر أذني الفرس. وهما من الطير.
يقال: إن الحُرّ ذَكَرَ الحمام.

وسما على نِقْوِيه دون جداته خَرَبَانِ بينهما مَدَى الشُّبْرِ
النَّقْوَان: واحدهما نَقْوٍ والجمع أنْقَاء، وهو عظم ذو مُخ. وعَنَى هنا عظامَ
الوَرِكَيْن، لأنَّ الخَرَب هو الذي تراه مثل المُدْهَن^(١) في ورك الفرس. وهو من الطير
ذَكَرَ الحُبَارَى. والجدّة: سالفة الفرس. وهي من الطير.

يدع الرّضِيمَ إذا جرى فِلَقاً بتّوائم كمواسم سُمرِ
الرّضِيم: الحجارة، يَفْلِقُهَا بتّوائم أي بحوافره. والمواسم: جمع ميسم الحديد؛
أي أنها كمواسم الحديد في صلابتها. وقول: سُمر أي لون الحافر. والحافر الأسمر
هو الصُّلْب.

رُكِبْن في مَخْضِ الشَّوَى سَبِطَ كَفَتِ الوَثوب مُشَدِّدِ الأَسْرِ
الشوى ها هنا: القوائم، يقال: فرس مَخْضُ الشَّوَى إذا كانت قوائمه معصوبة.
سَبِط: سهل. كَفَتِ الوَثوب أي مُجْتَمِع. مشدّد الأَسْرِ أي الخَلْق.
قال الأصمعي: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.

فهذه جُمَلٌ من أوصاف محاسنها. وسنذكر إن شاء الله تعالى ما وصفها به
الشعراء في أشعارها والفضلاء في رسائلها، على ما تقف على ذلك في موضعه.
فلنذكر عيوب الخيل:

وأما عيوبها التي تكون في خِلْقَتِها، وفي جَرِيّها، والتي تطرأ عليها وتحدّث فيها -
فهي مائة نذكرها:

فأما التي في خِلْقَتِها - فهي أن يكون الفرس «أَخَذَى» وهو المُسْتَزَخِي أصول
الأذنين. و«أَمْعَر»، وهو الذي ذهب شعر ناصيته. و«أَسْفَى» وهو الخفيف الناصية،
وهو محمود في البغال. و«أَعَمَّ» وهو الذي غَطَّتْ ناصيته عينيه. و«أَسْعَفَ» وهو الذي
في ناصيته بياض. و«أَخَوَلَ» وهو الذي أبيض مؤخر عينه وغار السواد من قِبَل مَآقِيه.
و«أَزْرَقَ» وهو الذي في إحدى عينيه بياض أو زُرْقَة. و«أَفْتَى» وهو الذي في أنفه
أَحْدِيدَاب. و«مُغْرَبًا» وهو الذي أشْفَارُ عينيه بيض مع زُرْقَتِها. و«أَدَنَ» وهو الذي أَطْمَأَن
عُنْقُه من أصله. و«أَهْنَعَ» وهو الذي أَطْمَأَنَّتْ عنقه من وسطها. و«أَوْقَصَ» وهو الذي في

(١) المدهن: ما يجعل فيه الدهن.

عنقه قِصْرٌ وَيُسُّ مَغْطَفٌ. و«أَكْتَفَ» وهو الذي في أعالي كتفيه أنفراج. و«أَزُورَ» وهو الذي تدخل إحدى قَهْدَتَي صدره وتخرج الأخرى. و«أَقْعَصَ»، وهو المظمئن الصُلْبِ من الصهوة المرتفع القَطَاة. و«مُخْطَفًا» وهو الذي لَحِقَ ما خَلَفَ مَخْزَمَهُ من بطنه. و«أَهْضَمَ» وهو المستقيم الضلوع الذي دخلت أعاليه. و«صَقِلًا» وهو الطويل الصُّفْلَةُ^(١). و«أُنْجَلَ» وهو الذي خرجت خاصيرته ورق صِفَاقُهُ^(٢). و«أَفَرَّقَ» وهو الذي قد أشرفت إحدى وركبته على الأخرى. و«أَزْسَحَ»، وهو قليل لحم الصَّلَا^(٣). و«أَغَزَلَ» وهو المُلْتَوِي عسيب الذَّنْبِ حتى يبرزَ بعضُ بطنه. و«أَكْشَفَ» وهو الذي أَلْتَوَى عسيب ذنبه. و«أَصْبَغَ» وهو المُبَيِّضُ الذَّنْبِ. و«أَشْعَلَ» وهو الذي في عُرْضِ ذنبه بياض. و«أَشْرَجَ» وهو الذي بَيِّضَةُ واحدة. و«أَفْحَجَ»، وهو الذي تَبَاعَدَ كَغَبَاه. و«أَبَدَ» وهو الذي تباعدت يده. و«أَصَكَّ» وهو الذي تَصَكَّ كَغَبَاه إذا مشى. و«أَحَلَّ» وهو مُتَمَسِّحٌ^(٤) السَّارِخُ الكُغْب. و«أَقْفَدَ» وهو المُنْتَصِبُ الرُّسْغِ المُقْبِلُ على الحافر ويكون في الرُّجْلِ خاصَّةً. و«أَضَدَفَ» وهو الذي تدانى ذِرَاعَاه وتباعد حافِرَاه. و«مُوجَّهًا» وهو الذي به صَدَفٌ يسير. و«أَفْسَطَ» وهو الذي رجلاه منتصبتان غير منحنتين. و«أَمْدَشَ» وهو المُضْطَكُّ بواطن الرُّسْغَيْن. و«أَخْنَفَ» وهو المُلْتَوِي الحافِرَيْن يُقْبِلُ كُلُّ منهما على صاحبه. و«مُتَلَفِّقًا»، وهو الذي يَخِيطُ بيده. و«أَزْجَزَ» وهو المضطرب الرُّجْلُ والكُفْلُ فإذا قام اضطربت فخذُه. و«شَخَتَا» وهو القليل اللحم الحَمِيشُ^(٥) العظام. و«رَطَلًا» وهو الضعيف الخفيف. و«مَكْبُونًا» وهو القصير الدَّوَارِجُ^(٦) القريب من الأرض الرحيب الجوف. و«عَشَا» وهو الضاحي^(٧) العظام لِقْلَةً لحمه. و«سَغِلًا»، وهو الصغير الجِزْمِ. قال الواساني^(٨) رحمه الله:

ليس بأسْفَى ولا أَحَقَّ ولا أَهْضَمَ طَاوِي الحَشَا ولا سَغِلَ^(٩)

(١) الصقلة: الخاصرة.

(٢) الصفاق: جلد البطن.

(٣) الصَّلَا: جانب الذنب عن يمينه وشماله: أو الفرجة بين الجاعرة والذنب؛ أو وسط الظهر من الإنسان والدواب.

(٤) متمسح النسا: ضعيف النسا.

(٥) الحميش العظام: دقيقها.

(٦) دوارج الدابة: قوائمها.

(٧) الضاحي العظام: الذي برزت عظامه.

(٨) هو أبو القاسم الحسين بن الحسين بن واسانة بن محمد المعروف بالواساني، وهو أحد الفضلاء المجيدين في الهجاء، وكان في زمانه كابن الرومي في أوانه... (يتيمة الدهر للثعالبي).

(٩) الأحق: الذي يصنع حافر رجله موضع يده.

و«جَابَأُ»، وهو القصير الغليظ. و«مِلْوَاحَأُ»، وهو السريع العَطَش. و«صَلُودَأُ» وهو البطيء العَرَق. و«ضَاوِيَأُ» وهو الذي أضواه^(١) أبواه. و«مُقْرِفَأُ» وهو الذي أمه عتيقة وأبوه غير عتيق. و«هَجِينَأُ» وهو الذي أبوه عتيق وأمّه بَرْدَوْنَة. و«مُخْمِقَأُ» وهو الذي لا يُنتَج منه إلا أحمق. و«كُوسِيَأُ» وهو الذي إذا جرى نكس كالحمار. و«جَاسِنَأُ» وهو الذي تُرى معاقده وفقار ظهره وعنقه جاسنة غير لينة. والله أعلم.

وأما العيوب التي في جريها - فمنها: «الطُمُوحُ» وهو السامي ببصره صُعْدَأ. و«المُنْكَسُ» وهو الذي يُطأطىء رأسه إذا جرى. و«المُعْتَرِمُ» وهو الذي يَجْمَعُ أحياناً. و«الجَمُوحُ»: الصَّلْبُ الرأس. و«العَرَبُ»: المَذَاد المَرَامِي. و«الشَّمُوسُ»: الذي يمنع السرج والسَّيْر. و«الحَرُونُ»: الذي إذا أدرّ جزيه قام لا عن كلال^(٢). و«البَالَحُ» إذا قطع جزيه ضِعْفاً. و«الضُّغْنُ» هو الذي يَتَلَكَأ في الحُضْر ويَقْصُر عن الجِرَان. و«الحَفَاشُ»، هو الذي يَشِبُّ حُضْراً ثم يرجع القَهْقَرَى. و«الرَّوَأُ» هو الذي يَحِيد في حُضْره يميناً وشمالاً. و«الْفَيَّوشُ» هو الذي يُظَنُّ به الجري وليس عنده شيء منه. و«الحَيُّوصُ» وهو الذي يَغْدِل يميناً وشمالاً في استقامة حُضْره. و«المُشْتَقُّ» هو الذي يدع طريقه ويعدل ثم يمضي على عُدوله لا يَرُوعُ. و«الشُّبُوبُ»: الذي يقوم على رجله ويرفع يديه. و«العَاجِرُ»، و«المُعَاجِرُ»: الذي يَعَجِرُ^(٣) برجليه كقِمَاصُ^(٤) الحمار. و«العَدُومُ»، و«العَضُوضُ»: الذي يَعْضُ ما سَآيرَه. و«الشَّادِخُ»: يَعْدِل عن طريقه ولا يُبَالِي ما رَكِب. و«الجَرُورُ»: البَطِيءُ. و«المُنْعَثِلُ»: الذي يَفْرُق بين قوائمه، فإذا رَفَعَهَا فَكأنما يَنْزِعُهَا من وَحْل يَخْفِق برأسه ولا تتبعه رِجْلَاه. و«المُجْزِبُ»: الذي يُقَارِب الخطوَ يَقْرُب سَنَابَكه من الأرض ولا يرفعها رفْعاً شديداً. و«المُسَاعِرُ»: الذي يُطِيح قوائمه جميعاً متفرقة ولا ضَبْر^(٥) له. و«الْمِتْرَادَةُ»: الذي ينقص حُضْرُه من ابتداء جريه. و«الْفَاتِرُ» إذا فُتِر في حُضْره ولم تساعده قوائمه على ما تطالبه به نفسه. و«المُوَائِلُ»: الذي لا يسير إلا بسير غيره. و«الحَرُوطُ»: الذي يَخْرِطُ^(٦) رَسَنَه عن رأسه. و«الرَّمُوحُ»: الذي يَزْمَح^(٧) بإحدى رجله. و«الضُّرُوحُ»: الذي يَزْمَح بكليتهما. قال: وهذه الزيادة على الأربعة

(١) ضوي: ضعف وهزل، وأضواه أبواه: أي أتيا به ضاو.

(٢) المراد بقوله قام: أي وقف - والكلال: التعب والإعياء. أي أنه إذا طلب منه الجري وقف عصباناً لا إعياء.

(٣) عجر الفرس: مَرَّ سريعاً من خوف أو غيره.

(٤) قمصت الدابة: أي فترت وضربت برجليها.

(٥) الضير: الوثب مع جمع القوائم.

(٦) خرطت الدابة: جمعت وجذبت رسنها من يد ممسكها ثم مضت.

(٧) يرمح بإحدى رجله: يضرب بها.

والعشرين إنما هي من سوء العادة وفساد الرياضة .

وأما العيوب التي تَطْرَأُ عليها وتحدث فيها - فمنها : «الانتِشَارُ» وهو أنتفاع العَصَب . و«الشَّطْيُ» : تحرك العظم اللاصق بالركبة . و«الْفُتُوقُ» : أنفثاق من العصب على الأرضفة^(١) . و«الدَّخْسُ» : ورم في أطرة^(٢) الحافر . و«الزوائد» : أطراف عصب تَفَرَّقَ عند العجاية^(٣) وتنقطع عندها وتَلَصَّقَ بها . و«الْعَرْنُ» : جُسُوءٌ^(٤) في رُسْغ الرِّجْلِ خاصَّة لشقاقٍ أو مشقة . و«الشَّقَاقُ» : يصيبه في أرساغه وربما أرتفع إلى أوظيفته ، وهو تشقق يصيبها ، وتسمى الحلامة . و«الجَرْدُ» ، ما حدث في عُرْض عُرْقُوبَيْهِ ظاهراً وباطناً من تزيّد وانتفاخ عَصَبٍ ويكون مع المفصل طويلاً كالمؤزة . و«الملحُ» : أنفثاق من العَصَب أسفل العُرْقُوب لمادة تَنْصَبُ إليه كالبَلُوطَة^(٥) . و«الْقَمْعُ» هو عِظْم قَمْعَة العُرْقُوب . و«المَشْسُ» : كل ما شخّص في الوظيف وله حَجْمٌ وليست له صلابَةُ العظم . و«الارتهاشُ» : أن يَصُكَّ بعُرْض حافره عُرْضُ عُجَايَتِهِ من اليَد الأخرى . و«الرَّهْصَة»^(٦) : ما يصير في الحافر . و«الْوَجَا» : ما يُصِيب الحافر من الخشونة . و«الرَّقَقُ» : ضَعْفُ وَرْقَة في الحافر . و«الْتُمْلَة» : شَقٌّ في الحافر من الأشعر^(٧) إلى طرف السُّنْبُك . و«السَّرْطَانُ» : داءٌ يأخذ في الرُسْغ فيبْيَسُ عروقه حتى يقلب حافره . و«العَزَلُ» : أن يعزل ذنبه في شقٍّ عادةً . و«الخِفَاقُ» : صوت من ظبية^(٨) الأنثى . و«البَجَرُ» : أن تكون الرُّهَابَة^(٩) غير مُلْتَمِمةٍ فيعظم ما والاها من جلد السُّرَّة .

وحيث ذكرنا العيوب فلنذكر الخيل النبوة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

ذكر أسماء خيل رسول الله ﷺ

أول فرس ملكه رسول الله ﷺ ، فرسٌ أبتاعه بالمدينة من رجل من بني فزارة بعشر أواقٍ ، وكان اسمه عند الأعرابي «الضَّرْسُ» ، فسماه النبي ﷺ «السَّكْبَ» . فكان أول ما غزا عليه أحداً ، ليس مع المسلمين فرسٌ غيره وفرس لأبي بُزْدَة بن نيار يقال له

(١) الأرضفة : جمع رصف أو رضاف ، وهو عظم يموج فوق رأس الركبة .

(٢) أطرة الحافر : ما أحاط بها من اللحم .

(٣) العجاية : عصبه باطن الوظيف من الدابة .

(٤) جسا جسوءاً : ييس وصلب وخشن .

(٥) البلوط : ثمر شجر يؤكل ويدبغ بقشره .

(٦) الرهصة : أنه يصيب باطن حافر الدابة شيء يوهنه أو ينزل فيه الماء من الإعياء .

(٧) أشعر الفرس : ما بين حافره إلى متهى شعر أرساغه .

(٨) الظبية : الحياء من المرأة وغيرها .

(٩) الرهابة : غصروف كاللسان معلق في أسفل الصدر مشرف على البطن .

مُلاوح. وكان السَّكْبُ كُمَيْتاً أَغَرَّ مُحَجَّلاً مُطْلَقَ اليمنى، وقيل: إنه أدهم. رواه الطَّبْرَانِي^(١) في المعجم الكبير.

وعن عُمَارَةَ بن حُزَيْمَةَ الأنصاري أن عمه حدثه - وهو من أصحاب النبي ﷺ -:
 أن النبي ﷺ أبتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ لِيَقْبِضَهُ ثَمَنَ فرسه، فأسرع
 النبي ﷺ الْمَشْيَ وأبطأ الأعرابي؛ فطَفِقَ رجالٌ يعترضون الأعرابي فيسأومونه بالفرس
 ولا يشعرون أن النبي ﷺ أبتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السَّوْمِ على ثمن الفرس
 الذي أبتاعه به النبي ﷺ؛ فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس
 فأبتعه وإلا بعته؛ فقال النبي ﷺ: «بلى قد أبتعته»؛ فطَفِقَ الناسُ يَلُودُونَ بالنبي ﷺ
 وبالأعرابي، وهما يَتَرَجَّعَانِ^(٢)، وطَفِقَ الأعرابي يقول: هَلُمَّ شهيداً يشهد أنني قد
 بايعتُك. فمن جاء من الناس قال للأعرابي: ويلك! إن النبي ﷺ لم يكن ليقول إلا
 حقاً! حتى جاء حُزَيْمَةُ بن ثابت فاستمع لِمَرَاجَعَةِ النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي؛ فطَفِقَ
 الأعرابي يقول: هَلُمَّ شهيداً يشهد أنني قد بايعتُك؛ فقال حُزَيْمَةُ بن ثابت: أنا أشهد أنك
 قد بايعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «يَمَّ تَشْهَدُ؟» فقال: بتصديقك يا رسول
 الله، فجعل النبي ﷺ يقول: «شهادة خزيمة بن ثابت بشهادة رجلين». وفي لفظ: فقال
 خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنه قد باعك الفرس يا رسول الله؛ فقال النبي ﷺ: «وهل
 حَضَرْتَنَا يا خزيمة؟» فقال: لا؛ فقال: «فكيف شهدت بذلك؟»؛ فقال خزيمة: بأبي
 أنت وأمي! يا رسول الله، أَصَدَّقَكَ على أخبار السماء وما يكون في عَدٍ ولا أَصَدَّقَكَ
 في أبتياحك هذا الفرس! فقال النبي ﷺ: «إنك لذو الشهادتين يا خزيمة».

وقد اُخْتَلِفَ في أسم هذا الفرس، فقال محمد بن يحيى بن سَهْلٍ بن أبي حَثْمَةَ:
 هو «الْمُرْتَجِزُ»؛ وعن أبْنِ عباس رضي الله عنهما أنه الْمُرْتَجِزُ. قال أبْنُ الأثير^(٣): وكان
 أبيض. وقال أبْنُ قتيبة في المعارف: المرتجز، وفي أخرى: «الطَّرْفُ»، وفي أخرى:
 «التَّجِيبُ».

ومنها «البحر»، وهو الذي سبق الخيل لما سبق به رسول الله ﷺ؛ فسماه البحر

(١) هو الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني الحافظ، كان ثقة صدوقاً واسع الحفظ بصير بالعلل، كانت وفاته سنة ٣٦٠هـ.

(٢) يتراجعان: أي يتحاوران.

(٣) هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب ضياء الدين كان مولده بجزيرة ابني عمر ونشأ بها... حصل العلوم وحفظ كتاب الله الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية وطرفاً صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان... (وفيات الأعيان ٥: ٣٨٩).

في ذلك اليوم. وكان النبي ﷺ قد اشتراه من تَجَرٍ قدموا من اليمن، فسَبَقَ عليه مَرَات. قال أَبُو الأَثِير: وكان كُمَيْتًا، وقيل: كان أدهم.

ومنها «سَبْحَة»، ذكرها أَبُو بنين فقال: وكانت فرساً شقراء ابتاعها النبي ﷺ من أعرابيٍّ من جُهينة بعشر من الإبل، وسابَقَ عليها يوم خميس ومدَّ الحبلَ بيده ثم خَلَى عنها وسَبَحَ عليها؛ فأقبلت الشقراء حتى أخذ صاحبها العَلَمَ وهي تغبر^(١) في وجوه الخيل؛ فسميت سَبْحَة. وسَبْحَة من قولهم: فرس سابح إذا كان حَسَنَ مَدَّ اليدين في الجري. وسَبَحَ الفرس: جَرَّيْهُ.

ومنها «ذو اللِّمَّة»، ذكره أَبُو حبيب في أفراس النبي ﷺ.

ومنها «ذو العُقَال»، قال بعض العلماء: كان للنبي ﷺ فرس يقال له ذو العُقَال. وكان له ﷺ فرس يقال له: «اللَّحِيف» وقيل: «اللَّخِيف» بالخاء، وقيل فيه: «التَّحِيف». أهده له فَرْوَة بن عمرو من أرض البَلْقَاء، وقيل: أهده له أَبُو البراء^(٢)، وكان ﷺ يركبه في مَذَاهبه. وسمي اللَّحِيفَ لطول ذَنَبِهِ.

وروى أَبُو مَثَدَه من حديث عبد المهيمن بن عباس بن سهل عن أبيه عن جَدِّهِ قال: كان لرسول الله ﷺ ثلاثة أفراس يسميهن: «اللزَّاز» و«اللَّحِيف» و«الظَّرب». فأما لَزَّاز فأهده له الْمُقَوِّس. وأما اللَّحِيف فأهده له رَبِيعَة بن أَبِي البراء، فأثابه عليه فرائض^(٣) من نَعَم بني كلب. وأما الظَّربُ فأهده له فَرْوَة بن عمرو بن النافرة الجَدَّامِي. الظَّربُ واحد الظُّراب وهي الرُّوَابِي الصغار. سمي به لكبره وِسْمَنه، وقيل: لقوَّته وصلابة حافره.

وأهدى تَمِيمُ الدَّارِي لرسول الله ﷺ فرساً يقال له «الْوَزْدُ»؛ فأعطاه عَمَرَ، فحَمَلَ عليه عَمَرُ رضي الله عنه في سبيل الله.

وذكر علي بن محمد بن حُنين بن عَبْدِوس الكوفي في أسماء خيل النبي ﷺ قال: وكانت له أربعة أفراس: أحدها يقال له «السَّكْبُ» و«المُرْتَجِزُ» و«السَّجْلُ» و«البحرُ». وقال أَبُو الأَثِير: وكان له أفراس: «المرتجز» وذو العُقَال و«السَّكْبُ» و«اللَّحِيف»، و«اللزَّاز»، و«الظَّرب» و«سَبْحَة» و«البحرُ» و«السَّحَاء» (بالشين المعجمة والحاء المهملة).

(١) تغبر في وجوه الخيل: تسبقها.

(٢) أبو البراء: كنية ملاعب الأُسنة عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب.

(٣) فرائض: جمع فريضة، وهي ما فرض في السائمة من الصدقة.

وحكى ابنُ بنين عن ابن خالويه^(١) قال: كان للنبي ﷺ من الخيل: «سَبْحَة» و«اللَّحِيف» و«لِزَاز» و«الظَّرِب» و«السَّكْب» و«ذو اللَّمَّة» و«السَّرْحَان» و«المُرْتَجِل» و«الأَدْهَم» و«المُرْتَجِز». وذكر في موضع آخر: و«مُلاوَح» و«الورد» و«اليعسوب».

وذكر قاسم بن ثابت^(٢) في كتاب الدلائل: «اليعسوب»، و«اليعسوب» فرسين لرسول الله ﷺ. وذكر ابن سعد في وفادات العرب عن محمد بن عمر قال: حدَّثني أسامة بن زيد عن زيد بن طلحة التيمي قال: قديم خمسة عشر رجلاً من الرُّهاويين (وهم حيٌّ من مَدْحِج) على رسول الله ﷺ، فنزلوا دارَ رَمْلَةَ بنت الحارث؛ فاتاهم رسول الله ﷺ فتحدَّث عندهم طويلاً؛ فأهدوا لرسول الله ﷺ هدايا، منها فرس يقال له: «المِرْواح»؛ فأمر به فُسُور^(٣) بين يديه فأعجبه؛ فأسلموا وتعلَّموا القرآن والفرائض؛ وأجازهم كما يُجيز الوفد: أرفعهم ثني عشرة أوقية ونشأ^(٤) وأخفَّضهم خمس أواق.

فقد ظهر من مجموع هذه الروايات أن خيل رسول الله ﷺ كانت تسعة عشر فرساً، وهي: «السَّكْب» و«المُرْتَجِز» و«البحر» و«سَبْحَة» و«ذو اللَّمَّة»، و«ذو العُقَال» و«اللَّحِيف» - وقيل فيه بالخاء المعجمة، وقيل: «النحيف» بالنون - و«اللزَّاز» و«الظَّرِب» و«الوَرْد» و«السَّجَل» و«السَّحَاء» و«السَّرْحَان» و«المُرْتَجِل» و«الأَدْهَم» و«مُلاوَح» و«اليعسوب» و«اليعسوب»، و«المِرْواح». وقد يكون الأدهم هو السكب أو البحر، فتكون ثمانية عشر فرساً. والله عز وجل أعلم.

ذكرُ أسماء كرام الخيل المشهورة عند العرب

من أقدم خيل العرب: «زادُ الرَّاكِب»؛ وكان من خيل سليمان بن داود عليهما السلام. حكى محمد بن السائب الكلبي^(٥): أن الصافينات الجياد المعروضة على

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه النحوي اللغوي؛ أصله من همدان ولكنه دخل بغداد وأدرك جلة العلماء بها مثل أبي بكر بن الأنباري وابن مجاهد المقرئ وأبي عمر الزاهد وابن دريد؛ وقرأ على أبي سعيد السيرافي... (وفيات الأعيان ٢: ١٧٨).

(٢) هو قاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرف سليمان بن يحيى العوفي السرقسطي (أبو محمد) محدث، لغوي، نحوي، رحل من الأندلس إلى مصر، فقدم مصر ومكة وسمع بهما... وكانت وفاته سنة ٣٠٢هـ... (معجم المؤلفين ٨: ٩٦).

(٣) سُور الدابة: أي عرضها أو أجازها ليعرف قوتها.

(٤) النش: نصف أوقية، والأوقية أربعون درهماً.

(٥) هو أبو النضر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبي، صاحب التفسير وعلم النسب، كان إماماً في هذين العلمين... وكان الكلبي من أصحاب عبد الله بن سبأ الذي يقول: إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يمت وإنه رجع إلى الدنيا... (الوفيات ٤: ٣٠٩).

سليمان بن داود عليه السلام كانت ألف فرس ورثها عن أبيه؛ فلما عُرِضَتْ عليه ألْهَتْهُ عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب، فردّها وعَرَّبَهَا إِلَّا أفراساً لم تُعَرَّضْ عليه؛ فوفد عليه قوم من الأَزْدِ، وكانوا أصهاره، فلما فرغوا من حوائجهم قالوا: يا نبي الله، إنَّ أرضنا شاسعة فزودنا زاداً يبلِّغنا؛ فأعطاهم فرساً من تلك الخيل وقال: إذا نزلتم منزلاً فأحملوا عليه غلاماً وأحتطبوا، فإنكم لا تُوزون نازكم حتى يأتيكم بطعام؛ فساروا بالفرس، فكانوا لا ينزلون منزلاً إِلَّا رَكِبَهُ أَحدهم للَقْنَصِ، فلا يُفْلِتُ شيءٌ تقع عينه عليه من ظبي أو بقرة أو حمار، إلى أن قَدِمُوا بلادهم؛ فقالوا: ما لفرسنا هذا أَسْمُ إِلَّا «زاد الراكب» فسَمَّوه به. فأصلُ فحول العرب من نتاجه. ويقال: إن «أعوج» منها. قال امرؤ القيس^(١):

إذا ما رَكِبْنَا قال وَلَدَانُ أَهلْنَا تعالَوْا إلى أن يَأْتِيَ الصَيْدُ نَحْطُبُ

وقال عُمارة:

وأرى الوحشَ عن يميني إذا ما كان يوماً عِناثُه في شمالي

ومن خيل العرب المشهورة ما حكاه أبو علي الحسن بن رَشِيق الأَزْدِي في كتابه المترجم بالعمدة عن ابن حَبِيب عن أبي عُبيدة قال: «الغُرَاب» و«الوَجِيه» و«لاحق» و«المُذْهَب» و«مكتوم» كانت كُلُّهَا لَغَنِيَّ.

وقال أحمد بن سعد^(٢) الكاتب: كان «أعوج» أَوَّلًا لِكِنْدَةَ، ثم أخذته سُلَيْم، وصار لبني عامر ثم لبني هلال. قال ابن حَبِيب: رَكِبَ رَطْباً فأعوجت قوائمه، وكان من أجود خيل العرب. وأمه «سَبَل» لَغَنِيَّ. وأم سبل «سَوَادَة»، وأم سواده «القَسَامَة»، وكانت لَجَعْدَة.

وحكى أحمد بن محمد بن عبد ربّه صاحب العقد في كتابه: أنه لما أنتجتْهُ أُمُّه ببعض بيوت الحيّ نظروا إلى طَرْف يضع جَحْفَلَتَه على كاذتْها (على الفَخِذ مما يلي الحَيَاء) فقالوا: أدركوا ذلك الفرس لا يَنزُو فرسكم؛ لعظم «أعوج» وطول قوائمه؛ فقاموا إليه فإذا هم بالمهر؛ فسَمَّوه «أعوج». ولهم أيضاً «الفياض».

قال ابن سعد: «الوجيه» و«لاحق» لبني أسد، «وَقَيْد» و«حَلَاب» لبني تغلب. و«الصَّرِيح» لبني نَهْشَل - وزعم غيره أنه كان لآل المنذر - و«جَلَوَى» لبني ثَعْلَبَة بن

(١) هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي، وهو من أهل نجد من الطبقة الأولى وهذه الديار التي وصفها في شعره كلها ديار بني أسد... شاعر جاهلي مشهور (طبقات الشعراء ص ٣٦).

(٢) هو أحمد بن سعد الكاتب الأصبهاني (أبو الحسين) أديب. له من الكتب كتاب الأخبار عن الرسائل، كتاب آخر في الرسائل، سماه فقر البلغاء، كتاب الحلي والثياب، كتاب المنطق، كتاب الهجاء، وله شعر... كانت وفاته حوالي سنة ٣٥٠هـ. (معجم المؤلفين ١: ٢٣٢).

يَزْبُوع^(١)، و«ذو العُقَال» لبني رِيَّاح بن يَزْبُوع، وهو أبو «داحس». وكان «داحس»، و«العُبْرَاء» لبني زُهَيْر. والغبراء خالة داحس وأخته من أبيه. و«ذو العُقَال» و«قَزُل» و«الْحَطَّار» و«الحَنَفَاء» لِحَذِيفَةَ بن بَذْر. والحَنَفَاء هي أخت داحس من أبيه وأمه. و«قَزُل» آخَرُ لِلطُّفَيْل بن مالك. و«حَذَفَة» لخالد بن جعفر بن كِلَاب. و«حَذَفَة» أيضاً لَصَخْر بن عمرو بن الشَّرِيد^(٢). و«الشَّقَرَاء» لَزُهَيْر بن جَذِيمَةَ العَبْسِيِّ. و«الرَّعْفَرَان» لِسَيْطَام^(٣) بن قَيْس. و«الْوَرِيعَة»، و«نِصَاب» و«ذو الخِمَار» لمالك بن نُؤَيْرَة^(٤). و«الشَّقَرَاء» أخرى لِأَسِيد بن حِثَاء. و«الشَّيْط» لِأَنَيْف بن جَبَلَةَ الضَّبِّي. و«الْوَحِيف» لعامر بن الطُّفَيْل^(٥). و«الْكَلْب» و«المَزْنُوق» و«الْوَرْد» له أيضاً. و«خُنْثَى» لعمرو بن عمرو بن عُدَس. و«الْهَدَاج» فرس^(٦) الرِّبِّ أَبْن شَرِيق السَّعْدِي و«وَجْرَة» فرس يزيد بن سنان المُرِّي فارسي غَطَفَان. و«النَّعَامَة» للحارث بن عُبَاد^(٧). و«أَبْن النَّعَامَة» لعُثْرَة. و«الْثَّحَام»، فرسٌ لِلسُّلَيْك بن السُّلَكَة السَّعْدِي^(٨). و«العَصَا» فرس جَذِيمَةَ بن^(٩) مالك الأَرْدِي. و«الهِرَاوَة» لعبد القَيْس بن أَفْصَى. و«الْيَحْمُوم» فرس الثُّعْمَان بن المنذر. و«كامل» فرس زَيْد الخيل^(١٠). و«الزَّيْد» فرس الحَوْفَرَان وهو أبو «الرَّعْفَرَان» فرس

(١) بنو ثعلبة بن يربوع: منهم بنو الكباس. وبنو الحمرة، وبنو جعفر... (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) هو أخو الخنساء، وإخوته عمرو ومعاوية وكلهم فرسان شعراء أشراف... (الاشتقاق لابن دريد).

(٣) هو فارس من فرسان بني شيان قتلته بنو ضبة ورثاه عبد الله بن عثمة الشاعر... (الاشتقاق).

(٤) مالك ومتمم ابنا نؤيرة: هما من ثعلبة بن يربوع، وكان مالك فارس ذي الخمار، وذو الخمار فرسه، قتله خالد بن الوليد في الردة، وتزوج امرأته... (طبقات الشعراء ص ١٥٧).

(٥) هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري وهو ابن عم لبيد الشاعر، فارس قيس، وكان أعور عقيماً لا يولد له ولم يعقب... (الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٥).

(٦) هو فارس بني دارم في الجاهلية.

(٧) وفي النعامة يقول الحارث:

قرباً مربط النعام مني وائل أصبحت على بلبال

والحارث بن عباد هو الذي قتل من بني تغلب بابن أخيه، بجير بن عباد وكان الحارث فارساً في الجاهلية... (الاشتقاق لابن دريد).

(٨) هو منسوب إلى أمه سلكة وكانت سوداء واسم أبيه عمرو بن يثربي، وهو من بني كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وهو أحد أغربة العرب وهجائنهم وصعاليكهم، وكان له بأس ونجدة، وكان أدل الناس بالأرض وأجودهم عدداً على رجليه... (طبقات الشعراء ١٧٣).

(٩) هو جذيمة بن مالك الأبرش الملك، الذي قتلته الزباء، وكان أبرص فتهيب العرب أن تقول أبرص فقال: أبرش، ووضاح... (الاشتقاق).

(١٠) هو زيد الخيل بن مهلهل من طيء، جاهلي وأدرك الإسلام ووفد على النبي ﷺ في وفد طيء وأسلم وسماه زيد الخير... (طبقات الشعراء ١٢٩).

بِسْطَام. و«الْحِمَالَة»، فرس الكَلْحَبَةِ الِيزْبُوعِي. هذا ما أورده أحمد بن سعد.
وقال ابن دُرَيْد^(١): «الْقَطِيب» و«البَطِين»، فرسان كانا للعرب. و«اللَّعَاب»،
و«العَبَايَة» فرساً حَرَيَّ بن ضَمْرَة. و«المَدْعَاس» فرس الثَّوَّاس بن عامر المَجَاشِعِي،
و«صُهَبَى» فرس الثَّوَر بن تَوَلَّب^(٢). و«حَافِل» فرس مشهور. و«العَسْجَدِي» لبني أسد.
و«السَّمُوس» فرس يزيد بن خَذَاق العَبْدِي^(٣). و«الضَّيْف» لبني تَغْلِب. و«هَرَاوَة»
العُرَاب» فرس الرِّيَّان بن حُوَيْص العَبْدِي، يقال إنها جاءت سابقةً طولَ أربع عشرة سنة،
فصَدَّق بها على العُرَاب يتكسبون عليها في السَّبَاق والغارات. و«الحَرُون» فرس تنسب
إليه الخيل، وكان لمسلم بن عمرو بن أسد الباهلي. و«الزائد» فرس مشهور وهو من
نسل الحرون. و«مُتَاهِب» فرس تُنسب إليه الخيل أيضاً، قال الشَّمرْدَل^(٤):

تَلَقَى الْجِيَادَ الْمُقَرَّبَاتِ فِينَا لَأَفْحَلِ ثَلَاثَةِ يَنْمِينَا^(٥)

* «مُتَاهِبَا» و«الضَّيْف» و«الحَرُونَا» *

و«الْعَلْهَان» فرس أَبِي مُلَيْل عبد الله بن الحارث الِيزْبُوعِي.

هذا ما اتفق إيراده من أسماء كرام الخيل ومشهورها. فلنذكر ما ورد في أوصافها
وتشبيهها.

ذكر ما قيل في أوصاف الخيل وتشبيهها نظماً ونثراً

أَوَّلُ مَنْ شَبَّهَ الْفَرَسَ بِالظَّبْيِ وَالسُّرْحَانِ وَالنَّعَامَةِ، ثُمَّ اتَّبَعَهُ الشُّعْرَاءُ وَحَذَوْا مِثَالَهُ
وَأَقْتَدَوْا بِهِ، هُوَ أَمْرُو الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ حَيْثُ قَالَ: [من الطويل]
لَهُ أَيُّطَلَا ظَبْيِي وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْحَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِبُ تَشْفُلُ^(٦)

(١) هو محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن خيثم بن حمامي بن جرو بن واسع بن وهب... يعود

في نسبه إلى يعرب بن قحطان، فهو من الأزد الذين كان مسكنهم في مأرب في أرض اليمن..

(٢) هو من عكل وكان شاعراً جواداً ويسمى الكَيْسَ لحسن شعره وهو جاهلي وأدرك الإسلام
فأسلم... (طبقات الشعراء ١٤١).

(٣) هو أخو سويد، وكلاهما شاعر معروف وهما من بني ربيعة بن نزار.

(٤) هو الشمرْدَل بن شريك يربوعي وكان يقال له ابن الخريطة، وذلك أنه جعل وهو صبي في خريطة.
(الشعر والشعراء لابن قتيبة).

(٥) المقربات من الخيل: التي ضمرت للركوب.

(٦) الأيطل: الخاصرة، وهي ما بين الأضلاع إلى الورك. والإرخاء: السير دون الخصر الشديد -
والسرحان: الذئب. والتقريب: ضرب من العدو. والتنفل: ولد الثعلب.

- كَأَنَّ عَلَى الْمَتْنَيْنِ مِنْهُ إِذَا أَنْتَحَى مَدَاكَ عَرُوسٍ أَوْ صَرَايَةَ حَنْظَلٍ^(١)
 مِكْرٌ مَقَرٌّ مُقْبِلٍ مُذِيرٌ مَعَا كَجُلْمُودٍ صَخِرِ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلٍ
 دَرِيرٍ كَخُذْرُوفٍ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ تَقْلُبُ كَفَيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلٍ^(٢)
 كَمَيِّتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفَوَاءُ بِالْمُتَنَزِّلِ^(٣)
 وَقَالَ أَيْضًا: [مِنِ الْمُتْقَارِبِ]
 وَأَزَكَّبُ فِي الرُّوْعِ خَيْفَانَةً كَسَا وَجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشِرٌ^(٤)
 لَهَا حَافِرٌ مِثْلُ قَعْبِ الْوَلِيدِ دَرُكَبٌ فِيهِ وَظَيْفٌ عَجُزٌ^(٥)
 لَهَا عَجُزٌ كَصَفَاةِ الْمَسِيدِ لَهَا أَبْرَزُ عَنْهَا جُحَافٌ مُضِرٌ^(٦)
 لَهَا ذَنْبٌ مِثْلُ ذَيْلِ الْعُرُو سَ تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرِ
 لَهَا جَنْبُهُ كَسَرَاةِ الْمِجَنِّ حَذَفَهُ الصَّانِعُ الْمُفْتَدِرِ^(٧)
 إِذَا أَقْبَلَتْ قَلَّتْ دُبَاءَةٌ مِنْ الْخُضْرِ مَغْمُوسَةٌ فِي الْغُدُرِ^(٨)
 وَإِذَا أَغْرَضَتْ قَلَّتْ سُرْعُوفَةٌ لَهَا ذَنْبٌ خَلَقَهَا مُسَبِّطُرٌ^(٩)
 وَإِنْ أَدْبَرَتْ قَلَّتْ أَنْفِيَّةٌ مُلْمَلَمَةٌ لَيْسَ فِيهَا أُثْرٌ^(١٠)
 وَقَالَ أَبُو دُوَادٍ الْإِيَادِي^(١١) يَصِفُ فَرَسًا:

- (١) المتنان: ما اكتنفا فقار الظهر - والانتحاء: الاعتماد والقصد - والمداك: الحجر الذي يسحق عليه الطيب - والصراية: الحنظلة الخضراء البراقة.
 (٢) الدرير: الفرس السريع العدو - والخذروف: لعبة يلعب بها الأولاد وتسمى «البلبل» وأمره: قلبه ثم أداره بين كفيه.
 (٣) الحال: وسط الظهر - والصفراء: الصخرة الملساء التي لا ينبت فيها شيء - والمتنزل: الذي ينزل عليها فينزلق عنها.
 (٤) الخيفانة: الجراد - والسعف: يراد به الناصية.
 (٥) القعب: القدح - والوظيف: عظم الساق والرجل - والعجر: الصلب الشديد.
 (٦) صفاة المسيل: الحجارة التي تكون في الماء وهي أصلب من غيرها - وأبرز: كشف. والجحاف: السيل الذي لا يمر بشيء إلا حملة ونشره.
 (٧) السراة: الظهر - والمجن: الترس - وجذفه: أي هياه وصنعه.
 (٨) الدباءة: واحدة الدباء: وهو الفرع - مغموسة في الغدر: أي أنها ريا.
 (٩) السرعة: الجراد - والمسبطر: الطويل.
 (١٠) الأنفية: الحجر المدور الصلب الذي يوضع عليه القدر - والململمة: المستديرة الصلبة - والأثر: أي أثر الجرح.
 (١١) هو شاعر من رجالات بني كعب.

له ساقا ظليم خا ضِب فُوجِيء بِالرُّغْبِ^(١)
 حديد الطَّرَف والمَنَكِ ب والعُرْقوب والقلب
 وقال آخر:

له صدر طائوس وفخذ نعامية وَوَثْبَةٌ نَمِرٍ وَالتَّفَاتُ غَزَالٍ
 وأعجب من ذا كلما حَطَّ حافراً يَحُطُّ هَلالاً مِنْ وراء هلال
 وقال البُحْتَرِيُّ وكان وَصافاً للخيل: [من الكامل]

وأغر في الزمن البَهِيم مُحَجَّلٍ قَدْ رُخْتُ مِنْهُ عَلَى أَغَرِّ مُحَجَّلٍ
 كَالْهَيْكِلِ الْمَبْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحَسَنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلٍ
 ذَنَّبَ كَمَا سَحَبَ الرِّدَاءَ يَذُبُّ عَنْ عُرْفٍ وَعُرْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمُسَبَّلِ
 جَذْلَانِ يَنْقُضُ عُذْرَةً فِي عُزَّةٍ يَقْقُ تَسِيلُ حُجُولُهَا فِي جَنْدَلٍ^(٢)
 كَالرَّائِحِ النَّشْوَانِ أَكْثَرُ مَشْيِهِ عَرْضاً عَلَى السَّنَنِ الْبَعِيدِ الْأَطْوَلِ^(٣)
 تَتَوَهَّمُ الْجُوزَاءُ فِي أَرْسَاغِهِ وَالبَدْرُ غُرَّةٌ وَجْهَهُ الْمُتَهَلِّلُ
 صَافِي الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا عُنِيَتْ بِهِ لَصَفَاءِ ثُقْبَتِهِ مَدَاوِسُ صَيْقَلٍ^(٤)
 وَكَأَنَّمَا نَفَضَتْ عَلَيْهِ صِبْغَهَا صَهْبَاءُ لِلْبَرْدَانِ أَوْ قُطْرِبِلٍ^(٥)
 وَتَخَالَه كُسَيَّ الْخُدُودِ نَوَاعِمَاءُ مَهْمَا تَوَاصَلَهَا بَلْخُطٍ تَخْجَلُ
 وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِي الْغُبَارِ لَهَيْبِهِ لَوْنًا وَشَدًّا كَالْحَرِيقِ الْمُشْعَلِ^(٦)
 هَزَجُ الصَّهِيلِ كَانَ فِي نَعْمَاتِهِ نَبْرَاتٍ مَغْبَدٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ^(٧)
 مَلِكُ الْعَيُونِ فَإِنْ بَدَأَ أُعْطِيَتْهُ نَظَرَ الْمُحِبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمُقْبِلِ

وكتب إلى محمد بن حميد بن عبد الحميد الطوسي يستهديه فرساً، ووصف له
 أنواعاً من الخيل؛ فقال من أبيات: [من الكامل]

- (١) الخاضب: الظليم الذي اختلم فاحمرت ساقاه.
- (٢) العذرة: عرف الفرس وناصيته - واليقق: المتناحي في البياض.
- (٣) العرض: (بضم أوله): السير في جانب، و(بفتح أوله): هو أن يعدو عارضاً صدره ورأسه مائلاً من النخوة والنشاط.
- (٤) النقية: اللون - والمدوس: المصقلة - والصيقل: شحاذ السيوف وجلأوها.
- (٥) البردان: قرية من قرى بغداد - وقطربل: قرية بين بغداد وعكبرا تنسب إليها الخمر.
- (٦) يقال: شدت النار: أي ارتفعت.
- (٧) معبد: اسم مغن عاش في العصر العباسي.

فَأَعِنَ عَلَى غَزْوِ الْعَدُوِّ بِمُنْطَوٍ
إِمَّا بِأَشْقَرٍ سَاطِعٍ أَغْشَى الْوَعَى
مُتَسَرِّبٍ شَيْئَةً طَلَّتْ أَعْطَافَهُ
أَوْ أَدْهَمٍ صَافِي الْأَدِيمِ كَأَنَّهُ
ضَرِمَ يَهِيحُ السَّوْطُ مِنْ شَوْبُوهِ
خَفَّتْ مَوَاقِعُ وَطْئِهِ فَلَوْ أَنَّهُ
أَوْ شَهَبٍ يَنْقِي يُضِيءُ وَرَاءَهُ
تَخْفَى الْحُجُولُ وَلَوْ بَلَغْنَ لَبَانَهُ
أَوْقَى بَعُزْفٍ أَسْوَدٍ مَتَفَرِّدٍ
أَوْ أَبْلَقٍ مَلَأَ الْعَيُونَ إِذَا بَدَا
جَذْلَانِ تَحْسُدُهُ الْجِيَادُ إِذَا مَشَى
وَعَرِيضُ أَعْلَى الْمَثْنِ لَوْ عَلِيَّتَهُ
خَاضَتْ قَوَائِمُهُ الْوَثِيقُ بِنَاؤُهَا
وَلَأَنَّتْ أَبْعَدُ فِي السَّمَاحَةِ هِمَّةً
وَقَالَ أَيْضاً يَصِفُ فِرْساً أَدْهَمَ:
بِأَدْهَمٍ كَالظَّلَامِ أَغْرَى يَخْلُو
تَرَى أَحْجَالَهُ يَضْعَعْدَنَ فِيهِ
أَحْشَاؤُهُ طَيِّ الرَّدَاءِ الْمُدْرَجِ
مِنْهُ بِمِثْلِ الْكُوكَبِ الْمُتَأَجِّجِ^(١)
بَدَمٍ فَمَا تَلْقَاهُ غَيْرَ مُضْرَجٍ
تَحْتَ الْكَمِيِّ مُظْهَرٌ بِبِرْنَدَجٍ^(٢)
هَيْجَ الْجَنَائِبِ مِنْ حَرِيقِ الْعَرْفَجِ^(٣)
يَجْرِي بِرَمْلَةٍ عَالِجٍ لَمْ يُزْهِجِ^(٤)
مَثْنٌ كَمَتْنِ اللَّجَّةِ الْمُتَرَجْرِجِ
فِي أَبْيَضٍ مُتَالِقٍ كَالدُّمْلَجِ^(٥)
فِيمَا يَلِيهِ وَحَافِرٍ فَيُرْوَزَجِي
مِنْ كُلِّ لَوْنٍ مُعْجِبٍ بِنُمُودَجٍ
عَنْقاً بِأَحْسَنِ حُلَّةٍ لَمْ تُنْسَجِ^(٦)
بِالزُّبُنِ الْمُنْهَالِ لَمْ يَتَدَخَّرِجِ
أَمْوَاجَ تَحْنِيبٍ بِهِنَ مُدْرَجِ^(٧)
مَنْ أَنْ تَضِنَّ بِمُلْجَمٍ أَوْ مُسْرَجِ^(٨)
بِعُزَّتِهِ دَيَّاجِيرَ الظَّلَامِ
صَعُودَ الْبَرْقِ فِي جَوْنِ الْغَمَامِ^(٩)

(١) المتأجج: الملتهب.

(٢) البرندج: السواد يسود به الخف أو هو الزاج يسود به.

(٣) الشؤبوب: شدة العدو- الخبائب: جميع الجنوب، وهي الرياح التي تهب من الجنوب- والعرفج: ضرب من النبات سهل طيب الريح.

(٤) عالج: رمال بين فيد والقريات ينزلها بنو بحتر من طيء- ولم يرجح: أي لم يثر الغبار من خفة وطئه.

(٥) اللبان: الصدر- والدملج: حلي يلبس في المعصم.

(٦) العنق: (بفتح أوله وثانيه) ضرب من السير فسيح سريع.

(٧) التحنيب: احديداب في وظيفي يدي الفرس.

(٨) الموكف: ما وضع عليه الوكاف، وهو البرذعة.

(٩) الجون: الأسود.

وقال أيضاً في أدهم: [من الكامل]

أما الجَوَادُ فقد بَلَوْنَا يَوْمَهُ
جَارَى الجِيَادَ فطار عن أوهامها
جَذَلَان تَلَطَّطَ جَوَانِبُ غُرَّةِ
وأسودَ ثم صَفَّتْ لَعَيْنِي ناظِرِ
مالث نواحي عُزْفِهِ فكأَنَّهَا
ومقدّم الأذُنَيْنِ تحسب أَنَّهُ
وكانَ فارِسَهُ وراءَ قَدَالِهِ
لأنتَ معاطِفُهُ فخيّل أَنَّهُ
في شُغْلَةٍ كالشَّيْبِ مرّ بمفرقي
وكانَ صَهْلَتَهُ إذا أَسْتَعْلَى بها
مثل الغراب عدا يُباري صَحْبَهُ
والطَّرْفُ أَجْلِبُ زائِرٍ لمؤونةِ
وقال عليّ بن الجهم^(٥):

فوق طَرْفٍ كالطَّرْفِ في سرعة الطَّرْ
لا تراه العيونُ إلّا خيالاً
وقال العباس بن مرداس^(٧):

جاء كلمع البرق سام ناظرُهُ
تَسْبَحُ أولاهُ وَيَطْفُو آخِرُهُ

(١) لطمت الغرة الفرس: سألت في أحد شقي وجهه فهو لطيم.

(٢) الأثل: شجر من الفصيلة الطرفاوية طويل مستقيم يعمر. جيد الخشب، كثير الأغصان متعقدها.

(٣) لها: من اللهو.

(٤) قعقع: أحدث صوتاً عند التحريك أو التحرك.

(٥) علي بن الجهم: هو أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كرار بن كعب بن جابر... يعود نسبه إلى لؤي بن غالب القرشي السامي الشاعر؛ أحد الشعراء المجيدين... (وفيات الأعيان ٣: ٣٥٥).

(٦) الطَّرْف: (بكسر أوله): الكريم العتيق من الخيل.

(٧) المرداس: الحصة التي يرمى بها في البئر ليظهر هل فيها ماء أو لا... (طبقات الشعراء ص ١٣٦).

* فما يَمَسُّ الأرضَ منه حافِرُهُ *

وقال أبو الطيّب المتنبّي: [من الطويل]

وَجَزْدًا مَدَدْنَا بَيْنَ آذَانِهَا الْقَنَا فَيَثْنَ خِفَافًا يَتَّبِعْنَ الْعَوَالِيَا^(١)
تَمَاشَى بِأَيْدٍ كَلَّمَا وَافَتِ الصُّفَا نَقَشْنَ بِهِ صَدْرَ الْبُزَاةِ حَوَافِيَا^(٢)
وَيَنْظُرْنَ مِنْ سُودٍ صَوَادِقَ فِي الدُّجَى يَزَيْنَ بَعِيدَاتِ الشُّخُوصِ كَمَا هِيََا^(٣)
وَتَنْصِبُ لِلْجَرَسِ الْخَفِيِّ سَوَامِعَا يَخْلُنْ مُنَاجَاةَ الضَّمِيرِ تَنَادِيَا^(٤)
تُجَاذِبُ فُرْسَانَ الصُّبْحِ أَعْنَةً كَأَنَّ عَلَى الْأَعْنَاقِ مِنْهَا أَفَاعِيَا^(٥)
وقال أيضاً:

وَجِيَادٍ يَدْخُلْنَ فِي الْحَرْبِ أَغْرَا وَيَخْرُجْنَ فِي دَمٍ فِي جِلَالِ^(٦)
وَاسْتَعَارَ الْحَدِيدُ لَوْنًا وَأَلْقَى لَوْنَهُ فِي ذَوَائِبِ الْأَطْفَالِ^(٧)
وقال أبو الطيّب أيضاً: [من الطويل]

وَيَوْمٍ كَلِيلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ أَرَاقِبُ فِيهِ الشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ
وَعَيْنِي عَلَى أُذُنِي أَغْرُ كَأَنَّهُ مِنَ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوَكْبُ
لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ فِي إِهَابِهِ تَجِيءُ عَلَى صَدْرِ رَحِيبٍ وَتَذْهَبُ^(٨)
شَقَقْتُ بِهِ الظُّلُمَاءَ أُذُنِي عِنَانَهُ فَيَطْغَى وَأُزْخِيهِ مِرَاراً فَيَلْعَبُ^(٩)
وَأَضْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ قَفَيْتُهُ بِهِ وَأَنْزِلَ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أُرْكَبُ^(١٠)
وقال أيضاً يصف فرساً:

-
- (١) الحرد من الخيل: القصار الشعر - والقنا: الرماح - والعوالي: جمع عالية، وهي صدر الرمح مما يلي السنان.
- (٢) الصفا: الصخر - والبزاة: جمع باز.
- (٣) المراد بقوله: من سود: أي من أعين سود.
- (٤) الجرس: الصوت أو الخفي منه، والسوامع: الأذان.
- (٥) يراد بالصباح: القارة، والأعنة: سيور اللجم.
- (٦) الجلال: ما يوضع على الدابة من غطاء.
- (٧) المراد: أنهم يشيرون من شدة ما ينالهم من القزع.
- (٨) الإهاب: الجلد ما لم يدبغ.
- (٩) يطغى: أي ينشط ويمرح.
- (١٠) قفيته: أتبعته.

إن أدبرت قلت لا تَلِيلَ لها أو أقبلت قلت ما لها كَقُلْ^(١)

وقال أبو الفرج البَيْغَاءُ^(٢): [من الكامل]

إن لاح قلت أدْمِيَّةٌ أم هيكلُ أو عن قلت أسابح أم أجْدَلْ^(٣)

تَخَاذِلُ الأَلْحَاظُ في إدراكه وَيَحَارُ فيه الناظرُ المتأملُ

فكأنه في اللطف فَنَهْمٌ ثاقِبٌ وكأنه في الحسن حُطٌّ مُقْبِلُ

وقال أيضاً من أبيات: [من الطويل]

رماهم بالأحاطِ الحَيَادِ ولم تكن لِيَنُأَى عليها المَنْزِلُ المتباعدُ

من اللَّاءِ يَهْجُرُن المِياة لدى السَّرى وَيَغْتَضُن شَمَّ الجَوِّ والجوِّ راكِدُ

مَرَّةً على لَذَعِ القَنَّا فكأنما عليهن من صبغ الدِّماءِ مَجَاسِدُ^(٤)

نَسَجْنَ مَلَاءَ النَّقْعِ ثم خَرَقْنَهُ بَكَرٌ لها منه إلى النصرِ قائِدُ^(٥)

عليهن مِن نَسَجِ العُبارِ غلائِلُ رِقَاقٌ ومن نَضَحِ الدِّماءِ قلائِدُ

وقال أبو الفتح كُشَاجِمُ^(٦): [من الكامل]

ماءٌ تَذَقُّ طاعةً وسَلِاسَةً فإذا أَشْدِرَ الحُضْرُ منه فنارُ

وإذا عَطَفَتْ به على نَاوِزِهِ لِشُدِيرِهِ فكأنه بِرِكَارُ^(٧)

قَصُرَتْ قِلَادَةُ نَحْرِهِ وعِذارُهُ والرُّسْعُ، وهي من العَتِيقِ قِصارُ

يَرِدُ الضَّحَاضِحَ غيرَ ثَانٍ سُنْبُكاً وَيَرُودُ طَرْفُكَ خَلْفَهُ فيَحَارُ^(٨)

لو لم تكن للخيل نسبةٌ خَلِقِهِ خَالَشَهُ من أَشكالِها الأَطْيَارُ

(١) التليل: العتق.

(٢) هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي الشاعر المعروف بالبَيْغَاءِ؛ ذكره الثعالبي في «يَتِيمة الدهر» وقال: هو من أهل نصيبين، وبالغ في الشاء عليه... (وفيات الأعيان ٣: ١٩٩).

(٣) الأجدل: الصقر.

(٤) المجاسد: الثياب المصبوغة بالزعفران.

(٥) النقع: الأرض الحرة الطين المستوية ليس فيها حزونة.

(٦) هو محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك المعروف بكشاجم (أبو الفتح، أبو النصر). أديب شاعر، منجم من كتاب الإنشاء من أهل الرملة بفلسطين، فارسي الأصل... كانت وفاته سنة ٣٦٠ هـ (معجم المؤلفين ١٢: ٥٩).

(٧) بركار: آلة ذات ساقين، ترسم بها الدوائر.

(٨) الضحاضح: جمع ضحضح وهو الماء القليل يكون في الغدير وغيره، والسنبك: طرف الحافر وجانباه من قدم.

وقال آخر: [من الكامل]

وأقْبَ تحمُّله رِيَّاحُ أربَعٍ لولا اللَّجَامُ لطار في المَيْدانِ^(١)
من جُمْلَةِ العِثْبَانِ إلَّا أَنَّهُ من حُسْنِهِ في طَلْعَةِ الغَزْلَانِ
يمشي إلى مَيْدانِهِ متبَخِّراً من تَيْهِهِ كَتَبَخَّرَ النُّشْوَانِ
وقال أَبْنُ المعْتَزِ:

وَحَيْلِ طواها القَوْدُ حتَّى كأنَّها أَنَابِيْبُ سُمْرٍ مِنْ قَنَا الحَطِّ دُبُلُ^(٢)
صَبَبْنَا عليها ظالمين سِياطِنا فطارَتْ بها أَيْدِ سِرَاعٍ وأَرْجُلُ
وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِيُّ^(٣): [من الرجز]

طَرَفٌ نَأَتْ سِماؤُهُ عَن أرضِهِ وما نَأَى كاهِلُهُ عَنِ الكَفَلِ^(٤)
ذو أَرْبَعٍ مِنْ أَرْبَعٍ مِنَ القَبُورِ لِـ والدُّبُورِ والجَنُوبِ والشَّمْلِ
وهو إذا أَعْمَلَهَا أَلْقَى لَهَا فوق الَّذي يَطْلِبُهُ مِنَ العَمَلِ
كالبرقِ إِنْ أَوْمَضَ أو كالرَّعْدِ إِنْ أَجْلَبَ أو صَوَّبَ الحَيَّا إذا أَحْتَمَلَ^(٥)
وقال آخر:

يَجْرِي فَيَبْعُدُ مِنْ مَدَى مُتقارِبِ أَبْدأَ وَيَدْنُو مِنْ مَدَى مُتَباعِدِ
إِنْ سارَ فهو غَدِيرُ ماءٍ مائِجِ أو قامَ فهو غَدِيرُ ماءٍ جامِدِ^(٦)
وقال أبو الفضل المِيكالي^(٧):

خَيْرُ ما أَسْتَطَرَفَ الفِوارِسُ طَرَفُ كُلِّ طَرَفٍ بِحُسْنِهِ مَبْهُوتُ
هو فوق الجِبَالِ وَغُلٍّ وفي السَّهْلِ لِـ نَعامٍ وفي المَعابِرِ حُوتُ

- (١) الأقب من الخيل: الدقيق الخصر الضامر البطن.
- (٢) القود: نقيض السوق - والأنابيب: الرماح - والخط: موضع باليمامة تنسب إليه الرماح الخطية - وذبل: دقاق.
- (٣) هو أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبي، الحلبي، الإنطاكي، المعروف بالصنوبري (أبو بكر) شاعر. سكن حلب ودمشق وتوفي في رجب سنة ٣٣٤هـ... (معجم المؤلفين ٢: ٩١).
- (٤) الطرف من الخيل: الكريم العتيق.
- (٥) الحيا: المطر.
- (٦) قام: أي وقف.
- (٧) هو عبيد الله بن أحمد بن علي بن إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكال الميكالي (أبو الفضل) أديب، شاعر، أمير، من أهل نيسابور. من آثاره: ديوان شعر، ومخزن البلاغة وغيرهما... كانت وفاته سنة ٤٣٦هـ. (معجم المؤلفين ٦: ٢٣٨).

وقال آخر: [من المتقارب]

وطَرْفَ إذا جرى خَلَّتْهُ عَقَاباً من الوَكْرَ يَنْبَغِي المَزَارَا
تَرَى في الجَبِينِ له سَوْسَنًا وتَلَمَحَ في لونه الجُلُنَارَا^(١)
ويمشي على الماء من خِفَّةٍ وَيَقْدَحُ في الجَلَمَدِ الصخر نارا
فلو كان يَنْبَغِي به رَاكِبٌ إلى مطلع الشمس سَيْرًا لطارا

وقال عبد الجبار بن حمديس^(٢): [من الكامل]

وَمَجْرَرٍ في الأرض ذيلَ عَسِيْبِهِ حَمَلُ الزبرجد منه جِسْمٌ عَقِيْقِ
يَجْرِي وَلَمْعُ البرق في آثاره من كثرة الكَبَوَاتِ غَيْرُ مُفِيْقِ
ويكاد يَخْرُجُ سُزْعَةً من ظِلِّهِ لو كان يرغب في فِرَاقٍ رَفِيْقِ
وقال أبن طباطبا^(٣): [من الكامل]

عجباً لشمسٍ أشرقَتْ في وجهه لم تَمُحْ منه دُجَى الظلامِ المُطْبِقِ
وإذا تَمَطَّرَ في الرَّهْانِ رَأْيَتَهُ يَجْرِي أمامَ الرِّيحِ مِثْلُ مُطَرِّقِ^(٤)
وقال تاج الملوك بن أيوب^(٥):

وخيل كأمثال السَّعَالِي شَوَاذِبَ تكاد بنا قبل المَجَالِ تَجُولُ^(٦)
سوابق تَكْبُو الرِّيحُ قبل لَحَاقِهَا لها مَرَحٌ من تحتنا وَصْهِيلُ^(٧)
وقال إبراهيم بن خَفَاجَة^(٨) يصف فرساً أشهب: [من الخفيف]

- (١) السوسن: نبات طيب الرائحة - والجلنار: زهر الرمان.
- (٢) هو عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الأزدي الصقلي، السرقوسي (أبو محمد) شاعر، مؤرخ ولد حوالي ٤٧٧هـ، وكانت وفاته سنة ٥٣٧هـ. (معجم المؤلفين ٥: ٧٩).
- (٣) هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا (أبو الحسن) عالم، أديب، شاعر... (معجم المؤلفين ٨: ٣١٢).
- (٤) تمطرت الخيل: ذهبت مسرعة - والمطر: الذي يمهّد الطريق ليسلك.
- (٥) هو عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شادي الأيوبي (الملك المعظم شرف الدين أبو الغنائم) فقيه، أديب، نحوي، لغوي، شاعر... كانت وفاته سنة ٦٢٤هـ (معجم المؤلفين ٨: ٢٢).
- (٦) السعالي: الغيلان أو سحرة الجن - والشواذب: الضوامر من الخيل.
- (٧) المرح: التبخر والاختيال.
- (٨) هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي (أبو إسحاق) شاعر. ولد وتوفي بجزيرة سقر من أعمال بلنسية. له ديوان شعر، ومصنفات لغوية... كانت وفاته سنة ٥٣٣هـ. (معجم المؤلفين ١: ٧٤).

رُبَّ طَرْفٍ كَالطَّرْفِ سَاعَةً عَذِو
 إن سَرَى فِي الدُّجَى فَبِعُضِّ الدَّرَارِي
 لَسْتُ أَذْرِي إِنْ قَيْدَ لَيْلَةٍ أَسْرِي
 أَجْنُوبٌ تُقْتَادُ لِي أَمْ جَنْيِبٌ
 أَشْهَبُ اللَّوْنِ أَثْقَلْتُهُ حُلِيِّ
 فَبدا الصَّبْحُ مُلْجِماً بِالْثُرَيَّا
 وقال أيضاً في أشهب: [من الكامل]

وظلام لَيْلٍ لَا شِهَابٍ بِأَفْقِهِ
 لَا طَمْتُ لُجَّتِهِ بِمَوْجَةِ أَشْهَبٍ
 قد سَالَ فِي وَجْهِ الدُّجْنَةِ غُرَّةٌ
 أَطْلَعَتْ مِنْهُ وَمِنْ سِنَانٍ أَزْرَقٍ
 وقال أَبُو الصَّلْتِ^(٤) يَصِفُ فَرَساً أَشْهَبَ: [من مختلع البسيط]

وَأَشْهَبٍ كَالشُّهَابِ أَضْحَى
 قَالَ حَسُودِي وَقَدْ رَأَاهُ
 مِنْ أَلْجَمِ الصَّبْحِ بِالْثُرَيَّا
 وقال أَبْنُ حَفَّاجَةٍ وَقَدْ أَهْدَى مُهْراً بِهِمًا: [من المنسرح]

تَقَبَّلَ الْمُهْرَ مِنْ أَخِي ثَقَّةٍ
 مُشْتَمِلاً بِالظَّلَامِ مِنْ شَيْئَةٍ
 مُنْتَسِيباً لَوْنُهُ وَغُرَّتُهُ
 تَحْسِبُهُ مِنْ عُلاكَ مُسْتَرْقاً
 حَنٌّ إِلَى رَاحَةٍ تَفِيضُ نَدَى
 تَرَى بِهِ وَالنَّشَاطُ يَخْفِزُهُ
 أَرْسَلَ رِيحاً بِهِ إِلَى الْمَطَرِ
 لَمْ يَشْتَمَلْ لَيْلُهَا عَلَى سَحَرِ
 إِلَى سَوَادِ الْفَوَادِ وَالْبَصَرِ
 بِهِجَةً مَزَايَ وَحَسَنَ مُخْتَبَرِ
 فَمَالَ ظِلُّهُ بِهِ عَلَى نَهَرِ
 مَا شِئْتُ مِنْ فَخْمَةٍ وَمِنْ شَرَرِ

(١) الجنيب: الفرس الذي قاد إلى جنب الراكب.

(٢) الجلال: ما تلبسه الدابة لتصان به.

(٣) اللهزم: كل شيء قاطع، من سنان، أو سيف أو ناب.

(٤) هو أبو الصلت بن أبي ربيعة بن عبد عوف بن عقدة بن غيرة بن قسي، وقسي هو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان...

لو حَمَلَ الليلُ حَسَنُ دُهِمَتِهِ
أَحْمَى مِنَ النِّجْمِ يَوْمَ مَعْرَكَةِ
اسْوَدَّ، وَأَبْيَضُ فَعَلُهُ كَرَمًا
فَارْزُدْ سَنًا بِهِجَةً بِدُهِمَتِهِ
ومثلُ شكري على تَقْبُلِهِ
وقال في فرس أَشَقَر: [من الكامل]
وَمُطَهَّم شَرِيقِ الأَدِيمِ كَأَنَّمَا
طَرِبَ إِذَا غَنَى الحُسَامُ، مُمَزَّقُ
قَدَحَتِ يَدِ الهِجَاءِ مِنْهُ بَارِقًا
ورمى الحِفَاطُ بِهِ شَيَاطِينَ العِدَا
بَسَامُ ثَغْرِ الحَلِيِّ تحسب أَنَّهُ
وقال في أدهم أَغَرَّ مُحَجَّل: [من الكامل]

وَأَنَّمَا لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ
وقال أَبْنُ نُبَاتَةَ السَّعْدِيِّ (٣) فِي أَدَهْم:
وَأَدَهْمَ يَسْتَمِدُّ اللَّيْلُ مِنْهُ
سَرَى خَلْفَ الصَّبَاحِ يَطِيرُ مَشِيًا
فَلَمَّا خَافَ وَشَكَ القَوَاتِ مِنْهُ
وقال في فرس أدهم أَغَرَّ مُحَجَّل أَهْدِي لَهُ: [من الوافر]

قَدْ جَاءَنَا الطَّرْفُ الَّذِي أَهْدَيْتَهُ
أَوَّلَايَةً وَلَيْتَنَا فَبَعَثْتَهُ
تَخْتَالُ مِنْهُ عَلَى أَغَرِّ مُحَجَّلٍ
هَادِيهِ يَعْقِدُ أَرْضَهُ بِسَمَائِهِ
رُمَحًا سَبِيبُ العُرْفِ عَقْدُ لَوَائِهِ (٤)
ماء الدِّيَاجِي قطرةً مِنْ مَائِهِ

(١) النجيع: الدم.

(٢) المعجاجة: الغبار.

(٣) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة بن حميد بن الحجاج بن مطر بن خالد . . . التيمي السعدي، كان شاعراً مجيداً، جمع بين حسن السبك وجودة المعنى، وله في سيف الدولة بن حمدان غر القصائد ونخب المدائح . . . (وفيات الأعيان ٣: ١٩٠).

(٤) العرف: شعر عنق الفرس.

وكانما لَطَمَ الصَّبَا حَبِيئَهُ فَأَقْتَصَّ مِنْهُ فَخَاضَ فِي أَحْشَائِهِ
مُتَمَهِّلاً وَالْبَرْقُ مِنْ أَسْمَائِهِ مُتَبَرِّقِعاً وَالْحَسَنُ مِنْ أَكْفَائِهِ^(١)
مَا كَانَتْ النِّيرَانُ يَكْمُنُ حَرْهَا لَوْ أَنَّ لِلنِّيرَانِ بَعْضَ ذِكَائِهِ
لَا تَغْلَقُ الْأَلْحَاظُ فِي أُعْطَافِهِ إِلَّا إِذَا كَفَكَفَتْ مِنْ غُلُوَائِهِ
وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ^(٢) الْفَارَسِيُّ النَّحْوِيُّ أَحَدَ شُعْرَاءِ الْيَتِيمَةِ فِي فَرَسٍ أَدْهَمَ
أَغَرَ: [من الكامل]

وَمَطَّهْمَ مَا كُنْتُ أَحْسِبُ قَبْلَهُ أَنَّ السَّرُوجَ عَلَى الْبَوَارِقِ تُوَضَّعُ
وَكَانَمَا الْجَوَازَاءُ حِينَ تَصَوِّتُ لَبَبٌ عَلَيْهِ وَالثَّرِيَاءُ بُرْقُعُ

طرائف في ذم الخيل بالهزال والعجز عن الحركة

كتب بعضهم إلى صديق له: [من السريع]

مَا فَعَلْتُ حِجْرُكَ تِلْكَ الَّتِي أَفْضَلُ مِنْ فَارِسِهَا الزَّاجِلُ^(٣)
عَهْدِي بِهَا تَبْكِي وَتَشْكُو الضَّنَى لِمَا أَحْتَشَاهُ الْبَدَنُ النَّاحِلُ^(٤)
وَهُوَ تَغْنِيَنِي غِنَا صَبَةٍ غَايْتُهَا وَجَدَانُ مَا تَأْكُلُ
يَا رَبِّ لَا أَقْوَى عَلَى كُلِّ ذَا مَوْتُ وَإِلَّا فَرَجٌ عَاجِلُ
وَقَالَ آخَرُ: [من البسيط]

يَا نَصْرَ حِجْرُكَ أَبْلَى الْجَوْعُ جِدَّتْهَا وَأَصْبَحْتُ شَبَحاً تَشْكُو تَجَافِيكَ
إِذَا رَأَتْ تَبْنَةً قَالَتْ مُجَاهِرَةً يَا تَبْنُ لِي حَسْرَةً مَا تَنْقُضِي فَيْكَ
تَرْجُوهُ طَوْرًا وَتَبْكِي مِنْهُ آيَسَةً حَتَّى إِذَا عَرَضْتُ بَاتَتْ تَغْنِيكَ
هَذِي - فِدَيْتُكَ - حَالِي قَدْ عَلِمْتَ بِهَا فَلِمَ يَكُونُ الْجَفَا أَفْدِيكَ أَفْدِيكَ
وَقَالَ آخَرُ: [من السريع]

أَعْطَيْتَنِي شُهْبَاءَ مَهْلُوبَةٍ تُذَكِّرُ نَمْرُودَ بْنَ كَنْعَانَ^(٥)

- (١) تبرقع: غطى وجهه بالبرقع، والبرقع: قناع النساء والدواب.
- (٢) هو أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي؛ كان إماماً في النحو بعد خاله أبي علي الحسن بن أحمد الفارسي ومنه أخذ وعليه درس... (معجم الأدباء لياقوت ج ٧: ٣).
- (٣) الحजर: الأنثى من الخيل.
- (٤) الناحل: الضعيف الضامر.
- (٥) فرس مهلوب: أي مستأصل شعر الذنب - ونمرود: اسم ملك من الجبابرة.

سَفِينَةُ الْحَشْرِ إِلَى عَذْوِهَا أَشْبَقُ مِنْ أَشْقَرِ مَزَوَانِ^(١)
 كَأَنِّي مِنْهَا عَلَى زُورِقٍ بَلَا مَجَادِيْفٍ وَسُكَّانِ^(٢)
 فَانْظُرْ إِلَى جِجْرِي تَرَى شَهْرَةً أَخْبَارُهَا جَامِعُ سُفْيَانِ^(٣)
 وقال آخر: [من المنسرح]

حَمَلْتَنِي فَوْقَ مُقْرِفٍ زَمِنٍ لَيْسَ لَذِي رَخْلَةٍ بَنَّقَاعٍ
 جِلْدٌ عَلَى أَعْظَمِ مُحَلَّلَةٍ فَلَيْسَ يَمْشِي إِلَّا بِدَقَّاعٍ
 كَأَنِّي إِذْ عَلَوْتُ صَهْوَتَهُ رَكِبْتُ مِنْهُ سَرِيرَ فُقَّاعٍ^(٤)
 وكتب زهير بن محمد^(٥) الكاتب: [من مجزوء الرجز]

وَفَرَسٍ عَلَى الْمَسَا وَي كُلُّهَا مُخْتَوِيَةٌ
 رَاكِبُهَا فِي خَجَلَةٍ كَأَنَّهُ فِي مُخْزِيَةٍ
 مُسْتَقْبِحًا رُكُوبَهَا مِثْلَ رُكُوبِ الْمَغْصِيَةِ
 فَمَا مَسَاوِيَهَا لَمَنْ عَدَّدَهَا مَسْتَوِيَةٍ
 يَأْتُبِحَهَا مُقْبِلَةً وَقَبَحَهَا مُؤَلِّيَةٍ
 وقال برهان الدين ابن الفقيه نصر: [من السريع]

لِصَاحِبِ الدِّيَوَانِ بِرْدُونَةٍ بَعِيدَةُ الْعَهْدِ مِنَ الْقُرْطِ^(٦)
 إِذَا رَأَتْ خَيْلًا عَلَى مَرْبِطٍ تَقُولُ سُبْحَانَكَ يَا مُعْطِي
 تَمْشِي إِلَى خَلْفٍ إِذَا مَا مَشَتْ كَأَنَّهَُا تَكْتُبُ بِالْقُبْطِي

هذا ما اتَّفَقَ إيرادُه مما قِيلَ في أوصاف الخيل من النظم. فلنذكر ما وُصِفَتْ به في الرسائل المنشورة، والفقر المسجوعة، والألفاظ المزدوجة؛ مع ما يتصل بذلك من الأبيات في ضمنها.

فمن ذلك ما حُكي أن المهدي سأل مَطَر بن دَرَّاج عن أي الخيل أفضل؛ فقال:

(١) أشقر مروان: فرس مشهور كان لمروان بن محمد آخر ملوك بني مروان.

(٢) السكان: ذنب السفينة الذي به تعدل.

(٣) جامع سفيان: يراد به كتاب في الفقه لسفيان الثوري.

(٤) الفقاع: نبات يابس.

(٥) هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي الملقب بهاء الدين الكاتب، من فضلاء عصره وأحسنهم نظاماً ونشراً وخطاً... (وفيات الأعيان ١: ٢٧٢).

(٦) القرط: نبات تألفه الدواب، وهو شبيه بالرطبة، إلا أنه أعظم ورقاً.

الذي إذا استقبلته قلت: نافر، وإذا استدبرته قلت: زاجر، وإذا استعرضته قلت: زافر. قال: فأني هذه أفضل؟ قال: الذي طَرَفَه أمامه، وسَوَّطَه عنائه. ومن هذا أخذ المتنبي وعلي بن جبلة^(١) والعسكري^(٢). فقال المتنبي:

* إن أدبرت قلت لا تَلِيلَ لها *

وقد تقدّم.

وقال علي بن جبلة:

تحسُّبه أَعِد في استقباليه حتى إذا استدبرته قلت أكْب

وقال أبو هلال العسكري:

طَرَف إذا استقبلته قلت حَبَا حتى إذا استدبرته قلت كَبَا

ووصف أعرابي فرساً أُجْرِي في حَلَبَة فقال: لما أُرْسِلَت الخيل: جاؤوا بشيطان، في أَشْطَان^(٣)؛ فأرسلوه فلمع لمع البرق، وأَسْهَلْ استهلال الودق^(٤)؛ فكان أقرب الخيل إليه، تقع عينه من بُعْدٍ عليه.

ووصف محمد بن الحسين بن الحرّون فرساً فقال: هو حَسَن القميص، جيّد الفُصوص^(٥)؛ وَيَتَّقُ القَصَب، نَقِي العَصَب، يبصر بأذنيه، ويتبوع^(٦) يديه، ويدخل رجله.

ووصف آخر فرساً فقال: الريح أسيرة يديه، والظِّلِيم^(٧) قريسة رجله، إن حَرَّ استعر في ألتهابه، وإن جَدَّ مَرَق من إلهابه.

وكتب عبد الله بن طاهر إلى المأمون مع فرس أهده إليه: قد بعثت إلى أمير المؤمنين فرساً يَلْحَق الأرنب في الصَّغْداء، وَيُجَاوِز الظباء في الاستواء، وَيَسْبِق في الحدور جَرِي الماء؛ إن عَطِف حار، وإن أُرْسِل طار؛ وإن حُبِس صَفَن^(٨)، وإن

(١) كان علي بن جبلة ضريباً وكان يمدح أبا دلف القاسم بن عيسى... وكان يمدح حميد بن عبد الحميد... أورد له ابن قتيبة شعراً كثيراً... (الشعر والشعراء ٤٥٠).

(٢) هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (أبو هلال) لغوي، أديب، شاعر، مفسر... كانت وفاته سنة ٣٩٥هـ (معجم المؤلفين ٣: ٢٤٠).

(٣) أَشْطَان: جمع شطن، وهو الجبل الطويل الشديد الفتل، يستقى به.

(٤) الودق: المطر كله، شديده وهينه.

(٥) الفصوص: من الفرس: مفاصل ركبتيه وأرساغه.

(٦) تبوع الفرس في جريه: أبعد الخطو يديه.

(٧) الظليم: الذكر من النعام.

(٨) صفن الفرس: قلب أحد حوافره وقام على ثلاث قوائم.

أَسْتَوْقِفَ فَطِنٌ؛ فهو كما قال تَابَّطُ شَرًّا^(١):

وَيَسْبِقُ وَقَدْ الرِّيحَ مِنْ حَيْثُ يَنْتَجِي بِمُنْخَرِقٍ مِنْ شَدِّهِ الْمَتَابِعِ
ووصف آخر فرساً فقال: كأنه إذا علا دعاء، وإذا هبط قضاء. كأنه محلولٌ من
قول الشاعر في صفة فرس:

مِثْلُ دَعَاءٍ مُسْتَجَابٍ إِنْ عَلَا أَوْ كَقَضَاءٍ نَازِلٍ إِذَا هَبَطَ
ووصف أيوب ابن القريّة فرساً فقال: أَسِيلُ الْخَدِّ، حَسَنُ الْقَدِّ، يَسْبِقُ الطَّرْفَ،
وَيَسْتَعْرِقُ الْوَصْفَ.

وقال محمد بن عبد الملك لصديق له: ابغ لي فرساً بِزْدُونًا، وثيق اليدين، قائم
الأذنين، ذَكَرَ العينين، يَأْتِفُ من تحريك الرجلين.

ومن الكلام الجيّد في وصف الخيل ما أنشأه الشيخ ضياء الدين بن القُرْطُبِيّ من
رسالته التي كتبها إلى صاحب الوزير شرف الدين الفَائِزِيّ، وقد تقدّم ذكرها في باب
الكتاب في الرسائل، فلا فائدة في إعادتها؛ وإنما أوردنا ذكرَ الخيلِ هناك لأن الرسالة
تتضمن على أوصاف الخيل والعساكر والسلاح وغير ذلك، فأردنا بإيرادها بجملتها ثم أن
يكون الكلام فيها سياقاً يتلو بعضه بعضاً. وهذه الرسالة في السُّفَرِ السَّابِعِ من هذه النسخة.

ومن إنشاء المولى الفاضل العالم الأديب البليغ شهاب الدين أبي الثناء
محمود^(٢) بن سليمان الحلبّي الكاتب رسالةً في الخيل عملها تجربةً، ورياضةً لخاطره،
ولم يكتب بها؛ سمعناها من لفظه، ونقلناها من خطّه؛ وهي:

أدام الله إحسان الجناب الفلاني، ولا زالت الآمال في أمواله مُحْكَمَةً، والأمانى
كالمحاميد في أبوابه مخيّمَةً، والمعالي كالعوالي إليه دون غيره مسلّمةً، والمكارم تُغْريه في
الندى حتى يبذل ما حُبِّبَ إليه من الخيل المسوّمة. المملوك يقبل اليد التي ما زالت بسطتها
في الكرم عليّه، وقَبِضَتْهَا بتصريف أعنة الزمن مليّة؛ ومواهبها تتنوع في الندى، ومذاهبها
في الكرم تهبّ الأولياء ما تهابه العدا. ويُنْهِي وصولاً ما أنعم به من الخيل التي وُجِدَ الخيرُ
في نواصيها، وأدْخِرَتْ صَهَوَاتُهَا حصوناً يعتصم في الوَعْيِ بِصَايِصِهَا^(٣):

(١) هو ثابت بن عمسل، وهو من فهم، وفهم وعدوان، أخوان، وكان شاعراً بئساً يغزو على رجليه،
وكانت تؤخذ بوله إذا غزا، فأخذت بوله وقد قتل يحيى، فعرفت أنه قد قتل... (الشعر والشعراء
لابن قتيبة).

(٢) هو محمود بن سليمان بن فهد الحلبي، ثم الدمشقي، الحنبلي، (أبو الثناء شهاب الدين) أديب،
لغوي، كاتب، ناظم، شاعر... كانت وفاته سنة ٧٢٥هـ. (معجم المؤلفين ١٢: ١٦٧).

(٣) الصياصي: قرون البقرة ونحوها.

فمن أشهب غطاءه النهار بخلته وأوطأه الليل على أهله كأن أذنه جلفه^(١) قلم، أو شفه جلم، يُدرك بها الوهم، ويحقق في الليل البهيم مواقع السهم؛ يتموج أديمه رياً^(٢)؛ ويتأرجح رياً، ويقول من أستقبله في حلي لجامه: هذا الفجر قد طلع بالثريا؛ إن ألفت المصاييق أنساب أنسياب الأيتم، وإن أنفرجت المسالك مر مرور الغيم؛ كم أبصر فارسه يوماً أبيض بطلعته، وكم عاين طرّف السنان مقاتل العدا في ظلام النّفع بنور أشعته؛ لا يستنّ داحس في مضماره، ولا تطمع العبراء في شق غباره، ولا يظفر لاحق^(٣) من لحاقه بسوى آثاره، تسابق يداه مرامي طرفيه، ويدرك شواردة البروق ثانياً من عطفه.

ومن أدهم حالي الشكيم، حالك الأيتم، له مقلّة غانية وسالفه ريم، قد ألبسه الليل بُزده، وأطلع بين عينيه سعده، يظنّ من نظر إلى سواد طرّته، وبياض حُجوله وغرّته؛ أنه توهم النهار نهراً فخاضه، وألقى بين عينه نقطة من رشاش تلك المخاضة؛ لتين الأعطاف؛ سريع الانعطاف؛ يُقبل كالليل، ويكّر كجلمود صخر خطه السيل؛ يكاد يسبق ظلّه، وإذا جازى السهم إلى غرض بلغه قبله.

ومن أشقر غشاه البرق بلهيه، وشاه الأصيل بذهيه؛ يتوجس ما لديه برقيقتين، وينفض وفترته عن عقبتين، وينزل عذار لجامه من سالفته على شقيقتين؛ له من الراح لونها، ومن الرياح لينها؛ إن جرى فبرق خفق، وإن أسرع فهلال على شفق؛ لو أدرك أوائل حرب أبني وائل لم يكن للنعامة نباها^(٤)، ولا للوجيه وجاهه، ولكن ترك إعاة سكاب^(٥) لوماً وتحريم بيعها سفاهه؛ يركض ما وجد أرضاً، ولو أعترض به راكبه بحراً وثبه عرضاً.

ومن كُميت نهد، كأن راكبه في مهد؛ عندمي^(٦) الإهاب، شمالي الذهاب؛ يزّل الغلام الخف عن صهواته^(٧)، وكأن نغم الغريض ومغبد في لهواته؛ قصير المطأ^(٨)،

(١) الجلفة من العلم: من مبراه إلى سنه.

(٢) الريا: الريح الطيبة.

(٣) لاحق: اسم فرس.

(٤) النعامة: فرس الحارث بن عباد.

(٥) سكاب: فرس عبدة بين ربيعة.

(٦) العندم: دم الأخوين، وقيل: هو صبغ الداربرنيان، وقيل: العندم: شجر أحمر، وقيل: هو دم الغزال... وقيل: هو صبغ زعم أهل البحرين أن جوارهم يختضب به.

(٧) إشارة إلى بيت من معلقة امرئ القيس.

(٨) المطأ: الظهر.

فَسِيحَ الْخَطَا؛ إِنْ رُكِبَ لَصِيدٌ قَيْدَ الْأَوَايدِ، وَأَعَجَلَ عَنِ الْوُثُوبِ الْوَحْشَ اللَّوَايدِ؛ وَإِنْ جُنِبَ إِلَى حَرْبٍ لَمْ يَزُورْ مِنْ وَفَعِ الْقَتَا بَلْبَانَهُ^(١)، وَلَمْ يَشْكُ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ بِلِسَانِهِ^(٢)، وَلَمْ يُرْ دُونَ بُلُوغِ الْغَايَةِ - وَهِيَ ظَفَرُ رَاكِبِهِ - ثَانِيًا مِنْ عَنَانِهِ؛ وَإِنْ سَارَ فِي سَهْلٍ أَخْتَالَ بِرَاكِبِهِ كَالثَّجَلِ، وَإِنْ أَضْعَدَ فِي جَبَلٍ طَارَ فِي عَقَابِهِ كَالْعَقَابِ وَأَنْحَطَ فِي مَجَارِيهِ كَالْوَعْلِ؛ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلَ، وَمَتَى أَرَادَ الْبَرْقُ مَجَارَاتَهُ قَالَ لَهُ الْوَقُوفُ عِنْدَ قَدْرِهِ: مَا أَنْتَ هُنَاكَ فَتَمَهَّلْ.

وَمِنْ حَبِيشِي أَصْفَرَ يَرُوقُ الْعَيْنُ، وَيَشُوقُ الْقَلْبَ بِمِشَابِهَتِهِ الْعَيْنُ^(٣)؛ كَأَنَّ الشَّمْسَ أَلْقَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَشْيَعِهَا جِلَالًا، وَكَأَنَّهُ نَفَرَ مِنَ الدُّجَى فَاعْتَنَقَ مِنْهُ غُرْفًا وَأَعْتَلَقَ أَخْجَالًا؛ ذِي كَفَلٍ يَزِينُ سَرْجَهُ، وَذَيْلٍ يَسُدُّ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ مِنْهُ فَرْجَهُ؛ قَدْ أَطْلَعَتْهُ الرِّيَاضَةُ عَلَى مُرَادِ فَارِسِهِ، وَأَغْنَاهُ نُضَارُ لَوْنِهِ وَنَضَارَتُهُ عَنْ تَرْصِيعِ قَلَائِدِهِ وَتَوْشِيعِ مَلَابِسِهِ؛ لَهُ مِنَ الْبَرْقِ خِفَّةٌ وَطَنَةٌ وَخَطْفَةٌ؛ وَمِنْ النَّسِيمِ لَيْنٌ طُرُوقُهُ وَلَطْفَةٌ، وَمِنْ الرِّيحِ هَزِيرُهَا^(٤) إِذَا مَا جَرَى شَاوِينَ وَأَبْتَلَّ عِطْفُهُ؛ يَطِيرُ بِالْغَمَزِ، وَيَذْرِكُ بِالرِّيَاضَةِ مَوَاقِعَ الرَّمْزِ، وَيَغْدُو كَالْفِ الْوَصْلِ فِي اسْتِغْنَائِهِ وَمِثْلَهَا عَنِ الْهَمْزِ.

وَمِنْ أَخْضَرَ لَهُ مِنَ الرُّوضِ تَفْرِيفُهُ، وَمِنْ الْوَشْيِ تَقْسِيمُهُ وَتَأْلِيفُهُ؛ قَدْ كَسَاهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حُلَّتِي وَقَارَ وَسَنًا، وَأَجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْبَيَاضِ وَالسَّوَادِ ضِدَانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا، وَمَنَحَهُ الْبَازِي حُلَّةً وَشِيَهَ، وَأَعْطَتْهُ نُفُوحُ الرِّيَاحِ وَنَسَمَاتُهَا قُوَّةَ رَكْضِهِ وَخِفَّةَ مَشْيِهِ، يُعْطِيكَ أَفَانِينَ الْجَرِيِّ قَبْلَ سُؤَالِهِ، وَلَمَّا لَمْ يُسَافِقْ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْلِ أَغْرَاهُ حُبُّ الظَّفَرِ بِمَسَابَقَةِ خَيْالِهِ؛ كَأَنَّهُ تَفَارِيقُ شَيْبٍ فِي سَوَادٍ عِذَارٍ، أَوْ طَلَائِعُ فَجَرٍ خَالِطٍ بَيَاضَهُ الدُّجَى، فَمَا سَجَى^(٥) وَمَازَجَ ظِلَامُهُ النَّهَارَ، فَمَا أَنَارَ، يَخْتَالُ لِمِشَارِكَةِ أَسْمِ الْجَرِيِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ فِي شِدَّةِ السَّيْرِ كَالسَّيْلِ، وَيَدُلُّ بِسَبْقِهِ عَلَى الْمَعْنَى الْمَشْتَرِكِ بَيْنَ الْبُرُوقِ اللَّوَامِعِ وَبَيْنَ الْبَرْقِيَةِ مِنَ الْخَيْلِ، وَيَكْذِبُ الْمَانُويَّةَ^(٦) لَتَوَلَّدَ الْيُمْنُ فِيهِ بَيْنَ إِضَاءَةِ النَّهَارِ وَظُلْمَةِ اللَّيْلِ.

وَمِنْ أَبْلَقَ ظَهْرُهُ حَرَمَ، وَجَزِيهَ ضَرَمَ^(٧)؛ إِنْ قَصَدَ غَايَةَ فَوْجُودَ الْقَضَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا

(١) اللبان: الصدر.

(٢) إشارة إلى بيت من معلقة عنترة بن شداد العبسي.

(٣) العين: الذهب المضروب.

(٤) هزير الريح: ودويها عند هزها الشجر.

(٥) سجي: سكن.

(٦) المانوية: قوم ينسبون إلى ماني، وهو من الثنوين الذين يقولون بالنور والظلمة...

(٧) ضرم: جد في سيره وأسرع.

عَدَمَ، وَإِنْ صُرِفَ فِي حَرْبٍ فَعَمَلُهُ مَا يَشَاءُ الْبَنَانُ وَالْعِنَانُ وَفِعْلُهُ مَا تَرِيدُ الْكَفُّ وَالْقَدَمُ؛
 قَدْ طَابَقَ الْحَسَنُ الْبَدِيعُ بَيْنَ ضِدِّي لَوْنِهِ، وَدَلَّتْ عَلَى اجْتِمَاعِ التَّقْيِضَيْنِ عِلَّةُ كَوْنِهِ؛ وَأَشْبَهَ
 زَمَنَ الرَّبِيعِ بِاعْتِدَالِ اللَّيْلِ فِيهِ وَالنَّهَارِ، وَأَخَذَ وَصَفَ حُلَّتِي الدُّجَى فِي حَالَّتِي الْإِبْدَارِ^(١)
 وَالسَّرَارِ^(٢)؛ لَا تَكِلُ مَتَاكِبُهُ، وَلَا يَفْضِلُ فِي حَجَرَاتِ^(٣) الْجِيُوشِ رَاكِبُهُ، وَلَا يَحْتَاجُ لَيْلُهُ
 الْمَشْرِقُ بِمَجَاوِرَةِ نَهَارِهِ إِلَى أَنْ تُسْتَرَشَدَ فِيهِ كَوَاكِبُهُ؛ وَلَا يُجَارِيهِ الْخِيَالُ فَضْلاً عَنْ
 الْخَيْلِ، وَلَا يَمَلُّ السَّرَى إِلَّا إِذَا مَلَّ مُشْبِهَاهُ: النَّهَارُ وَاللَّيْلُ، وَلَا تَتَمَسَّكُ الْبُرُوقُ لِلْوَامِعِ
 مِنْ لَحَاقِهِ بِسُورِ الْأَثَرِ فَإِنْ جَهْدَتْ فَبِالذَّلِيلِ، فَهُوَ الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ، وَالْجَوَادُ الَّذِي لِمُجَارِيهِ
 الْعَكْسُ وَلَهُ الطَّرْدُ؛ قَدْ أَغْنَتْهُ شُهْرَةُ نَوْعِهِ فِي جَنْسِهِ عَنِ الْأَوْصَافِ، وَعَدَّلَ بِالرِّيَاحِ عَنْ
 مَبَارَاتِهِ سُلُوكُهَا لَهُ فِي الْاعْتِرَافِ جَاذَةَ الْإِنْصَافِ.

فَتَرَقَّى الْمَمْلُوكُ إِلَى رُتَبِ الْعِزِّ مِنْ ظَهُورِهَا، وَأَعَدَّهَا لِخُطْبَةِ الْجَنَانِ إِذِ الْجِهَادُ عَلَى
 مِثْلِهَا مِنْ أَنْفَسِ مُهُورِهَا، وَكَلِّفَ بِرُكُوبِهَا فَكَلِمًا أَكْمَلَهُ عَادَ، وَكَلِمًا أَمَلَهُ شَرِّهَ إِلَيْهِ فَلَوْ أَنَّهُ
 زَيْدُ الْخَيْلِ لَمَّا زَادَ؛ وَرَأَى مِنْ آدَابِهَا مَا دَلَّ عَلَى أَنَّهَا مِنْ أَكْرَمِ الْأَصَائِلِ، وَعَلِمَ أَنَّهَا
 لِيَوْمِي سِلْمُهُ وَخَزِيرُهُ حَنِيتٌ^(٤) الصَّائِدِ وَجُنَّةٌ^(٥) الصَّائِلِ؛ وَقَابَلَ إِحْسَانًا مُهْدِيَهَا بِثَنَائِهِ
 وَدُعَائِهِ، وَأَعَدَّهَا فِي الْجِهَادِ لِمُقَارَعَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهَا وَأَعْدَائِهِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَشْكُرُ
 بِرِّهَ الَّذِي أَفْرَدَهُ فِي النَّدَى بِمَذَاهِبِهِ، وَجَعَلَ الصَّافِنَاتِ الْجَيَادَ مِنْ بَعْضِ مَوَاهِبِهِ، وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ الْمَوْلَى الْفَاضِلِ تَاجِ الدِّينِ عَبْدِ الْبَاقِي^(٦) بْنِ عَبْدِ الْمَجِيدِ الْيَمَانِيِّ رِسَالَةً
 فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَنْشَأَهَا فِي سَنَةِ سِتٍّ أَوْ خَمْسٍ وَسَبْعِمِائَةٍ. وَسَمِعْتُهَا مِنْ لَفْظِهِ، وَنَقَلْتُهَا مِنْ
 إِمْلَائِهِ؛ وَهِيَ:

يَقْبَلُ الْيَدَ الْعَالِيَةَ الْفَلَانِيَّةَ، لَا زَالَتْ تُرْسِلُ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ سَحَابَ كَرَمِهَا، وَتَقْلُدُ الْأَوْدَاءَ
 قَلَانِدَ نَعِيمِهَا، وَلَا بَرِيحَ الْمُزْهَفَانِ طِرَازِي حَاشِيَتِهَا وَخَدَمِهَا، حَتَّى يَنْوَبَ الْقَلَمُ عَنْ صَلِيلِ
 مُزْهَفِهَا وَالصُّمَّصَامُ عَنْ صَرِيرِ قَلَمِهَا، لَتَتَسَاوَى فِي الْإِنْفَازِ مَوَاقِعُ كَلَمِهَا وَمَرَاسِمُ كَلِمِهَا؛ وَلَا
 فِتْنَاءَ ظَاهِرُهَا قِبْلَةَ الْقَبْلِ وَغَايَةَ الْأَمَالِ، وَبِاطْنُهَا مَوْزِدُ الْكِرَمِ وَمَصْدَرُ الْأَمْوَالِ.

(١) الْإِبْدَارُ: امْتِلَاءُ الْقَمَرِ وَكَمَالُهُ.

(٢) السَّرَارُ: اللَّيْلَةُ الَّتِي يَسْتَسِرُّ فِيهَا الْقَمَرُ، أَيْ يَغِيبُ.

(٣) الْحَجَرَةُ: النَّاحِيَةُ.

(٤) الْحَنِيتُ: الْقَوْسُ.

(٥) الْجَنَّةُ: كُلُّ مَا وَقَى مِنْ سِلَاحٍ وَغَيْرِهِ.

(٦) هُوَ تَاجُ الدِّينِ أَبُو الْمُحَاسِنِ عَبْدِ الْبَاقِي بْنِ عَبْدِ الْمَجِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَلَدَ بِمَكَّةَ الْمَشْرِقَةِ سَنَةَ ٦٨٠ هـ،
 وَكَانَ إِمَامًا فَاضِلًا أَدِيبًا بَلِيغًا...

ويُنهي أنه لما كانت العزائم الفلانية طامحةً إلى أَسْنَى المَعَالِي، مُطْلَعَةً من مناقبها أهلةٌ تُخْجَلْ بدورَ الليالي؛ متيِّمةً باكتساب المَفَاخر، عميدةٌ بتشييد المآثر، ماثلةٌ إلى ما يَزِين المَقَانِب^(١)، ويطرُزُ الكتائب، مُضْغِيَةً إلى ما يرد جنابها من جنائتها لا غير، وكيف لا تكون كذلك وحبُّ الخيل من الخير؛ ناظرةٌ إلى ما يصل من كرائمها، مهتديةٌ بنجوم غُررها مشغوفةٌ بتحجِيل قوائمها؛ عاشقةٌ لاتساع صدورها، ورقَّةٌ نحورها.

خَدَم المملوك الرُّكَّابَ العالي بِإِنْفَاز خيل أَتَحَدَّث في الصفات، وتباينت في الشَّيَات؛ وصَدَرَتْ كروضةٌ تَفْتَحُ أَزْهَارُهَا، وَزَهَا نُوَارُهَا، وَأَشْرَقَتْ أَنْوَارُهَا؛ بل كعرائسٍ تُخْتَالُ في بُرُودِهَا^(٢)، أو كجواهرٍ تنافست في عقودِها؛ ملكتها يمينُ المملوك فكانت كعدد أصابعها، وأحرزتها همته فنزعت في الحزم إلى مَنَازِعِهَا؛ لها من الظباء أعناقُهَا، ومن النعام أسواقُهَا^(٣)؛ ومن البأس قوةٌ جَنَانِهَا، ومن الظفر مثنى عِنَانِهَا، ومن الإقبال غَرَرُ نَوَاصِيهَا، ومن إدراك الغرض جُلُ أَمَانِيهَا، ذَوَاتُ ضَبْحٍ^(٤)، ومُورِيَاتُ^(٥) قَدَحٍ؛ تَكْبُو الرِّيحُ في غَايَاتِهَا، وَيَقَرُّ البرقُ بِمُعْجَزَاتِهَا، مَدَاخِلُ الخَلْقِ رَحْبَةُ اللَّبَانِ^(٦)، مستغنيةٌ عن الهمز بتحريك العنان، تَقَارِبُ ما بين قَطَاها^(٧) وَمَطَاها^(٨)، وَتَبَاعَدُ ما بين قَذَالِهَا^(٩) وَصَلَاها^(١٠)؛ سَمَا عُنُقُهَا وَأَطْرَقَ جَبِينُهَا، وَتَنَزَّهَتْ عن المعاييب فلا صَكَكَ^(١١) يَشِينُهَا؛ يَا حَبْدًا أَشْهَبُهَا، وَقَدْ تَجَلَّلَتْ بِالشَّهْبِ ذَاتُهَا، وَأَذْرَعَتْ أَشْهَبَ الصَّبْحِ شَيَاتُهَا؛ رَبَّرَجِدِي الحافر لَوْلُوِي الأديم، لَهُ أَيْطَلَا ظَلِي وَسَاقَا ظَلِيمٍ؛ كَغَمَامَةٍ بَارِقُهَا قَدَحٌ سَنَابِكُهَا، أَوْ كَسِيلٍ طَمَّ مُفْعِمُهُ وَاسِعَ مَسَالِكِهِ؛ اسْتَغْنَى بِجَوْهَرِ شَيَاتِهِ عَنْ كُلِّ مُذْهَبٍ، فَمَا لِمُذْهَبٍ فِي الْإِنْتِسَابِ عَنْهُ مُذْهَبٌ؛ إِنْ أَمْتَطَى الْفَارَسُ قَطَاتَهُ طَارَ بِنَسْرِ حَافِرِهِ، وَإِنْ أَشَارَ إِلَى غَرَضٍ أَدْرَكَهُ بِمَجْرَدِ الْوَهْمِ لَا بِالنَّظَرِ إِلَى نَازِرِهِ؛ أَمِيَالُ الْبَيْدَاءِ كَمِيلٍ بَيْنَ عَيْنِيهِ، وَتَرَادُفُ رَمَالِهَا كَذُرُورٍ بَيْنَ جَفْنِيهِ؛ اسْتَوْلَى عَلَى السَّبْقِ^(١٢) وَأَخْرَزَ خُصْلَةً، وَكَيْفَ لَا وَقَدْ حَازَ اثْنِي عَشْرَةَ خُصْلَةً.

يَتَلَوَّهَا أَشْقَرُهَا وَقَدْ نُجِدَ عَقِيْقًا، أَوْ أَلْتَحَفَ شَقِيْقًا^(١٣)؛ أَوْ كَوَجْنَةً قَدْ أَحْمَرَتْ مِنْ

(١) المقانب: جمع مقنب، وهو من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين.

(٢) البرود: واحدها البرد، وهو كساء مخطط يلتحف به.

(٣) أسواق النعام: سيقانها. (٤) الضبح: صوت الفرس.

(٥) الموريات: التي تخرج النار، والقذح: الضرب.

(٦) اللبان: الصدر. (٧) القطا: المعجز.

(٨) المطا: الظهر. (٩) القذال: جماع مؤخر الرأس.

(١٠) الصلا: وسط الظهر. (١١) الصكك: اضطراب الركبتين والعرويين.

(١٢) السبق: هو ما يتراهن عليه أهل السباق.

(١٣) الشقيق: نور أحمر.

الخجل، أو كوردة ناظرت بحفرها نرجس المقل، تناسبت أجزاءه في الملاحه،
وتساوت مراتبه في الصباحه؛ وجاهه الوجيه ناطقه من المحيا، ومسيل غرته كتصويب
الثريا، وحجل بالجوزاء وأسرج بالهلال، وألجم بالمجرة فما لابن ذكاء^(١) في الإشراق
عليه مجال؛ إن أطلق والريح في سنن ميدان، رأيت الريح ككمنيت خلفته الجياذ يوم
الرهان؛ تنهب الفلاة حوافره، وتخرز قصب السبق بواذره. يتبعه كمنيت كقطعة جمر،
أو ككأس خمر، اسود ذنبه وغرّفه، وأختال كالنشوان فكأنما أسكره وصفه، حكّت
أذناه قادمتي حمامة، أو المحرف من أقلام قدامة؛ قصرت عن سعيه الخيول فسابق
الظلال، ونشأ مع النعام فلا يألّف غير الرئال^(٢)؛ كأن الصبا ألقت إليه عنانها فسراً،
فتخب بسرجه مرة وتناقل أخرى. مقروناً بأصفر كالدينار، قد أفرغت عليه حلة نور لا
نار؛ طال منه الذيل واتسع اللبان، فكأنما هو نار على يفاع^(٣) شبت للضيفان؛ جلّته
الشمس بأنوارها، وأهدت إليه الرياض أصفرار أزهارها؛ تشهدك عند رؤيته يوم
الغرض، فروج قوائمه سماء على أرض؛ إن هملج^(٤) لاذت الريح بالشجر، وإن عدا
قصر عن إدراكه رؤية البصر، نجاشي النجار^(٥)، وحليف الوجار^(٦)؛ كأنما خلق من
الحزم شطره، ومن العزّ ظهره؛ ومن الإقبال غرته، ومن كنوز المفاجر سرته؛ يقرّ
أعوج بني هلال بفضل، ويقفو حزون^(٧) مسلم أثر ظله. مختوماً بأدهم كصخرة سيل،
أو كقطعة ليل؛ خاض في أحشاء الصباح فلطم جيئه، وسابق الفلك فقيد بالجوزاء
رجليه ويساره وأطلق يمينه؛ عريض الكفل والمنخرين، دقيق القوائم والساقين؛ كأنما
أشرب لونه سواد القلب والبصر، وكأنما النصر قيس وهو ليلي^(٨) يخضره حيث حضر؛
لو كتب اسمه على راية لم تزل تقدّم فتوحاً، أو لمعت بوارق سنابكه رأيت زنجياً
جريحاً؛ طابقت أخباره لمخبره، وسبقت رجلاه في العدو مواقع نظره؛ لا يغلق
غراب^(٩) بغباره، ولا تستن النعامة^(١٠) في مضماره.

(١) ابن ذكاء: يراد به الصبح.

(٢) الرئال: جمع الرأل، وهو فرخ النعام.

(٣) اليفاع: المرتفع من كل شيء، يكون في المشرف من الأرض والجبل والرميل وغيرها.

(٤) هملجت الدابة: إذا سارت سيراً حسناً في سرعة.

(٥) النجار: اللون، ويطلق على الأصل والحسب.

(٦) الوجار: الجحر للضيع والأسد ونحوهما من الوحوش.

(٧) حزون: هو فرس مسلم بن عمرو الباهلي.

(٨) هي ليلي صاحبة قيس بن الملوح.

(٩) غراب: اسم فرس لغني.

(١٠) تستن النعامة في مضماره: أي تجري في نشاط.

ولنختم هذا الباب بذكر فائدة، وهي دواء للخُلْد^(١): يؤخذ خمسون طائراً من الدَّرَارِيحُ تُسَحَّقُ بحجر ولا تُمَسَّ باليد، وتجعل في قَدْر صغيرة جديدة، ويصَّب عليها من الماء والزيت ما يغمُرُه، ويُغَلَى عليه حتى ينعقد، ويضاف إليه يسيراً من القَطْران الأسود، ويوضع على النار، فإذا فَرَّ فُتِلَتْ مُشَاقَّة^(٢) على عود ويُدَهَن به أُمُّ الخُلْد قبل قطعه بالنار، ثم يدهن بعد ثلاثة أيام بالشَّيرَج^(٣) والصَّيْلَقون وماء الورد؛ فإنه مجرَّب.

الباب الثاني

من القسم الثالث من الفن الثالث في البغالِ والحَمِيرِ

ذكر ما قيل في البغالِ

قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: إنَّ البغل لا يعيش له ولد، وليس بعقيم؛ ولا يبقى للبغلة ولد، وليست بعاقِر، وهو أطول عمراً من أبويه وأصبر. ويقال: إنَّ أول من نَتَجَ البغال «قارون»، وقيل: «أفريدون»^(٤) أحد ملوك الفرس الأول. والبغلُ يوصفُ برداءة الأخلاق والتلون. ومن أخلاق البغالِ الإلف لكل دابة. ويقال: إنَّ أبوال الإناث تنقية لأجسادها. والإناث أجملُ من الذكور. قال بعض الشعراء: [من الرجز]

عليك بالبغلة دون البغلِ فإنها جامعةٌ للشُّنلِ

مركبٌ قاضٍ وإمامٌ عدلٍ وعالمٌ وسيّدٌ وكَهْلِ

* تصلحُ للرَّحْلِ وغيرِ الرحلي *

والبغال من مراكب الرؤساء، والسادة النجباء، والقضاة والعلماء. وهم يُرَجَّحون إنانها على ذكورها؛ حتى إن المغاربة لا يركبون البغال الذكور ألبتة وإنما يجعلونها برسم حمل الزُّبُل. أخبرني قاضي القضاة جمال الدين أبو محمد بن سليمان بذلك، وقال: وإذا طلب وليُّ الأمر البغل لأحدٍ كان ذلك دلالةً على إشهاره^(٥). وتجريسه^(٦) عليه. قال: فلا يركب البغل الذكور عندنا إلا زَبَالٌ أو مُجَرَّس. وأعظم ما تُفْضَلُ به إناثُ

(١) الخلد: داء في الفرس بمنزلة الجذام في الإنسان.

(٢) المشاققة: ما سقط من الشعر ونحوهما عند المشط.

(٣) الشيرج: زيت السمسم.

(٤) هو سادس ملوك الطبقة الأولى من الفرس.

(٥) إشهاره: إعلانه وإذاعته.

(٦) التجريس بالقوم: التسميع بهم والتشهير.

البغال على ذكورها أَنَّ رسول الله ﷺ ركبها وملكها؛ وما ورد أنه ملك بغلاً ولا ركبها .
ولندكر بَعَلَاتِ رسول الله ﷺ تفضيلاً لهذا الحيوان وتشريفاً؛ وتنوياً بذكره
وتعريفاً؛ والله أعلم .

ذكر بَعَلَاتِ رسول الله ﷺ

كان لرسول الله ﷺ بغلة شهباء يقال لها «دُلْدُل»، أهداها له المُقَوِّس . ذكر ذلك
أَبْنُ قُتَيْبَةَ وَأَبْنُ سَعْدٍ^(١)؛ فقال أَبْنُ سَعْدٍ ما هذا نصه: «وبعث رسول الله ﷺ حاطب بن
أبي بَلْتَعَةَ اللَّخْمِي، وهو أحد الستة، إلى المُقَوِّس صاحب الإسكندرية عظيم القبط
يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتاباً، فأوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه وقال له
خيراً؛ وأخذ الكتاب فجعله في حُقٍّ^(٢) من عاج وختم عليه ودفعه إلى جاريته؛ وكتب
إلى النبي ﷺ: قد علمتُ أن نبياً قد بقي، وكنتُ أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت
رسولك وبعثتُ إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وقد أهديت إليك كُسوة
وبغلة تركبها». ولم يَزِدْ على هذا ولم يُسَلِّمْ. فقبل رسول الله ﷺ هديته، وأخذ
الجاريتين: ماريةَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ رسول الله ﷺ، وأختها سيرينَ. وبغلة بيضاء لم يكن
في العرب يومئذٍ غيرها وهي «دُلْدُل». وقال رسول الله ﷺ: «ضَنُّ الخبيث بمُلْكِهِ ولا
بقاءَ لمُلْكِهِ».

وذكر ابن سعد أيضاً قال: «دُلْدُل» بغلة رسول الله ﷺ أولَ بغلة رُئِيت في
الإسلام، أهداها له المُقَوِّس وأهدى معها حميراً يقال له: «عَفِير»؛ فكانت البغلة قد
بقيت حتى كان زمنُ معاوية. وفي لفظ: وكانت شهباء، وكانت يَبْتُوع حتى ماتت ثُمَّ .
وفي لفظ: وكانت قد كَبُرَتْ حتى زالت أسنانها، وكان يُجَشَّ^(٣) لها الشعر .

وروى ابن سعد أيضاً عن محمد بن عمر الأَسْلَمِي قال: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ زَائِلِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: أَهْدَى فَرْوَةَ بْنِ عَمْرٍو إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بغلة
يقال لها: «فِضَّة» فوهبها لأبي بكر. وكذلك قال الْبَلَاذُرِيُّ^(٤). وقد يقال: إن «دُلْدُل»
من هدية فَرْوَةَ، وإن «فِضَّة»، من هدية المُقَوِّس .

(١) هو محمد بن سعد كاتب الواقدي وصاحب الطبقات .

(٢) الحَقُّ: وعاء صغير ذو عطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما .

(٣) جَشَّ الحب: جرشه .

(٤) هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري، أديب، شاعر، مؤرخ من أهل بغداد. سمع
بدمشق وبأنطاكية، وكان أحد النقلة من الفارسية إلى العربية... كانت وفاته سنة ٢٧٩ هجرية...
(معجم المؤلفين ٢: ٢٠١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أهدى للنبي ﷺ بغلة أهداها له كسرى؛ فركبها بجُلٍّ^(١) من شعر ثم أَرَدَفْنِي خَلْفَهُ. رواه الثَّعَالِبِيُّ. في تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَعْثًا لَكَ مِنْ شَيْءٍ فَلَا تَكْشِفْ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]. قال الشيخ شرف الدين عبد المؤمن الدِّمِيَّاطِيُّ رحمه الله: قوله: «أهداها له كسرى» بعيد؛ لأنه مرزق كتاب النبي ﷺ وأمر عامله باليمن بقتله وبعث رأسه إليه؛ فأهلكه الله بكفره وطغيانه.

وروى مسلم بن الحجاج^(٢) رحمه الله من حديث أبي حُمَيْد السَّاعِدِيِّ قال: غزونا مع رسول الله ﷺ تَبُوكَ؛ فذكر الحديث؛ وقال فيه: وجاء رسول ابن العلماء صاحب أَيْلَةَ إلى رسول الله ﷺ بكتاب وأهدى له بغلة بيضاء؛ فكتب إليه رسول الله ﷺ وأهدى له بُزْدًا. رواه البخاري في كتاب الجَزِيَّةِ وَالْمُوَادَعَةِ بعد الجهاد؛ ورواه أبو نُعَيْم في المستخرج. ولفظهما: «وَأَهْدَى مَلِكَ أَيْلَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بغلة بيضاء فكساه بُزْدًا»؛ وقال أبو نُعَيْم: بُزْدَةٌ.

وقال ابن سعد: وبعث صاحب^(٣) دُومَةِ الْجَنْدَلِ^(٤) لرسول الله ﷺ ببغلة وجبة من سُندُس.

وروى إبراهيم^(٥) الحَزْبِيُّ في كتاب الهدايا عن علي رضي الله عنه قال: وأهدى يُحْنَةَ بَنَ رُوبَةَ إلى رسول الله ﷺ بغلته البيضاء.

وروى يوسف بن صُهَيْب عن ابن بُرَيْدَةَ^(٦) عن أبيه قال: انكشف الناس عن النبي ﷺ يَوْمَ حُتَيْنَ ورسول الله ﷺ على بغلته الشَّهْبَاءِ التي أهداها له النَّجَاشِيُّ وزيْدٌ أَخَذَ بِرِكَابِ بَغْلَتِهِ، وذكر علي بن محمد بن حُتَيْنَ بن عَبْدِوَس الكُوفِيِّ في أسماء خيله وسلاحه وأثاثه: وكان أسم بغلته «ذُلْدُل» أهداها إليه الْمُقَوْسُ صاحب الإسكندرية وكانت شَهْبَاءَ؛ وهي التي قال لها يوم حنين: «ارْزِضِي» فَرِضْتُ. ويقال: إن علياً ركبها بعد النبي ﷺ ثم ركبها الحسن ثم ركبها الحسين ثم ركبها محمد ابن الحنفية رضي الله عنهم، ثم كَبِرَتْ وَعَمِيَتْ، فَوَقَعَتْ فِي مَبْطَخَةٍ^(٧) لبعض بني مُذَلْجٍ فَخَبِطَتْ

(١) الجُلّ: ما تليسه الدابة لتصان به.

(٢) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري، صاحب الصحيح (الوفيات ٥: ١٩٤).

(٣) هو أكيدر بن عبد الملك.

(٤) موضع على سبع مراحل من دمشق، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل.

(٥) هو إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله الحربي (أبو إسحاق)، محدث، فقيه، أديب، أصله من مرو، ومات ببغداد، لتسع ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٨٥هـ... (معجم المؤلفين ١: ١٢).

(٦) هو عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي.

(٧) المبطخة: منبت البطيخ.

فيها^(١)، فرماها بسهم فقتلها.

وكانت له بغلة يقال لها: «الْأَيْلِيَّة»؛ أهداها إليه ملكُ أَيْلَة، وكانت طويلة مُخَنَّدَةً^(٢) كأنما تقوم على رمال حسنة السير، فأعجبته ووقع منه. وهي التي قال له فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين خرج عليها: كأن هذه البغلة قد أعجبتك يا رسول الله؟ قال: «نعم» قال: لو شئنا لكان لك مثلها؛ قال: «وكيف»؛ قال: هذه أمها فرس عربيّة وأبوها حمار، ولو أنزينا حماراً على فرس لجاءت بمثل هذه؛ فقال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون».

وعن دُخْبَة بن خَلِيفَة^(٣) الكلبي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ألا أخيل لك حماراً على فرس فتنتج لك بغلة؟ فقال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعقلون». رواه ابن منده في كتاب الصحابة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ عبداً مأموراً، ما اختصنا دون الناس بشيء إلا بثلاث: أمرنا أن نُسبغ الوضوء، وألا نأكل الصدقة، وألا نُنزّي حماراً على فرس. رواه الترمذي في الجهاد. وفي لفظ آخر عنه رضي الله عنه: كان عبداً مأموراً بلغ ما أُرسل به، وما اختصنا دون الناس بشيء إلا بثلاث خصال: أمرنا أن نُسبغ الوضوء، وألا نأكل الصدقة، وإلا نُنزّي الحمار على الفرس. وهذا على هذين الحديثين يختص بآل النبي ﷺ دون غيرهم.

والذي يظهر من مجموع هذه الأحاديث المزوية التي أوردناها أن بَغَلَاتِ رسول الله ﷺ كانت سبعاً، وهي: «الدُّلْدُل» التي أهداها له الْمُقَوِّس، و«فُضَّة» التي أهداها له فَرْوَة بن عمرو، وبغلة أهداها له كَسْرَى، وبغلته الأَيْلِيَّة التي أهداها له ابن العَلَماء صاحب أَيْلَة، وبغلة بعثها له صاحب دومة الجندل، وبغلة أهداها له يُحَنَّة بن رُوبَة، وبغلة أهداها له الثَّجَاشِي صاحب الحَبْشَة. والله تعالى أعلم بالصواب.

ذِكْرُ شَيْءٍ مِمَّا وُصِفَتْ بِهِ الْبَغَالُ

قد ألّف الجاحظ كتاباً في البغال مفرداً عن كتاب الحيوان، قال فيه ما نصه: «نبدأ إن شاء الله بما وُصِفَ الأشرافُ من شأن البغلة في حسن سيرتها، وتمام خلقتها، والأمور الدالة على السز في جوهرها، وعلى وجوه الارتفاق بها، وعلى تصرفها في

(١) خبطت الدابة: أي مشت على غير هدى.

(٢) الخندفة: مشي كالهرولة.

(٣) هو صحابي مشهور شهد أحد والخندق واليرموك وكان رجلاً جميلاً... وعاش إلى خلافة معاوية.

وقد جاء جبريل على صورته في غزوة بني قريظة...

منافعها، وعلى خِقة مؤونتها في التنقل في أمكنتها وأزمنتها، ولم كلف الأشراف بارتباطها مع كثرة ما يزعمون من عيوبها، ولم آثروها على ما هو أدوم طهارة خلقي منها، وكيف ظهر فضلها مع النقص الذي هو فيها، وكيف أغتفروا مكروها فيها لما وجدوا من خصال المحبوب فيها.

قال: ولقد كلف بارتباطها الأشراف حتى لُقّب بعضهم من أجل أشتهاره بها بـ «رَوَاضِ البغال»، ولَقَّبوا آخر بـ «عاشق البغل». فيسط القول في الترجمة ثم لم يأت من أخبار البغال بطائل، بل أقتصر على حكايات وأستطرد منها إلى غيرها، على عادته في مصنفاته. فكان مما حكاه من ذلك:

قال مَسْلَمَةُ بن عبد الملك: ما ركب الناس مثل بغلة طويلة العنان، قصيرة العذار، سفواء^(١) العُزف، حصاء^(٢) الذنب.

قال: وكتب رَوْحُ بن عبد الملك إلى وكيل له: انبغي بغلة حصاء الذنب، عظيمة المخزم، طويلة العنق، سوطها عنانها، وهواها إمامها.

قال: وعاتب صفوان بن عبد الله بن الأَهمم عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب في ركوب البغال، وكان ركاباً للبغلة، فقال له: ما لك ولهذا المركب الذي لا يدرك عليه الثار، ولا ينجيك يوم الفرار؟! فقال: إنها نزلت عن خيلاء الخيل، وارتفعت عن ذلة الغير، وخير الأمور أوساطها. فقال صفوان: إنا نعلمكم، فإذا علمتم تعلمنا منكم. وهو الذي يلقب «رَوَاضِ البغال»، لحذقه بركوبها، ولشغفه بها، وحسن قيامه عليها. وكان يقول: أريدها واسعة الجفرة^(٣)، مندحة^(٤) الشرة، شديدة الغلوة^(٥) بعيدة الخطوة، ليئة الظهر، ملوثة الرُشح، سفواء جزاء عتقاء، طويلة الأنقاء^(٦).

قال: وقال ابن كُثَّامة: سمعت رجلاً يقول: إذا اشتريت بغلة، فاشتريها طويلة العنق، تجده في نجانها، مشرفة الهادي، تجده في طباعها؛ ضخمة الجوف، تجده في صبرها.

قال: ولما خرج قطري بن الفجاءة^(٧) أحب أن يجمع إلى رأيه رأي غيره؛ فدرس

(١) السفواء: الخفيفة شهر الناصية.

(٢) حصاء الذنب: قليلة شعره.

(٣) الجفرة: وسط الفرس.

(٤) مندحة: متسعة.

(٥) الغلوة: أمد جري الفرس وسوطه.

(٦) الأنقاء: العظام ذوات المخ.

(٧) قطري بن الفجاءة من رجالات بني كابية، كان رئيساً للأزارقة، ودعي أمير المؤمنين عشرين سنة وقتل بالري في آخر أيام الحجاج... (الاشتقاق).

إلى الأحنف بن قيس^(١) رجلاً يُجْري ذكره في مجلسه ويحفظ عنه ما يقول؛ فلما قعد قال الأحنف: أما إنهم إن جنبوا بنات الصَّهال^(٢)، وركبوا بنات النَّهَّاق^(٣)، وأمَسُوا بأَرْضٍ وأصبحوا بأَرْضٍ، طال أمرهم.

قال الجاحظ: فلا ترى صاحبَ الحربِ يَسْتَغني عن البغال، كما لا ترى صاحبَ السَّلمِ يَسْتَغني عنها، وترى صاحبَ السفرِ كصاحبِ الحَضَرِ. انتهى كلام الجاحظ.

وحكي أنَّ عبد الحميد الكاتب سائر مَرَوَانَ بن محمد الجَعْدِيَّ على بغلة؛ فقال له: لقد طالت صحبة هذه الدابة لك!؛ فقال: يا أمير المؤمنين، من بركة الدابة طولُ صحبتها. فقال: صِفْها؛ فقال: همُّها إمامُها، وسَوَطُها زِمَامُها، وما ضَرِبَتْ قطُّ إلا ظِلماً.

وقال بعضُ الكتاب من رسالة: «قد أختَرْتُ لسيدي بغلةً وثيقةَ الخَلْقِ، لطيفةَ الخَرْطِ^(٤)، رشيقةَ القَدِّ، موصوفةَ السير، ميمونة الطير، مُشْرِفةُ العُنُقِ، كريمةُ النَّجَارِ، حميدةُ الآثارِ.

إن أُنْبِرْتُ قَلْتَ لا تَلِيلَ لها أو أقبلتُ قَلْتَ ما لها كَفَلُ^(٥) قد جمعتُ إلى حسن القميص، سلامةَ الفُصُوصِ^(٦)؛ فَسُمِّيَتْ قَيْدَ الأَوَابِدِ، وقرّةَ عين السَّاهِدِ؛ تُزْري في أنظلاقها، بالبروق في أثْلَافِها».

قال البُخْتَرِيُّ يصف بغلاً:

وأقْبَ نَهْدٍ لِلصَّوَاهِلِ شَطْرُهُ يَوْمَ الفَخَّارِ وشَطْرُهُ لِلشُّحْجِ^(٧)
خَرِقَ يَتِيَهُ عَلَى أَبِيهِ وَيَدْعِي عَصِيَّةَ لَبْنِي الضُّبَيْبِ وَأَعْوَجِ^(٨)
مِثْلَ الْمُذْرَعِ جَاءَ بَيْنَ عُمُومَةٍ فِي غَافِقٍ وَخُؤُولَةٍ لِلخَزْرَجِ^(٩)

(١) هو أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزال بن مرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن زيد مناة بن تميم التميمي المعروف بالأحنف، وقيل: اسمه صخر، وهو الذي يضرب به المثل في الحلم... (الوفيات ٢: ٤٩٩).

(٢) بنات الصهال: الخيل.

(٣) بنات النهاق: الحمير.

(٤) خرطت الدابة: سلحت.

(٥) التليل: العنق.

(٦) الفصوص في الفرس: مفاصيل ركبتيه وأرساغه.

(٧) الصواهر: الخيل - والشحج، أو بنات الشحاج: البغال.

(٨) الضبيب: فرس حسان بن حنظلة الطائي.

(٩) المذرع: الذي أمه أشرف من أبيه - وغافق: قبيلة من الأزد.

وقال أبو الفرج الوأواء من قصيدة يشكر بعض أصحابه وقد أهدي له بغلة: [من

البيسط]

قد جاءت البغلة السّفواء يَجْنُبُها للبرق غيثٌ بدا ينهلُ ماطرُهُ
عَرِيقَةٌ ناسبتُ أخوالَها فلها بالعثق من أكرم الجنسين فآخرُهُ
ملء الحِزام وملء العينِ مُسْفِرَةٌ يُريك غائبها في الحسن حاضِرُهُ
أَهْدَى لها الرّوض من أوصافه شَيْءٌ خَضراء ناضرة إن زال ناضِرُهُ
ليست بأول حُمْلانٍ شَرِيتَ به حمدي ولا هي يا ذا الجودِ آخِرُهُ^(١)
كما قد تقدّمها من سابح بيدي عِناؤه وعلى الجَوْزا حوافِرُهُ

وقال أبو المكارم بن عبد السلام: [من البيسط]

كأنها النارُ في الحلفاء إن ركضت كأنها السيلُ إن وافتك من جبلٍ
كأنها الأرضُ إن قامت لمُعْتَلِفٍ كأنها الريحُ إن مرّت على القُللِ
ما يعرف الفكرُ منها منتهى خُضِرٍ ما صوّر الوهمُ فيها وضمة الكَسَلِ
إذا اقتعدت مطّاهها وهي ماشيةٌ تُهلانُ تُبصره في زِيٍّ مُتَقَبِلِ

هذا ما اتفق إيراده من صفات البغال التي تقتضي المدح .

فأما ما جاء في ذمها فالمثل المضروب في بغلة أبي دلامة . وقال أبو دلامة^(٢) في

بغلته: [من الوافر]

أبعد الحَيلِ أركبُها وراداً وشُقراً في الرّعيلِ إلى القتالِ^(٣)
رُزِقْتُ بُغيلةً فيها وكالٌ وخيرُ خصالِها فَرَطُ الوُكّالِ^(٤)
رأيتُ عيوبها كثرث وعالت ولو أقنيتُ مجتهداً مقالِي
تقوم فما تريم إذا استُجِحَّتْ وتَزَمَّحُ باليمينِ والشّماليِ^(٥)
رياضة جاهلٍ وعُليجِ سوءٍ من الأكرادِ أخبَنَ ذي سَعالِ^(٦)

(١) الحملان: ما يحمل على الدواب في الهبة خاصة.

(٢) أبو دلامة: هو زيد بن الجون مولى بني أسد، وكان منقطعاً إلى أبي العباس السفاح... (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٠٠).

(٣) الرعيل: القطعة المتقدمة من الخيل.

(٤) الوكال: البطء والبلادة.

(٥) فما تريم: أي فما تبرح مكانها.

(٦) الأحين: العظيم البطن.

شَتِيمِ الْوَجْهِ هَلْبَاجٍ هَذَانِ
فَأَذَبَهَا بِأَخْلَاقٍ سِمَاجٍ
فَلَمَّا هَدَنِي وَنَفَى رُقَادِي
أَتَيْتُ بِهَا الْكُنَاسَةَ مُسْتَغِيثًا
بِعَهْدَةِ سِلْعَةٍ رَذَتْ قَدِيمًا
فَبَيْنَمَا فِكْرَتِي فِي الْقَوْمِ تُسَدِّي
أَتَانِي خَائِبٌ حَمِيقٌ شَقِيٌّ
وَرَأَوْعَنِي لِيُخْلَوَ بِي خِدَاعًا
فَقُلْتُ بِأَرْبَعِينَ فَقَالَ أَحْسِنِ
فَلَمَّا أَبْتَاعَهَا مِنِّي وَبُتِّتْ
أَخَذْتُ بِثَوْبِهِ وَبَرِئْتُ مِمَّا
بَرِئْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَشْشٍ قَدِيمٍ
وَمَنْ قَزَطَ الْجِرَانِ وَمَنْ جَمَاحٍ
وَمَنْ عَقَرَ اللِّسَانَ وَمَنْ بِيَاضٍ
وَعُقَّالٍ يُلَازِمُهَا شَدِيدٍ
تُقَطِّعُ جِلْدَهَا جَرَبًا وَحَكَاً
وَمَنْ شَدَّ الْعِضَاضَ وَمَنْ شَبَابٍ
وَأَقْطَفُ مِنْ دَبِيبِ الذَّرِّ مَشِيًّا

نَعُوسٍ يَوْمَ حُلٍّ وَأَرْتَحَالٍ^(١)
جَزَاهُ اللَّهُ شَرًّا عَنْ عِيَالِي
وَطَالَ لَذَاكَ هَمِّي وَاشْتَغَالِي
أَفَكَّرُ دَائِبًا كَيْفَ أَحْتَبَالِي^(٢)
أَطُمُّ بِهَا عَلَى الدَّاءِ الْعُضَالِ^(٣)
إِذَا مَا سُمْتُ أَزْخَصُ أَمْ أَعَالِي
قَدِيمٌ فِي الْخَسَارَةِ وَالضَّلَالِ
وَلَا يَذَرِي الشَّقِيَّ بَمَنْ يُخَالِي
فَإِنْ الْبَيْعَ مَرْتَحَصُ وَغَالِي
لَهُ فِي الْبَيْعِ غَيْرَ الْمُسْتَقَالِ
أَعُدُّ عَلَيْكَ مِنْ شَنِيعِ الْخِصَالِ
وَمَنْ جَرَدَ وَتَخْرِيقِ الْجِلَالِ^(٤)
وَمَنْ ضَعَفَ الْأَسْفَلَ وَالْأَعَالِي^(٥)
بِنَازِرِهَا وَمَنْ حُلَّ الْجَبَالِ
وَمَنْ هَذَمَ الْمَعَالِفِ وَالرُّكَّالِ^(٦)
إِذَا هُزِلْتُ وَفِي غَيْرِ الْهُزَالِ
إِذَا مَا هَمَّ صَخْبُكَ بِالرُّقَالِ^(٧)
وَتَنْحَطُّ مِنْ مُتَابَعَةِ السُّعَالِ^(٨)

- (١) الهلباج: الوحش الأكل الشروب - والهدان: الوحش الثقيل في الحرب.
- (٢) الكناسة: اسم موضع بالكوفة.
- (٣) العهدة: الرجعة.
- (٤) المشش: ورم يأخذ في مقدم عظم الوظيف أو باطن الساق في أنسيه - والجرد في الدواب: ورم في مؤخرة عرقوب الفرس.
- (٥) الحران: وقوف الدابة حين يطلب جريها ورجوعها القهقري.
- (٦) العقال: داء يأخذ في قوائم الدابة - والركال: أن يضرب برجله الأرض.
- (٧) الشباب: رفع الفرس يديه جميعاً من الأرض.
- (٨) القطوف من الدواب: البطيء السير - وتنحط: تصورت من الثقل والإعياء.

وتكسر سرجها أبداً شماساً
ويَهزِلُها الجَمَامُ إذا خَصِبْنَا
تَظَلُّ لِرَكْبَةٍ مِنْهَا وَقِينَذَا
وتَضَرِّطُ أربَعين إذا وَقَفْنَا
فتُخْرِسُ منطقي وتُحَوِّلُ بيني
وقد أعيثَ سياستها المُكَارِي
حُرُونٌ حينَ تركبُها الحُضِرُ
وذئِبٌ حينَ تُذْنِبُها لَسَرَجٌ
وفيلٌ إن أردتَ بها بُكُوراً
وَألفُ عصاً وَسَوِطٌ أَضْبَجِي
وتُضَعِّقُ من صِيَّاحِ الدَّيْكِ شهراً
إذا أَسْتَغْجَلْتَهَا راثٌ وبالث
ومثفَارٌ تَقْدُمُ كُلَّ سَرَجٍ
وتُخَفِّي في الوقوف إذا أَقْمَنَّا
ولو جَمُغْتَ من هَتَا وهَتَا
فإنك لستَ عَالِقُهَا ثَلاثاً
وكانت قارِحاً أَيْامَ كِسْرِي
وقد قَرَحْتَ وَلَقْمَانِ قُطِيمٍ
وقد أُبْلِي بها قَزَنٌ وَقَزَنٌ
فأَبْدِلْنِي بها يا رَبِّ بَغْلاً

وتسقط في الوُحُول وفي الرمالِ^(١)
ويُذْبِرُ ظَهْرَهَا مَسُّ الجَلالِ^(٢)
يُخَافُ عَلَيْكَ من وَرَمِ الطُّحَالِ^(٣)
على أَهلِ المِجالسِ للسؤال
وبين كلامهم ممّا تَوَالِي
وَبَيْطَاراً يُعَقِّلُ بالشُّكَالِ^(٤)
جَمُوحٌ حينَ تَغْزِمُ لِلنُّزَالِ
وَلَيْتَ عندَ خَشْخَشَةِ المَحَالِي
خَذُولٌ عندَ حاجاتِ الرُّجَالِ
أَلذُّ لَهَا من الشُّرْبِ الزُّلالِ^(٥)
وتُذْعِرُ لِلصَّفِيرِ وللخِيَالِ
وقامت ساعةً عندَ المَبالِ
تَصِيرُ دَقَّتِيهِ على القَذالِ^(٦)
كما تُخَفِّي البِغالَ من الكَلالِ
ومن الأَثَبانِ أمثالَ الجبالِ
وعندك منه عودٌ لِلخِلالِ
وتذكرُ تُبْعاً قَبْلَ الفِصالِ^(٧)
وذو الأَكْتافِ في الحِجَجِ الخَواليِ^(٨)
وآخرُ يَوْمِها لِهَلَاكِ مالِي
يَزِينُ جَمالَ مَرْكَبِهِ جَمالِي

(١) شماس الدابة: شرودها وجماعها.

(٢) الجمام: الراحة.

(٣) الوقيد: الشديد المرض.

(٤) الشكال: القيد.

(٥) السوط الأصبجي: نسبة إلى ذي أصبج، ملك من ملوك حمير.

(٦) المثفار: الدابة ترمي بسرجهها إلى الوراء والقذال: جماع مؤخر الرأس.

(٧) القارح: الذي شق نابه وطلع. والفصال: الفطام من الرضاع.

(٨) ذو الأكتاف: ملك من ملوك فارس واسمه سابور بن هرمز.

كريمٌ حين يُنسَب والداه إلى كرم المَناسِب في البِغالِ
وقال القاضي بهاء الدين^(١) زهير الكاتب: [من مجزوء الكامل]

لك يا صديقي بغلةً ليست تُساوي خَزْدَلَةً
مقدار خُطوتها الطويـ لة حين تُسرع أئْمَلَةً
وُخْـال مُذْبِرَةٌ إذا ما أقبلت مستعجَلَةً
تمشي فتحسبها العيو نُ على الطريق مشكَّلَةً
تهتز وهي مكائها فكأنما هي زلزَلَةً

ذكر ما قيل في الحمر الأهلية

قال المتكلمون في طبائع الحيوان: إنَّ الحمار لا يولد له قبل أن تتم له ثلاث سنين ونصف. قالوا: والحمار إذا شَم رائحة الأسد رمى بنفسه عليه لشدة خوفه منه. ولذلك قال أبو تمام يخاطب عبد الصمد بن المعدل^(٢) وقد هجاه:

أقدمت ويلك من هَجْوي على خَطَرٍ والعيرُ يُقدِّم من خوفٍ على الأسدِ
والحمار يُوصف بحدة حاسة السمع. وهو إذا نَهَق أضَرَ بالكلب؛ قالوا: حتى إنه يُحدث له مَغْساً؛ فلذلك يطول نُباحه. والبرد يضِرُّ الحمارَ ويؤذيه؛ ولهذا لا يوجد في بلاد الصَّقَالِبَةِ. وقال الجاحظ: وحلف أحمد بن عبد العزيز أن الحمار ما ينام. ف قيل له: ولم ذلك؟ قال: لأني أجدُ صياحه ليس بصياح من نام وأنتبه في تلك الساعة، ولا هو صياح من يريد أن ينام بعد انقضاء صياحه.

وأجود الحمير المصرية، وأهل مصر يعتنون بتربيتها، ويحتفلون بأمرها ويسابقون عليها، ويسمون مكانَ سباقها «الطابق»، والجيد منها يُباع بالثمن الكثير. نقل صاحب كتاب مَبَاهِجِ الْفِكْرِ ومناهج العِبَر في كتابه قال: لقد بيع منها حمارٌ بمائة دينار وعشرة دنانير. وأما الذي رأيناه نحن منها فأبيع بألف درهم، وربما زاد بعضها على ألف. وكثيرٌ من أهل مصر يركبونها ويتركون الخيل والبغال. فَمَنْ ركبها من الأعيان مع وجود

(١) هو أبو الفضل، زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصم المهلبى العتكي المقلب بهاء الدين الكاتب، من فضلاء عصره، وأحسنهم نظماً ونثراً وخطاً، ومن أكبرهم مروءة... (وفيات الأعيان ٢: ٣٣٢).

(٢) هو عبد الصمد بن المعدل، من شعراء الدولة العباسية. ولد بالبصرة ونشأ بها. له شعر المائة وخمسين ورقة. ذكره ابن شاعر في التواريخ، وابن النديم في الفهرست... كانت وفاته سنة ٢٤٠ هجرية... (معجم المؤلفين ٥: ٢٣٧).

القدرة والإمكان على ركوب الخيل والبغال، يَقْصِدُ بذلك التواضع وعدم الكبرياء، وَمَنْ ركبها من ذوي الأموال وترك الخيل والبغال ربما يفعل ذلك توفيراً لماله وُضْعَةً به. وَمَنْ ركبها من الشباب والسُّوقَة يَقْصِدُ بذلك التَّنَزُّهَ عليها لِقَرَاهَتِهَا وسرعة مشيتها.

وقد كان لرسول الله ﷺ حمارٌ من حمير مصر اسمه «يَعْفُور» وقيل: «عُفَيْر»؛ أهده له الْمُقَوِّسُ صاحب الإسكندرية مع ما أهدى. وقد ورد أيضاً في الحديث أنه كان لرسول الله ﷺ حماران: «يَعْفُور» و«عُفَيْر». فأما «عُفَيْر» فأهده له المقوقس. وأما «يَعْفُور» فأهده له فَرْوَة بن عمرو الجُدَامِي. ويقال: إِنَّ حمار المقوقس «يَعْفُور» وحمار فَرْوَة «عُفَيْر».

قال الواقدي^(١): مات «يعفور» عند مُنْصَرَفِ النَّبِيِّ ﷺ من حِجَّةِ الْوَدَاعِ. وذكر السُّهَيْلِيُّ^(٢): أن «يعفوراً» طرح نفسه في بئر يوم مات النبي ﷺ فمات. وذكر ابن فُورَك^(٣) في كتاب الفصول أنه كان في مَعَانِمَ خَنِيرٍ، وأنه كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ وقال: يا رسول الله، أنا زياد بن شهاب، وقد كان في آبائي ستون حماراً كلهم ركبهم نبي، فأركبني أنت. وزاد الجَوْنِيُّ^(٤) في كتاب الشامل: أن النبي ﷺ كان إذا أراد أحداً من أصحابه أرسل هذا الحمارَ إليه، فذهب حتى يضرب برأسه الباب؛ فيخرج ذلك الرجل، فيعلم أنه أرسل إليه، فيأتي النبي ﷺ.

وفي الحمار منافع طيبة ذكرها الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا، قال: رمادُ كَبِدِ الحمال بالزَّيْتِ ينفع من الخنازير^(٥)، قال: ويُبْرِئُ من الجُدَامِ. وهذا دواءٌ رخيص إن صحَّ. قال: وكَبِدُهُ مَشْوِيَةٌ على الرِّيقِ تَنْفَعُ من عِلَّةِ الصُّرَعِ. قال: والمَكْرُوزُ^(٦) من اليَبُوسَةِ يجلس في مرقة لحمه. وقيل: إن بوله نافع من وَجَعِ الْكُلَى. قال: وبول الحمار الوحشي يُقْتَتِ الحَصَاةُ في المَثَانَةِ.

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم، وقيل مولى بني سهم بن أسلم، كان إماماً عالماً له التصانيف في المغازي وغيرها، وله كتاب «الردة»... (الوفيات ٤: ٣٤٨).

(٢) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن الخطيب الخثعمي السهيلي.

(٣) هو الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن فورك المتكلم الأصلي النحوي الواعظ الأصبهاني، كانت وفاته سنة ٤٠٦ هـ... .

(٤) هو محمد بن المؤيد بن محمد بن حمويه الحموي الجويني (سعد الدين) صوفي. سكن سنج قاسيون بدمشق، وعاد إلى خراسان وتوفي بها سنة ٥٦٠ هجرية... (معجم المؤلفين ١٢: ٧٠).

(٥) الخنازير: علة معروفة، وهي قروح صلبة تحدث في الرقبة.

(٦) المكروز: الذي أصابه الكزاز، وهو تشنج يصيب الإنسان من البرد الشديد أو من خروج دم كثير.

ذكرُ ما يتمثلُ بهِ ممّا فيه ذكرُ الحمارِ

تقول العرب: «العَيْرُ أَوْقَى لَدَمِهِ»^(١). وقالوا: «نَجَى عَيْراً سَمْنُهُ»^(٢). وقالوا: «الجَحْشُ إِذَا فَاتَكَ الْأَعْيَارُ»^(٣)، وقالوا: «أَصَحَّ مِنْ عَيْرِ أَبِي سَيَّارَةَ»^(٤)؛ لأنه كان دفع بأهل المَوْسِمِ على ذلك العَيْرِ أربعين عاماً. وقالوا: «إِنْ ذَهَبَ عَيْرٌ فَعَيْرٌ فِي الرِّبَاطِ»^(٥). وقالوا: «العَيْرُ يَضْرِبُ وَالْمَكْوَاةُ فِي النَّارِ»، وقالوا: «حِمَارٌ يَحْمِلُ سِفْراً».

ومن أنصاف الأبيات:

* وقد حيل بين العَيْر والنَّزْوَانِ *^(٦)

ذكرُ شيءٍ ممّا وُصِفَتْ بهِ الحميرُ على طريقي المَدْحِ والذَّمِّ

قال أبو العِيْنَاءِ^(٧) لبعض سماسرة الحمير: اشتر لي حماراً لا بالطويل اللّاحق، ولا بالقصير اللّاصق، إنّ خلا الطريق تَدَقُّ، وإن كثر الزحام تَرَقَّق؛ لا يُصَادِمُ بي السَّوَارِي، ولا يدخل تحت البَوَارِي^(٨)، إن كثرت علفه شَكَر، وإن قلّته صَبَر، وإن ركبته هام، وإن ركبته غيري قام^(٩). فقال له السمسار: إنّ مَسَخَ الله بعض فضائنا حماراً أصبَتْ حاجتك، وإلا فليست موجودة.

قيل للفضل الرّقاشي^(١٠): إنك لتؤثّر الحمير على جميع الدواب؛ قال: لأنها أرفق وأوفق؛ قيل: ولم ذاك؟ قال: لأنها لا تَسْتَبْدِلُ بالمكان، على طول الزمان؛ ثم قال: هي أقل داءً، وأيسر دواءً، وأخفّ مَهْوًى، وأسلم صَرَعاً؛ وأقلّ جَمَاعاً، وأشهر فَرَهَا، وأقلّ بَطْراً، يُزْهَى رَاكِبُهُ وقد تَوَاضَعَ بِرُكُوبِهِ، وَيُعَدُّ مَقْتَصِداً وقد أسرف في ثمنه.

(١) هذا المثل يضرب للموصوف بالحذر.

(٢) مثل يضرب لمن خلصه ماله من مكروه.

(٣) مثل يضرب في قناعة الرجل ببعض حاجته دون بعض.

(٤) أبو سيارة: هو رجل من بني عدوان.

(٥) الرِّبَاط: يراد بها حبال الصائد.

(٦) عجز بيت من قصيدة لصخر بن عمرو وأخو الخنساء.

(٧) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد الضرير مولى أبي جعفر المنصور. كان ظريفاً ماجناً...

(الوفيات ١: ٧١٩).

(٨) البواري: جمع بارية؛ وهي الحصير المنسوج من القصب.

(٩) قام: أي وقف.

(١٠) هو الفضل بن عبد الصمد الرقاشي، وهو شاعر أديب، وليس من الرقاشيين بل من مواليتهم...

(الأغاني ١٥: ٣٤).

وقال أحمد بن طاهر^(١) يصف حماراً: [من الكامل]

شَيْئَةٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ فِيهَا أَشْرَقَتْ وَأَضَاءَ فِيهَا الْبَدْرُ عِنْدَ تَمَامِهِ
وَكَأَنَّهُ مِنْ تَحْتِ رَاكِبِهِ إِذَا مَا لَاحَ بَرَقَ لَاحٌ تَحْتَ غَمَامِهِ
ظَهَرَ كَجَزِي الْمَاءِ لَيْنٌ رُكُوبِهِ فِي حَالَتِي إِتْعَابِهِ وَجَمَامِهِ
سَفِهَتْ يَدَاهُ عَلَى الثَّرَى فَتَلَاعَبَتْ فِي جَزِيهِ بِسُهُولِهِ وَإِكَامِهِ
عَنْ حَافِرٍ كَالصُّخْرِ إِلَّا أَنَّهُ أَقْوَى وَأَصْلَبُ مِنْهُ فِي أَسْتِحْكَامِهِ
مَا الْخَيْزُرَانُ إِذَا أَنْثَبَتْ أَعْطَافُهُ فِي لَيْنٍ مَغْطِفِهِ وَلَيْنِ عِظَامِهِ
عُنْتُ يَطْوُلُ بِهَا فَضُولَ عِثَانِهِ وَمُحَزَّمٌ يَغْتَالُ فَضْلَ جِزَامِهِ
وَكَأَنَّهُ بِالزَّيْحِ مُنْتَعِلٌ، وَمَا جَزِي الرِّيحِ كَجَزِيهِ وَدَوَامِهِ
أَخَذَ الْمَحَاسِنَ أَمْنًا مِنْ عَيْنِهِ وَحَوَى الْكَمَالَ مُبَرَّأً مِنْ دَامِهِ^(٢)

وقال آخر: [من الكامل]

لَا تَنْظُرَنَّ هُزَالَ حِمَارِي وَأَنْظُرْ إِلَى مَجْرَاهُ فِي الْأَخْطَارِ^(٣)
مُتَوَقِّدٌ جَعَلَ الذِّكَاءَ إِمَامَهُ فَكَأَنَّمَا هُوَ شُغْلَةٌ مِنْ نَارِ
عَادَتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ عِنْدَ هُبُوبِهَا فَكَأَنَّهُ رِيحَ الدُّبُورِ يُبَارِي^(٤)
هذا ما ورد في مدحها.

وأما مَا جَاءَ فِيهَا عَلَى سَبِيلِ الذَّمِّ - فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: «أَصْلُ مِنْ حِمَارٍ أَهْلُهُ». وقولهم: أَخَذَى اللَّهُ الْحِمَارَ مَالاً، لَا يُزَكَّى وَلَا يُدَكَّى. ومنه قول جرير بن عبد الله: لَا تَرَكَبْ حِمَاراً، فَإِنْ كَانَ كَانَ حديداً أتعَبَ يَدَيْكَ، وَإِنْ كَانَ بليداً أتعَبَ رِجْلَيْكَ. والمثلُ مضروبٌ في الحمير المهزولة بحمار طَيَّاب^(٥)، كما يُضْرَبُ المثلُ ببغلة أبي دُلَامَةَ.

قال شاعر: [من الخفيف]

وحمارٍ بكث عليه الحَمِيرُ دَقَّ حَتَّى بِهِ الرِّيحُ تَطِيرُ

(١) هو أحمد بن محمد بن الطاهر الأزدي المراكشي...

(٢) الذام: العيب والذم.

(٣) الأخطار: جمع خطر، وهو ما يتراهن عليه.

(٤) الدبور: ريح تهب من المغرب، وتقابل القبول، وهي ريح الصبا.

(٥) هو الشاعر طيَّاب السقاء.

كَانَ فِيمَا مَضَى يَسِيرُ بضعفٍ وَهُوَ الْيَوْمَ واقِفٌ لَا يَسِيرُ
كَيْفَ يَمْشِي وَلَيْسَ شَيْءٌ يَرَاهُ وَهُوَ شَيْخٌ مِنَ الْحَمِيرِ كَبِيرُ
لَمَحَ الْقَتُّ مَرَّةً فَتَغَنَّى بِحَنِينٍ وَفِي الْفَوَادِ زَفِيرُ^(١)
لَيْسَ لِي مِنْكَ يَا ظَلُومُ نَصِيبُ أَنَا عَبْدُ الْهَوَى وَأَنْتَ أَمِيرُ
وَقَالَ خَالِدُ الْكَاتِبِ^(٢): [مَنْ السَّرِيعُ]

وَقَائِلٍ إِنْ حِمَارِي غَدًا يَمْشِي إِذَا صَوَّبَ أَوْ أَضْعَدَا
فَقُلْتُ لَكِنْ حِمَارِي إِذَا أَخْشَتْهُ لَا يَلْحَقُ الْمُفْعَدَا
يَسْتَعِذُّبُ الضَّرْبَ فَإِنْ زِدْتُهُ كَادَ مِنَ اللَّذَّةِ أَنْ يَرْقُدَا
وَقَالَ أَبُو الْحُسَيْنِ الْجَزَارُ^(٣):

هَذَا حِمَارِي فِي الْحَمِيرِ حِمَارُ فِي كُلِّ خَطْوٍ كَبُوءَةٌ وَعِشَارُ
قِنْطَارُ تَبْنٍ فِي حَشَاهُ شَعِيرَةٌ وَشَعِيرَةٌ فِي ظَهْرِهِ قِنْطَارُ
وَلَمَّا مَاتَ حِمَارُ هَذَا الشَّاعِرِ دَاعِبُهُ شِعْرَاءُ عَصْرِهِ بِمَرَاثٍ وَهَزْلِيَّاتٍ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ:
مَاتَ حِمَارُ الْأَدِيبِ قُلْتُ قَضَى وَفَاتَ مِنْ أَمْرِهِ الَّذِي فَاتَا
مَاتَ وَقَدْ خَلَّفَ الْأَدِيبَ وَمَنْ خَلَّفَ مِثْلَ الْأَدِيبِ مَا مَاتَا
وَنَحْنُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ قَوْلُ الْآخَرِ:

قَالَ حِمَارُ الْحَكِيمِ ثُومًا لَوْ أَنَّنِي جَاهِلٌ لَكُنْتُ أَرْكَبُ
لَأَنْنِي جَاهِلٌ بِسَيْطُ وَصَاحِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّبُ

وَكُتِبَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ نَضْرَ الْكَاتِبِ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ اشْتَرَى حِمَارًا، يُدَاعِبُهُ. قَالَ مِنْ رِسَالَةٍ: «قَدْ عَرَفْتُ - أَبْقَاكَ اللَّهُ - حِينَ وَجَدْتُ مِنْ سَكْرَةِ الْأَيَّامِ إِفَاقَةً، وَأَنْسَتُ مِنْ وَجْهِهَا الْعَبُوسَ طَلَّاقَةً كَيْفَ أَجِبتُ دَاعِيَّ هَمَّتِكَ، وَأَطَعْتُ أَمْرَ مُرُوءَتِكَ؛ فَسُرَرْتُ بِكُمُومٍ هَذِهِ الْمَنْقَبَةِ الَّتِي أَضْمَرَهَا الْإِعْدَامُ، وَتَمَّ عَلَى كَرِيمِ سِرِّهَا الْإِمْكَانُ؛ وَأَسْتَدْلَلْتُ مِنْهَا عَلَى حَبَايَا فَضْلٍ، وَتَنَبَّهْتُ مِنْهَا عَلَى مَرَايَا ثُبُلٍ؛ كَانَتْ مَأْسُورَةً فِي قَبْضَةِ الْإِعْسَارِ، وَكَاسِفَةً

(١) القَت: علف الدواب.

(٢) هو خالد بن يزيد ويكنى أبا الهيثم، من أهل بغداد، وأصله من خراسان، وكان أحد كتاب الجيش. ووسوس في آخر عمره... (الأغاني ٢١: ٤٥).

(٣) هو أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار المصري، ختمت به دولة شعراء الفسطاط. كان في أول أمره قصاباً مثل أبيه وقومه، ثم اشتغل بالأدب والشعر ففاق أهل عصره...

عن سُذْفَةِ^(١) الأَقْتَارِ؛ وقلت: أَيُّ قَدَمٍ أَحَقُّ بولُوج الرُّكْب من قَدَمَيْهِ، وحاذٍ^(٢) أَوَّلَى بِيَطُونِ القُبِّ^(٣) من حاذِيهِ؛ وأَيُّ أَنَامِلٍ أَبْهَى من أَنَامِلِهِ إِذَا تَصَرَّفَتْ فِي الأَعْيَةِ يسراها، وتَحْتَمَّتْ بِالْمَخَاصِرِ يُمْنَاهَا؛ وكيف يكون ذلك الخلق العظيم، والوجه الوسيم، وقد بهرَ جالساً، إِذَا طَلَعَ فارساً! ثم أَنَهَمْتُ آمالي بِالْغَلَوِ فَيْك، وَأَسْتَبَعْدْتُ مَنَاقِضَةَ الزَّمَانِ بِإِنْصَافٍ مَعَالِيكَ؛ فَقَبِضْتُ مَا أَنْبَسْتُ مِنْ عَنَانِهَا، وَأَخْمَدْتُ مَا أَشْتَعَلَ مِنْ نِيرَانِهَا؛ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَى صَحِيحَةِ الشُّكِّ. أَرْجُو غُلُوَّ هَمَّتِكَ بِحَسَنِ اخْتِيَارِكَ، وَأَخْشَى مَنَافَسَةَ الأَيَّامِ فِي دَرْكِ أَوطَارِكَ؛ فَإِنَّهَا كَالظَّانَّةِ فِي وَلَدِهَا، وَالْمَجَادِبَةِ بِالسُّوءِ فِي وَاحِدِهَا، يُدْنِي الأَمْلُ مَسَارَهَا، وَيُرْجِيءُ القَلْقُ جِذَارَهَا؛ حَتَّى أَتِنَّا الأَنْبَاءُ تَنْعَى رَأْيَكَ الْفَائِلَ^(٤)، وَتَقْلُ عَزْمَكَ الْآفِلَ، بِوُقُوعِ اخْتِيَارِكَ عَلَى فَاضِحٍ صَاحِبِهِ، وَمُسْلِمٍ رَاكِبِهِ؛ الْجَامِدِ فِي حَلْبَةِ الْجِيَادِ، وَالْحَازِقِ بِالْجِرَانِ^(٥)، وَالْكِيَادِ^(٦)؛ السُّومِ دَيْنُهُ وَدَأْبُهُ، وَالْبِلَادَةِ طَبِيعَتُهُ وَشَأْنُهُ؛ لَا يُصْلِحُهُ التَّأْدِيبُ، وَلَا تُفَرِّجُ لَهُ الظَّنَائِبُ^(٧)؛ إِنْ لَحَظَ غَيْراً نَهَقَ، أَوْ لَمَحَ أَتَاناً شَبِقَ، أَوْ وَجَدَ رَوْثاً شَمَ وَأَنْتَشَقَ؛ فَكَمْ هَشَمَ سَيْئاً لَصَاحِبِهِ، وَكَمْ سَعَطَ أَنْفَ رَاكِبِهِ؛ وَكَمْ أَسْتَرَدَّه خَائِفاً فَلَمْ يَزُدَّهُ، وَكَمْ رَامَهُ خَاطِباً فَلَمْ يُسْعِدْهُ؛ يَعْبَلُ إِنْ أَحَبَّ الأَنَاءُ وَالْإِبْطَاءُ، وَيَرْسَخُ^(٨) إِنْ حَاولَ الْحَثَّ وَالنَّجَاءَ، مَطْبُوعٌ عَلَى الْكَيْدِ وَالْخِلَافِ، مَوْضُوعٌ لِلضَّعَةِ وَالْإِسْتِخْفَافِ، عَزِيزٌ حَتَّى تُهَيِّنَهُ السَّيَاطُ، كَسُولٌ وَلَوْ أَبْطَرَهُ النَّشَاطُ؛ مَا عَرَفَ فِي النَّجَابَةِ أَباً، وَلَا أَفَادَ مِنَ الْوَغْيِ أَدَباً، الطَّالِبُ بِهِ مُحْصُورٌ، وَالْهَارِبُ عَلَيْهِ مَأْسُورٌ؛ وَالْمَمْتَطِي لَهُ رَاجِلٌ، وَالْمُسْتَعْلِي بِذُرْوَتِهِ نَازِلٌ؛ لَهُ مِنَ الأَخْلَاقِ أَسْوَها، وَمِنَ الأَسْمَاءِ أَشْنُها^(٩)، وَمِنَ الأَذْهَانِ أَصْدُها، وَمِنَ الْقُدُودِ أَحْقَرُها؛ تَجَحَّده المَرَاكِبُ، وَتَجْهله المَوَاقِبُ؛ وَتَعْرِفه ظُهُورُ السَّوَابِكِ، وَتَأْلَفه سَبَاطَاتُ^(١٠) المَبَارِكِ. وَاللهُ الْمُوقِّ.

(١) السدفة: الظلمة (في لغة تميم)؛ وفي لغة قيس: الضوء، والمعنى الأول هو المراد.

(٢) الحاذ: لحمة في ظاهر الفخذ تكون في الإنسان وغيره.

(٣) الأقب: هو الدقيق الخصر الضامر البطن من الخيل.

(٤) الرأي القائل: الرأي الضعيف.

(٥) الحران: المصدر من حرنت الدابة.

(٦) الكياد: المكر والخبث.

(٧) الظنائب: جمع ظنبوب، وهو حرف الساق من قدم.

(٨) رسخ: ثبت في موضعه متمكناً.

(٩) أشنوها: أبغضها.

(١٠) السباطات: واحدها السباطة، وهي الموضع الذي يرمى فيه التراب والأوساخ وما يكس من المنازل.

الباب الثالث من القسم الثالث من الفن الثالث في الإبل والبقر والغنم ذكر ما قيل في الإبل

الإبل جمع لا واحد لها من لفظها. والذكر منها جمل، والأنثى ناقة. والبعير يقع عليهما. ودليل ذلك قول بعض الشعراء:

لا نُسْتَهِي لَبَنَ البعيرِ وعندنا عَرَقُ الزُّجاجةِ واكفُ المِعصارِ^(١)

والإبل من منن الله الجسيمة على خلقه، ومما منحهم به من إرفاقه ورزقه. قال الله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [النحل: ٥ - ٧]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتَ أَيْدِيَنَا أَنْعَمًا فَمَنْ لَّهُمْ مَلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَسَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

ولنذكر ما جاء من لغة العرب في الإبل من تسميتها من حين تولد إلى أن تتناهى سيئها، وأسماء ما يُركب منها ويحمل عليه، وما أختصت به النوق من الأسماء والصفات؛ ونذكر ألوان الإبل وما قالوه في ترتيب سيرها، وفي المسير عليها والنزول؛ ثم نذكر بعد ذلك أصناف الإبل وما قيل في عاداتها وطبائعها. فإذا أوردنا ذلك، ذكرنا ما ملكه رسول الله ﷺ منها، وما جاء في أوصاف الإبل من الشعر؛ فنقول وبالله التوفيق.

أما تسميتها من حين تولد إلى أن تتناهى سيئها - فقد قالت العرب: ولدها حين يُسَلَّ من أمه «سَلِيلٌ» ثم «سَقَبٌ»، و«حُورٌ» إلى سنة، وجمعه أخورة وجيران. وهو «فصيل» إذا فُصِّلَ عن أمه. وهو في السنة الثانية «أَبْنٌ مَخَاضٍ» - لأن أمه تَلْقَحُ فَتَلْحَقُ بالمَخَاض وهي الحوامل، وواحدتها من غير لفظها «خَلِيفَةٌ» - والأنثى «بنت مخاض». فإذا دخل في الثالثة فهو «أَبْنٌ لَبُونٌ»، والأنثى «بنت لبون»؛ لأن أمه صارت ذات لبن. وهو في الرابعة «حِقٌّ»؛ لأنه أَسْتَحَقَّ أن يُحْمَلَ عليه. وهو في السنة الخامسة «جَذَعٌ». وفي السادسة «ثَنِيٌّ» لأنه يُلْقِي ثَنِيَّتَهُ؛ والأنثى «ثَنِيَّةٌ»، وهو في السابعة «رَبَاعٌ». وفي

(١) عرق الزجاجة: ما نتج من الشراب وغيره مما فيها، والمراد هنا الخمر.

السنة الثامنة «سَدِيس» و«سَدَس» للذكر والأنثى. وهو في التاسعة «بازل» إذا قَطَر نابه، أي طَلَع. قال الشاعر^(١):

وَأَبْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزَ فِي قَرَنِ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيسِ^(٢)
ثم هو بعدها بسنة «مُخْلِفُ عام»، و«بازلُ عام»، ثم «مُخْلِفُ عامين»، و«بازلُ عامين»؛ ثم يُعَوِّد، أي يصير عَوْدًا وَهَرِمًا وَمَاجًا^(٣).

قالوا: والقُلُوصُ^(٤) منها كالجارية من الناس، والقُعُود كالغلام، والجمع قلائص وقعدان. والبُكَرُ: الفُتَيّ، والبِكَارَةُ جمع، والأنثى بَكْرَةٌ. ويقال: جَمَلُ رَاشٍ وَناقة رَاشَةٌ إذا كَثُرَ الشَّعْرُ فِي آذَانِهَا.

وأما أسماء ما يُرَكَّبُ منها وَيُحْمَلُ عليه - فقد قالوا: المِطْيَةُ اسمُ جامع لكل ما يُمْتَطَى من الإبل. فإذا اختارها الرجلُ لِمَرْكَبِهِ لتمام خِلْقَتِهَا وَنَجَابَتِهَا فهي راحلة.

وفي الحديث النبوي صلوات الله تعالى وسلامه على قائله: «النَّاسُ كِإِبِلٍ مَائَةٍ لَا يَكَادُ يَوْجَدُ فِيهَا رَاحِلَةٌ»، فإذا اسْتَظْهَرَ^(٥) صَاحِبُهَا بِهَا وَحَمَلَ عَلَيْهَا فهي «زاملة» - والناس يقولون في الرجل العاقل الثابت في أموره: رجل زاملة، يريدون بذلك مدحه. ووصف ابنُ بشير رجل فقال: ليس ذلك من الزواحل إنما هو من الزوايل - فإذا وَجَّهَهَا مع قوم لِيَمْتَارُوا^(٦) عليها فهي «عَلِيقَةٌ».

وأما ما أَخْتَصَّتْ به النوقُ من الأسماء والصفات - فإنهم يقولون فيها: «كَهَاءٌ»، و«جَلَالَةٌ» وهي العظيمة، و«عُظْمُوسٌ» و«دِغْبِلَةٌ» وهي الحسنة الخلقة التامة الجسم، و«كُومَاءٌ» وهي الطويلة السنام، و«وَجْنَاءٌ» وهي الشديدة القويَّة اللحم. وأَشْتَقَاقُهُ من الوَجِين، وهي الحجارة: فإنَّ أَزْدَادَتِ شَدَّتْهَا فهي «عِرْمِسٌ» و«عَيْرَانَةٌ». فإذا كانت شديدة كثيرة اللحم فهي «عَثْرَيْسٌ» و«عَرَنْدَسٌ» و«مُتْلَاحِكَةٌ». فإذا كانت ضخمة شديدة فهي «دُوسَرَةٌ» و«عُدَافِرَةٌ»، فإذا كانت حسنة جميلة فهي «شَمَرْدَلَةٌ». فإذا كانت عظيمة الجوف فهي «مُجْفِرَةٌ»، فإذا كانت قليلة اللحم فهي «خُرْجُوجٌ» و«خَرْفٌ» و«رَهْبٌ».

ومن أوصافها في السَّيْرِ - إذا كانت لَيِّتَةً اليدين في سيرها فهي «خَنُوفٌ»، فإذا كان

(١) هو جرير بن عطية الخطفي الشاعر الإسلامي المشهور.

(٢) لَزَ: قرن وسُد - والقرن: الحبل يجمع بين البعيران - والقنعاس: الناقة العظيمة الطويلة السنمة.

(٣) المَاج: الذي سال لعبابه من الكبر.

(٤) القلوص: أول ما يركب من إناث الإبل إلى أن تنثى.

(٥) استظهر: استعان.

(٦) امتار: جمع الميرة.

بها هَوَجٌ من سرعتها فهي «هوجاء» و«هَوَجَلٌ». فإذا كانت تُقَارِبُ الخَطوَ فهي «حَاتِكَةٌ». فإذا كانت تَمْشِي وكأنها مَقِيدَةُ الرَّجُل وهي تضرب بيديها فهي «رَاتِكَةٌ»، فإذا كانت سريعة فهي «عَصُوفٌ» و«مُشْمَعِلَةٌ» و«عَيْهَلٌ» و«شِمْلَالٌ» و«يَعْمَلَةٌ»، و«هَمَزَجَلَةٌ»، و«شَمَذَرٌ» و«شِمْلَةٌ»، و«شَمَزْدَلَةٌ». فإذا كانت تجرّ رجلينها في المشي فهي «مِزْحَافٌ» و«زُخُوفٌ»، فإذا كانت لا تقصِد في سيرها من نشاطها فهي «عَجْرَفِيَّةٌ». قال الأعشى:

وفيهما إذا ما هَجَرْتُ عَجْرَفِيَّةً إِذَا خِلْتِ حِرْبَاءَ الظُّهَيْرَةِ أَضِيدًا^(١)

وأما ألوان الإبل - فإنهم قالوا: إذا لم يُخالط حمرة البعير شيء فهو «أحمرٌ». فإن خالطها السواد فهو «أزْمَكٌ»، فإذا كان أسودً يخالط سواده بياضٌ كدخان الرُّمَبِ^(٢) فهو «أُورَقٌ». فإذا اشتد سواده فهو «جَوْنٌ». فإن كان أبيضٌ فهو «آدَمٌ»، فإن خالط بياضه حمرة فهو «أضْهَبٌ». فإن خالطته شُفْرَةٌ فهو «أَغَيْسٌ». فإن خالطت خُضْرَتَهُ صَفْرَةٌ وسوادٌ فهو «أُخْوَى». فإذا كان أحمرٌ يخالط حمرته سوادٌ فهو «أَكْلَفٌ».

وأما ترتيبُ سَيْرِها - «فَالْعَتَقُ» وهو السير المُسَبِّطُ^(٣). فإذا أرتفع عنه قليلاً فهو «التَّزِيدُ». فإذا أرتفع عن ذلك فهو «الدِّمِيلُ». فإذا أرتفع فهو «الرَّسِيمُ»، فإذا ذَاكَ المشي وفيه قَرْمَطَةٌ^(٤) فهو «الحَفْدُ»، فإذا أرتفع عن ذلك وضرب بقوائمه كلِّها فذاك «الْأَزْبَاعُ» و«الْأَلْبِيَّاطُ». فإذا لم يَدْعُ جُهْدًا فذاك «الْأَذْرِنْفَاقُ».

وأما ما قيل في المسير عَلَيْهَا والنزولِ لِلرَّاحَةِ وَالْإِرَاحَةِ - فقد قالوا: إذا سار القومُ نهاراً ونزلوا ليلاً فذاك «التَّأْوِيبُ». فإذا ساروا ليلاً ونهاراً فذاك «الإِسَادُ»، فإذا ساروا من أوّل الليل فهو «الإِذْلَاجُ»، فإذا ساروا من آخر الليل فهو «الإِذْلَاجُ»، فإذا ساروا مع الصبح فهو «التَّغْلِيسُ». فإذا نزلوا للاستراحة في نصف النهار فهو «التَّغْوِيرُ». فإذا نزلوا في نصف الليل فهو «التَّغْرِيسُ».

ذكر أصناف الإبل وعاداتها وما قيل في طبائِعِها

والإبل ثلاثة أصناف: يَمَانِيٌّ، وعَرَابِيٌّ، وَبُخْتِيٌّ^(٥). فاليماني هو النَّجِيبُ، وَيُنَزَّلُ

(١) هجرت: سارت في الهاجرة - والعجرفية: لفظ يطلق على الناقة التي لا تقصد في سيرها من نشاطها -

والحرباء: دوية أكبر من العطاء شيئاً، وتلون ألواناً بحر الشمس والأصيد: الذي لا يستطيع الالتفات.

(٢) الرمث: شجر يشبه الغصن لا يطول ولكنه ينبسط ورقه، وله هدب طوال دقاق، وله خشب وحطب، ويتفّع بدخان من الزكام.

(٣) المسبطر: السريع؛ واسبطرت: إذا أسرع.

(٤) القرامطة: مقارنة الخطو.

(٥) البختي: واحد البخت، وهي الإبل الخراسانية.

بمنزلة العتيق من الخيل . والعَرَابِيُّ كالْبِرْذَوْنَ . والبُخْتِيُّ كالْبَغْل . ويقال : البُخْتُ ضَأُّ الإِبِل . وهي متولدة عن فساد مَنِي العَرَاب . وحكى الجاحظ أَنَّ منهم من يزعم أَنَّ في الإِبِل ما هو وَخْشِيٌّ وأنها تسكن أرضَ وَبَارٍ^(١) ، وهي غير مسكونة بالناس . وقالوا : ربما نَدَّ الجملُ منها في الهياج^(٢) فيَحْمِلُهُ ما يَغْرِضُ له منه على أَن يأتي أرضَ عُمانَ ، فَيَضْرِبَ في أدنى هَجْمَةٍ^(٣) من الإِبِل ، فالإِبِل المَهْرِيَّةُ من ذلك التَّاج . وتُسَمَّى الإِبِل الوحشيَّةُ «الحَوْشُ» ، ويقولون : إنها بقايا إِبِل عادٍ وثمودٍ وَمَنْ أَهْلَكَهُ اللَّهُ من العرب . والمَهْرِيَّةُ منسوبة إلى مَهْرَةٍ (قبيلة باليمن) ، وهي سريعة العدو ، ويعلفونها من قديد سمكٍ يُصاد من بحر عُمان .

وأما البُخْتُ - فمنها ما يُرْهَوُكُ^(٤) مثل البراذين ، ومنها ما يَجْمِرُ^(٥) جَمْزاً وَيُرْقِلُ^(٦) إِرْقَالاً . وفي البُخْتُ ما له سَنَامانٍ في طول ظهره كالسَّرج ، ولبعضها سَنَامان في العَرْض عن اليمين وعن الشمال ، وتُسَمَّى «الخُرَّاسانية» .

قالوا : والجملُ لا يَنْزُو إلا مرةً واحدةً يُقيم فيها النهار أجمع ويُنْزِلُ فيها مِراراً كثيرة ، فيجيء منها ولدٌ واحدٌ . وهو يخلو في البراري حالة التَّزْو ، ولا يدنو منه أحدٌ من الناس إلا راعيه المُلازم له . وذكره صُلْبٌ جدًّا ؛ لأنه من عَصَبٍ . والأنثى تحمل سنة كاملة ؛ وتَلْفَحُ لِمُضِيِّ ثلاثِ سنين ، وكذلك الذكر يَنْزُو في هذه المدة ، ولا ينزو عليها إلا بعد سنة من يوم وضعها . وفيه من كرم الطَّبَاع أنه لا ينزو على أمهاته ولا أخواته . ومتى حُمِلَ على أَن يفعل حَقْدَ على من أَلَزَمَهُ ؛ وربما قتله . وليس في الحيوان من يحقِّد حِقْدَهُ . وقد قالوا : إنَّ العرب إنما اكتسبت الأحقادَ لأكلها لحوم الجمال ومدامتها .

وفي طبع الجمل الاهتداء بالنَّجم ، ومعرفة الطُّرُق ، والغَيْرَةُ ، والصولة ، والصبرُ على الحِمْل الثقيل وعلى العطش . والإِبِل تَميل إلى شُرب المياه الكَدِرَةِ الغليظة ؛ وهي إذا وردت ماء الأنهار حرَّكته بأرجلها حتى يتكدر . وهي من عشاق الشمس . وهي تتعرَّف النبات المسمومَ بالشَّم من مرة واحدة فتجتنبه عند رَغْبِهِ ولا تَغْلُطُ إلا في اليَبِيس^(٧) خاصَّة . وزعم أرسطو : أنها تعيش ثلاثين سنة في الغالب . وقال صاحب

(١) وبار : أرض ما بين الشجر إلى صنعاء .

(٢) يقال : هاج الفحل : إذا هدر وأراد الضراب .

(٣) الهجمة من الإبل : أولها أربعون ما زادت .

(٤) الرهوك : مشي الذي كأنه يموج في مشيته .

(٥) يحجز : يعدو ويسرع . (٦) يرقل : يسرع .

(٧) اليبس : ما ييس من العشب .

كتاب مباحج الفكر ومناهج العبر ينقل عن غيره: وقد رُئي منها ما عاش مائة سنة. وكان للعرب عوائد في إبلها أنها إذا أصاب إبلهم العُر^(١) كَوُوا السليم ليذهب العُر عن السقيم. وكانوا إذا كُثرت إبلهم فبلغت الألف فقَوُوا عين الفحل؛ فإذا زادت على الألف فقَوُوا عينه الأخرى. وقد ذكرنا ذلك في أوابد العرب، وهو في الباب الثاني من الفن الثاني من هذا الكتاب في السفر الثالث من هذه النسخة. والله أعلم بالصواب.

ذَكَرُ مَا مَلَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْإِبِلِ

كانت ناقة رسول الله ﷺ يقال لها: «القَصْواء». ذكر ابن سعد عن محمد بن عمر قال: حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كانت القصواء من نَعَم بني الحريش، ابتاعها أبو بكر رضي الله عنه وأخرى معها بثمانمائة درهم فأخذها رسول الله ﷺ بأربعمائة؛ فكانت عنده حتى نَفَقَتْ^(٢). وهي التي هاجر عليها ﷺ. وكانت حين قَدِمَ المدينة رَبَاعِيَةً، وكان اسمها «القَصْواء» و«الجذعاء»، و«العَضْبَاء»، وكان في طَرَفِ أَذُنِهَا جَذَع^(٣)، وكانت لا تُسَبِّقُ كلما دُفِعَتْ في سَبَاق. فلما كان في سنة ست من الهجرة سابق رسول الله ﷺ بين الرَواحِل، فسبق فَعُوذُ لأعرابي «القَصْواء»، ولم تكن تُسَبِّقُ قبلها؛ فسُقِ ذلك على المسلمين؛ فقال رسول الله ﷺ: «حقُّ على الله ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه». وعن قدامة بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ في حِجَّتِهِ يرمي على ناقة صَهْبَاء. وعن سلمة بن نُبَيْط عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ في حِجَّتِهِ بعرفة على جمل أحمر. وذكر أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي في تفسيره: أن النبي ﷺ بعث يوم الحديبية خِرَاشُ بْنُ أُمَيَّةَ الْخَزَاعِيَّ قَبْلَ عِثْمَانَ إِلَى قَرِيشَ بِمَكَّةَ، وَحَمَلَهُ عَلَى جَمَلٍ لَهُ يَقَالُ لَهُ «الثَّغْلَبُ»؛ لِيَبْلُغَ أَشْرَافَهُمْ عَنْهُ مَا جَاءَ لَهُ؛ فَعَقَرُوا جَمَلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَرَادُوا قَتْلَهُ؛ فَمَنْعَتَهُ الْأَحَابِيشُ^(٤)، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ. وكان للنبي ﷺ عشرون لَفْحَةً^(٥) بِالْغَابَةِ (وهي على بَرِيدٍ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ طَرِيقِ الشَّامِ) وَكَانَ فِيهَا أَبُو ذَرٍّ وَكَانَ فِيهَا لِقَائُ عَزْرُ^(٦): «الْحَنَاءُ» وَ«السَّمْرَاءُ» وَ«الْعُرَيْسُ» وَ«السَّغْدِيَّةُ» وَ«الْبَغُومُ» وَ«الْيَسِيرَةُ» وَ«الرَّيَّا». وكان رسول الله ﷺ فرَّقها على نساءه؛ فكانت «السَّمْرَاءُ» لَفْحَةً

(١) العر: الجرب.

(٢) نفقت: هلكت.

(٣) الجذع: القطع البائن في الأنف أو الأذن أو الشفة أو اليد.

(٤) الأحابيش: هم بنو الهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناة وبنو المصطلق من خزاعة.

(٥) اللفحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٦) الغزر: وهي الكثيرة الدر من الإبل وغيرها من ذوات اللبن.

غزيرة لعائشة؛ وكانت العُرَيْس لأمّ «سَلَمَة»؛ فأغار عليها عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ في أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا أَبْنَ أَبِي ذَرٍّ، ثم ركب رسول الله ﷺ وأصحابه حتى أنتهوا إلى ذي قَرْدٍ^(١) فاستنقذوا منها عَشْرًا وأُفِلَّت القومُ بما بقي، وقيل: بل استنقذها كلّها منهم سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ^(٢) حين يقول: ما خلق الله شيئاً من ظَهْر^(٣) النبي ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وأستنقذته منهم؛ وذلك في شهر ربيع الأول سنة ست.

وكانت لِقَاحُهُ ﷺ، التي كان يرعاها يَسَارُ مولاة بذي الجَذَرِ ناحية قُبَاءَ قريباً من عَيرٍ على ستة أميال من المدينة، خمسَ عَشْرَةَ لَفْحَةً غِزَاراً أَسْتاقها العُزَيْنُونَ^(٤) وقتلوا يَسَاراً وقطعوا يَدَهُ ورجله وغرّزوا الشوك في لسانه وعينه حتى مات. فبعث رسول الله ﷺ في إثرهم كُزَرَ بْنَ جَابِرِ الْفِهْرِيِّ في عشرين فارساً؛ فأدركوهم وربطوهم وأزْدَفوهم على الخيل حتى قَدِمُوا بهم المدينة، ففُطِعت أيديهم وأرجلهم وسُجِلَتْ أعينهم وضُلبوا. وفيهم نَزَلُ: ﴿إِنَّمَا جَرَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية؛ وذلك في شَوال سنة ست. وفقد النبي ﷺ منها لَفْحَةً تُدْعَى «الْحَنَاء»؛ فسأل عنها فقيل: نحروها.

وقيل: كانت لرسول الله ﷺ سبع لِقَاحٍ تكون بذي الجَذَرِ؛ وتكون بالجماء^(٥): لَفْحَةً تُدْعَى «مُهْرَة» وكان غزيرة، أرسل بها سعدُ بن عُبَادَةَ من نَعَمِ بني عُقَيْل، ولَفْحَةً تُدْعَى «بُرْدَة» تُحَلَبُ كما تُحَلَبُ لِفَحْتَانِ غزيرتان، أهداها له الضحّاكُ بن سُفْيَانَ الْكِلَابِيِّ، «والشُّقْرَاء»، «والرَّيَّاء» و«السَّمْرَاء» و«العُرَيْس» و«الْيُسَيْرَة» و«الْحَنَاء» يُحَلَبْنَ ويُرَاحُ إليه بلبنهنَّ كلَّ ليلة.

وفي غَزَاةِ بدر عَنِمَ رسول الله ﷺ جَمَلَ أَبِي جَهْلٍ وكان مَهْرِيّاً يغزو عليه ويضرب في لِقَاحِهِ. ذكره الطبريّ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ أهدى عام الحُدَيْبِيَّةِ في هداياه جملاً^(٦) لأبي جهل في رأسه بُرَّةً^(٧) من فضة؛ ليغيظ بذلك المشركين. ذكره ابن إسحاق.

(١) ذو قرد: ماء على ليلتين من المدينة، بينها وبين خير.

(٢) هو سلمة بن عمرو، والأكوع لقب جده واسمه سنان.

(٣) الظهر: الإبل والغنم.

(٤) العرينون: قوم ارتدوا، ينسبون إلى عرنية، قبيلة من العرب في بجيلة.

(٥) الجماء: اسم لمواضع كثيرة بجوار المدينة.

(٦) الهدايا: يراد بها ما يقدم إلى البيت الحرام من النعم لتحر.

(٧) البرة: حلقة تكون في أنف البعير.

وقيل: كانت للنبي ﷺ لفحة اسمها «مَرَوَة».

وقال ابن الكلبي: إن عياض بن حماد أهدى لرسول الله ﷺ نجبية، وكان صديقاً له إذا قديم عليه مكة لا يطوف إلا في ثيابه، فقال: له: «أسلمت؟» قال: لا؛ قال: «إن الله نهاني عن زبد^(١) المشركين». فأسلم؛ فقبلها.

ذَكَرُ شَيْءٍ مِّمَّا وُصِفَتْ بِهِ الْإِبِلُ نَظْماً وَنَثْراً

قال بعض من عظم شأن الإبل: إن الله تعالى لم يخلق نَعَمًا خيراً من الإبل؛ إن حَمَلَتْ أَثْقَلَتْ، وإن سارت أَبْعَدَتْ، وإن حُلِبَتْ أَرْوَتْ، وإن نُجِرَتْ أَشْبَعَتْ. وقال بِشَامَةُ^(٢) يصف ناقه:

كَأَنَّ يَدَيْهَا إِذَا أَزْقَلْتُ وَقَدْ حَزَنَ ثُمَّ أَهْتَدَيْنِ السَّبِيلَا^(٣)
يَدَا سَابِحٍ خَرَفِي غَمْرَةٍ وَقَدْ شَارَفَ الْمَوْتَ إِلَّا قَلِيلَا
إِذَا أَقْبَلْتُ قَلْتُ مَشْحُونَةً أَطَاعَتْ لَهَا الرِّيحُ قِلْعًا جَفُولَا
وإنْ أَذْبَرْتُ قَلْتُ مَذْعُورَةً مِنَ الرُّبْدِ تَتَّبَعُ هَيْقًا دَمُولَا^(٤)
وقال أبو تمام:

وَيَذَلُّهَا السَّرَى بِالْجَهْلِ حِلْمًا وَقَدْ أَدِيمَهَا قَدْ الْأَدِيمِ
بَدَتْ كَالْبَدْرِ فِي لَيْلٍ بِهِيمٍ وَأَبَتْ مِثْلَ عُزْجُونٍ قَدِيمِ^(٥)
وقال الخطيم الخزرجي:

وقَدْ ضَمُرْتُ حَتَّى كَأَنَّ وَضِيئَهَا وَشَاحَ عَرُوسٍ جَالَ مِنْهَا عَلَى خَضِرِ^(٦)
وقال ابن ذرئد:

خُوصٌ كَأَشْبَاحِ الْحَنَائَا ضُمُرٌ يَزْعُفْنَ بِالْأَمْشَاجِ مِنْ جَذْبِ الْبَرَى^(٧)

(١) الزبد: أي الرقد والعطاء.

(٢) هو بشامة بن القدير.

(٣) ارقل في سيره: أسرع.

(٤) الربد: النعام - والهيقي: الظليم، وهو ذكر النعام - والذمول: السريع.

(٥) العرجون: أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ.

(٦) الوضين: بطن عريض منسوج من شعر، وهو بمنزلة الحزام للسرير.

(٧) الخوصاء: التي غارت عيناها - والحنايا: جمع حنية، وهي القوس - ويرعفن: أي ينبعث الدم من الأنف - والأمشاج: ما يسيل من أنوفها من المخاط المتغير اللون - والبرى: جمع برة، وهي حلقة تكون في أنف البعير.

يَرْسُبْنَ فِي بَحْرِ الدُّجَى، وَفِي الضُّحَى يَطْفُونَ فِي الْآلِ إِذَا الْآلُ طَفَا^(١)
وقال عبد الجبار بن حمديس^(٢): [من المتقارب]

وَمِنْ سُفُنِ الْبَرِّ سَبَاحَةٌ مِنْ الْآلِ بَحْرًا إِذَا مَا أَعْتَرَضَ
لَهَا شِرَّةٌ لَا تُبَالِي بِهَا أَطَالَ بِهَا سَبَسَبٌ أَمْ عَرَضَ^(٣)
إِذَا خَفَقَ الْبُرْدُ بِي خِلْتَنِي عَلَى كُورِهَا طَائِرًا يَنْتَفِضُ
وإنْ يَغْرِضِ الْبَعْضُ مِنْ سِيرِهَا تَرَى الْعَيْسَ مِنْ خَلْفِهَا تَنْقَرِضُ
هِيَ الْقَوْسُ إِنِّي لَسَهْمٌ لَهَا أُصِيبُ بِكُلِّ فَلَاةٍ عَرَضُ
وقال الشريف البيضاوي^(٤): [من مجزوء الكامل]

نُوقُ تَرَاهَا كَالسَّفِي نَ إِذَا رَأَيْتَ الْآلَ بِخُرَا
كَتَبَ الْوَجَا بِدُمَائِهَا فِي مُهْرِقِ الْبَيْدَاءِ سَطْرًا^(٥)
لَا تَسْتَكِينُ مِنَ اللَّغْوِ بَ إِذَا وَلَا يَغْرِفُنَ زَجْرًا^(٦)
وَكأنْ أَزْجَلَهُنَّ تَطْ لَبَ عِنْدَ أَيْدِيهِنَّ وَثَرَا
وقال أبو عبادة البخترى: [من الخفيف]

وَحَدَانِ الْقِلَاصِ حَوْلًا إِذَا قَا بَلَنْ حَوْلًا مِنْ أَنْجَمِ الْأَسْحَارِ^(٧)
يَتَرَقَّرُقْنَ كَالسَّرَابِ وَقَدْ خُضَّ نَ غِمَارًا مِنَ السَّرَابِ الْجَارِي
كَالْقِسِيِّ الْمُعْطَقَاتِ بَلِ الْأَسْ هُمْ مَبْرِيَّةٌ بَلِ الْأَوْتَارِ
وقال ذو الرُّمَّة^(٨) يصف ناقه:

-
- (١) الآل: السراب.
(٢) هو عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الأزدي الصقلي، السرقوسي، (أبو محمد) . . كانت وفاته سنة ٥٣٧ هجرية. (معجم المؤلفين ٥ : ٧٩).
(٣) السبب: القفر والمفازة.
(٤) هو مسعود بن عبد العزيز بن المحسن الهاشمي، العباسي (أبو جعفر) شاعر. توفي في بغداد سنة ٤٦٨ هجرية . . من آثاره ديوان شعر صغير. (معجم المؤلفين ١٢ : ٢٢٧).
(٥) الوجا: هو أن يشتكي البعير باطن خفه - والمهرق: الصحيفة البيضاء يكتب فيها.
(٦) اللغوب: الضعيف الأحمق.
(٧) وخذ البعير: أسرع ووسع الخطو.
(٨) هو غيلان بن عقبة بن بهيش ويكنى أبا الحارث وهو من بني صعب بن ملكان بن عدي بن عبد مناة . . . (الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٦٥).

رَجِيعَةُ أَسْفَارٍ كَانَ زِمَامُهَا شُجَاعٌ عَلَى يُسْرِى الذَّرَاعِينَ مُطْرِقٌ^(١)
ومنه أخذ المتنبي فقال:

* كَأَنَّ عَلَى الْأَعْنَاقِ مِنْهَا الْأَفَاعِيَا *

وقال أبو نُوَاسٍ يصفها بالسرعة:

وَتَجَشَّمْتُ بِي هَوْلَ كُلِّ تَنُوفَةٍ هَوَجَاءٌ فِيهَا جُرْأَةٌ إِفْدَامٌ^(٢)
تَذُرُ السَّطِيَّ وَرَاءَهَا وَكَأَنَّهَا صَفٌّ تَقْدُمُهُنَّ وَهِيَ إِمَامٌ
وقال الفرزدقُ منشدًا:

تَنْفِي يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفْيِ الذَّرَاهِيمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ^(٣)
وقال آخر:

تَطِيرُ مَنَاسِمُهَا بِالْحَصَى كَمَا نَقَدَ الدَّرْهَمَ الصَّيْرَفُ
وقال العَطَّاشُ^(٤):

كَأَنَّ يَدَيْهَا حِينَ جَدَّ نَجَاؤُهَا يَدَا سَابِحٍ فِي غَمْرَةٍ يَتَّبِعُ^(٥)
وقال آخر في نُوقٍ:

خَوْضُ نَوَاجٍ إِذَا حَثَّ الْحُدَاةُ بِهَا حَسِبْتَ أَرْجُلَهَا قُدَامَ أَيْدِيهَا
وقال القَطَامِيُّ^(٦):

يَمْشِينَ رَهْوَاً فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلَا الصَّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَكَلُّ^(٧)
فَهِنَّ مُغْتَرِضَاتٌ وَالْحَصَى رِمَضٌ وَالرَّيْحُ سَاكِئَةٌ وَالظَّلُّ مُغْتَدِلٌ^(٨)
وقال أبو نُوَاسٍ:

وَلَقَدْ تَجُوبُ بِي الْفَلَاةُ إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَقَالَتِ الْعُفْرُ^(٩)

(١) رجعية أسفار: معاودة أسفار.

(٢) التنوفة: الأرض القفر، وقيل: البعيدة الماء.

(٣) الصياريف: الصيارفة، وقد جيء بهذا الجمع للضرورة الشعرية.

(٤) هو الغطش بن عمرو بن عطية من بني شقرة بن كعب بن ثعلبة بن سعد بن ضبة.

(٥) يتبوع: يمد باعه.

(٦) هو عمير بن شبيب من بني تغلب وكان حسن التشبيب رقيقه.

(٧) الرهو: السير السهل المستقيم.

(٨) الاعتراض: الأرنب والنشاط - والرمض: حر الحجارة من شدة حر الشمس.

(٩) صام النهار: اعتدل وقام قائم الظهيرة، وقالت: سكنت - والعفر من الظباء: ما يعلو بياضها حمرة.

شَدَنِيَّةٌ رَعَتِ الْجِمَى فَأَتَتْ مَثَلَ الْجِبَالِ كَأَنَّهَا قَصْرٌ^(١)
وقال الأحمر:

حمرأ من نسل المهاري نسلها إذا ترامت يدها ورجلها
حسبتها غَيْرِي أَسْتَفِزَّ عَقْلُهَا أتى التي كانت تخاف بعْلها

ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي الْبَقَرِ الْأَهْلِيَّةِ

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها ففصرها فقالت: إنا لم نخلق لهذا إنما خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ»؛ فقال الناس: سبحان الله بقرة تكلم! قال: «فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر»، وما هما ثم^(٢).

وقال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: إنَّ الفحل من البقر ينزو إذا تمت له سنة من عمره، وقد ينزو لعشرة أشهر. والبقرة إذا ولدت تَحْدَرُ لبنها من يومها، ولا يوجد لها لبن قبل أن تضع. وهي تحمل تسعة أشهر وتَضَعُ في العاشر؛ فإن وضعت قبل ذلك لا يعيش ولدها. وربما وضعت اثنين، وهو نادر. وهم يتشاءمون بها إذا وضعت اثنين. وإذا مات ولدها أو ذُبِحَ لا يَسْكُنُ خَوازِها ولا يدُرُ لبنها؛ ولذلك الرعاء يسْلُخُون جِلْدَ ولدها ويحشونه لتدُرَ له وتسكُنَ، ويسمونه «البَوَّ». والبقرة يحب الماء الصافي، بضد الخيل والجمال. وقال المسعودي في كتابه المترجم بمروج الذهب: رأيت بالرِّيَّ نوعاً من البقر تَبْرُكُ كما تَبْرُكُ الإِبِلُ وتحمل فتثور بحملها، والغالب عليها حمرة الخدق. وحكى أسامة بن مُنْقِذٍ^(٣) في كتابه أن في بعض البلدان بقرأ لها أعراف كالخيل. ولعلها الأبقار التي توجد فيها البراجم. والبراجم في أطراف أذنانها وفي أكتافها. ويقال: إنَّ أبقار البراجم تخرج من بحر الصّين وهي تَلْدُ وتُرْضِعُ؛ ولذلك يقال البراجم البحريّة. وبأرض مصر بناحيّتي دُمياط وتيّس^(٤) بقر تُسمّى بقر الخيس، ضخام حسان الصّور والشّيات، ولها قرون كالآهلة، وفيها نفور وتوحش، لا ينتفع بها في العمل وإنما يُنتفع بالبانها. وهي لا تُغْلَفُ الحَبَّ، ومأواها حيث يكون العُشْبُ والماء الدائم؛ ولها أسماء يدعونها بها إذا أرادوا حَلْبَها، فتتقدّم إليهم.

وقد وصف الشعراء البقر في أشعارها؛ فمن ذلك قول أحمد بن غلوية

(١) الشدنية: نوق تنسب إلى شدن، وشدن: موضع باليمن.

(٢) المراد بقوله: وما همائم، أي: أنها لم يكونا حاضرين هناك.

(٣) هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، كان من مشهوري الكتاب والشعراء. . . وكان وفاته سنة ٥٨٤ هجرية في دمشق.

(٤) تيّس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين القرما ودُمياط. . (معجم البلدان).

الأصبهاني^(١): [من المنسرح]

يا حَبْذا مَحْضُها ورَائِبُها وحبذا في الرِّجالِ صاحبُها^(٢)
عَجْزِلَةٌ سَمَحَةٌ مَبَارَكَةٌ ميمونةٌ طُفَّحٌ محالِبُها^(٣)
تُقْبِلُ لِلْحَلْبِ كلما دُعِيَتْ ورأَمها لِلجِلابِ حالِبُها
فَتِيَّةٌ سَيْئُها، مَهْذَبَةٌ مُعْتَفٌ في النَّدِي عائِبُها
كانَها لُغْبَةٌ مُزَيَّنَةٌ يَطِيرُ عُجْباً بها مُلاعِبُها
كانَ ألبانُها جَنَى عَسَلٍ يَلْدُها في الإناءِ شاربُها
عَرُوسٌ بأقْوَرةٍ إذا بَسَرَزَتْ من بين أحبالها ترائِبُها^(٤)
كانَها هَضْبَةٌ إذا أَنتَسَبَتْ أو بَكْرَةٌ قد أَنافَ غارِبُها^(٥)
تُزْهِى بِرُوقَيْنِ كاللُّجَيْنِ إذا مَسَّهما بالبنانِ طالِبُها
لو أَنها مُهْرَةٌ لما عَدِمَتْ من أن يَضُمَّ السُرورَ راكِبُها

وأنشدني شمس الدين بن دانيال^(٦) لنفسه: [من المجث]

لِلَّهِ عَجْلَةٌ خَيْسٍ صفراءُ ذاتُ دِلالٍ
تُرِيكَ عَيْنِي مَهْأَةً من تحت قَرْزَنِي غِزالٍ
قد سُرِبَلْتُ بأَصِيلٍ وتَوَجَّجتُ بهلالٍ

وقال شاعر يصف صوت الحَلْبِ: [من الرجز]

كانَ صوتُ شَخْبِها المُرْقَضُ كَشِيشُ أَفْعَى أَجْمَعَتْ لِعَضِّ^(٧)
* وهي تَحُكُّ بَعْضُها بَبَعْضِ *

وقال:

كانَ صوتُ شَخْبِها غُدِّيَّه هَفِيفُ رِيحٍ أو كَشِيشُ حَيْه

(١) كان من شعراء أصبهان في القرن الثالث للهجرة، وكان يقول الشعر الجيد..

(٢) المحض: اللبن الخالص بلا رغوة.

(٣) العجولة: أنثى العجول، وهو ولد البقرة.

(٤) الباقورة: جماعة البقر.

(٥) أناف: ارتفع وأشرف.

(٦) هو محمد بن دانيال بن يوسف الموصلِي (شمس الدين، أبو عبد الله)، حكيم، كحال، أديب،

شاعر ولد بالموصل وأقام بالقاهرة. كانت وفاته سنة ٧١٠ هجرية. (معجم المؤلفين ٩: ٢٩٥).

(٧) الشخب: ما يخرج من الضرع من اللبن إذا احتلب - واللشيش: صوت جلد الأفعى.

ذكر ما قيل في الجاموس

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ:

والجواميسُ هي ضأنُ البقرِ. والجاموسُ أجزعُ الحيوان من البعوض وأشدُّها هرباً منه إلى الماء؛ وهو يمشي إلى الأسد رَخيَّ البال، رابطُ الجأش، ثابتُ الجَنان. وقد حُكي عن المعتصم بالله العباسي أنه أبرز للأسد جاموستين فَعَلَبَتْهُ، ثم أبرز له جاموسةً ومعها ولذُها فَعَلَبَتْهُ وَحَمَتْ وَلَذُها، ثم أبرز له جاموساً مفرداً فَوَاتَبَهُ ثم أدبر عنه. هذا على ما في الأسد من القوة في فمه وكَفِّه والجرأة العظيمة والثَّوْبَةُ وشِدَّة البطش والصبر والحُضْرِ والطَّلَب والهَرَب؛ وليس ذلك في الجاموس، ولا يَسْتَطِيل بغير قرنه، وليس في قرنه حِدَّة قرنِ بقرِ الوحش؛ فإذا قَوِيَ الجاموسُ مع ذلك حتى يقاوم الأسدَ دَلَّ على قوة عظيمة. ولذلك قَدَّمَ الجاحظُ الجاموسَ على الأسد، وعَلَّلَ تقديمه عليه بهذه العِلَّة. وليس ما حُكي عن المعتصم في أمر الجاموس وعَلَبَتْهُ للأسد بعجيب؛ فإنَّ الجواميس بالأغوار تُقاتِلُ الأسدَ وتُمانعه وتُدْفَعُهُ فلا يقدر على قهرها. وأصحابُ الجواميس هناك منهم مَنْ يُغْلَفُ قُرُونُها بالثُّجاس ويحدِّدون أطرافه، يقصدون بذلك إعائته على حرب الأسد وقتاله.

والجاموسُ عندنا بالديار المصرية يقاتل التمساح الذي هو أسد البحر ويتمكن منه ويفْهَره في الماء؛ فهو قد جمع بين قتال أسد البرِّ وأسد البحر. وله قُدرة عظيمة على طول المُكث في قعر البحر. والتماسيحُ لا تكاد تأوي موارد الجواميس من بحر النيل وتَجَنَّبُ أماكِنها.

والجواميسُ في أرض الشام من الأغوار والسواحل والأماكن الحارة الكثيرة المياه يُنتفع بها في الحرث والحُمولة وجَرِّ العَجَلِ وحَلْبِ ألبانها. وأمَّا في الديار المصرية فلا يستعملونها أَلَبَّةً ولا يَنْتفعون بها إلا بما يَنْحَصِلُ من ألبانها ونتاجها.

وفُحول الجواميس يكون بينها قتالٌ شديدٌ ومُحاربةٌ، فأئماً فحلَّ غلب وقَهَره خَصْمُه، لا يأوي ذلك المُرَّاح، بل ينفرد بنفسه في الجزائر الكثيرة العُشْبِ شهوراً وهو يأكل من تلك الأعشاب ويشرب من ماء النيل، وينفرد خصمه بالإناث؛ فإذا علم الهاربُ من نفسه القوة والجلد، رجع إلى المُرَّاح وقد توحش وأستطال، ويكون خَصْمُه قد ضَعُفَتْ قواه فلا يقوم بمُحاربته؛ ولكنه لا يُولِّي عنه إلا بعد مُحاربته، فإذا قَهَره ترك الآخر المُرَّاح وتوجَّه إلى جزيرة وفعل كما فعل الأول وعاد إلى خَصْمِه.

ولبنُ الجاموس من أَلَدِّ الألبان وأدَسِمِها. والرَّعاء يُسمون كلَّ جاموسة بأسم تعرفه إذا دُعيت به إلى الحَلْب، فتُجيب وتأتيه وتَقِفُ حتى يَحْلِبَها.

ذكر ما قيل في الغنم الضأن والمعرز

رُوِيَ عن أنس بن مالك وعطاء رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «الغنم بركة موضوعة». وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف^(١) الجبال ومواقع القطر يفرز بدينه من الفتن». وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «رأس الكفر نحو المشرق والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدادين^(٢) أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم».

ومن فضل الغنم ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم». فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم كنت أزعماها على قرايط لأهل مكة». وكان لرسول الله ﷺ من الغنم مائة شاة لا يريد أن تزيد كلها ولَد الراعي بهمة ذبح مكانها شاة. وقال ابن الأثير في تاريخه: وكان له شاة تسمى «عوثة»، وقيل: «غيثة»، وعنز تسمى «اليمن». وذكر بعض المتأخرين من أهل الحديث أن مكحولاً سئل عن جلد الميتة، فقال: كانت لرسول الله ﷺ شاة تسمى «قمر»؛ فقدها فقال: «ما فعلت قمر»؟ فقالوا: ماتت يا رسول الله؟ قال: «ما فعلتم بإهابها»^(٣)؟ قالوا: ميتة؟ قال: «دياعها طهورها».

قال الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي رحمه الله تعالى في كتاب فضل الخيل: وكانت منائح رسول الله ﷺ من الغنم سنبعا: «عجرة» و«زمرم» و«سقيا» و«بركة» و«ورشة» و«أطلال» و«أطراف». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت لرسول الله ﷺ سبع أعنز منائح ترعاهن أم أيمن. قال: والمنيحة: الناقة والشاة تعطيهما غيرك فيخلبها ثم يردّها عليك. قال أبو عبيد: للعرب أربعة أسماء تضعها مواضع العارية، وهي: المنيحة، والعريّة، والإفقار^(٤)، والإخبال^(٥).

ذكر ترتيب سنن الغنم

ولَد الشاة حين تضعه ذكراً كان أو أنثى «سخلّة» و«بهمة». فإذا فصل عن أمه فهو

(١) شعف الجبال: رؤوسها.

(٢) الفدادون: أصحاب الوبر لغلظ أصواتهم وجفائهم؛ وأصحاب الوبر: هم أهل البادية.

(٣) الإهاب: الجلد المغلف لجسم الحيوان قبل أن يدبغ.

(٤) الإفقار: هو أن يعير الرجل بعيره غيره للحمل أو للركوب حتى إذا ما انتهى منه رده.

(٥) الإخبال: أن تعطي الرجل البعير أو الناقة ليركبها ويجتزئ ببرها ثم يردّها.

«حَمَلٌ» و«خَرُوفٌ». فإذا أكل وأَجْتَرَّ فهو «بَذَجٌ» و«فُرْفُورٌ». فإذا بلغ الثَّزَوَ فهو «عُمُرُوسٌ»، وكلُّ أولاد الضأن والمعز في السنة الثانية «جَذَعٌ» وفي الثالثة «ثَبِيٌّ»؛ وفي الرابعة «زَبَاعٌ»؛ وفي الخامسة «سَدِيسٌ»؛ وفي السادسة «سَالِغٌ». وليس له بعد هذا اسم. ويقال لولد المعز: «جَفَرٌ» ثم «عَرِيضٌ» و«عَثُودٌ» و«عَنَاقٌ»، والغنم، الضأن والمَعَزُ، تضع حملها في خمسة أشهر. وتلد النعجة رأساً إلى ثلاثة، والعنز من الرأس إلى أربعة. وينزو الذكْرُ بعد مضي ستة شهور من ميلاده. وتحمل الأنثى بعد مضي خمسة أشهر من يوم وُلِدَتْ. ويُجَزَّ صوف الضأن عنها في كل سنة. ولحوم الضأن من أطيب اللّحمَانِ؛ وكذلك ألبانها. وقد أطنب الجاحظُ في المفاخرة بين الضأن والمعز وأطال وأتى بالغث والسمين.

وكتب أبو الخطّاب الصّائبي إلى الحسين بن صَبْرَةَ جواباً عن رقعة أرسلها إليه في وصف حَمَلٍ أهداه إليه، جاء منها:

«وصلت رقعتك؛ ففضضتها عن حَظِّ مشرق، ولفظ مؤنق؛ وعبارة مُصِيبَةٍ، ومعانٍ غريبة، وآتساع في البلاغة يَعِجُزُ عنه عبد الحميد في كتابته، وسُخْبَانٌ في حَظَاتِهِ. وذكرت فيها حَمَلاً، جعلته بصفتك جَمَلاً؛ وكان كالمُعِينِي أسمع به ولا أراه. وحضر، فرأيتُ كبشاً مُتَقَادِمَ المِيلَادِ، من نِتَاجِ قوم عاد؛ قد أَفْنَتْهُ الدهور، وتعاقبت عليه العصور؛ فظننته أَحَدَ الزوجين اللذين حملهما نوح في سفينته، وحفظ بهما جنس الغنم لذريته. صَغُرَ عن الكبير، وَلَطَفَ في القدر، فبانت دَمَامَتُهُ، وتقاشرت قامته؛ وعاد نحيفاً ضئيلاً، بالياً هزيلًا؛ بادي السَّقَامِ، عاري العِظَامِ؛ جامعاً للمعائب، مُسْتَمِلاً على المثالب، يَعْجَبُ العاقلُ من حلول الروح فيه، لأنه عظم مُجَلَّد، وصوف مُلَبَّد، لا تجد فوق عظامه سَلْباً^(١)، ولا تَلْقَى اليَدُ منه إلا حَشَبًا؛ لو أَلْقَى للسَّبُعِ لأباه، أو طَرَحَ للذئب لعافه وقلاه؛ وقد طال للكلأ فَقْدُهُ، وبعُدَ بالمرعى عَهْدُهُ؛ لم يَرِ القَتَّ^(٢) إلا نائماً، ولا الشعيرَ إلا حالماً. وقد خَيْرْتَنِي بين أن أَقْتِنِيه فيكون فيه غنى الدهر، أو أذبحه فيكون فيه خِضْبُ الشَّهْرِ؛ فمِلْتُ إلى أَسْتَبْقَائِهِ؛ لِمَا تَعَلَّمَهُ من محبتي في التوفير، ورغبتني في التثمير؛ وَجَمَعِي للولد، وأدخاري لَعْدٍ؛ فلم أجد فيه مُسْتَمْتَعاً للبقاء، ولا مَدْفَعاً للفناء؛ لأنه ليس بَأَنْثَى فَيَحْمِلُ، ولا بِفَتْيَةٍ فَيَنْسُلُ، ولا بصحيح فَيَزَعَى، ولا بسليم فَيَنْقَى، فمِلْتُ إلى الثاني من رأيك، وعملت بالآخر من قوليك؛ وقلتُ: أذبحه فيكون وظيفة للعيال، وأقيمهُ رَطْباً مَقَامَ قديد الغزال؛ فأنشدني وقد أَضْرَمْتَ النارَ وَخُدَّدْتَ الشَّفَارَ، وشَمَّرَ الجَزَارَ:

(١) السلب: ما على الرجل من اللباس، ويراد به هنا اللحم لأنه يكسو العظم ويستره.

(٢) القت: نبات رطب تغلفه الدواب.

أَعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمَ
وما الفائدة لك في ذبحي! وإنما أنا كما قيل:

لَمْ يَبْنُقْ إِلَّا نَفْسٌ خَافَتْ وَمُقْلَةٌ إِنْسَانُهَا بَاهَتْ^(١)

ليس لي لحم يصلح للأكل، فإنَّ الدهرَ أكلَ لحمي؛ ولا جلدٌ يصلحُ للدَّبغِ، فإنَّ
الأيامَ مَزَقَتْ أديمي، ولا صوفٌ يصلحُ للغزل، فإنَّ الحوادثَ حَصَّتْ^(٢) وبري. وإنَّ
أردتني للوُفودِ فَكَفَّ بَعْرُ أَذْفَا مِنْ نَارِي، ولم تَفِ حَرَارَةُ جَمْرِي بِرَائِحَةِ قُتَارِي^(٣) ولم
يَبْنُقْ إِلَّا أَنَّ تُطَالِبَنِي بِذَخْلِ^(٤) أو بيني وبينك دَم. فوجدته صادقاً في مقالته، ناصحاً في
مشورته. ولم أعلم من أيِّ أموره أُعْجِبُ: أَمِنْ مُطَاطَلَتِهِ الدَّهْرَ عَلَى الْبَقَاءِ، أَمْ مِنْ صَبْرِهِ
عَلَى الضَّرِّ والبلاءِ، أَمْ مِنْ قُدْرَتِكَ عَلَيْهِ مَعَ عَوَزٍ مِثْلِهِ، أَمْ مِنْ اتِّحَافِكَ الصَّدِيقَ بِهِ عَلَى
خَسَاسَةِ قُدْرِهِ. ويا ليت شعري إذا كُنْتُ وَالْيَ سَوْقَ الْأَعْنَامِ، وَأَمْرُكَ يَنْفُذُ فِي الْمَعَزِ
وَالضَّأْنِ؛ وَكُلُّ حَمَلٍ سَمِينٍ، وَكَبْشٌ بَطِينٌ؛ مَجْلُوبٌ إِلَيْكَ، وَمَوْقُوفٌ عَلَيْكَ، تقول فيه
فَلَا تُرَدُّ، وَتُرِيدُ فَلَا تُصَدُّ؛ وَكَانَتْ هَدِيَّتُكَ هَذَا الَّذِي كَأَنَّهُ أَنْشَرَ مِنَ الْقُبُورِ، أَوْ أَقِيمَ عِنْدَ
النَّفْعِ فِي الصُّورِ؛ فَمَا كُنْتُ مُهْدِيّاً لَوْ أَنَّكَ رَجُلٌ مِنْ غُرُضِ الْكُتَّابِ، كَأَبِي عَلِيٍّ وَأَبِي
الْخَطَّابِ! مَا تُهْدِي إِلَّا كَلْباً أَجْرَبَ، أَوْ قَرْداً أَخَذَبَ.

وقال شاعرٌ في هذا المعنى: [من الخفيف]

لَيْتَ شِعْرِي عَنِ الْخُرُوفِ الْهَزِيلِ	أَلَكِ الذَّنْبُ فِيهِ أَمْ لِلْوَكِيلِ
لَمْ أَجِدْ فِيهِ غَيْرَ جِلْدٍ وَعَظْمٍ	وَذُنُوبٍ لَهُ دَقِيقٍ طَوِيلِ
مَا أَرَانِي أَرَاهُ يَصْلُحُ إِذَا أَصَا	بَحَ رَسْماً عَلَى رِسْمِ الطُّلُولِ
لَا لِشَيْءٍ وَلَا لِطَبْنَخٍ وَلَا بِي	عَ وَلَا بِرِّ صَاحِبِ وَخَلِيلِ
أَعَجَفَ لَوْ مُطْفَلٌ نَالَ مِنْهُ	لَغَدَا تَائِباً عَنِ التَّطْفِيلِ ^(٥)

وقال شرفُ الدِّينِ بنُ عَيْنٍ وقد أهدى له بعضُ أصدقائه خروفاً بعد ما مَطَّلَهُ بِهِ:

[من الطويل]

أَتَانِي خُرُوفٌ مَا شَكَّكَتْ أَتَهُ حَلِيفٌ جَوَّى قَدْ شَفَّهُ الْهَجْرُ وَالْمَطْلُ

(١) إنسان العين: ناظرها.

(٢) حصت وبري: حلقته وأذهبته.

(٣) القطار: الدخان من المطبوخ.

(٤) الذحل: الثار.

(٥) الأعجف: المهزول - والتطفيل: التطفل.

إذا قام في شمس الظهيرة خلته
فَنَاشِدَتُهُ: مَا تَشْتَهِي؟ قَالَ: قَتَّةٌ
فَأَحْضَرْتُهَا خَضِرَاءَ مَجَاجَةٍ الثَّرَى
وظَلَّ يُرَاعِيهَا بَعِينَ ضَعِيفَةً
«أَتَتْ وَجِياضُ الْمَوْتِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا

وَقَالَ الْحَمْدُونِيُّ فِي الْمَغْزَى: [مَنْ الْبَسِيطُ]

أَبَا سَعِيدٍ لَنَا فِي شَاتِكَ الْعَبْرِ
وَكَيْفَ تَبْعَرُ شَاةٌ عِنْدَكُمْ مَكْثٌ
لَوْ أَنَّهَا أَبْصَرَتْ فِي نَوْمِهَا عَلَفًا
«يَا مَانِعِي لَذَّةَ الدُّنْيَا بِمَا رَحِبَتْ
وَقَالَ أَيْضًا:

مَا أَرَى إِنْ ذَبَحْتُ شَاةً سَعِيدٍ
لَيْسَ إِلَّا عِظَامُهَا، لَوْ تَرَاهَا
وَقَالَ فِيهَا: [مَنْ مَجْزُوءُ الْخَفِيفِ]

لِسَعِيدٍ شُوَيْهَةٌ
قَدْ تَغَثَّتْ وَأَبْصَرَتْ
بِأَبِي مَنْ بِكَفِّهِ
فَأَتَاهَا مُطَمَّعًا
فَتَوَلَّى وَأَقْبَلَتْ
لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ وَقَفَ

سَلَهَا الضُّرُّ وَالْعَجْفُ
رَجُلًا حَامِلًا عَلَفَ
بُرْءٍ دَائِي مِنَ الدَّنْفِ^(١)
فَأَتَتْهُ لَتَغَثَّلِيفَ
تَتَغَثَّلِي مِنَ الْأَسْفِ
عَدَبَ الْقَلْبِ وَأَنْصَرَفَ

(١) قاسمته: أحلفته.

(٢) الأرزان: شجر صلب تتخذ منه عصي صلبة.

(٣) الدنف: المريض الذي لزمه المرض الشديد.

القسم الرابع

من القرن الثالث في ذوات السموم

وفيه بابان

الباب الأول

من هذا القسم في ذوات السموم القَوَاتِل . ويشتمل هذا الباب على ما قيل في الحيات والعقارب .

ذكر ما قيل في الحيات

الحيات مختلفات الجهاتِ جدًّا . وهي من الأمم التي يكثر اختلافُ أجناسها في الصورِ والشَّيَمِ ، والصُّغَرِ والعَظَمِ ، وفي التعرُّضِ للناس وفي الهرب منهم . فمنها ما لا يؤذي إلا أن تَطَّأَهَا . ومنها ما يؤذي إذا وُطِئَتْ في جِماها . ومنها ما لا يؤذي في تلك الحال إلا أن تكون على بَيْضِها أو فراخِها . ومنها ما لا يؤذي إلا أن يكون الناسُ قد آذَوْها مرَّة . فأما «الأسودُ» فإنه يَحْقِدُ وَيُطَالِبُ وَيَكْمُنُ في المتاع حتى يُدْرِكَ ؛ وله زمانٌ يقتلُ فيه كلَّ شيءٍ نَهَشَهُ . وأما «الأفعى» فليس ذلك عندها ، ولكنها تظهر في الصيف مع أوائل الليل إذا سَكَنَ وَهَجُ الرَّمْلِ أو ظاهرُ الأرض ، فتأتي قارعةً الطريق حتى تَسْتَدِيرَ كالرَّحَى^(١) وتُشَخِّصُ رَأْسَهَا ؛ فَمَنْ وَطِئَ عليها أو مَسَّها نَهَشَتْه . وهي من الحيات التي تَرُصِدُ ؛ وهي تقتلُ في كل زمان وعلى كل حال . و«الشُّجاع» يُؤَايِبُ ويقوم على ذَنَبِهِ . والحياتُ أصنافٌ كثيرةٌ سنذكر ما أمكن ذكره منها إن شاء الله .

والعرب تضرب المثل في الظلم بالحيَّة فيقولون : «أَظْلَمُ من حَيَّةٍ» ، لأنها لا تتخذ لنفسها بيتاً ، وكل بيت قصدت نحوه هرب أهله منه وأخلوه لها .

(١) الرحى : الأداة التي يطحن بها ، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب .

والحيّة مشقوقة اللسان، ولسانها أسود، وزعم بعض المفسرين لكتاب الله عز وجل أن الله تعالى عاقب الحيّة، حين أدخلت إبليس في فمها حتى خاطب آدم وحواء وخدعهما، بعشرة أشياء: منها شقّ لسانها؛ فلذلك ترى الحيّة إذا ضُرِبَتْ لِتُقْتَلَ كيف تُخْرِجُ لسانها لِتُري الضارب لها عقوبة الله تعالى، كأنها تَسْتَرْجِمُ. ويقال: إن من خصائص الحيّة أنّ عينها إذا قُلِعَتْ عادت، وكذلك نابها إذا قُلِعَ أو قُطِع بالكاز^(١) عاد بعد ثلاث ليالٍ؛ وكذلك ذنبها إذا قُطِع عاد. وفي طباعها أنها تهرب من الرجل العُريّان، وتَفْرَحُ بالنار وتطلبها وتُعْجَبُ بها، وباللبن والبطيخ واللُّفّاح^(٢) والخَزْدَل. وهي لا تَضْطَبُ نفسها عن الشراب إذا شمتها، وإذا وجدته شربت منه حتى تسكّر؛ فربما كان السُكْر سببَ حتفها؛ لأنها إذا سَكِرَتْ خَدِرَتْ، وتكره ريح السذاب^(٣) ولا تملك نفسها معه، وربما أضطيدت به؛ وتكره ريح الشَّيْح^(٤). والحيّة تُذْبَح حتى تُفْرَى أوداجها فتبقى أياماً لا تموت. ومتى ضُرِبَتْ بالقَصْب الفارسي ماتت، وإن ضُرِبَتْ بسوط قد مسّه عَرَقُ الخيل ماتت. ويقال: إنها لا تموت حتف أنفها إلا أن تُقْتَلَ.

ومن أعجب ما شاهدته أنا من الأفاعي أنها قَطَعَتْ بحضوري بالبيمارستان^(٥) المنصوري بالقاهرة المُعْرِزِيَّة في شهور سنة ست وسبعمائة بسبب عمل الدُّرْيَاق^(٦) الفاروق وقُطِعَ من رأسها وذنبها ما جرت العادة بقطعه، وسُلِخَتْ وشُقَّ بطؤها ونُظِفَتْ وهي تختلج، ثم سُلِقَتْ وجُزِدَ لحمها عن العظم، فنظرتُ إليه فإذا هو يختلج، فعُجِبْتُ لذلك؛ وذكرته لرئيس الأطباء عَلم الدين المعروف^(٧) بابن أبي حليقة وهو حاضر في المجلس، فقال: ليس هذا بأعجب مما تراه الآن، وقال لي: استدع أقراص الأفاعي التي عُمِلَتْ من أكثر من سنة؛ فاستدعيتهما، فأحضرها الخازن وهي في العسل وقد دُقَّ

(١) الكاز: المنص (فارسي معرب).

(٢) اللفّاح: خو المعروف في مصر بالشمام.

(٣) السذاب: وهو نوعان: بري وبستاني، فالبستاني يفرع فروعاً تطلع من ساق له قصيرة تشعب عليه مثل الأغصان ويحمل أطراف أغصانه رؤوساً تتفتح عن ورد صغار الورق أصفر، وإذا انتشر سقط منه الحب، وأما البري فهو أصغر ورقاً.

(٤) الشَّيْح: أنواعه كثيرة، أهمها النوع الأصفر وهو يحكي السذاب في ورقه وهو الأرمني وأحمر عريض الورق وهو التركي وكل طيب الرائحة إلى ثقل وحدة، لا يختص وجوده بزمان... (تذكرة داود الأنطاكي ص ٢٢٠).

(٥) البيمارسان: المستشفى.

(٦) الدرياق: أي الترياق.

(٧) هو علم الدين إبراهيم بن الرشيد بن أبي الوحش المعروف بابن أبي حليقة... كان بارعاً في الطب محفوظاً عند الملوك والأمراء... كانت وفاته سنة ٧٠٨ هجرية.

لحم الأفاعي بعد سَلْقِهِ وعُجِنَ بالسِّمِيزِ وجُعِلَ أقراصاً ووُضِعَ في العسل من أكثر من سنة؛ فقال لي: تأمل الأقراص، فتأملتها فإذا هي تضطرب اضطراباً خفيفاً.

وقال الجاحظ: وزعم صاحب المَنَظِقِ أَنَّ الحَيَاتِ تَنسَلِخُ عن جلودها في كل عام في أول الربيع أو الخريف؛ وتبتدىء بالسَّلَخِ من عيونها ويتم سَلَخُها في يوم وليلة، ويصير داخل الجلد هو الخارج. وإذا هَرِمَتْ وَعَجَزَتْ عن السَّلَخِ وأرتخى جَسْمُها أدجلت جَسْمُها بين عودين أو في صَدْعٍ ضيقٍ حتى تنسلخ، ثم تأتي إلى عين ماء فتغتمس فيها فيشتد لحمها ويعود إلى قوَّته وشِدَّتِهِ.

قال الجاحظ: وليس في الأرض مثل جسم الحية إلا والحية أقوى بدنأ منه أضعافاً. ومن قوتها أنها إذا أدخلت صدرها في حُجْرٍ أو صَدْعٍ لم يستطع أقوى الناس وقد قبض على ذَنَبِها بكِلْتَا يديه أن يخرجها، لشدة أَعْتِمَادِها وتعاون أجزائها؛ وربما انقطعت في يد الجاذب لها. فإذا أراد أن يُخْرِجَها أرسلها بعض إرسالٍ ثم يجذبها كالمُخْتِطِفِ لها. قال: ومن أصناف الحيات ما هو أَزْعَرُ^(١)، وما هو أَزَبٌ (ذو شعر) ومنها ذوات قرون. ومنها ما يسمى الأسود وهو ما إذا كان مع الأفاعي في جُؤنة^(٢) وجاع أبتلعها من قِبَلِ رؤوسها، ومتى رام ذلك من غير جهة الرأس عَضَّتْه فقتلته. ومن أصنافها ما يسمى «الأَصْلَة»، وهو ثعبان عظيم جداً، وله وجه كوجه الإنسان؛ ويقال: إنه يصير كذلك إذا مَرَّت عليه ألوف من السنين. وهو يقتل بالنظر وبالنفخ. ومنهم من يسمي هذا النوع الصِّل، ويقول: إنَّ أصل خَلْقته على هذه الصفة. قال: وفي البادية حية يقال لها «الحَقَات» تأكل الفأرَ وأشباهه. وهي عظيمة، ولها وعيدٌ مُنْكَرٌ ونفخٌ وإظهار للصولة، وليس وراء ذلك شيء؛ والجاهل ربما مات من الفزع منها.

قالوا: والشعبان والأفعى فإنه يقتل بما يُحدثه من الفزع؛ لأن الرجل إذا فزع تفتحت مَسَامُهُ ومنافِيسُهُ، فيتوغَّل السُّمُّ في موضع الصميم^(٣) وأعماق البدن. فإن نهشت النائم والمُعْمَى عليه والمجنونَ والطفلَ الصغير لم تقتله ألبتة. وزعم صاحب المنطق أنَّ بالحِشَّة حَيَاتٍ لها أجنحة. وأخبرني المولى شرف الدين أحمد بن البَزْدِيَّ قال: كنت بمدينة الرَّمْلَة^(٤) في شهور سنة اثنتين وسبعمئة صحبةً الصاحب شرف الدين بن الخليل ومعه القاضي الحاكم وجماعة كثيرة من الناس وفيهم عَدَوَلَى^(٥) وغيرهم؛ فنظرنا نحو

(١) الأزعر: الذي ساء خلقه وقلَّ خيره.

(٢) الجؤنة: سلية مستديرة مغشاة أدمًا.

(٣) الصميم: العظم الذي به قوام العضو.

(٤) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين.

(٥) العدولي: الملاح.

السماء فإذا نحن بحيتين عظيمتين طائرتين في الهواء قاصدتين صوب البحر، كلّ منهما في غِلْظ الثنيانة^(١)، وإن إحداهما مستقيمة في طيرانها والأخرى تَتَعَوَّج من قِبَل رأسها ووسطها وذنبها، وكانتا من الأرض بحيث لا يبلغهما السهم، قال: فسَطَرنا بذلك محضراً على عِدّة نسخ.

وحكى بعضُ المؤرّخين: أنه وُجِد في خزائن المستنصر بالله^(٢) العُبَيْدي أحد خلفاء مصر بَيَضَة محلّاة بالذهب ظلّوا أنها بيضَة نعامَة، فجعل الناس يتعجبون من تخليتها بالذهب؛ فذكروا ذلك للمُستكفي، فقال: إنها بيضَة حيّة كان بعض الملوك أهداها لجدّي القائم بأمر الله.

ومن كتاب نَسَوار المحاضرة قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن الورّاق قال: حدّثني عمي أبو الحسين: أن الحُصَيْنِي حدّثه عن أبي العباس بن الفُرات قال: حدّثني أبي قال: قال لي جعفر الحَيّاط^(٣): أمرني المأمون ونحن بالروم أن أَقْتَصَّ^(٤) الطريق لثلا يكون به جواسيس للعدوّ؛ فأخذتُ معي جماعةً من أصحابي فُرساناً ورجالةً وسلكْتُ الطريق، فعَنّ لي شِغْب فقصدته لثلا يكون فيه كمينٌ من الجواسيس، وتقدّمني الرّجالة فرأيتهم قد وقفوا؛ فأسرعت إليهم وسألتهم عن خبرهم، فقالوا: انظر، فنظرت فإذا رجلٌ من الرّجالة قد قعد لقضاء حاجته، ومشى أصحابه، فقصدته حيّة من وراء ظهره فابتلعت من رجله إلى صدره وهو يستغيث ويصيح، فلم يكن لنا فيه حيلةٌ وخفّت أن آمَرَ الرّجالة برمي الحيّة بالنُّشَاب فيصيب الرجل فأكون أنا قتلته. فسَطَ الرجلُ يديه وأنتهى بَلْعُ الحيّة إلى إِبْطِئِه، فرأيتها وقد أنضمت على ما ابتلعت منه ضَمّةً سمعنا تكسير عظامه في جوفها، فمات وسقطت يداها فابتلعت حينئذٍ بأسره. فقلت: الآن أَقْصِدوها بالنُّشَاب؛ فرشقناها جميعاً فأثبّناها في موضعها حتى قتلناها، فأمرتُ بشق بطنها لأعاین جسمَ الرجل، فلم نجد في بطنها من جلد ولا عَظْم ولا غيرهما إلا شيئاً كالخيط الأسود، فإذا هي قد أحرقت في لحظة واحدة.

ويقال: إن بجزائر الصين حياتٍ تبتلع الإبلَ والبقرَ وشبهها.

قال الجاحظ: حدّثني أبو جعفر المكفوف النحويّ العنبري وأخوه رُوح الكاتب

(١) الثنيانة: يراد بها عقال البعير ونحوه من كل حبل مثني.

(٢) هو أبو تميم معدّ بن الظاهر لإعزاز دين الله... كانت وفاته سنة ٤٨٧ هجرية بعد أن بويع له بالخلافة وأقام فيها ستين سنة وأشهرًا... (الوفيات ٢: ١٥١).

(٣) هو جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط، كان من كبار القواد في عصر المأمون وابنه المعتصم... وكان مع الأششين في حرب بابك الخرمي وأبلى معه بلاء حسناً.

(٤) الاقتصاد: تتبع الأثر.

ورجالاً من بني العنبر: أنَّ عندهم في رمال بَلْعَنَبَر^(١) حيَّة تصيد العصافير وصغار الطير بأعجب حيلة؛ وزعموا أنها إذا أنتصفَ النهارُ وأشدَّ الحرُّ في رمال بَلْعَنَبَرِ وأمتنعت الأرضُ على الحافي والمُنْتَعِل، غمست هذه الحيَّة ذَنبَها في الأرض ثم أنتصبت كأنها عودٌ مركوزٌ، أو عود نابت، فَيَجِيء الطائرُ الصغيرُ والجرادةُ، فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرَّمْل لشدة حرِّه وقع على رأس الحيَّة على أنها عود، فإذا وقع على رأسها قَبَضَتْ عليه. فإذا كان جرادةً أو جَعَلًا^(٢) أو بعض ما لا يُشبعها أبتلعتَه وبقيت على أنتصابها؛ وإن كان طائراً يُشبعها أكلته وأنصرفت؛ وإن ذلك دأبها ما منع الرملُ جانبَه في الصيف والقيظ.

قال: وزعم لي رجالٌ من الصُّقَالبة خُضَيَّانٌ وفحولٌ أنَّ الحيَّة في بلادهم تأتي البقرة المُحَفَّلَة^(٣) فتَنْطَوِي على فَخْذَيْها وركبتيها إلى عَراقيبها ثم تُشَخِّصُ صدرها نحو أخلافِ ضَرْعها حتى تلتقِمَ الخَلْفَ، فلا تستطيع البقرةُ مع قوتها أن تترمرم^(٤)؛ فلا تزال الحيَّة تَمُصُّ اللَّبَنَ، وكلما مضت أَسْتَرَحَّتْ؛ فإذا كادت تَتَلَفُّ أرساتها. وزعموا أنَّ تلك البقرة إما أن تَتَلَفُ، وإما أن يُصَيِّبها داءٌ في ضرعها وفسادٌ شديد يعسر دواؤه.

وهذا الباب طويل؛ وقد أوردنا منه ما فيه غُثَيَّةٌ. فلنذكر ما قيل في أصناف الحيات وأوصافها.

ذَكَرَ أسماء الحيات وأوصافها - يقال: «الجان» و«الشیطان» هي الحيَّة الخبيثة. و«الحَنَسُ»: ما يصاد من الحيات. و«الحَيَّوْتُ»: الذكر منها. و«الحُقَاتُ» و«الحَضْبُ»: الضخم منها. و«الأسود»: العظيم وفيه سواد؛ ويقال: الأسود هو الداهية؛ وله خُضَيَّتَانِ كخُضَيَّتِي الجَذِي، وشعر أسود وعُرفٌ طويل، وَصَنَانٌ كَصَنَانِ^(٥) الثَّيْسِ، و«الشُّجَاعُ»: أسود أملس يضرب إلى البياض، خبيث؛ ويقال: إنه دقيق لطيف. و«الأَعِيرَجُ»: حيَّة صَمَاءٌ لَا تَقْبَلُ الرُّقَى وَتَطْفِرُ كما تَطْفِرُ الأفعى. ويقال: الأَعِيرَجُ: حيَّة أُرَيْقِط^(٦) نحو من ذراع، وهو أخبث من الأسود. وقال ابن الأعرابي: الأَعِيرَجُ أخبث الحيات، يقفز على الفارس حتى يصير معه في سَرَّجِه. وقال الليث عن الخليل:

(١) بلعنبر: ويقال لهم بنو العنبر، وهم من تميم من العدنانية.

(٢) الجعل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية.

(٣) المحفلة: المثلثة الضرع التي تركت أياماً من غير حلب ليتجمع لبنها.

(٤) تترمرم: تتحرك.

(٥) الصنان: التن، أو الريح الكريهة.

(٦) الأريقط: تصغير الأرقط، وهو ما كان لونه الرقطة من الحيوان، والرقطة: لون مؤلف من بياض

وسواد، أو من حمرة وصفرة وغيرهما.

الأفعى التي لا تنفع معها رُقِيَّةٌ ولا دِزْيَاقٌ، وهي دقيقة العنق عريضة الرأس. وقال غيره: هي التي إذا مشت مُتَّئِنَّةً جَرَشَتْ^(١) بعض أسنانها ببعض. وقال غيره: هي التي لها رأس عريض ولها قَرْنَانِ. و«الأَفْعَوَانُ»: الذكر من الأفاعي. و«العِرْبُدُ» و«العِسْوَدُ» حية تَنْفُخ ولا تُؤذي. و«الْأَزَقَمُ»: الذي فيه سواد وبياض، و«الأَرَقَشُ»، نحوه. و«ذو الطُفَيْتَيْنِ»: الذي له خَطَّان أسودان. و«الْأَبْتَرُ»: القصير الذنب. و«الْخَشْخَاشُ»: الحية الخفيفة. و«الثعبان»: العظيم منها، وكذلك «الْأَيْمُ» و«الْأَيْنُ»، و«أَبْن قَثْرَة»: حية شبيهة بالقضيب من الفضّة في قَدَر الشَّبَر والفَتَر، وهي أخبث الحيات، فإذا قَرَّب من الإنسان تَرَأَى في الهواء فوقَ عليه من أعلاه. و«أَبْنُ طَبَقٍ»: حية صفراء، ومن طبعها أن تنام ستة أيام ثم تنتبه في اليوم السابع. ولا تَنْفُخ شيئاً إلا أهلكته قبل أن يتحرك. وربما مرّ بها الرجل وهي نائمة فيأخذها كأنها سوار من ذهب، فإن أستيقتت وهي في كفّه خرّ ميتاً. ومن أمثال العرب «أصابته إحدى بنات طَبَقٍ». قال الليث: «السَّفُ»: الحية التي تطير في الهواء، وأنشد:

وحتى لو أن السّف ذا الريش عَضْنِي لما ضرّني من فيه ناب ولا تُغر^(٢)
و«النُّضْنَضُ»: الذي لا يسكن في مكان.
ومن أسمائها «الْقُرّة»، و«الهِلال» و«الرَّعَاصَة».

ذكر ما في لحوم الحيات من المنافع والأدوية

قال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا: والحية يُستعمل مطبوخها بالماء والملح والشُبْت^(٣)، وقد يُزاد عليها الزَّيْت. قال: وأجود لحمه لحم الأنثى؛ وأجود سلخه سلخ^(٤) الذكر. وطبع الحية إلى التجفيف في لحمها قوي؛ وأما التسخين فليس بشديد؛ وسلخه شديد التجفيف أيضاً. وخاصية لحمه أنه يُفْذ الفضول إلى الجلد، سيما إذا كان الإنسان غير نقي، قال: ولحمه إذا أُسْتَعْمِل أطال العمر، وقوى القوة، وحفظ الحواس والشباب - أما قوله: «أطال العمر» فيردّ هذا القول ما ورد في الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فرغ ربك من أَرْبَع خَلَقٍ وَخَلَقَ وَرَزَقَ وَأَجَلَ». وأما ما عدا ذلك فغير مردود عليه.. قال وأكله ينفع من الجذام نفعاً عظيماً، وإذا أُسْتَعْمِل على داء الثعلب^(٥) نفع نفعاً عظيماً. ولحمها ومرفقها بعد إسقاط طرفها

(١) جرجش الشيء: حكّه. (٢) الشعر: السم.

(٣) الشبث: نوع من العناكب يسميه العامة أبو شبث.

(٤) السلخ: الجلد.

(٥) داء الثعلب: علة معروفة يتناثر منها الشعر. وسمي داء الثعلب لأن الثعلب يتساقط شعره كل سنة.. (تذكرة دوا الأنطاك).

يمنع تزيّد الخنازير^(١)، وكذلك سيلخها. ومرفقتها إذا تُحسّيت وأُكِل لحمها نفع من أوجاع العصب، وكذلك سيلخها. قال: وسيلخها إذا طُبِخ في شراب وقُطِر منه في الأذن سكّن وجعها؛ ويَتَمَضَّمُضُ بخل طُبِخ فيه السِّلَخ لوجع السن. قال: وزعم جالينوس أنه إذا أخذت خيوط كثيرة، وخصوصاً المصبوغة بالأزجوان، وخُنِقَ بها أفعى ولُفَّ واحدٌ منها على عنق صاحب أورام اللّهُاء والحَلَق ظهر نفعٌ عجيبٌ، ومرفقته ولحمه يقويان البصر. قال: وأنفقوا على أن شحم الأفعى يمنع نزول الماء إلى العين، ولكن الإنسان لا يجسر على ذلك. وإذا شُقَّت الحيّة ووضعت على نهش الأفاعي سكّن الوجع.

ذَكَرُ شَيْءٍ مِّمَّا وُصِفَتْ بِهِ الْأَفَاعِي

قال بعضُ الشعراء يصف حيّة: [من البسيط]

لا يَنْبُتُ العُشْبُ في وادٍ تكون به ولا يُجاوِرُها وَخَشٌ ولا شَجَرٌ
جَزْدَاءُ شَابِكَةُ الْأَنْيَابِ ذَابِلَةٌ يَنْبُو مِنَ الْيُسِّ عَنْ يَأْفُوخِهَا الْحَجَرُ^(٢)
لو شَرَحْتَ بِالْمُدَى مَا مَسَّهَا بَلَلٌ ولو تَكَنَّفَهَا الْحَاوُونَ مَا قَدَرُوا^(٣)
قد جَاهَدُوهَا فَمَا قَامَ الرُّقَاءُ لَهَا وَخَاتَلُوهَا فَمَا نَالُوا ولا ظَفَرُوا^(٤)
يكبو لها الْوَرَلُ الْعَادِي إِذَا تَفَحَّتْ جُبْنًا وَيَهْرَبُ مِنْهَا الْحَيَّةُ الذَّكَرُ^(٥)
وقال خَلْفُ الْأَحْمَرِ^(٦):

وكأَنَّمَا لَيْسَتْ بِأَعْلَى جِسْمِهَا بُزْدًا مِنَ الْأَثْوَابِ أَنهَجَهُ الْبِلَى^(٧)
في عَيْنِهَا قَبْلَ وَفِي خَيْشُومِهَا قَطَسَ وَفِي أَنْيَابِهَا مِثْلُ الْمُدَى^(٨)
وقال آخر: [من مَخْلَعُ الْبَسِيطِ]

أَزَقَمُ كَالدَّرْعِ فِيهِ وَشَمٌ مُمَنَّمُ الظُّهْرِ وَاللَّبَانِ^(٩)

(١) الخنازير: قروح صلبة تحدث في الرقبة وأكثر ما تصيب الخنازير.

(٢) اليافوخ: الموضع الذي يتحرك من رأس الطفل.

(٣) الحاوون: جمع الحاوي، وهو الذي يرقى الحيات ويجمعها.

(٤) الرقاة: جمع الرقي، وهو الذي يرقى الحيات.

(٥) الورل: دابة على خلقة الضب إلا أنه أعظم منه.

(٦) هو خلف بن حيان أبو محرز وكان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار، كثير الشعر جيده ولم يكن في نظرائه من أهل العلم أكثر شعراً منه. . . . (الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٠٨).

(٧) أنهجه: أخلقه وأبلاه.

(٨) القبل في العين: إقبال السواد على الأنف؛ وقيل: هو إقبال إحدى الحدتين على الأخرى.

(٩) اللبان: الصدر.

يَزْحَفُ كَالسَّيْلِ مِنْ تِلَاعٍ كَأَنْ عَيْنِيهِ كَوَكْبَانِ
يَهْشِمُ مَا مَسَّ مِنْ نَبَاتٍ وَيَجْذِبُ النَّفْسَ بِالْعِنَانِ
وقال ابن المعتز:

أَنْعَتُ رَقَشَاءَ لَا تَخِيَا لِدَيْغَتِهَا لَوْ قَدَّهَا السَّيْفُ لَمْ يَغْلُقْ بِهِ بَلَلُ
تُلْقِي إِذَا أَنْسَلَخْتَ فِي الْأَرْضِ جِلْدَتَهَا كَأَنَّهَا كُمْ دِرْعٌ قَدَهُ بَطْلُ
وقال الظاهر البصري^(١) شاعر اليتيمة: [من الرجز]

سِرْتُ وَصَحْبِي وَسَطَ قَاعٍ صَفْصَفٍ إِذْ أَشْرَفْتُ مِنْ فَوْقِ طَوْدٍ مُشْرِفٍ
رَقَشَاءَ تَرْنُو مِنْ قَلْبٍ أَجُوفٍ ثُومِي بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ الْمِجْرِفِ^(٢)
وَذَنْبٍ مُنْدَمَجٍ مُعَقَّفٍ حَتَّى إِذَا أَبْصَرْتُهَا لَا تَنْكَفِي^(٣)
عَلَوْتُهَا بِحَدِّ سَيْفٍ مُزْهَفٍ فَظَلَّ يَجْرِي دُمُهَا كَالْقَرْقَفِ^(٤)
* أَتْلَفْتُهَا لَمَّا أَرَادَتْ تَلْفِي *

وقال خَلْفُ الْأَحْمَرِ:

لَهُ عُتُقٌ مَخْضَرَةٌ مَدَّ ظَهْرَهُ وَشُومٌ كَتَحْبِيرِ الْيَمَانِيِّ الْمُرْقَمِ^(٥)
إِلَى هَامَةٍ مِثْلِ الرُّحَى مُسْتَدِيرَةٌ بِهَا نَقَطُ سُودٍ وَعَيْنَانِ كَالْدَمِ
وقال آخر:

وَحَنْشٍ كَحَلَقَةِ السُّوَارِ غَايَتُهُ شِبْرٌ مِنَ الْأَشْبَارِ
كَأَنَّهُ قَضِيبُ مَاءٍ جَارِي يَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ تَلْظِي النَّارِ
وقال خلف الأحمر:

صَلُّ صَفَا لَا تَنْطَوِي مِنَ الْقِصَرِ طَوِيلَةُ الْأَطْرَافِ مِنْ غَيْرِ حَسَرِ
دَاهِيَةٌ قَدْ صَغُرَتْ مِنَ الْكِبَرِ مَهْرُوتَةُ الشَّدَقَيْنِ حَوْلَاءِ النَّظَرِ^(٦)
* تَفْتَرُّ عَنْ عُوجِ حَدَادٍ كَالْإِبَرِ *

(١) هو الظاهر البصري المكنى بأبي الحسين كما في يتيمة الدهر للثعالبي، ص ٣٦٩.

(٢) ترنو: تديم النظر في سكون طرف.

(٣) لا تنكفي: لا ترجع.

(٤) القرقف: الخمر.

(٥) رقم الكتاب: كتبه.

(٦) مهرونة الشدقين: التي اتسع شدقاها.

وقال أبو هلال العسكري: [من الكامل]

وخفيفة الحركات تَفْتَرِغُ الرُّبَى كالبرق يلمع في الغمام الزَّائِحِ
منقوطة تحكي صدورَ صحائف إِيَّانَ تبدو من بطون صفائح
ترضى من الدنيا بظُلِّ ضَخيرة ومن المعيشة بأشتمامِ روائِحِ
وقال ابن المعتز:

كأنني ساورَ ثنِي يومَ بَيْنَهم رقصاءَ مجدولةً في لونها برقُ
كأنها حين تبدو من مكانها غصن تفتح فيه الثَّورُ والورق
ينسل منها لسان تستغيثُ به كما تعوِّذُ بالسَّبابَةِ الفَرِيقُ^(١)
وقال الهذلي^(٢) في مَزَاحِفِ الحَيَاتِ:
كأن مزاحفَ الحَيَاتِ وَهناً قُبيلَ الصبحِ آثَارُ السَّيَاطِ^(٣)
وقال آخر:

كأن مزاحفَهُ أُنْسُعُ جُرِرْنَ فُرَادَى ومنها ثُنَى^(٤)

ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي الْعَقَارِبِ

قال الجاحظ: والعقارب أصناف: منها الجرارة، والطياره، وما له ذنب كالحربة، وما له ذنب معقف، وفيها السود، والخضر، والصفر. وهي من ذوات الذزو^(٥). ويقال: إن الأنثى من هذا النوع إذا حملت يكون حنفها في ولادتها؛ لأن أولادها إذا استوى خلقها أكلت بطون الأمهات حتى تنقبها، وتكون الولادة من ذلك النقب، فتخرج والأمهات ميتة. وفي ذلك يقول الشاعر:

وحاملة لا تحمل الدهر حملها تموت ويحيا حملها حين تعطب
وقال أيضاً: إنها تلد من فيها مرتين، وتحمل أولادها على ظهرها وهي في قدر

(١) الفرق: الفزع، وقد يراد بها المصلي الخاشع.

(٢) هو المتنخل، واسمه مالك بن عويمر بن عثمان بن سويد بن حنيس بن ضبيعة بن غادية بن صعصعة بن كعب بن طابخة بن لحيان بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر. وقد ورد هذا البيت في الصفحة ١٢٧٣ من شرح أشعار الهذليين لأبي سعيد السكري م ٣.

(٣) الوهن: جزء من الليل.

(٤) الأنس: جمع نسع، وهو سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره.

(٥) الذزو: أي الذرية، أو هي بعدد الذرية.

القمل كثيرة العدد. قال: والعقرب شرُّ ما تكون إذا كانت حبلً؛ ولها ثمان أرجل لها أظلافٌ مثل أظلافِ الثور، وعيناها في ظهرها، ومن عجيب أمرها أنها لا تضربُ الميت ولا المغشي عليه ولا النائم، إلا أن يتحرك شيء من بدنه؛ فإنها عند ذلك تضربه؛ وضربها له إنما هو من خوفها منه. وهي تأوي إلى الخنافس وتسالِمها، وتصادق من الحيات كل أسودٍ سالخ. وربما لسعت الأفعى فتموت. وفيها ما يلسع بعضه بعضاً فيموتُ الملسوع. ويقال: إنها تُستخرجُ من بيوتها بالجراد؛ لأنها تحرص على أكله. ومتى أدخل الكراث^(١) في جحرها وأخرج تبعته وما معها من نوعها. وهي إذا خرجت من جحرها تضرب كل ما لقيته من حيوانٍ أو نباتٍ أو جمادٍ.

وقيل لبعض الأطباء: إن فلاناً يقول: إنما أنا مثل العقرب أضرب ولا أنفع؛ فقال: ما أقل علمه بها إنها تنفع إذا شقَّ بطنها ووضعت على مكان اللسعة. وقد تجعل في جوف فخارٍ مسدود الرأس مطيئ الجوانب، ثم توضع الفخارة في ثورٍ، فإذا صارت العقرب رماداً سقي من ذلك الرماد من به حصاة نصف دانق^(٢) فتقتتها من غير أن تضرب شيئاً من الأعضاء. وقد تلسع من به حمى عتيقة فتقلع عنه. وقد تلسع المفلوج فيذهب عنه الفالج. وقد تُلقي العقرب في الدهن وتترك فيه حتى يأخذ منها ويَجذب قواها، فيكون ذلك الدهن مُصرِّفاً للأورام الغليظة. وقال الشيخ الرئيس: زيت العقارب نافع من أوجاع الأذن. فهذه منافعها.

وقال الجاحظ: ومن أعاجيب العقرب أنها لا تسبح ولا تتحرك إذا أُلقيت في الماء، كان الماء جارياً أو ساكناً. قال: وهي تطلب الإنسان وتقصده؛ فإذا قصدها فرث منه. وهي إذا ضربت الإنسان هربت هرب من قد أساء. قال: ومن أعاجيب ما في العقرب أنها وجدنا عقارب القاطول^(٣) يموت بعضها من لسع بعض، ثم لا يموت عن لسعتها شيء غير العقارب، ونجد العقرب تلسع إنساناً فيموت وتلسع آخرَ فتموت هي؛ فدل ذلك على أنها كما تعطي تأخذ. ويقال: إن الذي تموت هي إذا لسعته تكون أمه قد لسعت وهي حامل به. قال: ومن أعاجيبها أنها تضرب الطست والقنقم النحاس فتخرقه، وربما ضربته فثبتت إبرتها فيه. قال: والعقارب القاتلة تكون في موضعين: بشهرزور^(٤) من

(١) الكراث: عشب معمر من الفصيلة الزنبقية، ذو بصلة أرضية، تخرج منها أوراق مفلطحة ليست جوفاء، وفي وسطها شمراخ يحمل أزهاراً كثيرة، وله رائحة قوية.

(٢) الدانق: سدس الدرهم.

(٣) القاطول: اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة.

(٤) شهرزور: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل همذان أحدثها زور بن الضحاك (معجم البلدان لياقوت).

بلاد الجبل، وَعَسْكَرٍ مُّكْرَمٍ^(١) من بلاد الأهواز، وهي جرّارات؛ وإذا لَسَعَتْ قَتَلَتْ؛ رويما تاتر لحم من لسعته أو تعقن ويسترخي حتى لا يدنو منه أحد إلا وهو يُمَسِّكُ أنفه مخافة إعدائه. وهي في غاية الصغر؛ فإن أكبر ما يوجد منها تكون زنته دانيقاً واحداً؛ والذي يوجد منها كبيراً تكون زنته ثلاث حبات أرز؛ فإن وُزِنَتْ بشعيرة رَجَحَتْ الشعيرة عنها. وهي مع نزارتها تقتل القيلَ والبعيرَ بلسعتها. قال: وَبِصِيبِينَ^(٢) عقاربُ قتالةٍ يقال: إن أصلها من شَهْرُزُورَ، وإن بعض الملوك حاصر نصيبين فأتى بالعقارب من شهرزور ورمى بها في كيزانٍ بالمجانيق إلى البلد، فأعطى القوم بأيديهم^(٣).

وقد وصف الشعراء العقرب وشبهوها في أشعارهم، فمن ذلك قول السري الرفاء^(٤):

سارية في الظلام مُهْدِيَةٌ إلى النفوس الرّدى بلا حَرَجِ
شائِلَةٌ، في دُنْيَيْهَا حُمَةٌ كأنها سَبَجَةٌ من السَّبَجِ^(٥)
وقال آخر: [من الرجز]

ونضوة تُعرَفُ بِأَسْمٍ وَلَقَبِ ما بين عينيها هلالٌ مُنْتَصِبُ^(٦)
موجودة معدومة عند الطلب تَطْعَنُ من لاقتة من غير سَبَبِ
يَخْتَجِرُ تَسْلُهُ عند الغضب كأنه شُعْلَةٌ نارٍ تَلْتَهِبُ
وقال آخر:

تحملُ رمحاً ذات كُعوٍ مُشْتَهَرِ فيه سِنَانٌ بالحريق مُسْتَعِزِ
أَنْفٌ تَأْنِيْفاً على حين قُدِرِ تَأْنِيْفٌ أَنْفِ القوسِ شُدَّتْ بالوْثَرِ^(٧)

-
- (١) عسكر مكرم: بلد مشهور بنواحي خوزستان.
(٢) نصيبين: هي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قرأها أربعون ألف بستان. (معجم البلدان لياقوت).
(٣) أعطى القوم بأيديهم: أي ذلوا وخفضوا.
(٤) هو السري بن أحمد بن السري الكندي، الموصلية، المعروف بالسري الرفاء (أبو الحسن) شاعر، أديب، مدح سيف الدولة ثم المهلب، وتوفي ببغداد سنة ٣١٢ هجرية. (معجم المؤلفين ٤: ٢٠٨).
(٥) السبج: خرز أسود - وشائلة: رافعة ذنبها.
(٦) نضوة: مهزولة ضعيفة.
(٧) أنف: حدد وسوى؛ وأنف القوس حدها الذي في باطن سيتها.

وقال عبد الصمد بن المعدّل^(١): يدعو بها على عدوّ له: [من الرجز]
يا رُبّ ذي إفكٍ كثير خُدْعُه مُسْتَجْهَلِ الحِلْمِ خَبِيثِ مَرْتَعُه
يَسْرِي إلى عِرْضِ الصديق قَدْعُه صُبَّتْ عليه حين جَمَتْ بِدْعُه
ذاتُ دُئَابِي مُثْلِفٍ مَنْ يَلْسَعُه تَخْفِضُه طَوْرًا وَطَوْرًا تَرْفَعُه
أَسْوَدُ كَالسَّبْجَةِ فِيهِ مِبْضَعُه يَنْطَفِ مِنْهُ سُمُّهُ وَسَلْمَعُه^(٢)
تُسْرِعُ فِيهِ الحَتَفَ حين تَشْرَعُه يَبْرُزُ كَالْقَرْنَيْنِ حين تُطْلِعُه
في مثل صدر السَّبْتِ حين تَقْطَعُه لا تَصْنَعُ الرَقْشَاءَ ما قد تَصْنَعُه^(٣)
وقال ابن حَمْدِيسَ: [من الطويل]
وَمُشْرِعَةً بِالموتِ لِلطعنِ صَغْدَةٌ فَلَاقِرْنَ إِنْ نَادَتْهُ يَوْمًا يَجِيبُهَا^(٤)
تُذِيْقُكَ حَرَّ السَّمِّ مَنْ وَخَزَ إِبْرَةً إِذَا لَسَبَتْ مَاذَا يَلَاقِي لَسِيبُهَا^(٥)
إِذَا لَمْ يَكُنْ لَوْنُ الْبَهَارَةِ لَوْنُهَا فَمَنْ يَرَقَانِ دَبَّ فِيهَا شُحُوبُهَا
لَهَا سَوْرَةٌ خُصَّتْ بِمُنْكَرِ صَوْرَةٍ تَرَى الْعَيْنُ فِيهَا كُلَّ شَيْءٍ يَرِيبُهَا
لَهَا طَعْنَةٌ لَا تَسْتَيْبِنُ لِنَاضِرٍ وَلَا يَرْسِلُ الْمِسْبَارُ فِيهَا طَبِيبُهَا^(٦)
نَسِيتُ بِهَا قَيْسًا وَذَكَرَى طَعِينَهُ وَقَدْ دَقَّ مَعْنَاهَا وَجَلَ نُدُوبُهَا^(٧)
تَجِيءُ كَأُمِّ الشُّبْلِ غَضَبِي تَوَقَّدَتْ وَقَدْ تَوَجَّحَ الْيَأْفُوحُ مِنْهَا عَسِيبُهَا^(٨)
عَدُوٌّ مَعَ الْإِنْسَانِ يَعْمُرُ بَيْتَهُ فَكَيْفَ يُوَالِي رَقْدَةً يَسْتَطِيبُهَا
وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ عَنَّا بَلْطَفِهِ لَصُبَّتْ مِنَ الدُّنْيَا عَلَيْنَا خَطُوبُهَا

(١) تقدمت ترجمة ابن المعدّل.

(٢) السلمع: ضرب من السم.

(٣) السبت: الجلد المدبوغ.

(٤) الصعدة: الرمح.

(٥) لسبت: لدغت.

(٦) المسبار: ما يسبر به الجرح.

(٧) الندوب: آثار الجرح.

(٨) العسيب: عظم الذنب، وقيل: هو منبت الشعر منه.

البَابُ الثَّانِي

مِنَ الْقِسْمِ الرَّابِعِ مِنَ الْقَنْ الثَّالِثِ

فِيمَا هُوَ لَيْسَ قَاتِلًا بَفَعْلِهِ مِنْ دَوَابِّ السُّمُومِ

ويشتمل هذا الباب على ما قيل في الخنافس، والورَّغ، والضَّب، وابن عِرْس، والجُرَباء، والقَفَّاذ، والفُثْران، والقَرَاد، والنمل، والذَّر، والقَمَل، والضُّوَاب.

فأما الخنافس وما قيل فيها - قالوا: والخنافس تتولَّد من عفونة الأرض. وهي أصناف، منها الخُنْفُس المعروف؛ ومنها «الجُعَل» ويسمى «الكَبْرَتَل». وهو يتولَّد من أَخْثَاء^(١) البقر، وهو يموت إذا شَمَّ رائحة الطَّيِّب، وإذا دُفِنَ في الورد مات، وإذا أُخرج منه ودُفِنَ في الرُّوث عاش. والغالب أنه لا يموت حقيقةً وإنما يَخْدَرُ وتَبْطُلُ حركته؛ فإذا عُولِجَ بما نشأ منه قَوِيَ. والله أعلم. وله سِتُّ أرجل، وسَنَامٌ مرتفع. وهو لا يصير كَبْرَتَلًا حتى يصير له جناحان. وجناحاه يظهران إذا أراد الطيران ويخفيان إذا مشى. ومن عادة الجُعَل أن يحُرْسَ اللَّيَام؛ فمن قام منهم لقضاء الحاجة تَبِعَهُ طمعاً أنه إنما يُريد الغائط، والغائط قوت الجُعَل.

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر: وزعم الأعراب أن بين ذُكُور الخنافس وإناتِ الجُعَلان تَسَافُداً، وأنهما يُنتِجان خَلْقاً يَنْزِعُ إليهما جميعاً. قال: وأنشد سيبويه لبعض الأعراب يهجو عدوًّا له:

عَاذَيْتَنَا يَا خُنْفُوسَا أُمَ الْجُعَلِ عداوةِ الأوعالِ حَيَاتِ الْجَبَلِ

ويقال: إنَّ الجُعَل يظَلُّ دَهرًا لا جَنَاحَ له، ثم يَنْبُتُ له جناحان، والعرب تقول في أمثالها: «أَلَجَّ من خنفساء» و«أَفْحَشَ من فاسِيَّة» وهي الخنفساء. وفي لجاجة الخنفساء يقول الأحمر:

لَنَا صَاحِبٌ مُوَلِّعٌ بِالْخِلَافِ كَثِيرُ الْخَطَايَا قَلِيلُ الصَّوَابِ

أَلَجُّ لَجَاجًا مِنَ الْخَنْفَسَاءِ وَأَزْهَى إِذَا مَا مَشَى مِنْ غُرَابِ

ومن أصناف الخَنَافِسِ صَنْفٌ يُقال له: «حَمَارُ قَبَان». وهو يتولَّد في الأماكن النديَّة على ظهره شَبَّةُ المِجَنِّ^(٢). ومنها صَنْفٌ يسمَّى «بَنَاتِ وَرْدَان»، وهي أيضًا تتولَّد

(١) أَخْثَاءُ البقر: واحدها الخَثِي: وهو من البقر مارس بذِي بطنه. وخص به أبو عبيد الثور وحده دون البقر. وخَثِي البقر: روثها. (اللسان مادة خثا).

(٢) المِجَن: الترس.

في الأماكن الندية، وأكثر ما تكون في الحمامات والسقايات. وفيها من الألوان الأسود، والأصهب، والأبيض. قال بعض الشعراء يصف بنات وزدان:

بناتٌ وزدانٌ جنسٌ ليس ينعتَه خلقٌ كنعتي في وصفي وتشبيهي
كمثل أنصافٍ بُسرٍ أحمرٍ تُركت من بعد تشقيقه أقماعه فيه^(١)

ومنها «الصراصر والجنادب». ولها صوت لا يفتُر بالليل، فإذا طلع الفجر فُقد. وفيه من الألوان الأسود وهو جُنْدَب الجبال والآكام السود؛ والأبرق وهو جندب الطلح^(٢) والسمُر والغضا؛ والأبيض وهو جندب الصحاري، قال السري الرقاء يصف جُنْدَبَةً:

وجُنْدَبَةٌ تمشي بساقٍ كأنها على فخذٍ كالعودٍ منشارٍ عَزَرَ^(٣)
مَمْسُكَةٌ تجلو الجناح كأنها عَرُوسٌ تجلّت في عَطايفٍ مُعَبَّر^(٤)

وأما الوزغ وما قيل فيه - والوزغ يسمى «سَامَ أَبْرَصَ». وزعموا أنه أصم، وأن السبب في صممه وبرصه أن الدوابّ كلّها حين ألقي إبراهيم عليه السلام في نار النمرود كانت تُطْفِئُ عنه، وأنّ هذا كان يُنفخ عليه، فصمّ وبرص. وزوي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وفي يدي عُكَّاز فيه رُجٌّ^(٥) فقال: «يا عائشة ما تصنعين بهذا؟ قلت: أقتل به الوزغ في بيتي قال: «إن تفعلين فإنّ الدوابّ كلّها حين ألقي إبراهيم في النار كانت تُطْفِئُ عنه وإنّ هذا كان يُنفخ عليه فصمّ وبرص». وفي حديث آخر عنها رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال للوزغ القويّسِق.

قالوا: وفي طبع الوزغ أنه لا يدخل إلى بيت فيه زعفران. والحيات تألف الوزغ، كما تألف العقارب الخنافس. وهو يطاعِم الحيات ويَزاوُها. وهو يقبل اللقّاح فيه، ويبيض كما تبيض الحية، وقيل: إنّ نصيبه من السمّ نصيب متوسّط، لا يكمل أن يقتل، ومتى دبر جاء^(٦) منه سمّ قاتل. ومتى قُتل وُضع على حُجر حية هربت منه، وهو يُقيم في جُحره أربعة أشهر الشتاء.

(١) البسر: تمر النخل قبل أن يربط.

(٢) الطلح: شجر عظام من شجر العضاة ترعاه الإبل. والطلح: الموز.

(٣) العرعر: جنس أشجار وجنات من الصنوبريات، فيه أنواع تصلح للأحراج والتزيين.

(٤) الممسكة: المطية بالمسك.

(٥) الزج: الحديد في أسفل الرمح.

(٦) دبر: شاخ وولي.

وقال الشيخ الرئيس: إذا ضُمِدَ به على الشوك والسَّلاء^(١) جذبَه، وعلى الثَّالِيل^(٢) يقلَعُها. قال: وقيل: إنَّ المجفَّفَ منه إذا خلط بالزيت أنبت الشعرَ على القَرع. وبولُه ودمه عجيب النَّفع من فُتقِ الصُّبيانِ إذا جلسوا في طبيخه. وقد يُجعل في بولِه أو دمه شيء من المسك ويُجعل في إخليل الصبي فيكون بالغ النَّفع في الفتق. وقيل إنَّ كبِدَه تُسكِّن وجعَ الضُّرس، وتُشَقِّق وتوضع على لُسعِ العقرب فيسكِّن.

وأما الضبُّ وما قيل فيه - قال الجاحظ في كتاب الحيوان: إنَّ من أعاجيب الضبِّ أنَّ له أيرين وللضبَّةِ جرَّين؛ قال: وهذا شيء لا يُعرف إلَّا لهما. هذا قول الأعراب في تخصيصهما بذلك. وقالت الحكماء: إنَّ السَّقَنَقُور^(٣) له أيران، والجرذون^(٤) كذلك. قال: وقال جالينوس: الضبُّ الذي له لسانان يصلح لحمه لكذا وكذا. ومما يستدلُّ به على أنَّ للضبِّ أيرين قولُ الفَرَّاري:

سَبَخَلْ لَهُ نَزْكَانِ كَانَا قَضِيلَةً عَلَى كُلِّ حَافٍ فِي الْبِلَادِ وَنَاعِلٍ^(٥)
وَأَسَمِ أَيْرِ الضَّبِّ: النَّزْكُ. وسئل أبو حَيَّةَ الثَّمِيرِيُّ^(٦) عن ذلك، فزعم أن أير الضبِّ كلسان الحية، الأصلُ واحد والفرع اثنتان. وللأنثى مَدَخْلَان. وعلى ذلك أنشد الكِسَائِيَّ^(٧) رحمه الله تعالى:

تَفَرَّقْتُمْ لَا زِلْثُمْ قِرْنَ وَاحِدٍ تَفَرَّقُ أَيْرِ الضَّبِّ وَالْأَصْلُ وَاحِدٌ
ويقال: إنَّ الضبَّةَ إذا أرادت أن تبيض حَفَرَتْ في الأرض حفرةً ثم رمت بالبيض فيها وطمته بالتراب، وتتعاهده كل يوم حتى يخرج، وذلك في أربعين يوماً. وهي تبيض سبعين بيضةً وأكثر. وبيضها يُشبه ببيض الحمام. ويخرجُ الحِجْلُ وهو مُطِيقٌ للكسب.

قالوا: والضبُّ يخرج من جُخره كليل البصر، فيجلوه بالتحديق في الشمس. وهو يغتذي بالنسيم، ويعيش ببرد الهواء، وذلك عند الهَرَم.

قال الجاحظ: وزعم عمرو بن مُسافر: أنَّ الضبَّةَ تبيض ستين بيضةً وتُسَدُّ عليهنَّ

(١) السَّلاء: شوك النخل.

(٢) الثَّالِيل: واحدها ثُلُول، وهو خراج يكون بجسم الإنسان ناتئ صلب.

(٣) السَّقَنَقُور: حيوان في الماء شديد الشبه بالورل وهو مما يسعى في البر ويدخل في الماء.

(٤) الجرذون: دوية تشبه الضب.

(٥) السجل: الضخم من الضب والبعر والسقاء.

(٦) هو الهيثم بن الربيع وكان يروي عن الفرزدق وكان كذاباً. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٩٩).

(٧) هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي، المعروف بالكسائي (أبو الحسن) مقرأ، موجود،

نحوي. شاعر، توفي سنة ١٨٠ هجرية (معجم المؤلفين ٧: ٨٤).

باب الجُحر ثم تَدْعُهُنَّ أربعين يوماً، فيتفقص^(١) البيضُ ويظهر ما فيه، فتُخْفِرُ عنهن عند ذلك. فإذا كشفت عنهن أَخْضَرْنَ وَأَخْضَرْتُ^(٢) في أَثْرِهِنَّ، فتأكل ما أدركتَ منهن. ويحفرُ المُنْفِلُ منها لنفسه جُحراً، ويرعى من البَقْلِ فلذلك توصف بالعقوق. ويضرب به المثلُ في أكل حُسُولِهِ. وفي ذلك يقول الشاعر:

أَكَلْتُ بَنِيكَ أَكْلَ الضَّبِّ حَتَّى تَرَكْتُ بَنِيكَ لَيْسَ لَهُمْ عَدِيدُ

قالوا: في ذَبِّ الضَّبِّ من القوَّة ما يَضْرِبُ به الحيَّةُ فرما قطعها. والضَّبُّ طويل العمر. وفي طبعه أنه يَرْجِعُ في قَيْتِهِ. وهو شديد الإعجاب بالتمر. ويقال: إنه يمكث ليلةً بعد الذَّبْحِ ثم يَقْرُبُ إلى النار فيتحرك.

قال الجاحظ: وزعمت العرب أنَّ الضَّبَّ يُعْذُ العقربَ في جُحْرِهِ؛ فإذا سمع صوتَ الحَرْشِ^(٣) أَسْتَفْرَهَا^(٤) فَأَلْزَقَهَا بِأَصْلِ عَجَبٍ^(٥) ذَنْبِهِ وَضَمَّهُ عَلَيْهَا، فإذا أدخل الحارِشَ يَدَهُ لِيَقْبِضَ عَلَى أَصْلِ ذَنْبِهِ لِسَعْتِهِ. وقيل: بل العقارب تألف الضَّبَّابَ وتُسالمها وتَأْوِي إليها. قال التَّمِيمِي:

أَتَأْنَسُ بِي وَنَجْرُكَ غَيْرُ نَجْرِي كَمَا أُنَسَ الْعَقَّارِبُ وَالضَّبَّابُ^(٦)

والضَّبُّ من الحيوان المأكول، إلا أنَّ العرب تعيِّرُ بني تميم بأكل لحم الضَّبِّ. والدليل على إباحته ما جاء في الحديث الصحيح: أنَّ رسول الله ﷺ كان في بيت ميمونة رضي الله عنها، فَقَدِّمَتْ لَهُ مَائِدَةً وَعَلَيْهَا ضَبٌّ مَشْوِيٌّ، فَأَهْوَى بِيَدِهِ لِيَأْكُلَ مِنْهُ؛ فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ ضَبٌّ؛ فَرَفَعَ يَدَهُ. فقال له خالد بن الوليد: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْرَامٌ هُوَ؟ قَالَ: «لَا وَلَكِنَّهُ لَيْسَ فِي بِلَادِ قَوْمِي فَنَا لَا أَكُلُهُ»؛ فَأَكَلَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَضْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَنْهَهُ؛ وَلَوْ كَانَ حَرَاماً لَنَهَاهُ ﷺ عَنْ أَكْلِهِ وَأَخْبَرَ بِتَحْرِيمِهِ لَمَّا سُئِلَ عَنْهُ.

وقال أبو نُؤَاسٍ يعيِّرُ بأكل الضَّبِّ:

إِذَا مَا تَمِيمِيَّ أَتَاكَ مُفَاخِرًا فَقُلْ عَدُّ عَنْ ذَا كَيْفِ أَكْلِكَ لِلضَّبِّ

(١) يقال: تفقصت البيضة عن الفرخ: إذا انفلقت عنه.

(٢) أحضرت: عدت.

(٣) حرش الضب: صيده.

(٤) ألزقه بالشيء: جعله يلزق به - وألزقها: اتصل بها دون أن يترك بينهما فجوة.

(٥) العجب: أصل الذنب وعظمه، وهو العصص.

(٦) النجر: الأصل.

وقال عمرو بن الأهتم^(١) من أبيات:

ورَدَّ ذَنَاهُمْ إِلَى حَرَّتِيهِمْ حَيْث لَا يَأْكُلُونَ غَيْرَ الضَّبَابِ^(٢)

وقال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا: زَبَلُ الضَّبِّ نافع لبياض العين، وينفع من نزول الماء.

وقد وصفه الجَمَانِي فقال وذكر أرضاً: [من المتقارب]

تَرَى ضَبَّهَا مُطْلِعاً رَأْسَهُ كَمَا مَدَّ سَاعِدَهُ الْأَقْطَعُ

لَهُ ظَاهِرٌ مِثْلُ بُرْدٍ مُوشَى وَبَطْنٌ كَمَا حَسَرَ الْأَصْلَعُ

هُوَ الضَّبُّ مَا مَدَّ سُكَّانَهُ وَإِنْ ضَمَّهُ فَهُوَ الضَّفْدَعُ^(٣)

وأما الْجِرْبَاءُ وما قِيلَ فِيهَا - وَالْجِرْبَاءُ لَهَا أَصَابِعُ، وَأَظْنَهَا لِنَبْشِ التُّرَابِ. وَلَوْنُهَا أَسْوَدٌ وَأَصْفَرٌ وَمَخْتَلِطُ الْأَلْوَانِ كَالْفَهْدِ. وَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ تَقَعُ عَلَى ذُكُورِهَا وَإِنَائِهَا. وَالْحِرْبَاءُ إِذَا كَانَ فِي الشَّمْسِ كَانَ كَثِيرَ التَّلَوْنِ، فَإِذَا انْتَقَلَ إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَقْلَ تَلَوْنًا. وَإِذَا قَارَبَ الْمَوْتَ أَوْ مَاتَ أَصْفَرَ. وَهُوَ أَبَدًا يَطْلُبُ الشَّمْسَ، فَإِذَا طَلَعَتْ وَجَّهَ وَجْهَهُ نَحْوَهَا. فَمَتَى غَابَ عَنْهُ جِرْمُهَا فَلَا يَرَاهَا أَصَابَهُ نَوْعٌ مِنَ الْجَنُونِ. وَإِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ ذَهَبَ لِيَطْلُبَ مَعَاشَهُ لَيْلَهُ كُلَّهُ حَتَّى يُصْبِحَ. وَلِسَانُهُ طَوِيلٌ جَدًّا، يَقَالُ: إِنَّهُ بِمِقْدَارِ ذِرَاعٍ، فَهُوَ يَبْلُغُ بِهِ مَا بَعْدَ عَنْهُ مِنَ الذُّبَابِ. وَالْأُنْثَى مِنْهُ تُكْنَى أُمَّ حَبِيبٍ. وَهُوَ يُوصَفُ بِالْحَزْمِ لِأَنَّهُ حَيْثُ يَنْظُرُ إِلَى الشَّمْسِ يَقْبِضُ بِيَدِهِ عَلَى خُوطِ^(٤)، فَإِذَا تَقَلَّبَ نَحْوَ الشَّمْسِ حَيْثُ مَا مَالَتْ لَا يُرْسِلُ ذَلِكَ الْخُوطَ مِنْ يَدِهِ حَتَّى يَقْبِضَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى خُوطًا آخَرَ. وَفِيهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

أَنْسَى أَتَيْحَ لَهُ جِرْبَاءٌ تَنْضُبَةٌ لَا يُرْسِلُ السَّاقَ إِلَّا مُمَسِّكًا سَاقًا^(٥)

وكتب بعض الفضلاء إلى بعض أصدقائه يلومه على مُقَامِهِ بِوَطْنِهِ حِينَ نَبَأَ^(٦) بِهِ؛

فَقَالَ مِنْ رِسَالَةٍ:

«أَعْجَزْتُ فِي الْإِبَاءِ، عَنْ خُلُقِ الْجِرْبَاءِ؛ أَذْلَى لِسَانًا كَالرِّشَاءِ، يَبْلُغُ بِهِ مَا يَشَاءُ؛

(١) هو عمرو بن سنان بن سمي من بني هاشم. وهو جاهلي إسلامي، وكان في الجاهلية يدعى المكحل لجماله. (الشعر والشعراء ص ٣١٨).

(٢) الحرة: أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار.

(٣) السكان: الذنب.

(٤) الخوط: الغصن الناعم.

(٥) التنضب: شجر له شوك قصار.

(٦) نبأ: لم يستوفي في مكانه المناسب له.

وناطَ هَمَّتَه بالشمس، مع بُعدها عن اللمس، وأنف من ضيق الوجار، ففرَّخ في الأشجار؛ وسئم العيش المسخوط، فاستبدل خوطاً بخوط؛ فهو كالخطيب، على الغصن الرطيب».

وإن صواب الرأي والحزم لأمريء إذا بلغته الشمس أن يتحوّلا
وقال ذو الرمة:

كأن يدي جزائها متشمساً إذا مُذنبٍ يستغفرُ الله تائب
وقال فيه أيضاً:

وقد جعل الجزاء يصفّر لونه وتخصّر من لفح الهجير غباغبه^(١)
ويشبح بالكفين شبحاً كأنه أخو فجرة عالى به الجذع صالبه^(٢)
وقال فيه أيضاً:

يُصلي بها الحرياء للشمس مائلاً على الجذع إلا أنه لا يكبر
إذا حول الظل العشي رأيت حنيفاً وفي وقت الضحى يتنصر^(٣)

وأما ابن عرس وما قيل فيه - وأبن عرس من حيوان البيوت، وهو حديد النفس شجاع قطن. وأكثر ما يكون بمصر في المنازل، وله صوت قوي يدل على شجاعته. وقيل: إنه الحيوان المسمى «بالدلق»، وإنما يختلف وبره ولونه بحسب البلاد. وفي طبعه أنه يسرق ما يظفر به من الذهب والفضة، وإنه متى وجد حبواً متفرقة خلطها، وهو عدو الفأر يصيده ويقتله، والفأر يخافه.

وقال الجاحظ: وأبن عرس يُقاتل الحية؛ وإذا قاتلها بدأ بأكل السذاب؛ لأن الحية تؤلمها رائحة السذاب؛ كما قدّمنا. وأبن عرس يفعل في الطير ما يفعل الذئب في الغنم في الذبح. وهو إذا عجز عن الوصول إليها أستدار بعجزه وفسا إلى جهتها، وربما قتل الفراريح رائحة فوائه.

ومن ذكائه وفطنته ما حكى: أن رجلاً صاد فرخاً منها فجعله في قفص؛ فرأته أمه فذهبت وعادت بدينار في فمها فألقته بين يدي الرجل كأنها تريد فداء ولدها منه به، فتركه ولم يتناوله، فذهبت وأتت بدينار آخر فلم يأخذه، فلم تزل تذهب وتعود في كل

(١) الغباغب: جمع غغب، وهو ما تغضن من جلد منبت العثون الأسفل. والعثون: الذن.

(٢) تشبح الحرياء على العود: امتد.

(٣) أي يتوجه الحرياء للقبلة عند العشي فهو خفيف، ويتوجه للشرق أول النهار، والنصارى تتوجه في صلاتها جهة المشرق.

مرةً بدینار إلى خمسة دنانير وهو لا يُمسك الذهب، فذهبت وعادت بُصّر فارغةً وألقتهَا بين يديه كأنها تقول: إنه لم يبق شيء؛ فلم يُطلق ولدها ولا ضَمَّ الدنانير. فلَمَّا رآته على ذلك عَمَدَتْ إلى دينار منها فأخذته وعادت به إلى جحرها؛ فخشِي أن تفعل ذلك ببقية الدنانير، فأخذها وأطلق فرَحَهَا؛ فأعادت إليه الدينار.

وقالت الحكماء: لحمُ ابنِ عرس نافعٌ من الصَّرع. والله أعلم.

وأما القنَافِذُ وما قيلَ فيها - وواحدُها قُنْفِذٌ. وهي صِنْفان: قنفذٌ ودُلْدُلٌ. فالقنفذ يكون بأرض مصر في قَدْر الفأر. والدلدل يكون بالشَّام والعراق وخُراسان في قَدْر الكلب القَلْطِي^(١). ويقال: إنه يَسْفِدُ قائماً وبطنُ الأنثى لاصِقٌ ببطن الذكر. والأنثى تَبْيَضُ خمسَ بيضاتٍ؛ وليس هو كالبيض الذي له قِشْر يابسٌ بل هو شبيه باللحم. وتَصْرُفُ القنَافِذُ بالليل أكثرُ من تصرُّفها بالنهار. قال أيمنُ بن خُريم^(٢):

كقُنْفِذِ الرَّمْلِ لا تَخْفَى مَدَارِجُهُ حتى إذا نام عنه الناسُ لم يَنِمِ
والقُنْفِذُ يَسْتَأْنِسُ في البيوت، ويختفي أياماً ثم يظهر. وهو إذا جاع صعد إلى الكروم وقطع العناقيدَ ورَمَى بها ثم ينزل فيأكل منها ما أطاق؛ فإن كان له فراخ تمرَّغ على ما بقي فيشْتَبِكُ قِي شوكة، وذلك بعد تفريطه من عُمُشُوشِهِ^(٣)، ويذهب به إلى فراخه، وهو مولَعٌ بأكل الأفاعي، ولا يُبالي قَبْضَ على رأسها أو غيره من بَدَنِها، فإنه إن قبض على رأسها أكلها بغير كُلفة عليه ولا مَسَقَّةٍ؛ وإن قبض على وسطها أو ذنبها أَسْتَدَارَ وتَجَمَّعَ ونَفَخَ بَدَنه، فمتى ضربته أصابها شوكة، فهي تهربُ منه؛ وطلبه لها بقَدْرِ هَرَبِها منه.

والدُلْدُلُ إذا رأى ما يكرهه أنقبَضَ فيخرج منه شوكة كالمَدَارِي في طول الشُّبْرِ، فيجَرِّحُ ما يُصِيبُه من الحيوان. ويقال: إن شوكة شَعَرٍ، وإنما لَمَّا غَلِظَ وغَلَبَ عليه اليُسُ صَارَ شوْكَاً.

وقال ابنُ سينا: في رَمَادِ القُنْفِذِ جِلَاءٌ وَتَحْلِيلٌ. ومِلْحُه ينفع من داءِ الفِيل^(٤) ولحمُه ينفع من الجُذَامِ؛ لشدَّةِ تحليله وتَجْفِيفه. ولحمُه المُمْلَحُ ينفع من الفالج والتَّشْنِجِ وأمراض العَصَبِ كُلِّها وداءِ الفِيل، وينفع من السَّلِّ ومن سوءِ المِزَاج. ومملوْحُه مع

(١) القلطي: القصير.

(٢) هو أيمن بن خريم بن فاتك من بني أسد وكان قد صحب النبي ﷺ وروى عنه الحديث وكان به برص وكان أثيراً عند عبد العزيز بن مروان (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧٣).

(٣) العمشوش: العنقود يؤكل ما عليه ويترك بعضه.

(٤) داء الفيل: وقد سمي بذلك لاعتراضه الفيل أو يشبه الرجل فيه برجله وحقيقته انصباب أحد الباردین في الرجل متغلظ في مجاريها من لدن الركبة إلى نهايتها. (تذكرة داود الأنطاكي ص ٩٣).

السَّكِينِج^(١) جَيْدٌ لِلْإِسْتِسْقَاءِ وَوَجَعَ الْكُلَى، وَنَفَعَ مَنْ يَبُولُ مِنَ الصَّبِيانِ فِي الْفِرَاشِ؛ حَتَّى إِنْ أَدْمَانَ أَكَلَهُ رِبَمَا عَسَرَ الْبَوْلَ. وَلَحْمُهُ يَنْفَعُ مِنَ الْحُمِيَّاتِ الْمَزْمَنَةِ وَمَنْ نَهَشَ الْهُوَامَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد وصفهُ البلغاء والشعراء في رسائلها وأشعارها - فمن ذلك ما قاله الأمير شمس^(٢) المعالي من رسالة كتبها إلى بعض أصدقائه وقد أهدى له دُلْدَلًا: «قد أنحفنك يا سيدي بعلقي نفيس، وتُخَفِّة رئيس؛ يتعجب المتأمل من أحواله، ويَحَارُ الناعث في أوصافه وأعماله؛ ويتبدل المعجب في آياته، ويكل الناظر في معجزاته؛ فما يدري ببديهة النظر والفؤاد، أَمِنَ الحيوان هو أم من الجماد؛ حتى إذا أعطى مُتَدَبِّرُهُ التَّنَظَّرَ أَوْفَى حقوقه، والفحص أكمل شروطه عليم أنه كمي^(٣) سلاحه في جِصْنِهِ، ورام سهامه في ضِمْنِهِ؛ ومُقاتِلٌ رِمَاحُه على ظهره، ومخاتِلٌ سِرُّه خلافَ جَهْرِهِ، ومحاربٌ حُصْنُه من نفسه، يَلْقَاكَ بأخشن من حدِّ السيف، ويستتر بألّين من وبرِّ الحَيْف^(٤)، متى جمع أطرافه، وضم إليه أطرافه؛ حسبته رابيةً ناتيّة، أو تُلْعَة بادية، وهو أمضى من الأجل، وأزْمى من بني ثعل^(٥). إن رأته الأراقم رأث حتف نفسها، أو عاينته الأسود أيقنّت بفناء جنسها؛ صعلوكٌ ليل لا يُحجم عن دَامِسِهِ، وفارسٌ ظلام لا يخاف من حنادسِهِ^(٦)؛ فيه من الضَّبِّ مثل، ومن الفأر شكل؛ ومن الورل نسب، ومن الدُّلدل سبب، ومن أوابده أنه يسود إذا هَرِمَ وشاب، ويصير كأكبر ما يكون من الكلاب». وقال أبو محمد^(٧) اليزيدي يذكر قنفذاً رآه، فاطعمه وسقاه: [من الطويل]

وطارق ليلِ جاءنا بعد هَجْعَةٍ من الليلِ إلّا ما تحدّث سامرُ
قَرَيْنَاهُ صَفَوَ الزاد حين رأيتُه وقد جاء خَفَاقَ الحَشَى وهو سادرُ^(٨)
جميلُ المُحَيّا في الرّضا فإذا أبى حَمْتُهُ من الضَّيْمِ الرِّمَاحُ الشَّوارجُ^(٩)

(١) السكِينِج: صمغ شجرة بقارس لا نفع فيها سوى هذا الصمغ ويخرج منها في حزيران عند الورق وقيل بالشرط وأجوده الأبيض الطاهر الأحمر الباطن. (تذكرة داود الأنطاكي ص ١٩٥).

(٢) هو الأمير شمس المعالي أبو الحسن قابوس بن أبي ظاهر بن ورداه شاه الجبلي.

(٣) الكمي: الفارس.

(٤) الحيف: جلد الضرع.

(٥) بنو ثعل: حي من طيء.

(٦) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

(٧) هو يحيى بن المبارك بن المغيرة أبو محمد مولى بني عدي بن عبد مناة. وكان من أكابر القراء وأديباً

شاعراً مجيداً. (الوفيات ٢: ٣٤١).

(٨) السادر: المتحير.

(٩) رماح شواجر: مختلفة متداخلة.

ولست تراه واضعاً لسلاحه مَدَى الدَّهْرِ موتوراً ولا هو واطرُ
وقال آخر من أبيات يرثيه فيها ويصفه:

عجبتُ له من شَيْهَمٍ مُتَحَضِّنٍ بَنَبِلٍ من السَّزْدِ الْمُضَاعَفِ تَبْرِقُ^(١)
وأنى أَهْتَدَى سَهْمُ المَنِيَّةِ نَحْوَهُ وفي كُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ سَهْمٌ مُفَوَّقُ
ولو كان كَفُّ الدَّهْرِ تَسْتَخْشِنُ الرَّدَى لكان بكفِّ الدَّهْرِ لا يتعلَّقُ
وقال أبو بكر الخَوَارِزْمِيُّ^(٢) يصفه:

وَمُدَجِّجٍ وسلاحه من نفسه شاكي الدَّوَابِّرِ أَغْزَلَ الأَقْبَالِ
يُمَسِّي وَيُصْبِحُ لم يُفَارِقْ بَيْتَهُ ولقد سَرَى عدداً من الأُمِيالِ
وتراه يَكْمَنُ بَعْضُهُ في بَعْضِهِ فَتَطْيِشُ عَنْهُ أَسْهُمُ الأَهْوَالِ
عيناه مثل النقطتين وَخَطْمُهُ يَحْكِي نُديَّ رِضَاعَةِ الأَطْفَالِ^(٣)
وكانَ أَقْلَماً غُرِزَ بظْهره مَسَّ المِدادَ رُؤُوسَهَا بِبِلالِ
تَتَهَارَبُ الحَيَاثُ حينَ يَرَيْنَهُ هَرَبَ اللِّصُوصِ رَأَتْ سِوَادَ الوالِي
وكأنه الخنزيرُ إِلَّا جِلْدَهُ وصياحه وتَقَارُبَ الأَوْصَالِ

وأما الفِئْرَانُ وما قِيلَ فيها - قد سَمَّاهَا رسولُ الله ﷺ الفُؤَيْسَقَةَ. والفأر ضروب
تقع على جميعها هذه التَّسْمِيَةُ وهي «الجُرْدُ» و«الفأر» معروفان - وهما كالجواميس
والبقر - و«الرَّبَّابُ»، و«الخُلْدُ» و«الزَّبُوع» و«فأرة البَيْشِ»^(٤) و«فأرة المِسْك» و«فأرة
الإبل».

فأما الجُرْدُ والفأر - وهما من حيوان البيوت والبر. قال المتكلمون في طبائع
الحيوان: إِنَّ الفأرَ مما جُمِعَ له بين حاسة السمع والبصر. وليس في الحيوان أفسدُ منه.
ومن فسادِه أنه يجد قارورةَ الدَّهْنِ وهي ضَيِّقَةُ القَمِ فيُدْخِلُ ذَنْبَهُ فيها وَيَمْتَصُّهُ، فإن قَصُرَ
ذَنْبُهُ عن بلوغِ الدَّهْنِ عَمَدَ إلى التَّوَى والأحجار الصُّغَارِ فيُلْقِيهِما فيها، فيطفو ما فيها
فيمتصُّهُ بِذَنْبِهِ، ولا يزال يتعاهد ذلك حتى يَنفَدَ جميعُ ما فيها. وهو إذا سَرَقَ البيضَ
يَعْجِزُ عن كُسْرِهِ بِسِنِّهِ، فيُدْحِجُ البيضَةَ إلى أن تَسْقُطَ من مكان مرتفع إلى مُسْتَقْلٍ

(١) الشيهم: ذكر القنفذ.

(٢) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي أحد العشراء المجيدين، كتب في اللغة والنحو والشعر،
ويتكلم بكل نادرة.

(٣) الخطم: الأنف.

(٤) البيش: نبات سام.

فتتكسر؛ فإن عجزه ذلك استعان بفأر آخر فيدفعها أحدهما بيديه ورجليه وينقلب على قفاه؛ ويقبض الآخر على ذنبه ويتسلق به في حائط؛ فإذا ارتفع به عن الأرض ألقاها الحامل لها فتتكسر فيأكلانها جميعاً. أخبرني بذلك من شاهده. والمثل يضرب به في الفساد والسرقة والنسيان والحذر. وفي طبع الجرذ البرّي وعادته أنه لا يحفر بيته على قارعة الطريق خوفاً من الحافر أن يهدم عليه بيته. ويقال: إنه يُخلَق من الطين، وإنه يتولد بأرض مصر إذا نضب ماء النيل عنها. وقال صاحب كتاب مباحج الفكر: إنه رأى ذلك عياناً في سَفَط^(١) مَيْدُومٍ من جيزة مصر.

وقال الجاحظ: لعمري إن جرّذاً إنطاكيةً لَسَاجِل^(٢) السَّنايِرِ في الحرب، ولا تقوم لها ولا تَقْوَى عليها إلا الواحد بعد الواحد. قال: وهي بخراسان قوية جداً، وربما قطعت أذن النائم. قال: ومن الفأر ما إذا عضّ قتل. قال: ومن الأعاجيب في قرض الفأر أن قوماً من أهل الفِرَاسة ينظرون إلى قَرَضِهِ ويتفرسون منه أحوالاً. ويزعمون أن أبا جعفر المنصور نزل في بعض القُرَى فقرَضَ الفأرُ مِسْحاً^(٣) له كان يجلس عليه، فبعث به ليُرفأ^(٤)؛ فقال لهم الرّقاء: إن ها هنا أهل بيت يَعْرِفُونَ بقرض الفأر ما ينال صاحب المتاع من خير وشر، فما عليكم أن تعرضوه عليهم قبل إصلاحه؟ فبعث المنصور إلى شيخهم؛ فلما نظر إلى موضع القَرَضِ وثب قائماً ثم قال: من صاحب هذا المِسْحِ؟ فقال المنصور: أنا؛ فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ والله لَتَلَيِّنَ الخلافةُ أو أكون جاهلاً أو كذاباً.

وفي الفأر منافع ذكرها الشيخ الرئيس ابن سينا؛ فقال: دَمُ الفأر يقلع الثآليل، وزيلُه نافع على داء الثعلب وخصوصاً لَطَخاً بالعسل، وخصوصاً المُخْرَق. قال: وإذا سُويَ الفأرُ وجفّف وأطعم الصبيّ أنقطع سَيْلَانُ اللُّعَابِ من فمه. قال: وآتَقَ الناسُ أن الفأر إذا شُقّ ووضع على لَدَغِ العقرب نفع. والله أعلم.

وقد وصف الشعراء الفأر وشبهوه في أشعارهم وذكروا سوء فعله. فمن ذلك قولُ أعرابيٍّ، وقد دخل البصرة فأشترى خبزاً فأكله الفأر: [من الرجز]

عَجَّلَ رَبُّ النَّاسِ بِالْعِقَابِ لِعَامِرَاتِ الْبَيْتِ بِالْخَرَابِ

(١) سَفَط مَيْدُوم: قرية من مديرية بني سويف بقسم الزواية، واقعة غربي النيل بالقرب من الجبل الغربي.

(٢) تساجل: تباري وتفاخر.

(٣) المسح: الكساء من شعر.

(٤) رَفَأَ الثوب: لأم خرقه بالخياطة وضم بعضه إلى بعض وأصلح ما يلي منه.

حتى يُعَجَّلْنَ إلى التَّبَابِ كُخِلَ العيون وَفُصَّ الرِّقَابُ^(١)
 مُجَرَّرَاتٍ فَضَّلَ الأَذْنَابِ مثل مَدَارِي الطُّفْلِ الكَعَابِ^(٢)
 كيف لها بِأَثَمَرٍ وَثَابِ مُنْهَرَّتِ الشَّدَقُ حَدِيدِ الثَّابِ
 كأنما يَكْثُرُ عن حِرَابِ يَفْرِسُهَا كالأَسَدِ الوَثَابِ
 وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِيُّ: [من الخفيف]

بالْحَذْبِ الظُّهُورِ فُغِسَ الرِّقَابِ لِدِقَاقِ الْخُرْطُومِ والأَذْنَابِ^(٣)
 لِلطَّافِ أَذَانُهَا وَالْخِرَاطِي - مُمُ حَدَادِ الْأُظْفَارِ والأنْيَابِ
 خَلِقَتْ لِلْفَسَادِ مَذْ خَلِيقِ الْخُلْدِ نَقَبَاتٍ فِي الْأَرْضِ وَالسَّقْفِ وَالْحَا
 أَكَلَاتِ كُلِّ الْمَأْكَلِ لَا تَسْ - يُطِ نَقَباً أَعْيَا عَلَى الثُّقَابِ
 أَلْفَاتِ قَرْضِ الثِّيَابِ وَقَدْ يَغْ - لَأُمُّهَا شَارِبَاتِ كُلِّ الشَّرَابِ
 دِلَ قَرْضِ الْقُلُوبِ قَرْضِ الثِّيَابِ
 وقال في فَاةٍ بِيضَاءَ:

وفَاةٍ بِيضَاءَ لَمْ تُبْتَذَلْ يَوْمًا لِإِطْعَامِ السَّنَانِيرِ
 إِذْ فَاةُ الْمَسْكِ سَمِعْنَا بِهَا وَهَذِهِ فَاةُ كَافُورِ
 وَأَمَّا الزُّبَابُ - فَإِنَّهُ فَارٌ أَصْمٌ، يَكُونُ فِي الرَّمْلِ، وَالْعَرَبُ تَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلَ فِي
 السَّرْقَةِ. يَقُولُونَ: «أَسْرَقُ مِنْ زَبَابَةٍ».

وَأَمَّا الْخُلْدُ - فَهُوَ أَعْمَى لَا يُدْرِكُ شَيْئاً إِلَّا بِالشَّمِّ، إِلَّا أَنْ عَيْنِيهِ كَامِلَتَانِ، لَكِنْ
 الْجَفْنُ مُلْتَحِمٌ عَلَى النَّازِلِ لَا يَنْشَقُّ. وَهُوَ تُرَابِيٌّ مُسْتَقَرٌّ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ؛ وَهِيَ لَهُ
 كَالْمَاءِ لِلْمَسْكِ. وَلَيْسَ لَهُ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ قُوَّةٌ وَلَا نَشَاطٌ، بَلْ يَنْقَى مَطْرُوحاً كَالْمَيْتِ
 فَتَخْطِفُهُ الْجَوَارِحُ أَوْ يَمُوتُ، وَهُوَ حَدِيدٌ حَاسَّةُ الشَّمِّ. وَمَتَى شَمُّ رَائِحَةٍ طَيِّبَةٍ هَرَبَ.
 وَهُوَ يَحِبُّ رَائِحَةَ الْكُرَاثِ وَالْبَصْلِ، وَرَبَّمَا صِيدَ بِهِمَا. وَمَنْ دَأْبُهُ طَوْلُ الْكَذِّ وَدَوَامُ
 الْحَفْرِ. وَفِي تَرْكِيهِ أَنَّهُ لَا يَقْرُطُ فِي الطَّلَبِ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ. وَلَهُ وَقْتُ يَظْهَرُ فِيهِ لَا يُخْطِئُهُ
 وَلَا يَغْلُطُ فِي الْمَقْدَارِ. وَيُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي حِدَّةِ السَّمْعِ؛ فَيَقَالُ: «أَسْمَعُ مِنْ خُلْدٍ».
 وَأَمَّا الِيزْبُوعُ - فَهُوَ حَيَوَانٌ طَوِيلُ الرَّجْلَيْنِ، قَصِيرُ الْيَدَيْنِ جَدًّا. وَلَهُ ذَنْبٌ كَذَنْبِ

(١) الوقص: قصر العنق.

(٢) المداري: جمع مدرأة، وهي شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه، يسرح به الشعر المتلبد.

(٣) قس الرقاب: مائلتها نحو الظهر.

الجُرَذ، يرفعه صُعْدًا، في طَرَفِهِ شِبهُ النُّوارة^(١). ولَوْثُهُ لَوْنُ الغزال. ويقال لولده: «دِرْصٌ»، والجمع أَدْرَاص. قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: كُلُّ دابة حشاها الله خُبْنًا فهي قصيرة الديدن. وهو يسكن بطن الأرض لتقوم رطوبتها له مقام الماء. وهو يُؤثر النسيم ويكره البخار. وهو يَتَّخِذُ جُحْرَهُ على نَشْرِ^(٢) من الأرض ويحفره، ويفتح له أبواباً على مَهَبِ الرياح وتُسَمَّى «النَّافِقاء»، و«القاصِعاء» و«الدَّاماء»، و«الرَّاهِطاء». فإذا طُلِبَ من أحد هذه الأبواب خرج من الآخر. وهو يَجْتَزُّ وَيَبْعُرُ. وله كَرِشٌ وأسنان وأضراس. وهو من الحيوان الذي ينقاد إلى رئيس منه. والرئيس منها إذا كان فيها يرتفع عنها فيكون في مكان مُشْرِفٍ أو على صخرة ينظر منه إلى الطريق، فإن رأى ما يخافه عليها صَرَ بأسنانه وصَوَّتَ، فتسمعه فتتصرف إلى جِحْرَتِها؛ وإن أغفل ذلك ورأى ما تخافه قبل أن يراه قتلته، لتضييعه الحزمَ وعَفْلته، ونصبت غيره لرياستها. وإذا أرادت اليرابيع الخروجَ من جِحْرَتِها لطلب المعاش خرج الرئيس قبلها وأشرف؛ فإذا لم ير ما يخافه عليها صَرَ لها وصَوَّتَ فتخرج. قالوا: ويتولد من اليربوع والفأرة ولدٌ يسمى «القَرْنَب».

وأما فأرة المسك - فقال الجاحظ: إنها دُوَيْبَّةٌ تكون في بلاد تُبَّت^(٣) تصاد لِتَوَافِجِها^(٤) وسُرَرِها. فإذا أَصْطِيدَتْ عُصِبَتْ سُرَّتُها بِعَصَابٍ وهي مُدْلَاةٌ فيجتمع فيها دَمُها؛ فإذا أَجْتَمَعَ دُبِحَتْ، ثم تُقَوَّرُ السُّرَّةُ المعصوبة وتدفن في الشَّعِيرِ حيناً فيستحيل ذلك الدَّمُ المختنق الجامد مِسْكَاً ذِكِيّاً بعد أن كان مُتِنِئاً. ويقال: إن هذه الفأرة توجد في بلاد الزَّابِج^(٥) وتحمل إلى السُّند، وإن المسك يخرج من خُصْيَيْ ذكورها بالعصر، ومن ضُرُوعِ إناثها بالحلب. ويقال: إن الفأرة الفارسية أطيَبُ ريحاً من كل طيب، وربما ضاهى ريح المسك. وهو أَجْرَدُ أَشَقَرُ، شَعْرُهُ إلى الصُّفْرة، شديد كَحَلِ العينين، طويل الأذنين، قصير الذَّنْب.

وأما فأرة الإبل - فليست بحيوان، وإنما هي رائحة تسطع من الإبل عند صدورها من الوردِ يَنْتِجُها طيبُ الرُّغِي. قال الشاعر:

لَهَا فَأَرَةٌ دَفَرَاءُ كُلِّ عَشِيَّةٍ كَمَا فَتَقَ الكافورَ بالمسك فاتِقُهُ^(٦)

(١) النُّوارة: جمع النوار، أي الزهر، ونور الشجر: أزهر.

(٢) النَشْر: ما ارتفع وظهر من الأرض.

(٣) بُت: إقليم ضمن الجمهورية الصينية متاخم للهند. وهي هضبة تخترقها الجبال تعتبر أعلى صقع في العالم.

(٤) التوافج: جمع النافجة، وهو وعاء المسك في جسم الحيوان.

(٥) الزابج: جزيرة في أقصى بلاد الهند وراء بحر هركند في حدود الصين.

(٦) دفر الشيء: ظهرت رائحته واشتدت، طيبة كانت أو خبيثة.

وأما القُرَاد وما قيل فيه - فقد قالوا: أول ما يكون «قَمَقَمَةً» وهو الذي لا يكاد يُرى من صِغَرِهِ، ثم يصير «حَمَنَانَةً»، ثم يصير «قُرَاداً»، ثم يصير «حَلَمًا»، ويقال للقراد: «العلّ» و«الطلح» و«القتين» و«البُرَام» و«القرشَام».

والقراد يُخلَق من عَرَق البعير ومن الوَسَخ والتَّلَطُّخ بالثَّلَط^(١) والأبْوَال، كما يُخلق القمل من عَرَق الإنسان. وفي طبع القُرَاد أنه يسمع رُغَاءَ الإبل من فراسخ فيقصدُها؛ حتى إن أصحاب الإبل يبعثون إلى الماء من يضلح لإبلهم الأَرَشِيَّة^(٢) وآلات السَّقْيِ، فتنبِئ الرجال عند البئر تنتظر مجيء الإبل، فيعرفون قربها من القُودَاء بانبعاثه في جوف الليل وسُرعة حركته ومروره، فإذا رأوا ذلك منه تهَيَّؤوا للعمل.

ويقول من أعنى بالحيوان وتكلّم في طبائعه: إن لكل حيوانٍ قُرَاداً يناسب مِزَاجَه.

وهم يَضْرِبُونَ المثل بالقراد في أشياء فيقولون: «أسمعُ من قُرَادٍ»، و«الزُقُ من قُرَادٍ»، وما هو إلا قراد تُفْرِ. وأنشد الجاحظُ لبعض الشعراء في القُرَاد^(٣):

أَلَا يَا عِبَادَ اللَّهِ هَلْ لِقَبِيلَةٍ إِذَا ظَهَرَتْ فِي الْأَرْضِ مُغِيرُهَا
فَلَا الدِّينُ يَنْهَاهَا وَلَا هِيَ تَنْتَهِي وَلَا ذُو سِلَاحٍ مِنْ مَعَدٍ يَضِيرُهَا

وأما التَّمَلُّ والذَّرُّ وما قيلَ فيهما - قال الله عز وجل: ﴿وَحِشْرَ لِسْتَكِنَّ جُودُهُ مِنْ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْكُلَهَا الْكَمَلُ أَذْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٨) [النمل: ١٧ - ١٨]. وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ نزل منزلاً فأنطلق لحاجة فجاء من حاجته وقد أوقد رجل على قرية نمل إما في شجرة، وإما في الأرض؛ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ فَعَلَ هَذَا أَطْفَنُهَا أَطْفَنُهَا أَطْفَنُهَا». وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فعصته نملة فقام إلى نمل كثير تحت الشجرة فقتلتهن فقبل له: أَفَلَا نَمْلَةٌ واحدة». وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ثم أمر بقرية التمل فأخرقت فأوحى الله إليه أن قرصتك نملة أهلك أمة من الأمم يسبحن الله فهلا نملة واحدة. وجاء في الأثر: أن سليمان بن دود عليهما السلام خرج يستسقي، فرأى نملة مُسْتَلْقِيَةً على ظهرها رافعةً قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إِنَّا خَلَقْنَا مِنْ خَلْقِكَ،

(١) الثلط: الرقيق من الرجيع.

(٢) الأرشية: واحدتها رشاء، وهو حبل الدلو.

(٣) القراد: دويبة متطفلة ذات أرجل كثيرة، تعيش على الدواب والطيور.

ليس لنا غنى على سَفْيِكَ؛ فإِما أَنْ تَسْقِنَا وترزُقَنَا، وإِما أَنْ تُمِتَّنَا وتُهْلِكَنَا. فقال للناس: ارجِعُوا، فقد سُقِيتُمْ بدُعاء غيركم.

وقال الجاحظ: وكان ثُمَامَةُ يزعمُ أَنَّ النمل ضَانٌ^(١) الذَّر. قال: والذي عندي أن النمل والذَّر مثلُ الفأر والجُرَذ، والبقرِ والجواميس. قال: والذَّر أجودُ فهُمَا وأصغرُ جَنَّة.

وزعم ابن أبي الأشعث أَنَّ النملَ لَا يَتَزَاوَجُ وَلَا يَتَوَالَدُ وَلَا يَتَلَاقَحُ، وَإِنَّمَا يَسْقُطُ مِنْهُ شَيْءٌ حَقِيرٌ فِي الْأَرْضِ فَيَنْمُو حَتَّى يَصِيرَ بَيْظًا^(٢) فَيَتَكَوَّنُ مِنْهُ.

والنمل من الحيوان المحتال في طلب المعاش يتفرَّق لذلك؛ فإذا وجد شيئاً أنذر الباقيين فيأتين إليه ويأخذن منه. وكلَّ واحد مجتهد في إصلاح شأن العامة غير مختلسٍ لشيءٍ من الرزق دون صاحبه. ويقال: إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْهَا رُؤُوسَاوْهَا وَمَنْ تَحْتِيلُهُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ أَنَّهُ رُبَّمَا وُضِعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُخَافُ عَلَيْهِ مِنْهُ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْوَصُولِ إِلَيْهِ مِنْ مَاءٍ أَوْ شَعِيرٍ، فَيَتَسَلَّقُ فِي الْحَائِطِ وَيَمْشِي عَلَى جَذَعٍ مِنَ السَّقْفِ حَتَّى يُسَامِتَ^(٣) مَا حُفِظَ مِنْهُ ثُمَّ يُلْقِي نَفْسَهُ عَلَيْهِ. وفي طبعه وعادته أَنْ يَحْتَكِرَ فِي زَمَنِ الصَّيْفِ لَزْمَنِ الشِّتَاءِ، وَهُوَ إِذَا خَافَ عَلَى مَا يَدْخِرُهُ مِنَ الْحَبُوبِ مِنَ الْعَقْنِ وَالسُّوسِ أَوْ التَّنَدِّيِّ مِنْ مَجَاوِرِهِ بَطْنَ الْأَرْضِ، أَخْرَجَهَا إِلَى ظَاهِرِ الْأَرْضِ حَتَّى تَنْبَسَ ثُمَّ يُعِيدُهَا، وَإِنْ خَافَ عَلَى الْحَبِّ أَنْ يَنْبُتَ مِنْ نَدَاوَةِ الْأَرْضِ نَقَرَ فِي مَوْضِعِ الْقُطْمِيرِ مِنْ وَسْطِ الْحَبَّةِ (وهو الموضع الذي يبتدىء منه الثَّباتُ)؛ وَيَقْلِقُ جَمِيعَ الْحَبِّ أَنْصَافًا؛ فَإِنْ كَانَ مِنْ حَبِّ الْكُرْبُرَةِ فَلَقَهُ أَرْبَاعًا، لِأَنَّ أَنْصَافَ حَبِّ الْكُرْبُرَةِ تَنْبُتُ، فَالنَّمْلُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ فِي غَايَةِ الْحَزْمِ. فَسَبْحَانَ الْمُلْهِمِ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

وليس شيءٌ من الحيوان يَقْوَى عَلَى حَمْلٍ مَا يَكُونُ ضِعْفُ وَزْنِهِ مَرَارًا غَيْرَ النَّمْلَةِ. وَالتَّمْلُ يَشْمُ مَا لَيْسَ لَهُ رِيحٌ مِمَّا لَوْ وَضَعَهُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ أَنْفِهِ لَمَّا وَجَدَ لَهُ رِيحًا. وَمِنْ أَسْبَابِ هَلَاكِ النَّمْلَةِ نَبَاتُ الْأَجْنَحَةِ لَهَا؛ فَإِذَا صَارَ النَّمْلُ كَذَلِكَ صَادَتْهُ الْعَصَافِيرُ وَأَكَلَتْهُ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ^(٤):

وَإِذَا أَسْتَوَتْ لِلنَّمْلِ أَجْنَحَةٌ حَتَّى يَطِيرَ فَقَدْ دَنَا عَطْبُهُ

(١) الضَّان: ذو الصوف من الغنم.

(٢) البيظ: (بالطاء): بيض النمل.

(٣) يسامت: يقابل ويواجه.

(٤) هو إسماعيل بن القاسم مولى لعنزة، ويكنى أبا إسحاق، وأبو العتاهية لقب، وكان جراراً ويرمى بالزندقة. (طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ٤٠٩).

ومن أصناف التَّمَلِّ صِنْفٌ يَسْمَى «نمل الأسد»؛ سَمِيَ بذلك لأنَّ مُقَدِّمَ النملة يُشَبِّه وجهَ الأسد ومؤخَّرها كالتَّمَلِّ. وزعم بعضُ من تكَلَّمَ في طبائع الحيوان أَنَّهُ متولِّد، وأنَّ أباه أكل لحمًا، وأمَّهُ أكلت نباتًا، فَتَجَّ بينهما على هذه الصِّفَّة.

وقد وَصَفَه الشعراءُ، فمن ذلك قول شاعر: [من الطويل]

غُرَاةٌ يُولِّي اللَّيْثَ عَنْهَنَ هَارِباً وليست لها نَبْلٌ حَدَادٌ وَلَا عَمَدٌ
قِصَارُ الخُطَا حُمُشُ القَوَائِمِ ضُمُرٌ مُشْمِرَةٌ لَا تَشْتَكِي الأَيْنَ وَالْحَرَدَ^(١)
وتعدو على الأقران في حَوْمةِ الوَعَى نِشَاطًا كَمَا يَعْدُو عَلَى صَيْنِهِ الأَسَدُ
إِذَا ذَكَرَتْ طَيْبَ الهِيَاجِ تَنَفَّسَتْ تَنَفَّسَ ثُكْلَى قَدْ أُصِيبَ لَهَا وَلَدٌ
كَأَكْرَادِ زَنْجَانٍ تَرِيدُ قِضَاضَةً وتلك الصَّعَالِيكُ الغَرَابِ فِي الْبَلَدِ^(٢)
وفيهنَّ أَجْنَاسٌ تَشَابِهْنَ صُورَةً وَبَايْنَ فِي الهِمَّاتِ وَاللَوْنِ وَالْجِسْدِ
فَمِنْهِنَّ كُنْتُ كَالْعَنَاكِبِ أَرْجُلًا وَسَاعَ الخُطَا قَدْ زَانَ أَجْيَادَهَا الْعَيْدُ
إِذَا أَتَتْهَرْتَ طَارَتْ وَإِنْ هِيَ خَلَّدَتْ رَأَتْ وَرَدَ أَحْوَاضِ المَنِيَا مِنَ الرَّشْدِ
وَسُودَ خِفَافُ الجِسْمِ وَلَوْ عَضَّتِ الصَّفَا رَأَيْتِ الصَّفَا مِنْ وَقَعِ أَسْنَانِهَا قَدَازَ^(٣)
يَفِذْنَ عَلَيْنَا مُفْسِدَاتٍ جِفَانَنَا وَأَزْوَادَنَا أَبْغَضَ إِلَيْنَا بِمَا وَقَدْ

وقال أبو هلال العسكري: [من الطويل]

وحي أَنَاخُوا فِي المَنَازِلِ بِاللَّوَى فصاروا بِهِ بَعْدَ القَطِينِ قَطِينًا^(٤)
إِذَا أَخْتَلَفُوا فِي الدَّارِ ظَلَّتْ كَأَنَّهَا تُبَدَّدُ فِيهَا الرِّيحُ بِزَرٍّ قَطُونًا^(٥)
إِذَا طَرَقُوا قَدَرِي مَعَ اللَّيْلِ أَصْبَحَتْ بِوَاطِنِهَا مِثْلَ الظَّوَاهِرِ جُونًا
لَهُمْ نَظَرَةٌ يُسْرَى وَيُمْنَى إِذَا مَشَوْا كَمَا مَرَّ مَرْعُوبٌ يَخَافُ كَمِينًا
وَيَمْشُونَ صَفًّا فِي الدِّيارِ كَأَنَّمَا يَجْرُونَ خِيطًا فِي التَّرَابِ مَمِينًا^(٦)
وَفِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ بِيوتِي قَرْيَةً تَضُمُّ صَنُوفًا مِنْهُمْ وَفَنُونًا

(١) حمش القوائم: دقاقها - والحد: داء يصيب عصب يدي الدابة.

(٢) زنجان: بلد كبير قريب من أبهر وقزوین.

(٣) القدد: جمع قدرة، وهي القطعة من الشيء.

(٤) القطين: الخدم والأتباع - وقطين الدار: أهلها.

(٥) القطون: قد يراد بها القطن.

(٦) المنين: الضعيف من الحبال.

فيا مَنْ رأى بيتاً يَضِيقُ بخمسةٍ وفيه قُرَيَاتٌ يَسْغُنُ مِثِينَا
وأما القَمْلُ والصُّبَابُ وما قِيلَ فيهما - قال الجاحظ: ذكروا عن إياس بن معاوية
أنه يزعم أن الصُّبَابَ دُكُورَةُ القمل، وأن القمل من الشكل الذي تكون إنانته أعظم من
دُكُورته.

قال الجاحظ: والقملُ يَغْتَرِي من العرقِ والوسخِ إذا علاهما ثوبٌ أو ريشٌ أو
شعرٌ، حتى يكون لذلك المكانَ عَفْنٌ وخُمُومٌ. والقملةُ يكون لونها بحسب لون الشعر
في السَّوَادِ والبياضِ والشَّمَطِ^(١) وفي لون الخِضَابِ، وَيَنْصُلُ إذا نَصَلَ. قال: والقمل
يَغْرِضُ لثياب كل إنسانٍ إذا عَرَضَ لها الوسخُ أو العرقُ أو الخُمُومُ، إلا ثيابَ المُجَدِّمين
فإنهم لا يَقْمَلُونَ. وإذا قَمِلَ إنسانٌ وأفرط عليه القملُ زَأَبَقَ^(٢) رأسه فيتناثر القملُ. قال:
وربما كان الإنسانُ قَمِلَ الطَّبَاعُ، وإن تنظفَ وتعطرَ وبذلَ أثوابه، كما عَرَضَ لعبد
الرحمن بن عوف والزبير بن العوام رضي الله عنهما، حتى استأذنا رسولَ الله ﷺ في
لباس الحرير، فأذن لهما فيه لهذه الضرورةِ ولدفع هذا الضرر.

وقد وصف الشعراءُ القملَ في أشعارهم، فمن ذلك قولُ بعضِ العُقَيْليِّين وقد مرَّ
بأبي العلاءِ العُقَيْليِّ وهو يَتَمَلَّى، فقال:

وإذا مررت به مررت بقائصٍ مُتَصَيِّدٍ في شَرْقَةٍ مَقْرُورٍ^(٣)
للقمل حول أبي العلاءِ مَصَارِعُ ما بين مقتولٍ وبين عَقِيرٍ^(٤)
فكأنهنَّ إذا عَلَوْنَ قَمِيصَه قَدْ وَتَوَأْمَ سَمِيسِمٍ مَقْشُورٍ
صَرَجَ الأناملَ من دماء قَتِيلِهَا حَنِقَ على أخرى بِعَذْوٍ مُغِيرٍ

وقال الحسن بن هانئ^(٥) في رجل أسمه أيوب: [من مجزوء الكامل]

مَنْ يَنْأَى عَنْهُ مَصَادُه فَمَصَادُ أَيُوبِ ثِيَابُه
يكفيه منها نظرة فُتِعِلَ مِنْ عَلَقِي جِرَابُه^(٦)
يَا رَبَّ مُحَرَّرٍ بِخِيَابِ ب الرُّذْنِ تَكْنُفُه صُؤَابُه
فأشبه التُّكَايَةَ غير مع لومٍ إذا دَبَّ أَنْسِيَابُه

(١) الشَّمَطُ: اختلاط بياض الشعر بسواده.

(٢) زَأَبَقَ الشيء: طلاه بالزئبق.

(٣) الشَّرْقَةُ: الشمس - والمقرور: من أصابه القر، وهو البرد.

(٤) العقير: الذي بقي مكانه لم يتقدم، أو يتأخر، لفرغ أصابه.

(٥) هو مولى الحكم بن سعد العشيرة في اليمن وعرف بأبي نواس.

(٦) العلق: الدم.

أَوْ طَاهِرِيَّ وَائِيبِ	لَمْ يُنْجِهْ عَنْهُ وَثَابُهُ ^(١)
أَهْوَى لَهُ بِمُزَلَّقِ الْـ	عِرْنَيْنِ إصْبَعَهُ نَصَابُهُ ^(٢)
لِلَّهِ دَرَكٌ مِّنْ أَخِي	قَنَّصِ أَصَابِعُهُ كِلَابُهُ

(١) طاهر بن طاهر: هو البرغوث.

(٢) مزلق محدد: العرنين: الأنف وعرنين كل شيء أوله. والنصاب: المقبض.

القِسْمُ الْخَامِسُ

مِنَ الْقَنْ الثَّالِثِ فِي أَجْنَاسِ الطَّيْرِ وَأَنْوَاعِ السَّمَكِ

وفيه سبعة أبواب: ستة منها في الطير، وباب في السمك، ودَيِّلْتُ عليه بباب ثامنٍ أوردت فيه ذكرَ شيء مما قيل في آلات صيد البرِّ والبحر.

قال الجاحظ في كتاب الحيوان: إِنَّ الحيوان على أربعة أقسام: شيء يطير، وشيء يعوم، وشيء يَنْسَاح^(١)، وشيء يمشي، إلا أَنَّ كل طائرٍ يمشي، وليس كل شيء يمشي طائراً. قال: وأسم طائر يقع على ثلاثة أشياء: صورة، وطبيعة، وجناح؛ وليس بالريش والقوادم والأباهر^(٢) والخوافي يسمى طائراً ولا بَعْدَمِهِ يسقط ذلك عنه. ألا ترى أَنَّ الخفَّاشَ والوطواط من الطير وإن كانا أَمْرَطين لس لهما ريشٌ ولا زَعْبٌ ولا شَكِير.

قال: والطيرُ كُلُّه سَبْعٌ وبَهِيْمَةٌ وَهَمَجٌ^(٣). والسَّباع من الطير على ضربين: فمنها العتاق، والأحرارُ والجوارح. ومنها البُغات، وهو كل ما عَظُم من الطير سَبْعاً كان أو بهيمة إذا لم يكن من ذوات السَّلاح والمخالب المُعَقَّفة كالنَّسور والرَّخَم والغُرَبان وما أشبهها من لثام السَّباع، ثم الخَشَّاشُ وهو ما لَطَفَ جِزْمُهُ وصَغُرَ شَخْصُهُ وكان عديم السَّلاح.

وقال: إذا باض الطائرُ بيضاً لم تخرج البيضة من حَدِّ التحديد والتلطيف بل يكون الجانب الذي يبدأ بالخروج الجانبَ الأعظم. وما كان من البيض مستطيلاً محدَّد الأطراف فهو للإناث، وما كان مستديراً عريض الأطراف فهو للذكور. والبيضة عند خروجها تكون لَيِّنَةً القشر غير جاسئة^(٤) ولا يابسة ولا جامدة. قال: والبيض الذي

(١) انساح: سار في الأرض ويطنه تدنو منها لسمنه.

(٢) الأباهر: ما يلي الكلى من ريش الطائر. والكلى. آخر ما ينبت من الريش.

(٣) الهمج: ذباب صغير كالبعوض يقع على وجوه والحمير.

(٤) الجاسئة: الخشنة الصلبة.

يتولد من الريح والتراب أصغرُ وألطفُ، وهو في الطيب دون الآخر، ويكون بيضُ الريح من الدجاج والقَبج^(١) والحمام والطاوس والإوز. قال: وحَضُنُ الطائر وجُثومه على البيض يكون صلاحاً لبدن الطائر كما يكون صلاحاً لبدن البيض. قال: وزعم ناسٌ أن بيض الرِّيح إنما يكون عن سيفادٍ مُتَقَدِّمٍ. وذلك خطأ من وجهين: أما أحدهما، فإن ذلك قد عُرِفَ من فراريج لم تَرَ ديكاً قط. والآخرُ أن بيض الرِّيح لم يكن منه فُرُوحٌ قط. وبيضُ الصَّيْفِ المحضون أسرعُ خروجاً منه في الشتاء.

فهذه جملٌ من أحوال الطير فرَّقها الجاحظ في كتابه في عدة مواضع جمعناها وألفنا بعضها إلى بعض. فلنذكر كلَّ جنسٍ من الطير، ونشرح ما يخصه من الكلام وما قيل فيه. وغيرُ الجاحظ قَسَمَ الطيرَ إلى أقسام، فجعل منها سباعاً، وكلاباً، وبهائم، وبُغائاً، ولَيْلِيّاً، وهَمَجاً؛ وعلى ذلك بَوَّينا هذا القسم؛ على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى.

البَابُ الْأَوَّلُ مِنَ الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْفَنِ الثَّالِثِ فِي سَبَاعِ الطَّيْرِ

ويشتمل هذا البابُ على ما قيل في العُقَابِ والبُرْزَةِ والصَّقُورِ والشَّوَاهِينِ، وأصناف ذلك، وما يتَّصف به كلُّ طير منها وما فيه من الطبائع والعادة، وما يصيد، وما فيه من الأمارات الدَّالَّة على نجابته وقِراسته، وغير ذلك مما تقف عليه إن شاء الله تعالى.

ذَكَرُ مَا قِيلَ فِي الْعُقَابِ

يقال: إنَّ الْعُقَابَ جميعه أنثى وليس فيه ذكر. ويُسمى عند أهل اللغة «الْعُقَاء». وهي «عُقَابٌ» و«زُمَجٌ». فأما الْعُقَابُ فيقال: إنَّ ذكورها من طير آخر لطيف الجُزْم. وهي تبيض في الغالب ثلاث بيضاتٍ فيخرج لها فرخان. قال الجاحظ: ثم اختلفوا، فقال بعضهم: لأنها لا تحضن إلا بيضتين؛ وقال آخرون: قد تحضن ويخرج لها ثلاثة أفراخ ولكنها ترمي بالواحد أَسْتِثْقَالاً للتكليف على ثلاثة؛ وقال آخرون: ليس ذلك إلا لما يعترِبها من الضعف عند الصيد، كما يعترِب النِّسَاء^(٢) من الوهن والضعف. وهي

(١) القَبج: طائر كالحجل يغير أصواته بأنواع شتى، ويعمر خمس عشرة سنة.

(٢) النسَاء: المرأة التي ولدت. جمع نساء ونفاس.

تحضن ثلاثين يوماً. وما عداها من الجوارح تبيض بيضتين في كل سنة وتحضن عشرين يوماً.

قالوا: وفي طبع الذكر أنه يمتحن أُنثاه هل هي محافظة له أو مؤاتية لغيره من غير جنسه، بأن يصوبَ نظر فرخيه إلى شُعاع الشمس، فإن ثبت عليه تحقق أنها فراخه وأمسكها، وإن نبا بصره عن شعاع الشمس ضرب الأنثى كما يضرب الرجل المرأة الزانية وطردها من وكره ورمى بالفرخين.

والعقاب خفيفة الجناح، سريعة الطيران، فهي إن شاءت أرتفعت على كل شيء وإن شاءت كانت بقربه. يقال: إنها تتغذى بالعراق وتتعضى باليمن. وربما صادت حُمُر الوحش، وذلك أنها إذا نظرت الحمارَ رمَتْ نفسها في الماء حتى يبتل جناحها، ثم تتمرغ في التراب وتطير حتى تقع على هامة الحمار، ثم تصفق على عينيه بجناحيها فتملؤها تراباً، فلا يرى الحمار أن يذهب فيؤخذ. وهي مَوْلعة بصيد الحيات. وفي طبعها قبل أن تتدرب أنها لا تراوغ صيداً ولا تَغنى في طلبه، ولا تزال موفيةً على شَرَف عالٍ؛ فإذا رأت سباع الطير قد صادت شيئاً أنقضت عليه، فتركه لها وتنجو بنفسها. ومتى جاعت لم يمتنع عليها الذئب. وهي شديدة الخوف من الإنسان. ويقال: إنها إذا هَرمت وثقل جناحها وأظلم بصرها التمسّت غديراً، فإذا وجدته خلقت طائفة في الهواء ثم تقع من حالي^(١) في ذلك الغدير فتتغمس فيه مراراً، فيصح جسمها ويقوى بصرها ويعود ريشها ناشئاً إلى حالته الأولى. وهي متى ثقلت عن النهوض أو غميت حملتها الفراخ على ظهورها ونقلتها من مكان إلى آخر لطلب الصيد وتعوّلها إلى أن تموت. ومن عجيب ما ألهمت أنها إذا أشتكت كبدَها رفعت الأرناب والشعالب في الهواء وأكلت أكبادَها فتبرأ. وهي تأكل الحيات إلا رؤوسها، والطير إلا قلوبها. قال امرؤ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً لَدَى وَكْرِهَا الْعُتَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي^(٢)

ومئسرُها^(٣) الأعلى يعظم ويتعقّف حتى يكون ذلك سببَ هلاكها؛ لأنها لا تنال به الطعم إذا كان كذلك. وأوّل مَنْ صاد بها أهل المَغْرِب، وحكي أنّ قيصر أهدى إلى كِسرى عُقاباً، وكتب إليه: علّمها فإنها تعملُ عملاً أكثر من الصقور التي أعجبك. فأمر

(١) الحالى: المكان المرتفع المنيف.

(٢) الحشف من التمر: أردؤه، وهو الذي يجف ويصلب ويتقبض قبل نضجه فلا يكون له نوى ولا حلاوة ولا لحم.

(٣) المنسر: هو للطائر كالمنقار لغير الجارح.

بها فأرسلت على طنبي عرض لها فقذته، فأعجبه ما رأى منها؛ ثم جوعها ليصيدها، فوثبت على صبي من حاشيته فقتلته؛ فقال كسرى: غزانا قيصر في بلادنا بغير جيش. ثم أهدي له نمرأ وكتب إليه: قد بعثت إليك بما تقتل به الطباء وما قرب منها من الوحش؛ وكتب عنه ما صنعت العقاب. فأعجب به قيصر. فعقل عنه يوماً فأفترس بعض فتيانه؛ فقال: صادنا كسرى؛ فإن كنا صيدناه فلا بأس. فلما اتصل ذلك بكسرى قال: أنا أبو ساسان.

وأجود العقاب ما جلب من سرت^(١) وبلاد المغرب.

وقد وصفها الشعراء فمن ذلك ما قاله أبو الفرج البيهقي^(٢): [من الرجز]

ما كل ذات مخلب وناب	من سائر الجراح والكلاب
بمذكر في الجذ والطلاب	أيسر ما يذكرك بالعقاب
شريفه الصبغة والأنساب	تطير من جناحها في غاب
وتسئر الأرض عن السحاب	وتحجب الشمس بلا حجاب
يظل منها الجو في اغتراب	مستوحشاً للطير كالمزتاب
ذكية تنظر من شهاب	ذات جران واسع الجلباب ^(٣)
ومنكب ضخم أثيث رابي	ومنسر موثق النصاب ^(٤)
وراحتني ليث شري غلاب	نيطت إلى برائين صلاب
مزهقة أمضى من الجراب	وكل ما حلق في الضباب

* لملكها خاضعة الرقاب *

وأما الزمج - فهو الصنف الثاني من العقاب، ويعد من خفاف الجوارح. وهو سريع الحركة شديد الوثبة. ويوصف بالغدر. ومن عادته أنه يتلقف الطائر كما يتلقفه البازي، ويصيد على وجه الأرض كما تصيد العقاب، ويحمد من خلقه أن يكون أحمر اللون ولا يحمد ما قرئص^(٥) منه وخشيتاً.

(١) سرت: مدينة على ساحل بحر الروم.

(٢) هو عبد الواحد بن نصر بن محمد البيهقي المخزومي الشامي (أبو الفرج) شاعر، ناثر، تنقل في البلاد ومدح سيف الدولة والكنار. كانت وفاته سنة ٣٩٨ هجرية (معجم المؤلفين ٦: ٢١٤).

(٣) الجران: باطن العنق، أو مقدمه.

(٤) الأثيث: الكثير والعظيم من كل شيء.

(٥) المقرئص: المقتنى للاصطياد.

وقد وصفه أبو الفَرَج البَيْهَقِيُّ فقال: [من الرجز]

يا ربَّ سَرْبٍ آمِنٍ لَمْ يُزْعَجِ غَادِيَّتُهُ قَبْلَ الصَّبَاحِ الْأَبْلَجِ
بَزْمُجٍ أَذْلَقَ حُوشٍ أَهْوَجِ مُضْبِرِّ الْمَنَكِبِ صُلْبِ الْمَنَسِجِ^(١)
ذِي قَصَبٍ عَنِيلٍ أَصَمِّ مُذْمَجِ وَجُؤْجُؤٍ كَالْجَوْشَنِ الْمُدْرَجِ^(٢)
وَعُنُقِي سَامٍ طَوِيلٍ أَعْوَجِ وَمَنْسِرٍ أَقْنَى فَسِيحٍ مُنْسَرَجِ^(٣)
مُنْخَرِقِ الْمَذْخَلِ رَحْبِ الْمَخْرَجِ وَمَقْلَةٍ تَشِفُّ عَنْ فَيْرُورَجِ
نَاطِرَةٍ مِنْ لَهَبٍ مُؤَجَّجِ وَهَامَةٍ كَالْحَجَرِ الْمُدْمَلَجِ
* وَمُخْلَبٍ كَالْمِغُولِ الْمُعَوَّجِ *

ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي الْبَازِيِّ

قالوا: والبازي خمسة أصناف، وهي البازي، والزُرْقُ والبَاشَقُ، والعَفْصِيُّ، والبَيْدَقُ.

فأما البازي - فهو الثاني من الجوارح، وهو أحرّ هذه الأصناف الخمسة مزاجاً، لأنه قليل الصبر على العطش. ومأواه مَسَاقِطُ الشجر العاديّة الملتقّة والظُلُ الظليل ومُطَرَّدُ المياه. وهو لا يتخذ وَكْراً إلا في شجرة لها شَوْك. وإذا أراد أن يُفَرِّخَ بَنَى لنفسه بيتاً وسقفه تسقيفاً جيداً يقيه من المطر ويدفع عنه وَهَجَ الحرِّ. وسبيله في البرد أن يُدْفَأَ بالنار ويُجْعَلَ تحت كَفْيِهِ وَبُرُّ الثَعَالِبِ وَاللُّبُودِ^(٤)؛ وفي الصيف أن يُجْعَلَ في بيت كَنِينٍ باردٍ التَّسِيمِ ويُفَرِّشَ لَهُ الرِّيحَانُ وَالْخَلَفُ^(٥). وهو خفيف الجناح، سريع الطيران، يَلْفُ طيرائه كَالْتَفَافِ الْفَوَاحِشِ^(٦)؛ وَيَسْهَلُ عَلَيْهِ أَنْ يَزُجَّ بِنَفْسِهِ صَاعِداً وَهَابِطاً وَيَنْقَلِبَ عَلَى ظَهْرِهِ حَتَّى يَلْتَقِفَ فَرِيستَهُ. والإناث منه أَجْرَأُ عَلَى عِظَامِ الطَّيْرِ مِنَ الذُّكُورِ. ويقال: إن الإناث إذا كان وقتُ سِفَادِهَا يَغْشَاهَا جَمِيعُ أَنْوَاعِ الضُّوَارِي: الزُّرْقُ وَالشَّاهِينَ وَالصَّقْرُ،

(١) الدلق: خروج الشيء من مخرجه سريعاً - الحوش: القوي - والمضبر: الذي اكتنز لحمه - ومنسج

الدابة: ما بين العرف وموضع اللبد.

(٢) الجؤجؤ: الصدر - والجوشن: الدرع.

(٣) المنسر: هو للطائر كالمقار لغير الجارح.

(٤) اللبود: جمع اللبد، وهو كل شعر أو صوف متلبد؛ أو هو ما يوضع تحت السرج؛ أو هو ضرب من البسط.

(٥) الخلاف: صنف من شجر الصفصاف.

(٦) الفواخت: جمع فاخنة، وهي من ذوات الأطواق.

وإنها تبيض من كل طائر يغشاها؛ ولهذا تجيء مختلفة الأخلاق. والبازي يصيد ما بين العصفور والكركي^(١). ومن عادته أنه إذا أخطأ صيده وفاته وكان في برية لا شجر فيها ولّى مُنعناً حتى يجد كهفاً أو جداراً يأوي إليه؛ ولهذا علّق عليه الجرس ليدلّ على مكانه إذا خفي.

وصفة الجيد منه المحمود في فعله أن يكون قليل الريش، أحمر العينين حادّهما وأن تكونا مُقبلتين على منسره وحجاجاهما^(٢) مُطلّين عليهما، ولا يكون وضعهما في جنبى رأسه كوضع عيني الحمام. والأزرق منه دون الأحمر العين؛ والأصفر دونهما. وسعة أشداه تدلّ على قوة الافتراس. ومن صفاته المحمودة أن يكون طويل العنق، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، شديد الانخراط إلى ذنبه، وأن تكون فخذاه طويلتين مُسرولتين بريش، وذراعه قصيرتين غليظتين، وأشاجع^(٣) كفيه عارية، وأصابعه متفرقة، ولا تكون مجتمعة ككف الغراب، ومخلبه أسود، ويكون طويل المنسر دقيقه. وأخضر ألوانه الأبيض ثم الأشهب، وهما لونان يدلّان على الفراهة والكرم. وأما الأسود الظهر المنقش الصدر بالبياض والسواد فهو يدلّ على الشدة والصلابة. وإن اتفق أن يكون هذا أحمر العين كان نهاية. وهذا اللون في البزة كالكميت في الخيل. والأحمر في البزة أخبثها وبعض الناس يقول: أشرف البزة الطغول، ثم البازي التام وهو الذي وصفناه آنفاً. والطغول: طائر عزيز نادر الوقوع لا يعرفه غير الترك، لأنه يكون في بلاد الخزر وما والاها وما بين خوارزم إلى أرمينية، وهو يجمع صيد البازي والشاهين. وقيل: إنه لا يغير شيئاً بمخلبه إلا سمّه.

وأول من صاد البازي «الذريق» أحد ملوك الروم الأول؛ وذلك أنه رأى بازياً إذا علا كتف^(٤) وإذا سفل خفق^(٥)، وإذا أراد أن يسمو درق^(٦)؛ فأتبعه حتى اقتحم شجرة ملتفة كثيرة الدغل؛ فأعجبته صورته، فقال: هذا طائر له سلاح تتزين بمثله الملوك؛ فأمر بجمع عدة من البزة فجمعت وجعلت في مجلسه. فعرض لبعضها أيم^(٧) فوثب عليه؛ فقال: ملك يغضب كما تغضب الملوك. ثم أمر به فئصب على كندرة^(٨) بين

(١) الكركي: طائر يقرب من الوز أتر الذنب رمادي اللون.

(٢) الحجاج: العظم المستدير حول العين.

(٣) الأشاجع: رؤوس الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف.

(٤) الكتف: ضرب من الطيران.

(٥) خفق الطائر: طار.

(٦) أيم: الحية.

(٨) كندرة البازي: مجتمه الذي يهيا له من خشب أو مدر.

يديه، وكان هناك ثعلبٌ فمرّ به مجتازاً، فوثب عليه فما أفلت منه إلا جريحاً؛ فقال لذرّيق: هذا جبّارٌ يمنع جمّاه. ثم أمر به فضرّي^(١) على الصيد؛ وأتخذته الملوك بعده.

وقد وصفته الشعراء والأدباء، فمن ذلك قول النابغة: [من الرجز]

لما تَعَرَّى اللَّيْلُ عَنْ أَتْسَاجِهِ	وَأَرْتاح ضَوْءُ الصَّبْحِ لَانِبِلَاجِهِ
عَدَوْتُ أَبْغِي الصَّيْدَ مِنْ مِثْلِهِ	بِأَقْمَرِ أُبْدِعَ فِي نِتَاجِهِ
أَلْبَسَهُ الْخَالِقُ مِنْ دِيبَاجِهِ	ثَوْباً كَفَى الصَّانِعَ مِنْ نِسَاجِهِ
حَالٍ مِنَ السَّاقِ إِلَى أَوْذَاجِهِ	وَشَيْئاً يَحَارُ الطَّرْفُ فِي أَنْدِرَاجِهِ
فِي نَسَقٍ مِنْهُ وَفِي أَنْعَاجِهِ	وَزَانَ قَوْدِيهِ إِلَى جِجَاجِهِ ^(٢)
بَزِينَةٍ كَفَتْهُ عِزُّ تَاجِهِ	مَنْسِرُهُ يُثْنِي عَلَى خِلَاجِهِ
وُظْفَرُهُ يُخْبِرُ عَنْ عِلَاجِهِ	لَوْ أَسْتَضَاءَ الْمَرْءُ فِي إِدْلَاجِهِ

* بَعَيْنُهُ كَفَتْهُ عَنْ سِرَاجِهِ *

وقال ابن المعتز يصف عين البازي:

ومقلة تضدّقه إذا رمق
كأنها نرجسة بلا ورق

وقال أيضاً فيه:

وفتيان غدوا والليل داج
كان بُزائهم أمراء جيش

وقال أيضاً: [من الرجز]

ومَنْسِرِ عَضْبِ الشَّبَابَةِ دَامِي
وخَافِقِ لِلصَّيْدِ ذِي أَضْطِلَامِ

كَعَقْدِكَ الْخَمْسِينَ بِالْإِبْهَامِ^(٣)
يَنْشُرُهُ لِلنَّهْضِ وَالْإِقْدَامِ^(٤)

* كَنْشَرِكَ الْبُرْدَ عَلَى الْمُسْتَامِ *

ووصفه أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي فقال من رسالة:

«طائرٌ يُسْتَدَلُّ بظاهِرِ صفاته، على كرم ذاته؛ طوراً ينظر نظَرَ الْخِيَلَاءِ فِي عِطْفِهِ
كأنما يُزْهِى جَبَّارٌ، وتارة يرمي نحو السماء بِظَرْفِهِ كأنما له هناك أَعْتَابٌ. وأَخْلِقَ بِهِ أَنْ

(١) ضري على الصيد: أكره وعود عليه.

(٢) الحجاج: العظم المستدير حول العين.

(٣) طريقة حسابية كانت معهودة عند العرب وتعرف بحساب عقود الأصابع.

(٤) نشر: بسط.

ينقض على قنيصه شهاباً، ويلوي به ذهاباً، ويخرقه تَوَقْدًا وألتهاباً. وقد أقيم له سابعُ الذَّنَابِي والجَنَاح، كَفَيْلَيْن في مطالبه بالتَّجَاح. جَيْد العين والأثر حديدُ السمع والبصر. يكاد يُحسّ بما يجري ببال، ويسري من خيال. قد جمع بين عزة ملك، وطاعة مملوك، فهو بما يشتمل عليه من علو الهمة، ويرجع إليه بمقتضى الخدمة؛ مؤهَّل لإحراز ما تقتضيه شمائله، وإنجاز ما تعدُّ به مخايله. وخليق بمُحكَم تأديبه، وجوذة تركيبه؛ أن لو مثَّل له النجمُ قَنَصاً، أو جرى بذكره البرقُ قَصَصاً؛ لاختطفه أسرع من لحظه، وأطوع من لفظه؛ وانتسفه^(١) أمضى من سهم، وأجرى من وهم. وقد أقسم بشرف جوهره، وكريم عنصره، لا يوجه مُسَفِّراً، إلا غادر قنيصه مُعَفَّراً^(٢)، وآب إلى يد من أرسله مُظَفَّراً؛ مُورَّد المِخْلَب والمِنْقَار، كأنما اُخْتَضَبَ بحناء أو كَرَعَ في عَقَار^(٣).

وله من أبيات يمدح بها: [من الكامل]

طرَدَ القنيصَ بكلَّ قَيْدٍ طريدة زَجَلَ الجَنَاحَ مورَّدَ الأظفار^(٤)
مُلْتَقَّةَ أعطافه بحَبِيرَةٍ مكحولة أجفائه بضَار^(٥)
يرمي به الأمدَ البعيدَ فيثْنِي مخضوبَ راءِ الظُّفَرِ والمنقارِ

وأما الزُّرْق - وهو الصَّنْف الثاني من البازي، هو باز لطيف، إلا أن مزاجه أحرّ وأبيس، وهو لذلك أشدَّ جَنَاحاً وأسرع طَيْرَاناً وأقوى إقداماً. وفيه خَنَلٌ وخُبْنٌ؛ وذلك أنه إذا أُرسِلَ على طائر طار في غير مَطَّاره ثم عطَفَ عليه وأظهر الشدَّة بعد اللين. وخير ألوانه الأسودُ الظَّهِيرِ الأبيضُ الصدرِ الأحمرُ العين. ووصفه المحمود منه أن يكون أعدلها خلقاً، وأقلها ريشاً، وأثقلها مَحْمِلاً، وأملأها فخذاً، وأرحبها شِدْقاً، وأوسعها عيناً، وأصغرها رأساً وأصفاها حَدَقَةً، وأطولها عُقْناً، وأقصرها خافيةً، وأشدَّها لَحْماً، وأن يكون أخضرَ الرجلين، وسيعَ المخالب، مُتَعَرِّياً من اللحم. والله أعلم.

وأما البَاشِق - وهو الصَّنْف الثالث من البازي. وهو أحرّ وأبيس من الزُّرْق، وهو هَلِيعٌ قَلِقٌ ذَعِرٌ، يأنس وقتاً ويستوحش وقتاً. ونفسه قويَّة جافية. فإذا أنس منه الصغيرُ يُلِيع منه كلُّ المراد. وأجودُ البَاشِق ما أخذ فرحاً لم يُلِيع من قوادمه ريشة. وهو متى تمَّ

(١) انتسف الطائر الشيء عن وجه الأرض: قلعه.

(٢) المعفر: الذي مسح بالتراب.

(٣) العقار: الخمر.

(٤) الزجل: رفع الصوت والجلبة.

(٥) الحبر في البرود: الموشى المخطط.

تَأْنِيسُهُ وَجِدَ مِنْهُ بَازٍ خَفِيفُ الْمَحْمَلِ ظَرِيفُ الشَّمَائِلِ .

ومن صفاته المحمودية أن يكون صغير المنظر، ثقیل المحمل، طويل الساقين والفخذين، عظیم السلاح بالنسبة إلى جسمه .

وقال بعض الشعراء يصفه : [من المتقارب]

إذا بَارَكَ اللَّهُ فِي طَائِرٍ فَخَصَّ مِنَ الطَّيْرِ اشْبَهَ رَقِي
لَهُ هَامَةٌ كُلَّتْ بِاللُّجَيْنِ فَسَالَ اللُّجَيْنُ عَلَى الْمَفْرِقِ
يُقَلِّبُ عَيْنَيْنِ فِي رَأْسِهِ كَأَنَّهُمَا نَقَطَتَا زَنْبَقِ
وَأَشْرَبَ لَوْنًا لَهُ مُذْهَبًا كَلَوْنَ الْعَزَالَةَ فِي الْمَشْرِقِ
جِمَامُ الْحَمَامِ وَخَثْفُ الْقَطَا وَصَاعِقَةُ الْقَبْجِ وَالْعَقْعَقِ^(١)
وَأَحْنَى عَلَيْكَ إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْكَ مِنَ الْوَالِدِ الْمُشْفِقِ
فَأَكْرَمَ بِهِ وَبَكَفَ الْأَمِيرَ وَبِالدُّسْتَبَانِ إِذَا يَلْتَقِي^(٢)

وقال أبو الفتح كُشَاجِمُ : [من الطويل]

يَسْمُو فَيَخْفَى فِي الْهَوَاءِ وَيَتَكْفَى عَجَلًا فَيَنْقُضُ أَنْقِضَ الطَّارِقِ
وَكَانَ جَوْجُؤَهُ وَرِيشَ جَنَاحِهِ خُضْبًا يَنْقُشُ بِدِ الْفَتَاةِ الْعَاتِقِ^(٣)
وَكَأَنَّمَا سَكَنَ الْهَوَى أَعْضَاءَهُ فَأَعَارَهُنَّ نَحُولَ جِسْمِ الْعَاشِقِ
ذَا مَقْلَةٍ ذَهَبِيَّةٍ فِي هَامَةٍ مُحْفُوفَةٍ مِنْ رِيشِهَا بِحَدَائِقِ
وَمَخَالِبٍ مِثْلِ الْأَهْلَةِ طَالَمَا أَدْمَنَنَّ كَفَّ الْبَازِيَارِ الْحَادِقِ
وَإِذَا أَنْبَرَى نَحْوَ الطَّرِيدَةِ خِلَّتْهُ كَالرَّيْحِ فِي الْأَسْمَاعِ أَوْ كَالْبَارِقِ
وَإِذَا دَعَاهُ الْبَازِيَارُ رَأَيْتَهُ أَذْنَى وَأَطْوَعُ مِنْ مُحَبٍّ وَامِقِ^(٤)
وَإِذَا الْقَطَاةُ تَخَلَّفَتْ مِنْ خَوْفِهِ لَمْ يَغْدُ أَنْ يَهْوِي بِهَا مِنْ حَالِقِ

ومن رسالة لبعض فضلاء الأندلس، جاء منها :

«كَأَنَّمَا أَكْتَحَلَ بِالْهَبِّ، أَوْ أَتَعَلَ بِذَهَبٍ . مَلْتَفٌ فِي سِنِيرِهِ، وَمَلْتَحَفٌ بِجَبْرِهِ . مِنْ سِيوفِهِ مِتْقَارُهُ، وَمِنْ رَمَاحِهِ أَظْفَارُهُ . وَمِنْ اللَّوَاتِي تَتَنَافَسُ الْمُلُوكُ فِيهَا، تُمَسِّكُهَا عَجَبًا بِهَا

(١) القبيح : الحجل، وهو جنس طيور تصاد .

(٢) الدُستبان : الضارب بالدستان، وهي النغمة بالفارسية .

(٣) العاتق : الجارية أول ما أدركت والتي لم تتزوج .

(٤) الوامق : المحب .

وتبيهاً. فهي على أيديها آيةٌ بادية. ونعمةٌ من الله نامية، تَبْدُلُ لك الجهدَ صُراحاً، وتُعِيرُكَ في نَيْلِ بُغَيْتِكَ جَنَاحاً. وتَتَّفِقُ معكَ في طلب الأرزاق، وتَأْتِلفُ بك على أَخْتِلَافِ الخَلْقِ والأخلاق. ثم تلوذ بك لِيَأْذَ من يَرْجُوكَ، وتُفِي لك وفاءً لا يلتزمه لك أبْنُكَ ولا أخوك. ثم ذَكَرَ حمامةٌ صَادِها، فقال: «إِخْتَطَفَها أَسْرَعُ من اللَّحْظِ، ولا مَحِيدَ لها عنه، وأنحدر بها أَعْجَلُ من اللَّفْظِ، وكأنها هي منه؛ ثم جعل يتناولها بِعَقْدِ السبعين، ويُدْخِلُها في أَصِيْقٍ من التسعين. وكان لها موتاً عاجلاً، وكانت له قُوْتاً حاصِلاً». والله الهادي للصواب.

وأما العَفْصِيُّ - وهو الصنف الرابع من البازي. وهو من الباشق كالزُرْق من البازي، إلا أنه أصغرُ الجوارح نَفْساً، وأضعفُها حِيلَةً، وأشدُّها دُعْراً، وأَيَسُّها مِزاجاً. وربما صاد العصفورَ وتركه لخوفه وحَذَره. ومن عاداته أنه يَرْصُدُ الطيرَ أيام حِضَانِه، فإذا طار عن وَكْرِه خَلَفَه فيه وكَسَرَ بِيضَه ورماه وباض مكانه وطار عنه فيحْضُنُه صاحبُ الوكر؛ فهو أبداً لا يحْضُنُ ولا يُرَبِّي.

وأما البَيْدَق - وهو الصنف الخامس من البازي، وهو لا يصيد غيرَ العصافير. وقد وصفه كُشَاجِمُ فقال: [من الرجز]

حَسْبِي مِنَ البُزَاةِ وَالزَّرَارِقِ	بَبَيْدَقٍ يَصِيدُ صَيْدَ البَاشِقِ
مُؤَدَّبٍ مُدَرَّبِ الخَلَائِقِ	أُضِيدَ مِنْ مَعْشُوقَةٍ لِعَاشِقِ
يَسْبِقُ فِي السَّرْعَةِ كُلَّ سَابِقِ	لَيْسَ لَهُ عَنْ صَيْدِهِ مِنْ عَائِقِ
رَبَّنْتُهُ وَكُنْتُ عَيْنَ الْوَائِقِ	أَنْ الْفَرَازِينَ مِنَ الْبَيَادِقِ ^(١)

ذَكَرُ مَا قِيلَ فِي الصَّقْرِ

والصقْرُ ثلاثةُ أصنافٍ، وهي صقْرٌ، وَكُونَجٌ، وَيُؤْيُؤٌ.

فأما الصقْر - هو النوع الثالث من الجوارح. والعرب تُسَمِّي كل طائرٍ يصيد صقراً، ما خلا النسر والعقاب، وتُسَمِّيهِ «الأَكْدَرُ» و«الأَجْدَلُ». وهو من الجوارح بمنزلة البغال من الدواب، لأنه أصبر على الشدة وأشدُّ إقداماً على جَلَّةِ الطير كالكَرَاكِيّ والحَبَارِجِ^(٢). قالوا: ومِزاجُه أبردُ من سائر ما تقدم ذَكَرُه من الجوارح وأرطب. وهو يُضَرِّي على الغزال والأرنب ولا يُضَرِّي على الطير لأنها تفوته. وفعله في صيده

(١) الفرازين: جمع فرزان، وهو الملكة بالفارسية.

(٢) الحبارج: واحدها حبرج (بضم أوله)، وهو من طير الماء.

الانْقِصَاضُ والصَّدْمُ. وهو غير صافٍ^(١) بجناحه ولا خافق به. ومتى خَفَقَ بجناحه كانت حركته بطيئة بخلاف البازي. ويقال: إنه أهدأ نفساً من البازي، وأسرع أنساً بالناس، وأكثر رصاً وقناعةً، وهو يَغْتَذِي بلحوم ذوات الأَرْبَع. وهو يَعَاف المياة ولا يَقْرُبُها، وذلك لَبَرْد مِزَاجِهِ. وفي طبعه أنه لا يركب الأشجار ولا الشوامخ من الجبال، ولا يأوي إلا المقابر والكهوف وصدوع الجبال. وهو يَنْقَى بالْتَمَعَك^(٢) في الرَّمْل والتراب.

ومن صفاته المحموده الدالة على نجابته وفراسته: أن يكون أحمر اللون، عظيم الهامة، واسع العينين، تام المنسر، طويل العنق والجناحين، رَحْب الصدر، ممتلىء الزور، عريض الوسط، جليل الفخذين، قصير الساقين والدنْب، قريب القفْدة^(٣) من الفقار، سَبَط الكف، غليظ الأصابع فيُزَوِّجُها، أسود اللسان، والله الموفق.

وأوّل مَنْ صاد بالصقر وضّراه الحارث بن معاوية بن ثور بن كئدة. وسبب ذلك أنه وقف في بعض الأيام على صياد قد نصب شبكة للعصافير، فأنقض أكدر على عصفور قد علق في الشبكة فجعل يأكله وقد علق الأكدر وأندق جناحاه، والحارث ينظر إليه ويَعْجَبُ من فعله، فأمر به فَحْمِلَ فُرِمِي به في كِسْرِ بَيْتٍ ووُكِّل به من يُطْعِمه؛ وأنس الصقر بالموكل به، حتى صار إذا جاءه باللحم ودعاه أجاب؛ ثم صار يُطْعِمه على يده وصار يحمله. فبينما هو يوماً حامِله إذ رأى حمامةً، فطار عن يده إليها فأخذها وأكلها، فأمر الحارث عند ذلك باتخاذها وتدريبها والتصيد بها. فبينما هو يسير يوماً إذ لاحت أرنب فطار الصقر إليها وأخذها؛ فلما رآه يصيد الطير يأكله أزداد به إعجاباً واعتباطاً، وأخذته العرب بعده.

ووصفه الشعراء؛ فمن ذلك ما قاله كُشَاجِم يصفه: [من الطويل]

وَقَدْ نَزَلَ الْإِصْبَاحُ وَاللَّيْلُ سَائِرُ	عَدَوْنَا وَطَرَفُ النِّجْمِ وَسَنَانُ غَائِرُ
وَأَكْرَمُ مَا قَرْنَتْ مِنْهَا الْأَحَامِرُ ^(٤)	بِأَجْدَلٍ مِنْ حُمْرِ الصَّقُورِ مُؤَدِّبُ
لِيُعْجِبَنِي أَنْ يَكْسِرَ الْوَحْشَ طَائِرُ	جَرِيءٌ عَلَى قَتْلِ الطُّبَاءِ وَإِنِّي
قَوَادِمُ نَسِيرٍ أَوْ سَيُوفُ بَوَاتِرُ ^(٥)	قَصِيرُ الدَّنَابِي وَالْقُدَامَى كَأَنَّهَا

(١) صف الطائر جناحيه. بسطهما ولم يحركهما.

(٢) التمعك: التمرغ.

(٣) القفد: جزء من جانب الرأس الخلفي.

(٤) الأحامر: واحدها أحمر.

(٥) القدام: ما يوضع على الفم سداداً له.

ورُقُشَ منه جُؤْجُوٌّ فكأته
فما زلتُ بالإضمارِ حتى صنعته
وتحمّله منا أكفٌ كريمةٌ
وعَنَ لنا من جانب السَّفْحِ رَبْرَبٌ
فجَلَى وُحِلَتْ عُقْدَةُ السَّيْرِ فانتحى
يَحْتُ جناحيه على حُرٍّ وجهها
وما تَمَّ رَجْعُ الطَّرْفِ حتى رأيتها
وقال عبد الله بن المعتز: [من الرجز]

وأجدلِ يفهم نُطَقَ الناطقِ
أفنى المَخَالِبِ طلوبِ مارقِ
ذي جُؤْجُوٍّ لا يَسُ وَشِي رائقِ
أو كَأَمْتَدَادِ الكحلِ في الحَمَالِقِ
عَشْرًا من الإوْزِ في غَلَاْفِقِ
حتى دنا منهمنٌ مثلُ السارقِ
مُلْمَلِمِ الهامةِ فُخِمَ العاتِقِ^(٤)
كأنها ثَوْنَاتُ كَفٍّ ماشِقِ
كَمُبْتَدَا اللَّامَاتِ فِي المَهَارِقِ^(٥)
وَنَجَمَتْ بِاللَّحْظِ عَيْنُ الرامِقِ
فمرَّ كالرَّيْحِ بَعْزَمٍ صَادِقِ^(٦)
ثم علاها بِجَنَاحِ خَافِقِ
* فَطَفِقَتْ من هَالِكٍ أو فَائِقِ^(٧) *

وقال أيضاً: [من الرجز]

وأجدلِ لم يَخُلْ من تَأْدِيبِ
يَهْوِي هَوِيَّ الدَّلْوِ فِي القَلِيبِ
كناظِرِ الأَقْبَلِ ذِي التَّقْطِيبِ
فطار كالْمُسْتَوْهَلِ المرعوبِ
يَرى بَعِيدَ الشَّيْءِ كَالْقَرِيبِ
بناظِرِ مُسْتَعْجِمِ مَقْلُوبِ
رَأى إَوْزًا فِي ثَرَى رَطِيبِ^(٨)
يَنْقُذُ فِي الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ

(١) الربرب: القطيع من الظباء ومن البقر الوحشي والأنسي.

(٢) انتحى: قصد، أو مال إلى ناحية.

(٣) المعاجر: واحدها المعجر، وهو ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها.

(٤) الململم: المجمع المدور المضموم.

(٥) المهارق: واحدها المهرق، وهو الصحيفة البيضاء يكتب فيها.

(٦) الغلافق: واحدها غلفق، وهو الطحلب.

(٧) يقال: فاق الرجل: إذا كانت نفسه على الخروج.

(٨) الأقبل: الذي أقبلت حدقته على أنفه.

وأما الكَوْنَجُ - وهو الصنف الثاني من الصقر. ويُسمَّى بمصر والشَّام السَّقَاوِيَّة. ونسبته من الصقر كنسبة الزُّرْق من البازي، إلا أنه آخر منه؛ ولذلك هو أخفُّ منه جناحاً. وهو يصيد الأرنب، ويعجز عن الغزال لصغره؛ ويصيد أشياء من طير الماء. وشدة نفسه أقلُّ من شدة بدنه؛ ولأجل ذلك أطول في البيوت لبثاً، وأصبر على مقاصدة الشقاء من الصقر. وفي وصفه يقول بعض الشعراء: [من الرجز]

إن لم يكن صقراً فعندي كَوْنَجٌ كأنَّ نَفْسَ ريشه المُدْرَجُ
بُرْدٌ مِنَ المَوْشِيِّ أو مُدْبَجٌ فكم به للطير قلبٌ مُزَعَجُ
مَمْرُقٌ بِدَمِهِ مُضَرَّجٌ بمثله عنا الهموم تُفَرَّجُ
وأما اليُوَيْؤُ - وهو الصَّنْف الثالث من الصقر. ويسمّيه أهل مصر والشَّام «الجَلَم» لخفة جناحيه وسرعتهما. وهو طائر قصير الذَّنْب. ومِزاجُه بالإضافة إلى الباشق باردٌ رَطْبٌ، لأنه أصبر منه نفساً وأثقل حركةً. ويشرب الماء شرباً ضرورياً كما يشربه الباشق. ومِزاجُه بالنسبة إلى الصقر حارٌّ يابس، ولذلك هو أشجع منه، لأنه يتعلّق بما يفترسه، ويصيد ما هو أجلُّ منه كالدرّاج. ويقال: إنَّ أوَّل من صاد به وأتخذَه لِلْعَب بَهْرَام جُور؛ وذلك أنه شاهد يُؤيؤُا يُطارِد قُبْرَةً ويُرَاوِغها ويرتفع معها إلى أن صادها؛ فأعجبه وأتخذَه وصاد به.

وقال عبد الله النَّاشِيء يصفه:

ويؤيؤُ مهذبٌ رشيقٌ كأنَّ عينيه على التحقيق
* فَصَّانٍ مَخْرُوطَانٍ مِنْ عَقِيْقٍ *

وقال أبو نُؤَاس: [من الرجز]

قَدْ أَغْتَدِي والصَّبْحُ فِي دِجَاهِ كَطَرَةِ البُرْدِ عَلَى مَثْنَاهُ^(١)
بِيؤيؤُ يُعْجِبُ مَنْ رَأَاهُ مَا فِي الْيَأْيِي يؤيؤُ شَرَوَاهُ^(٢)
أَزْرَقٌ لَا تَكْذِبُهُ عَيْنَاهُ فَلَوْ يَرَى الْقَانِصُ مَا يَرَاهُ
* فَدَّاهُ بِالْأَلَمِ وَقَدْ فَدَّاهُ *

وقال أبو إِسْحَاق الصَّابِي^(٣) يصفه من رسالة:

(١) الطَّرَّة: الجبهة.

(٢) شَرَى الشيء: نظيره.

(٣) هو إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة الصابي، الحراني (أبو إسحاق)، عالم بأنواع الحكمة، والغالب عليه علم الهندسة، وله مصنفات كثيرة. كانت وفاته سنة ٣٣٥ هجرية. (معجم المؤلفين ١: ٣٦).

«وكم من فُبرٍ أطلقنا عليه يؤيؤاً لنا فعَرَجَ إلى السماء عُرُوجاً، ولَجَجَ في أثره تلجيجاً؛ فكان ذلك يعتصم منه بالخلق، وهذا يَسْتَطِيعُهُ من الرِّزَّاق؛ حتى غابا عن النُّظَّار، وأحتجبا عن الأبصار؛ وصارا كالغَيْبِ المُرْجَم، والظَّنِّ المتوَهَّم؛ ثم خطفه ووقع به وهما كهية الطائر الواحد؛ فأعجبنا أمرهما، وأطربنا منظرهما».

ذَكَرَ مَا قِيلَ فِي الشَّاهِينِ

والشاهين ثلاثة أصناف، وهي شاهين، وأنيقي، وقطامي.

فأما الشاهين - وأسمه بالفارسية شَوَذَانَه، فعربته العربُ على ألفاظ شتى منها: شَوَذَانِقَ وشَوَذَقَ وشَوَذَنِيْقَ وشَيَذَنُوقَ. ويقال: إنه من جنس الصقر إلا أنه أبرد منه وأيبس؛ ولذلك تكون حركته من العلو إلى السفلى شديدة، وليس يحلق في طلب الصيد على خطٍ مستقيم إنما يحوم لثقل جناحه، حتى إذا سامت الفريسة أنقض عليها هاوياً من علو فضربها وفارقها صاعداً؛ فإن سقطت على الأرض أخذها، وإن لم تسقط أعاد ضربها لتسقط؛ وذلك دليل على جبنه وفتر نفسه وبزْد مزاج قلبه. ومع ذلك كله فهو أسرع الجوارح وأخفها وأشدّها ضراوة على الصيد. إلا أنهم عابوه بالإباق^(١) وبما يعتريه من الحرص؛ حتى إنه ربما ضرب بنفسه الأرض فمات. ويزعمون أن عظامه أصلب من عظام سائر الجوارح؛ ولذلك هو يضرب بصدرة ويلقى بكفه.

وقال بعض من تكلم في هذا النوع: الشاهين كاسمه. يريد شاهي^(٢) الميزان لأنه لا يحتمل أدنى حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع.

والمحمود من صفاته: أن يكون عظيم الهامة، واسع العينين حادهما، تامّ المنسر، طويل العنق، رخب الصدر ممتلىء الزور، عريض الوسط، جليل الفخذين، قصير الساقين، قريب القفدة من الظهر، قليل الريش ليته، تامّ الخوافي، دقيق الذنب، إذا صلب عليه جناحيه لم يفضل عنهما شيء منه. فإذا كان كذلك فهو يقتل الكركي ولا يفوته، وزعم بعضهم أن السود من الشواهين هي المحمودة، وأن السواد أصل لونها، وإنما أحالته التربة، ويكون في الشواهين الملمع. والله أعلم.

وأول من صاد بالشواهين قسطنطين ملك عمورية^(٣). حكى أنه خرج يوماً يتصيد، حتى إذا أتى إلى مرج فسبح نظر إلى شاهين يتكفيء على طير الماء؛ فأعجبه ما

(١) الإباق: الهروب.

(٢) شاهين الميزان: لسانه.

(٣) عمورية: بلد في بلاد الروم غزاه المعتصم في سنة ٢٢٣ هجرية.

رأى من سرعته وضراوته وإلحاحه على صيده، فأخذه وضراه؛ ثم رِيضَتْ له الشواهين بعد ذلك وعُلمَتْ أن تحوم على رأسه إذا ركب فتظله من الشمس؛ فكانت تنحدر مرة وترتفع أخرى، فإذا نزل وقعت حوله.

وقد وصف الشعراء الشواهين وشبهوها، فمن ذلك قول النّاشئ: [من الرجز]

هل لك يا قَنَاصُ في شاهينِ شُودَانِقٍ مُؤَدَّبٍ أَمِينِ
جاء به السائسُ من رَزِينِ ضَرَاهُ بِالتَّخْشِينِ والتَّلِينِ
حتى لأَغْنَاهُ عن التلقينِ يكاد للتثقيفِ والتَّمْرِينِ
يعرف معنى الوُخْيِ بالجفونِ يَظَلُّ من جَنَاحِهِ المَزِينِ
في قُرْطَقٍ من خَزَه الثمينِ يُشَبِّهه من طِرَازِهِ المَصُونِ^(١)
بُرْدُ أَثَرِ شِرْزَوَانٍ أو شِيرِينِ أَخَوِي مَجَارِي الدَّمْعِ والشُّوونِ^(٢)
ذي مَنَسَرٍ مُؤَلِّلٍ مَسْنُونِ وَاِفِ كَسْطَرِ الحَاجِبِ المَقْرُونِ
مُنْعَطِفٍ مِثْلَ أَنْعَاطِ النونِ يُبْدِي أَسْمُهُ مَعْنَاهُ لِلْعِيُونِ

وقال أبو الفتح كُشَاجِمٌ وبدأ بالكُرْكِيَّ: [من الرجز]

يا رَبُّ أَسْرَابِ مِنَ الكَرَاكِي مُطْمِئِنَّةُ السَّكُونِ فِي الحَرَاكِ
بَعِيدَةِ المَمَالِ والإِذْرَاكِ كُذِّرَ وَبِیضِ اللَّوْنِ كَالْأَفْنَاكِ^(٣)
تَقْصُرُ عَنْهَا أَسْهُمُ الأَتْرَاكِ دُعِرْنَ قَبْلَ لَعَطِ المَكَاكِ^(٤)
وَقَبْلَ تَغْرِيدِ الحَمَامِ البَاكِ بَفَاتِكِ يُزِييْ عَلَيِ الفُتَاكِ
مُؤَدَّبِ الإِطْلَاقِ والإِمْسَاكِ مُلَمَّمِ الهَامَةِ كَالْمَدَاكِ^(٥)
مِثْلَ الكَمِيّ فِي السَّلَاحِ الشَّاكِ ذِي مَنَسَرٍ ضَخَمَ لَهُ شَكَاكِ
وَمِخْلَبٍ بِحَدِّهِ بَتَاكِ لِلْحُجْبِ عَنْ قُلُوبِهَا هَتَاكِ^(٦)
حَتَّى إِذَا قَلْتُ لَهُ دَرَاكِ وَحَلَقْتُ تَسْمُو إِلَى الأَفْلَاكِ

(١) القرطق: قباء ذو طاق واحد.

(٢) شيرين: اسم حظية كسرى أبرويز.

(٣) الأفناك: واحدها فنك، وهو دوية يؤخذ منه الفرو.

(٤) المكافي: واحدها مكاء، وهو طائر في ضرب القبرة، إلا أنه في جناحيه بلقاء؛ وسمي بذلك لأنه يمشو، أي يصفر.

(٥) المداك: حجر يسحق عليه الطيب.

(٦) تباك: قطاع.

مُمْتَدَّةُ الأعناق والأوزاك مُوقِنَةٌ بعاجلِ الهلاكِ
غادرها تهوي على الدُّكَّاكِ أسرى بكُمِّينه بلا فُكَّاكِ^(١)
يا غدوات الصيد ما أحلاك ومُتَّةُ الشاهين ما أقواك
لم تُكْذِبِي فِرَاسَةَ الأملاكِ إِيَّاكَ أعني مادحاً إِيَّاكَ
وأما الأنيقي - وهو الصَّنْف الثاني من الشاهين. وتسميه أهل العراق الكرك. وهو
دون الشاهين في القوَّة، إلا أنَّ فيه سرعة. وهو يصيد العصافير. وفيه يقول الشاعر:
[من الوافر]

غَنِيْتُ عن الجَوَّارِحِ بالأنِّيقي بمثل الرِّيحِ أو لمع البُروقِ
أصْبُ به على العُصفورِ حَتْفاً فأزْميه بصخرة مَنجَنِيقِ
وأما القُطامي - وهو الصَّنْف الثالث من الشاهين، وتسميه أهل العراق «البَهْرَجَة».
يقال: إنه في طبع الشاهين، والعرب تُخالف ذلك، وتسمي بعض الصقور القُطامي؛
والمُعْتَنُون بالجوارح يخالفونهم في ذلك.

فَصْلٌ

ومما ناسبَ الجوارحَ في الافتراس وأكل اللحم الحي «الصُّرْدُ»، ويُسمَّى
«الشُّقْرَاق» و«الأخْطَب»، و«الأخِيل»، وقيل: إنَّ من أسمائه «الواق» وبعضهم يسميه
«بازي العصافير». وهو طائر مُولَّعٌ بسواد وبياض، ضخْمُ المنقار. وفي طبعه شرَّة
وشراسة وسرقة لفراخ غيره ونفورٌ من الناس. وهو يصيد الحيات ويغتذي باللحم،
ويأوي الأشجارَ ذواتِ الشُّوكِ وفي رؤوس التَّلَاع، حَذراً على نفسه ممن يَصيده. وهو
يتحيل في صيد ما دونه من الطير كالعصفور.

هذا ما ظفرت به في أثناء المطالعة من سِباع الطير ممَّا تكلم عليه أربابُ هذا
الفن. وقد أهملوا أصنافاً، منها ما هو أجلُّ من جميع ما ذكرناه، وهو «السُّنقر».

والسُّنقر - طائر شريف، حسنُ الشَّكل، أبيضُ اللَّون بنقط سود. والملوك تتغالى
فيه وتشتريه بالثمن الكثير. وكان فيما مضى من السنين القريبة يُشترى من التجار بألف
دينار؛ ثم تناقص ثمنه حتى استقرَّ الآن بخمسة آلاف درهم. ولهم عادة. أنَّ التجار إذا
حملوه وأتوا به من بلادِ الفِرْنِج فمات منهم في الطريق قبل وصولهم أحضروا ريشه إلى
أبواب الملوك، فيعطون نصفَ ثمنه إذا أتوا به حياً؛ كل ذلك ترغيباً لهم في حملها

(١) الدكاك: واحدتها الدكة، وهي ما استوى من الرمال وسهل.

ونقلها إلى الديار المصرية. وهذا الطير لا يشتريه غير السلطان ولا يلعب به غيره من الأمراء إلا من أنعم السلطان عليه به. والله أعلم.

ومما أهملوا الكلام فيه «الكوهية» و«الصفية» و«الزغزي» وهو يعد من أصناف الصقر. ولم أجد من أثق بنقله وعلمه بهذه الأصناف فأنقل عنه أخلاقها وطبائعها وعاداتها.

وقال أبو إسحاق الصابي في وصف الجوارح من رسالة طريدة جاء منها:

«وعلى أيدينا جوارح مؤللة المخالب والمناسر، مذبذبة^(١) النصال والخناجر، طامحة الألحاح والمناظر؛ بعيدة المرامي والمطارح؛ ذكية القلوب والنفوس، قليلة القطوب والغبوس؛ سابعة الأذنان، كريمة الأنساب؛ صلبة الأعواد، قوية الأوصال؛ تزيد إذا ألحمت^(٢) شرها وقرمها^(٣)، وتتضاعف إذا أشبعت كلباً ونهماً. ثم خرج إلى وصف الحمام فقال: فلما أوفينا عليها، أرسلنا الجوارح إليها؛ كأنها رسل المنايا؛ أو سهام القضايا؛ فلم نسمع إلا مسمياً، ولم نر إلا مذكياً».

الباب الثاني من القسم الخامس من الفن الثالث في كلاب الطير

ويشتمل هذا الباب على ما قيل في النسر، والرخم، والجدة، والغراب. وإنما سُميت هذه الأصناف بالكلاب لأنها تأكل الميتة والجيف وتقصدها وتقع عليها، فهي في ذلك شبيهة بالكلاب.

ذكر ما قيل في النسر

والنسر ذو منسر وليس بذئ مخلب، وإنما له أظفار جداد، كالمخالب، وهو يسفد كما يسفد الديك. وزعم من تكلم في طبائع الحيوان أن الأنثى من هذا النوع تبيض من نظر الذكر إليها، وأنها لا تحضن بيضها، وإنما تبيض في الأماكن العالية التي يقرعها حر الشمس وهجيرها، فيقوم ذلك للبيض مقام الحضن.

(١) ذرب السيف ونحوه: أحذه.

(٢) ألحمت: أطعمت اللحم.

(٣) القرم: اشتداد الشهوة إلى اللحم.

والنسر يُوصف بحدة حاسة البصر، حتى إنه يقال: إنه يرى الجيفة عن مسافة أربعمائة فرسخ، وكذلك حاسة الشم؛ إلا أنه إذا شم الطيب مات. وهو أشد الطير طيراناً وأقواها جناحاً؛ حتى زعموا أنه يطير ما بين المشرق والمغرب في يوم واحد. وهذا القول أراه من التّعالي فيه. وسائر الجوارح تخافه. وهو شره نهم رغب؛ إذا سقط على الجيفة وأمتلأ منها لم يستطع عند ذلك الطيران حتى يئيب عدة وثبات يرفع فيها نفسه في الهواء طبقة بعد طبقة حتى تدخل تحته الريح. ومن أصابه بعد أمتلائه وأعجله عن الوثوب أمكنه ضربه إن شاء بعضا وإن شاء بغيرها. قالوا: والأنثى تخاف على بيضها وفراخها من الخفاش فتفرش في وكرها ورق الدلب^(١) ليفر منه. والنسر أشد الطير حزنًا على فراق إلفه؛ يقال: إن الأنثى إذا فقدت الذكر أمتنعت عن الطعام أياماً ولزمت الكرك؛ وربما قتلها الحزن. وهو طويل العمر؛ يقال: إنه يُعمر ألف سنة. وفيه ألوان: منها الأسود البهيم، والأزبد وهو لون الرماد. والأكدر مثله. وهو يتبع الجيوش طمعاً في الوقوع على جيف القتلى والدواب.

ذكر ما قيل في الرخم

يقال: إن لثام الطير ثلاثة: الغربان والبوم والرخم.

والرخمة تلتمس لبيضها المواضع البعيدة والأماكن الوحشية والجبال الشامخة وضدوع الصخر؛ ولذلك يضرب المثل بينض الأنوق. قال الشاعر:

طَلَبَ الْأَبْلَقَ الْعَقُوقَ فَلَمَّا لَمْ يَنْلُهُ أَرَادَ بَيْضَ الْأَنْوَقِ^(٢)

والرخم من أحب الحيوان في العذرة، لا شيء يحبها كحبه إلا الجعل. وقال المفضل لمحمد بن سهل: إنا لا نعرف طائراً ألام لوماً ولا أقدر طعمة ولا أظهر موقاً من الرخمة. فقال محمد بن سهل: وما حُمقها وهي تحضن بيضها، وتحمي فراخها، وتحب ولدها، ولا تمكّن إلا زوجها، وتقطع في أول القواطع^(٣)، وترجع في أول الرواجع، ولا تطير في التحسير^(٤)، ولا تغتر بالشكير^(٥)، ولا ترب^(٦) بالوكور، ولا تسقط على الجفير!

(١) الدلب: شجر الصنار، وهو عريض الورق واسعه شبيه بورق الكرم.

(٢) الأنوق: الرخم. والعقوق: الحامل، والذكر لا يكون حاملاً.

(٣) القواطع من الطير: التي تجيء من بلد إلى بلد في وقت حر أو برد.

(٤) التحسير: سقوط الريش.

(٥) الشكير: الزغب، أو الشعر الخفيف الرقيق.

(٦) ترب بالمكان: تلزمه وتقيم فيه.

قال الجاحظ: أما قوله: «تقطع في أول القواطع وترجع في أول الرواجع»، فإن الرُماة وأصحاب الحبال والقناص إنما يطلبون الطير بعد أن يعلموا أن القواطع قد قطعت، فبقطع الرحمة يستدلون، فلا بد للرحمة من أن تنجو سالمة إذ كانت أول طالع عليهم. وأما قوله: «ولا تطير في التحسير ولا تغتر بالشكير»؛ فإنها تدع الطيران أيام التحسير، فإذا ثبت الشكير وهو أول ما ينبت من الريش فإنها لا تنهض حتى يصير الشكير قصباً، وأما قوله: «ولا ترب بالوكور» فإن الوكور لا تكون إلا في عرض الجبل، وهي لا ترضى إلا بأعالي الهضاب ثم بمواضع الصدوع وخلال الصخور حيث يمتنع على جميع الخلق المصير إلى أفراسها؛ ولذلك قال الكميت^(١):

ولا تجعلوني في رجائي وذكم كراج على بينض الأثوق احتبالها^(٢)

وأما قوله: «ولا تسقط على الجفير»، فإنما يعني جعبة السهام. يقول: إذا رآته علمت أن هناك سهاماً فلا تسقط في موضع تخاف فيه وقع السهام.

قال: والرخم من الطير التي تتبع الجيوش والحجاج لما يسقط من كسرى^(٣) الدواب. وإذا فقدت الميئة عمدت إلى العظم فحملته وارتفعت به في الهواء ثم تلقيه فيقع على الصخور فينكسر فتأكل ما فيه. والله أعلم بالصواب.

ذكر ما قيل في الحداة

قالوا: والحداة تبيض بيضتين، وربما باضت ثلاثاً وخرج منها ثلاثة أفرخ. وهي تحضن عشرين يوماً. ومن ألوانها الأسود والأزبد. ويقال: إنها لا تصيد وإنما تخطف. وهي تقف في الطيران، وليس ذلك لغيرها من الكواسر. وزعم ابن وحشية: أن العقاب والحداة يتبدلان، فتصير الحداة عقاباً والعقاب حداةً. وهذا أراه من الخرافات. ويقال: إن الحداة من جوارح سليمان عليه السلام وإنها امتنعت من أن تؤلف أو تملك لغيره، لأنها من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده. وهي لا تختطف إلا من يمين من تختطف منه دون شماله. وليس فيها لحم، وإنما عظام وعصب وجلد وريش. ولم أقف على شعر فيها فأضعه.

(١) هو الكميت بن زيد من بني أسد ويكنى أبا المستهل وكان معلماً. وكان أصم أصلخ لا يسمع شيئاً، وكان بينه وبين الطرماح من المودة والمخالطة ما لم يكن بين اثنين على تباعد ما بينهما في الدين والرأي. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٩٠).

(٢) احتبل الصيد: أخذه بالحبال.

(٣) كسر الدواب: واحدها كسير.

ذكر ما قيل في الغراب

قالوا: والغراب أصناف وهي «الغُداف» و«الزَّاعُ الأكل» و«الزَّاعُ الأورق». والغراب يَخِيكي جميع ما يسمعه، وهو في ذلك أعجب من الببغاء. ويقال: إن متولّي نغر الإسكندرية أهدى إلى السلطان الملك الظاهر رُكن الدين بيبرس غراباً أبيض؛ وهو غريب نادر الوقوع. ويقال في صوت الغراب: نَعَقَ يَنْعَقُ نَعِيقاً، وَنَعَبَ يَنْعَبُ نَعِيباً. فإذا مرّت عليه السنون الكثيرة وغلّظ صوته قيل فيه: شَحَجَ يَشْحَجُ شَحِيجاً. وفي طبعه الاستتار عند السّفاد وهو يَسْفِد مُوَاجَهةً، ولا يعود إلى الأنثى إذا سفدها أبداً، وذلك لقلة وفائه.

قال الجاحظ: وإذا خرج الفرخ حصّته الأنثى دون الذكر، ويأتيها الدّكر بالطعم. قال: والغراب من لثام الطير وليس من كرامها، ومن بُعَاثها وليس من أحرارها، ومن ذوات المخالب المَقْفَة والأظفار الجارحة، ومن ذوات المناقير وليس من ذوات المناسير؛ وهو مع ذلك قويّ البدن، لا يتعاطى الصيد، وربما راوَعَ العُصفور. ولا يصيد الجراد إلا أن يلقاها في سُدٍّ^(١) من جراد. وهو إن أصاب جيفة نال منها وإلا مات هزّالاً. ويتقمّم كما تتقمّم^(٢) بهائم الطير وضِعافها. وليس ببهيمة لمكان أكليه الجيف، وليس بسبع لعجزه عن الصيد.

قال: وهو إما أن يكون حالك السواد شديد الاحتراق، ويكون مثله من الناس الزُّنْج لأنهم شرار الناس وأزدأ الخلق تركيباً ومزاجاً، فلا تكون له معرفة ولا جمال؛ وإما أن يكون أبقع فيكون اختلاف تركيبه وتضاد أعضائه دليلاً على فساد أمره. والبُقْعُ الأُم من السّود وأضعف.

قال: ومن الغربان غراب الليل، وهو الذي ترك أخلاق الغربان وتشبه بأخلاق البوم. وقد رأيت أنا ببُلُنْيَاس^(٣) - وهي على ساحل البحر الرومي - غرباناً كثيرة جداً، فإذا كان وقت الفجر صاحب كلّها صياحاً عظيماً مُزْعِجاً، فهم يعرفون طلوع الفجر بصياحها.

قال: ومنها غراب البين؛ وهو نوعان: أحدهما غرابان صغار معروفة بالضعف واللؤم، والآخر إنما لزمه هذا الاسم لأنّ الغراب إذا بان أهل الدار للتّجعة^(٤) وقع في

(١) السّد: القطعة من الجراد تسد الأفق.

(٢) تقمم: تتبع القمامات.

(٣) بلنّياس: مدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر.

(٤) انتجع القوم: ذهبوا لطلب الكلاء.

مواضع بيوتهم يتلمس ويتقَّم، فتشاءموا به وتطَّيروا منه، إذ كان لا يُلِمُّ بمنازلتهم إلا إذا بانوا منها؛ فسمَّوه غرابَ البين. ثم كرهوا إطلاق ذلك الاسم مخافة الزَّجر والطَّيرة، وعلموا أنه نافذُ البصر صافي العين، فسمَّوه الأعور؛ من أسماء الأضداد. قال: والغدْفانُ جنسٌ من الغربان، وهي لثام جدًّا. ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقُّوا من اسمه الغُربة والاعتراب والغريب. والعرب يتعايرون بأكل لحوم الغربان. وفي ذلك يقول وَعْلَةُ الْجَزْمِيِّ^(١):

فما بالعار ما عيَّرتُمونا شِواءَ النَّاهِضَاتِ مِنَ الْخَبِيصِ^(٢)
فما لحمُ الغرابِ لنا بَزَادٍ ولا سَرَطَانُ أَنْهَارِ الْبَرِيصِ^(٣)
والغربانُ من الأجناس التي تُقْتَلُ في الحِلِّ والحَرَمِ، وسمَّيت بالفسقِ.

قال الجاحظ: وبالبصرة من شأن الغربان ضروبٌ من العجب، لو كان ذلك بمصر أو ببعض الشامات كان عندهم من أجود الطَّلُمَسَاتِ؛ وذلك أنَّ الغربان تَقْطَعُ إلينا في الخريف فترى النخيل وبعضها مصرومٌ وعلى كل نخلة عددٌ كثير من الغربان، وليس فيها شيء يقرب نخلةً واحدةً من النخيل التي لم تُضْرَمَ ولو لم يبق عليها إلا عَذْقُ^(٤) واحد. قال: فلو أنَّ الله تعالى أذن للغراب أن يسقط على النخلة وعليها التمر لذهب جميعه. فإذا صرَموا ما على النخلة تسابقَ الغربانُ إلى ما سقط من التمر في جوف القلب^(٥) وأصول الكَرَبِ^(٦) تستخرجه وتأكله.

ومما يُتمثل به في الغراب: يقولون: «أخذَرُ من غراب». و«أصحُّ من غراب». و«أصفى نظراً من غراب». و«أسودُّ من غراب».

ومما وُصِفَتْ به الغربانُ - فمن ذلك قولُ عترة:

حَرِقُ الْجَنَاحِ كَأَنَّ لَخِيْبِي رَأْسَهُ جَلَمَانُ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُوَلَعٌ^(٧)
وقال الطِّرِمَاحُ بْنُ حَكِيمٍ^(٨):

(١) هو وعلة بن عبد الله الجرمي الشاعر، أحد فرسان قضاة.

(٢) الناهضة: أنثى فرخ العقاب - والخبيص: ضرب من الحلواء.

(٣) السرطان: حيوان من خلق الماء ذو فكين ومخالب وأظفار حداد - والبريص: نهر دمشق.

(٤) العذق: القنو من النخل.

(٥) القلب من النخلة: الخوص الذي يلي أعلاها.

(٦) الكرب: أصول السعف الغلاظ العراض التي تقطع منها.

(٧) حرق الجناح: أنحص ريشه ونسل.

(٨) هو الطرماح بن حكيم من طيء ويكنى أبا نفر وكان جده قيس بن جحدر أسره ملك من ملوك جفنة فاستوبه حاتم طيء. (طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ٢٩٢).

وجرى ببينهم عَدَاةٌ تَحَمَّلُوا من ذي الأَثَارِبِ شَاحِجٌ يَتَعَبَّدُ^(١)
 شَنِجُ النَّسَا أَذْقَى الْجَنَاحِ كَأَنَّهُ في الدارِ إِثْرَ الظَّاعِنِينَ مُقَيَّدُ^(٢)
 وقال أبو يوسف بن هارون الرمادي الأندلسي^(٣): [من الطويل]
 أبا حاتم ما أنت حاتم طييء وما أنت إلا حاتمُ الحَدَثَانِ
 خطبتَ ففرقتَ الجميعَ بِلُكْنَةٍ فما الظنُّ لو تُعْطَى بيانَ لِسَانِ
 كأنهم من سُرْعَةِ البينِ أودِعُوا جَنَاحِيكَ وَأَسْتُحْثَثَ لِلطَّيْرَانِ
 وقال أحمد بن فرج الجُبَّائي:
 أما الغرابُ فمؤذَنٌ بَتَغْرُب وَشَكَا فصدَّقَ بالنَّوَى أو كَذِبِ^(٤)
 داجي القِنَاعِ كأن في إظلامه إظلامَ يوم تفرِّق وتغربِ

البَابُ الثَّالِثُ مِنَ الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْقَنْ الثَّالِثِ فِي بَهَائِمِ الطَّيْرِ

ويشتمل هذا الباب على ما قيل في «الدَّرَاج» و«الحَبَّارَى» و«الطَّائِس» و«الدَّيْكَ»، و«الدَّجَاج» و«الحَجَل» و«الكُرْكِي» و«الإِرْزَ» و«البَطَّ» و«النَّحَام»^(٥) و«الأنيس» و«القَاوْنَد» و«الخَطَاف» و«القيق» و«الرَّزْزُور» و«السَّمَانِي» و«الهُذْهُد» و«العَقَّعَق»، و«العَصَافِير».

قال الجاحظ: والبهيمة من الطير ما أكل الحبَّ خالصاً.

فأما الدَّرَاج وما قيل فيه - قال الجاحظ: إنه يبيض بين العُشْب، ولا سيما فيما طال منه وألتوى.

وقال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا: لحمُ الدَّرَاج أفضلُ من الفواخِث وأعدلُ

(١) الأَثَارِب: قلعة بين حلب وإنطاكية، وتحت جبلها قرية تسمى باسمها.

(٢) الشَنِج: تقبض الجلد والأصابع وغيرهما - والنسا: عرق من الورك إلى الكعب - وأدقى الجناح: طوله.

(٣) هو يوسف بن هارون الكندي المعروف بالرمادي (أبو عمر) شاعر. أصله من رمادة، وولد بقرطبة ومدح المنصور بن أبي عامر. ومدح بعض الملوك. توفي سنة ٤٠٣ هجرية. (معجم المؤلفين ١٣: ٣٤٠).

(٤) وشك الغراب: سرعته.

(٥) النحام: طائر أحمر على خلفة الأوز.

وألفط وأيس. قال: وهو يزيد في الدماغ والفهم، ويزيد في المنى.
وقال أبو طالب المأموني^(١):

قد بعثنا بذاتِ حُسْنٍ بَدِيعٍ كَنَبَاتِ الرَّبِيعِ بل هي أحسن
في رِذَاءٍ من جُلَّاءِ وآسٍ وقَمِيصٍ من يَاسَمِينٍ وَسَوْسَنٍ
وقال آخر: [من الطويل]

صدورٌ من الدُّرَاجِ نُمِّقَ وَشَيْهًا وَصِلْنَ بِأَطْرَافِ اللَّجِينِ السَّوَادِجِ^(٢)
وأحداقٌ تَبْرُ في خُدودِ شَقَائِقِ تَلَأَلَا حُسْنًا كَأَشْتَعَالِ الْمَسَارِجِ
وأذْنَابُ طَلَعٍ في ظُهُورِ مَلَاعِقِ مَجْزَعَةُ الْأَعْطَافِ صُهْبِ الدِّمَالِجِ^(٣)
فإن فَخَرَ الطَّوْأُسَ يوماً بحسنه فلا حُسْنَ إِلَّا دُونَ حُسْنِ الدُّرَاجِ
وأما الحُبَارَى وما قيل فيه - وتسميه أهلُ مصر الحُبْرُجَ.

قال الجاحظ: والحُبَارَى أشدُّ الطير طَيْرَانًا وأبعدها سقطاً^(٤) وأطولها شوطاً وأقلها عَرْجَةً^(٥)؛ وذلك أنه يُصَاد بالبصرة فيُشَقَّ عن حَوْصَلَتِهِ بعد الدُّبْحِ فتُوجَد فيها الحَبَّةُ الخضراء لم تتغيَّر ولم تُفْسَد؛ والحَبَّةُ الخضراءُ من شجر البُطْمِ^(٦) ومنابتها جبال الثغور الشامية. والحُبَارَى له خِزَانَةٌ بين دُبُرِهِ وأمعائه، لا يزال فيها سَلْحٌ رقيق لَرِجٍ، فمتى ألَحَّ عليه جَارِحٌ دَرَقَ عليه فتمعَّطَ^(٧) ريشه. ولذلك يقال: الحُبَارَى سِلَاحُهُ سُلَاحُهُ.
قال الشاعر:

وهم تركوك أسلَحَ من حُبَارَى رَأَى صَفَرًا وَأَشْرَدَ من نَعَامٍ
وهو يَغْتَذِي بِسِلْحِهِ إِذَا جَاعَ. ويقال: الحُبَارَى دجاجة البَرِّ تَأْكُلُ كُلَّ مَا دَبَّ حَتَّى الخنافس؛ فلذلك يُعَافُ أَكْلُهُ.

ووصف أبو نُوَاس الحُبَارِيَّات فقال:

-
- (١) هو عبد السلام بن حسن المأموني (أبو طالب) فاضل. له كنز الرويا في التعبير. كانت وفاته سنة ٣٨٣ هجرية. (معجم المؤلفين ٥: ٢٢٣).
(٢) السوادج: جمع الساذج: وهو الخالص غير المشوب وغير المنقوش - واللجين: الفضة.
(٣) الدمالج: واحدها الدمليج، وهو سوار يحيط بالعُضْدَ.
(٤) السقط: (بكسر أوله): الجناح.
(٥) العرجة: المقام.
(٦) البطم: شجر كالفتق جرمًا سبط الأوراق وله حب مفرطح في عناقيد كالفلفل.
(٧) تمعط: تساقط.

يَخْطِرْنَ فِي بَرَانِسٍ قُشُوبٍ مِنْ جَبَرٍ طُوهَزَنَ بِالتَّذْهِيبِ^(١)
* فَهِنَّ أَمْثَالُ النَّصَارَى الشَّيْبِ *

وأما الطاؤس وما قيل فيه - فهو ألوان منها الأخضر، والأرقط، والأبيض، ويوجد في كلها الخيلاء. ولا تُعرَف هذه الألوان إلا في بلاد الزَّابج. وفي طبع الطاؤس الخيلاء وألإعجاب بريشه. والأنثى تبيض بعد أن يمضي من عمرها ثلاث سنين. ولا يحصل التلون في ريش الذكر إلا بعد مضي هذه المدة. وتبيض الأنثى مرتين في السنة، في كل مرة أثنتي عشرة بيضة.

وقال الجاحظ: أول ما تبيض ثمانى بيضات، وتبيض أيضاً بيض الريح. ويسنفذ الذكر في أوان الربيع. ويلقي ريشه في فصل الخريف، كما يلقي الشجر ورقه فيه؛ فإذا بدأت الأشجار تكتسي الأوراق بدأ الطاؤس فاكثسى ريشاً. والذكر كثير العبث بالأنثى. والفرخ يخرج من البيضة كاسياً كاسياً.

وزعم أرسطو أن الطاؤس يُعمر خمساً وعشرين سنة. وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي يصفه: [من السريع]

أبدى لنا الطاؤس عن منظر	لم تر عيني مثله منظر
متوج المفرق إلا يكن	كسرى بن ساسان يكن قيصرا
في كل عضو ذهب مفرغ	في سندس من ريشه أخضرا
نزهة من أبصر، في طيها	عبرة من فكر واستبصرا
تبارك الخالق في كل ما	أبدعه منه وما صورا

وقال فيه أيضاً: [من الرجز]

أهلاً به لما بدا في مشيه	يختال في حلل من الخيلاء
كالروضة الغناء أشرف فوقه	ذئب له كالذو حة الغناء
ناديته لو كان يفهم منطقي	أو يستطيع إجابة لندائي
يا رافعاً قوس السماء ولا يساً	للحسن روض الحزن غب سماء
أيقنت أنك في الطيور مملك	لما رأيتك منه تحت لواء

وقال أبو الفتح كُشاجم من قصيدة ذكر فيها طاوساً: [من المنسرح]

وأي عذر لمقلة بعد الط - أو س عنها إن لم تفض بدم

رُزْتُهُ رَوْضَةً تَرُوقُ وَلَمْ
مُتَوَّجاً خَلَعَةً حَبَاهُ بِهَا
كَأَنَّهُ يَزْدَجِرُّدُ مُنْتَصِباً
يُطْبِقُ أَجْفَانَهُ وَيَحْسِرُ عَنْ
أَذَلِّ بِالْحَسَنِ فَاسْتَذَالَ لَهُ
ثُمَّ مَشَى مِشْيَةَ الْعُرُوسِ فَمِنْ

أَسْمَعَ بِرَوْضِ سَعَى عَلَى قَدَمِ
ذُو الْفِطْرِ الْمَعْجَزَاتِ وَالْحِكَمِ
يَبْنِي فَيُغْلِي مَآثِرَ الْعَجَمِ
فَصْنَيْنِ يُسْتَصْحَبَانِ فِي الظُّلَمِ^(١)
ذِيلاً مِنَ الْكَبِيرِ غَيْرِ مُحْتَشِمِ
مُسْتَظَرِّفٍ مُعْجَبٍ وَمُبْتَسِمِ

وَأَمَّا الدِّيكُ والدَّجَاجُ وَمَا قِيلَ فِيهِمَا - قالوا: والدَّجَاجُ ثلاثة أصناف: «نَبْطِي»، وهو ما يُتَّخَذُ فِي الْقُرَى والبيوت، و«هِنْدِي» وهو عَظِيمُ الْخَلْقِ يُتَّخَذُ لِحَسَنِ شَكْلِهِ، و«حَبَشِي» وهو نَوْعٌ بِدِيْعِ الْحَسَنِ أَرْقَطُ: نَقْطَةٌ سَوْدَاءُ وَنَقْطَةٌ بَيْضَاءُ، وَلَهُ قُرْطَانِ أَخْضَرَانِ.

قالوا: والدَّجَاجَةُ تَجْمَعُ الْبَيْضَ بَعْدَ السَّفَادِ فِي أَحَدِ عَشَرَ يَوْماً؛ وَهِيَ تَبْيِضُ فِي السَّنَةِ كُلِّهَا مَا خَلَا شَهْرَيْنِ شَتَوَيْنِ. وَالَّذِي عَرَفْنَاهُ نَحْنُ بِدِيَارِ مِصْرَ أَنَّ الْبَيْضَ لَا يَنْقَطِعُ أَبَداً فِي الْفُصُولِ الْأَرْبَعَةِ، فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا تَبْيِضُ دَائِماً. وَمِنَ الدَّجَاجِ مَا يَبْيِضُ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ. وَالْبَيْضَةُ تَكُونُ عِنْدَ خُرُوجِهَا لَيِّنَةً الْقَشْرُ جَدًّا، فَإِذَا أَصَابَهَا الْهَوَاءُ يَبْسُتْ. وَرَبِمَا وَجَدَ فِي الْبَيْضَةِ مُحَانٍ. وَقَالَ أَرِسْطُو: بَاضَتْ دَجَاجَةٌ فِيمَا مَضَى ثَمَانِي عَشْرَةَ بَيْضَةً لِكُلِّ بَيْضَةٍ مُحَانٍ، ثُمَّ حَضَنْتِ الْبَيْضَ فَخَرَجَ مِنْ كُلِّ بَيْضَةٍ فَرْخَانِ، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ جَثَّةً مِنَ الْآخَرِ.

والدَّجَاجَةُ تَحْضُنُ عِشْرِينَ يَوْماً. وَخَلَقَ الْفَرُوجُ يَتَبَيَّنُ إِذَا مَضَتْ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَيُعْرَفُ الذَّكَرُ مِنَ الْأُنْثَى بِأَنَّهُ يُعَلِّقُ الْفَرُوجَ بِرَأْسِهِ فَإِنْ تَحَرَّكَ فَذَكَرٌ، وَإِنْ سَكَنَ فَأُنْثَى.

قال الجاحظ: والفرخُ يُخْلَقُ مِنَ الْبَيَاضِ وَيَعْتَذِي بِالضُّفْرَةِ وَيَتِمُّ خَلْقُهُ لِعَشْرَةِ أَيَّامٍ، وَالرَّأْسُ وَحْدَهُ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ سَائِرِ جَسَدِهِ. وَالذَّجَاجَةُ إِذَا هَرِمَتْ لَمْ يَكُنْ لِبَيْضِهَا مُخٌ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مُخٌ لَا يُخْلَقُ مِنْهُ فَرُوجٌ.

والدَّجَاجَةُ تَخْشَى أَبْنَ آوَى دُونَ سَائِرِ السَّبَاحِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَمْرَ عَلَيْهَا فِي الْقُرَى مَا يَمْرَ مِنَ السَّبَاحِ وَغَيْرِهَا فَلَا تَخْشَاهُ؛ فَإِذَا مَرَّ عَلَيْهَا أَبْنُ آوَى وَهِيَ عَمَى سَطِيحٍ نَالَهَا مِنَ الْفَرَزَعِ مِنْهُ مَا تُلْقِي بِهِ نَفْسَهَا إِلَيْهِ. وَهِيَ إِذَا قَابَلَتْ الدِّيكَ تَشْهَتْهُ وَرَامَتْ السَّفَادَ. وَالذَّجَاجَةُ تُوصَفُ بِقَلَّةِ النَّوْمِ. وَالْفَرُوجُ يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْضَةِ كَاسِيَاً كَاسِيَاً، سَرِيعَ الْحَرَكَةِ، يُدْعَى فَيُجِيبُ وَيَتَّبِعُ مَنْ يُطْعِمُهُ؛ ثُمَّ هُوَ كُلَّمَا كَبُرَ مَاقَ وَحَمَقَ وَزَالَ كَيْسُهُ. وَهُوَ مُشْتَرِكٌ

(١) يستصحبان: يستضاء بهما.

الطبيعة: يأكل اللحم، ويخسو الدَّم، ويصيد الذُّبَابَ، وذلك من طباع الجوارح، ويلْقَطُ الحبوبَ، ويأكل البقولَ، وذلك من طباع بهائم الطير. والله أعلم بالصواب.

ذَكَرُ مَا جَاءَ فِي الدِّيَكَةِ مِنَ الْأَحَادِيثِ

وَمَا عَدَّ مِنْ فَضَائِلِهَا وَعَادَاتِهَا وَمَنَافِعِهَا

جاء في الحديث عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أَنَّ دِيكاً صَرَخَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَبَّهَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «لَا تَسُبَّهُ فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الصَّلَاةِ». وعن زيد بن خالد الجُعْفِيُّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ سَبِّ الدِّيَكِ وَقَالَ: «إِنَّهُ يُوَدِّنُ لِلصَّلَاةِ». وعن سالم بن أبي الجُعْدِ يرفعه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ لَدِيكاً عُرْفُهُ تَحْتَ الْعَرْشِ وَبَرَائِثُهُ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى وَجَنَاحَاهُ فِي الْهَوَاءِ فَإِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ وَبَقِيَ ثُلُثُ ضَرْبِ بَجَنَاحِيهِ ثُمَّ قَالَ: سَبَّحُوا الْمَلِكَ الْقُدُّوسَ سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَضْرِبُ الطَّيْرُ بِأَجْنَحَتِهَا وَتَصِيحُ الدِّيَكَةُ»، وعن كعب: «إِنَّ اللَّهَ دِيكاً عُنُقُهُ تَحْتَ الْعَرْشِ وَبَرَائِثُهُ فِي أَسْفَلِ الْأَرْضِ فَإِذَا صَاحَ صَاحَتِ الدِّيَكَةُ يَقُولُ: سُبْحَانَ الْقُدُّوسِ الْمَلِكِ الرَّحْمَنِ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ»، وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الدِّيَكَ الْأَبْيَضَ صَدِيقِي وَعَدُوُّ عَدُوِّ اللَّهِ يَحْرُسُ دَارَ صَاحِبِهِ وَسَبْعَ دُورٍ». وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَبِيتُهُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ. وَرَوَى أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا يَسَافِرُونَ بِالدِّيَكَةِ.

قال الجاحظ: وزعم أصحاب التجربة أن كثيراً ما يَرَوْنَ الرَّجُلَ إِذَا ذَبَحَ الدِّيَكَ الْأَبْيَضَ الْأَفْرَقَ^(١) إِنَّهُ لَا يَزَالُ يُنْكَبُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ.

وقال في كتاب الحيوان في المناظرة بين الدِّيَكِ وَالْكَلْبِ: وفي الدِّيَكِ الشَّجَاعَةُ وَالصَّبْرُ وَالْجَوْلَانُ وَالثَّقَافَةُ وَالتَّسْدِيدُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَقْدِرُ إِيقَاعَ صَيْصِيَّتِهِ^(٢) بَعَيْنِ الدِّيَكِ الْآخِرِ أَوْ مَذْبَحِهِ فَلَا يُخْطِئُ. قَالَ: ثُمَّ مَعْرِفَتُهُ بِاللَّيْلِ وَسَاعَاتِهِ وَأَرْتِفَاقُ بَنِي آدَمَ بِمَعْرِفَتِهِ وَصَوْتِهِ، يَتَعَرَّفُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَعَدَدَ السَّاعَاتِ وَمَقَادِيرَ الْأَوْقَاتِ ثُمَّ يَقْسُطُ أَصَوَاتَهُ عَلَى ذَلِكَ تَقْسِيطاً مُوزَوِناً لَا يُغَادِرُ مِنْهُ شَيْئاً. فَلْيَعْلَمْ الْحُكَمَاءُ أَنَّهُ فَوْقَ الْإِسْطِزْلَابِ وَفَوْقَ مَقْدَارِ الْجَزْرِ وَالْمَدِّ عَلَى مَنَازِلِ الْقَمَرِ، حَتَّى كَأَنَّهُ طَبَعَهُ فَلَكٌ عَلَى حِدَتِهِ.

ومن عجيب أحوال الدِّيَكَةِ أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ فِي مَكَانٍ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهَا دِيكٌ غَرِيبٌ سَفَدَتْهُ جَمِيعاً. وَالدِّيَكُ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي السَّخَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَنْقُرُ الْحَبَّ وَيَحْمِلُهُ بِطَرَفَيْهِ مِنْقَارَهُ إِلَى الدَّجَاجِ، فَإِذَا ظَفِرَ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَبِّ وَالدَّجَاجُ غَيَّبَ دَعَاهُ إِلَى إِلَيْهِ وَقَنِعَ

(١) الأفرق: ذو العرفين لانفراق ما بينهما.

(٢) الصيصة: شوكة الديك.

منه بدون حاجته توفيراً عليهنّ. قالوا: والدَيْكَةُ تعظم بدليل^(١) السُّند حتى تكون مثل التّعام.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: إنّ مَرَقَةَ الديوك العُتق لها خاصّيات، سنذكرها. قال: والوَجْهُ الذي ذكره جالِينُوس في طبخها أن تُذَبَّح بعد عُلْفِها وبعد إعدادها إلى أن تَنْبَتَ^(٢) فتسقط فتُذَبَّح، ثم يُخْرَج ما في بطنها ويُمَلَأ بطنها مِلْحاً ويُخَاط ويُطَبَخ بعشرين قسطاً ماءً حتى ينتهي إلى الثُلث ويُشْرَب. قال: ثم يُزَاد في ذلك ما نذكره. قال: وأجودُ الدَيْكَةِ ما لم يَصْفَع^(٣) بعد. وأجودُ الدَّجَاج ما لم يَيْض، والعتيق رديء. قال: ولحمُ الفراريج أحمرٌ من لحم الدَّجَاج الكبير. وَخَصِيّ الديوك محمودٌ سريعُ الهَضْم. ومَرَقَةُ الديوك المذكورة تُوافِق الرُّعْشَةَ ووجع المفاصل. ولحمُ الدَّجَاج الفتيّ يزيد في العقل، ودماغها يمنعه النَّزْفُ الرُّعَافِيّ العارض من حُجْبِ الدُّمَاغ. ومَرَقَةُ الديوك المذكورة نافعةٌ من الرُّبُو. ولحمُ الدَّجَاج يُصَفِّي الصوت. ومَرَقَةُ الدِّيكِ الهَرَمِ المعمولة بالْقُرْطُم^(٤) والشَّبِثْ تنفع من جميع ذلك. ومَرَقَةُ الديوك نافعةٌ لوجع المَعِدَةِ من الرِّيح، وتنفع القَوْلنج^(٥) جدّاً. ولحمُ الدَّجَاج الفتيّ يزيد في المَيْي؛ والمَرَقَةُ المذكورة مع البسفاج^(٦) تُسَهِّل السُّوداء، ومن القرطم تسهّل البلغم. وقد تُطَبَخ بالأدوية القابضة للسَّحج^(٧)، وباللبن لقروح المثانة. والمَرَقَةُ نافعةٌ من الحُمَيَات المزمنة. قال: والدَّجَاجُ المشقوق عن قلبه أو الديك يوضع على نَهْش الهوام ويُنَدَل كل ساعة فيمنع من فُشُو السَّم. وفي السموم المشروبة يُتَحَسَّى طيخه بالشَّبِثْ والملح ويُتَقَيَّأ.

ومن الحكايات التي تُعَدُّ من خرافات العرب ما حكاه بعضهم عن الرِّياشيّ قال: كُنَّا عند الأصمعيّ، فوقف عليه أعرابي فقال: أنت الأصمعيّ؟ قال: نعم؛ قال: أنت أعلم أهل الحَضَر بكلام العرب؟ قال: يزعمون؛ قال: ما معنى قول أُمَيَّة بن أبي الصِّلْت^(٨):

(١) دبيل: مدينة من مدن السند.

(٢) تَنْبَت: تنقطع إعياء وتعباً.

(٣) يقال: صقع الديك: إذا صاح.

(٤) القرطم: نبات زراعي صبغي من الفصيلة، يستعمل زهره تابلاً وملوناً للطعام، ويستخرج منه صبغ أحمر.

(٥) القولنج: مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون.

(٦) البسفاج: نبات ينبت بين الصخور التي عليها الخضرة وفي سوق شجر البلوط العتيقة.

(٧) السحج: قشر الجلد من شيء يصيبه.

(٨) هو أُمَيَّة بن أبي الصِّلْت بن أبي ربيعة بن عبد عوف بن عقدة بن غيرة بن قسي. وكان قد قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله عزّ وجلّ وعزّ ورغب عن عبادة الأوثان وكان يخبر بأن نبياً يبعث قد أظلم زمانه ويؤمل أن يكون ذلك النبيّ. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٢٧).

وما ذاك إلا الدِّيكُ شارب خمرٍ نديم غراب لا يَمَلُّ الحَوَانِيا^(١)
 فلما أَسْتَقَلَّ الصَّبح نادى بصوته ألا يا غرابُ هل رَدَدْتَ رِدايِيا
 فقال الأصمعيّ: إنّ العرب كانت تزعمُ أنّ الدِّيك كان ذا جَنَاح يطير به في الجوّ
 وأنّ الغراب كان ذا جَنَاح كجَنَاح الدِّيك لا يطير به وأنهما تناذَما ليلَةً في حانة يشربان
 فنَفِدَ شرابُهما؛ فقال الغراب للدِّيك: لو أَعَزَّتَنِي جَنَاحُكَ لأَتَيْتُكَ بِشِرابٍ؛ فأَعَارَه
 جَنَاحَه، فطار ولم يرجع إليه؛ فزعموا أنّ الدِّيك إنما يصيح عند الفجر أَسْتَدْعَاءَ لجَنَاحه
 من الغراب؛ فضحك الأعرابيُّ وقال: ما أنت إلا شيطان. وهذه الحكاية ذكرها
 الجاحظُ في كتاب الحيوان بنحو ما حُكي عن الأصمعيّ، وساق أبيات أُمَيّة بن أبي
 الصَّلْت، وهي: [من الطويل]

ولا عَزَوُ إلا الدِّيكُ مُذْمِن خمرٍ نديم غراب لا يَمَلُّ الحَوَانِيا
 ومرهنه عند الغراب جبينه فأوفيت مرهوناً وخان مسابيا
 أدلّ عليّ الدِّيكُ أتّي كما ترى فأقْبِلْ على شأني وهالك رِدايِيا
 أمنتك لا تَلَبَث من الدهر ساعةً ولا نصفها حتى تَوُوبَ مآبِيا
 ولا تُذَرِكَنَّكَ الشَّمْسُ عند طلوعها فأغْلَقَ فيهم أو يطول نَوَائِيا^(٢)
 فردّ الغرابُ والرداء يحوزه إلى الدِّيك وعداً كاذباً وأمانِيا
 بأيّة ذنبٍ أو بأيّة حُجّةٍ أدْعُكَ فلا تدعو عليّ ولا لِيَا
 فإنني نذرتُ حِجّةً لن أعوقها فلا تدْعُوْنِي دعوةً من ورائِيا
 تطيرتُ منها والدعاء يعوقني وأزْمَعْتُ حَجّاً أن أطيّر أمامِيا
 فلا تَبْأَسَنَّ إِنِّي مع الصَّبح باكراً أوافي غداً نحوَ الحَجِيجِ العَوادِيا
 كحُب أُمريءٍ فاكهته قبل حَجَّتِي وآثرتُ عمداً شأنه قبل شانيَا
 هنالك ظنّ الدِّيك أن زال زَوْلُه وطال عليه الليل أن لا مُقَادِيا
 فلما أضاء الصَّبحُ طَرَبَ صرخةً ألا يا غراب هل سَمِعْتَ ندائِيا
 على وَدّه لو كان ثَمَّ يجيبُه وكان له نَدْمَانٌ صِدْقِ مُوَاتِيا
 وأمسى الغرابُ يضرب الأرضَ كُلَّها عتيقاً وأضحى الدِّيك في القَدِّ عانِيا^(٣)

(١) الحواني: الحانات.

(٢) يقال: غلق الرهن: إذا لم يفك واستحققه المرتهن.

(٣) العتاق من الطير: الجوارح.

فذلك مما أشهت الخمر لُبّه ونادى نَذماناً من الطير عادياً
ومن الحكايات التي لا بأس بإيرادها في هذا الموضع ما حكاه الجاحظ قال: قال
أبو الحسن: حدثني أعرابي كان نزل البصرة قال: قديم عليّ أعرابي من البادية فأنزلته،
وكان عندي دجاج كثير ولي امرأة وأبنان وأبنتان منها؛ فقلتُ لأمرأتي: بادري وأشوي
لنا دجاجة وقدميها إلينا نتغدها. فلما حضر الغداء جلسنا جميعاً أنا وأمرأتي وأبناي
وأبنتاي والأعرابي. قال: فدفعنا إليه الدجاجة فقلنا له: إقسمها بيننا، نريد بذلك أن
نضحك منه؛ فقال: لا أحسن القسمة، فإن رَضِيتُم بقسمتي قسمتها بينكم؛ قلنا: فإننا
نرُضى. فأخذ رأس الدجاجة فقطّعه وناولنيه وقال: الرأس للرئيس، وقطّع الجناحين
وقال: الجناحان للأبنتين، ثم قطع الساقين وقال: الساقان للأبنتين، ثم قطع الزمكي^(١)
وقال: العُجُز للعجوز، وقال: الزُور^(٢) للزائر؛ قال: فأخذ الدجاجة بأسرها وسخر بنا.
قال: فلما كان من الغد قلتُ لأمرأتي: أشوي لنا خمس دجاجات، فلما حضر الغداء
قلنا له: أقسم بيننا، فقال: إني أظن أنكم وجدتم^(٣) في أنفسكم؛ قلنا: لم نجد فأقسم
بيننا؛ قال: أقسم شُفْعاً أو وثراً؟ قلنا: اقسم وِثْراً، قال: أنت وأمرأتك ودجاجة ثلاثة،
ثم رمى إلينا بدجاجة؛ ثم قال: وأبنائك ودجاجة ثلاثة، ورمى إليهما بدجاجة؛ ثم قال:
وأبنتاك ودجاجة ثلاثة، ورمى إليهما بدجاجة؛ ثم قال: وأنا دجاجتان ثلاثة وأخذ
دجاجتين وسخر بنا. فرأنا ننظر إلى دجاجتيه فقال: ما تنظرون! لعلكم كرهتم قِسْمتي!
الوِثْر لا يجيء إلا هكذا، فهل لكم في قسمة الشُفْع؟ قلنا: نعم؛ فضمّنَ إليه ثم قال:
أنت وأبنائك ودجاجة أربعة، ورمى إلينا بدجاجة؛ ثم قال: والعجوز وأبنتاها ودجاجة
أربعة، ورمى إليهن بدجاجة؛ ثم قال: وأنا وثلاث دجاجات أربعة وضمّنَ إليه الثلاث،
ورفع يديه إلى السماء فقال: اللهم لك الحمد، أنت فهِمْتَنِيهَا. هكذا ساقها أبو عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ. وحكى غيره هذه الحكاية عن الأصمعيّ وفيها زيادة قال:
حكى الأصمعيّ: بينا أنا في البادية إذا أنا بأعرابي على ناقه وهي ترفُص به في الآل^(٤)؛
فلما دنا منّي سلّم عليّ، فسلمتُ عليه وقلت: يا أخا العرب.

قوم يَحْقَن عَهْدناهُم سقاهاهم الله من التَّو^(٥)

ما التَّو؟ فقال:

(١) الزمكي: أصل ذنب الطائر.

(٢) الزور: وسط الصدر.

(٣) وجد عليه: غضب.

(٤) الآل: السراب.

(٥) خفان: موضع قرب الكوفة تكثر فيه الأسود - والنوء: النجم إذا مال للغروب.

نَوَّءُ السُّمَّاكِينِ وَرِيَّاهُمَا نُورٌ تَلَالَا بَعْدَ إِيمَاضِهِ ضَوْ
فقلت: ما الضُّو يا أخا العرب؟ فقال:

ضَوْءٌ تَلَالَا فِي دُجَى لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٌ مُسْفِرَةٌ لَو
فقلت: لو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

لَوْ مَرَّ فِيهَا سَائِرٌ رَاكِبٌ عَلَى نَجِيبِ الْأَرْضِ مُنْطَوٍ
فقلت: منطو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

مُنْطَوِي الْكَشْحِ هُضِيمُ الْحَشَى كَالْبَازِ يَنْقَضُ مِنَ الْجَوِّ
فقلت: ما الجَوِّ يا أخا العرب؟ فقال:

جَوُّ السَّمَاءِ وَالرَّيْحُ تَعْلُو بِهِ فَاشْتَمَّ رِيحَ الْأَرْضِ فَأَعْلَوُ
فقلت: فأعلو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

فَأَعْلُو لِمَا قَدْ فَاتَ مِنْ صَيْدِهِ لَا بَدَأَ أَنْ تُلْقِيَ وَيُلْقُوا
فقلت: ماذا يلقوا يا أخا العرب؟ فقال:

يُلْقُوا بِأَسْيَافٍ يَمَانِيَةٍ وَعَنْ قَلِيلٍ سَوْفَ يَفْتَوُوا
فقلت: ما يَفْتَوُوا يا أخا العرب؟ فقال:

إِنْ كُنْتَ تُنْكَرُ مَا قُلْتَهُ فَأَنْتَ عِنْدِي رَجُلٌ بَوُ
فقلت: وما البَوُّ يا أخا العرب؟ فقال:

الْبَوُّ مَنْ يُفْقَدُ عَنْ أُمِّهِ يَا أَحْمَقَ النَّاسِ فَرُخٌ أَوْ
قلت: أو إيش؟ فقال:

تَنْدَفِعُ الْكَفُّ بِصَفْعِ الْقِفَا تَسْمَعُ مَا بَيْنَهُمَا قَوُ
فقلت: يا أخا العرب، هل لك في الضيافة؟ فقال: لا يأبى الكرامة إلا لثيم؛

فَأَتَيْتُ بِهِ مَنْزِلِي. ثُمَّ سَاقَ الْحِكَايَةَ بِنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي
بثلاث دجاجات، وقلت: ونحن كما علمت، أقسمها بيننا أزواجاً؛ فقال: أنت وأبنائك
ودجاجة زوج، وأمراؤك وأبناتها ودجاجة زوج، وأنا ودجاجة زوج. وساق خبر
الخمسة في اليوم الثالث كما تقدم.

ذَكَرُ شَيْءٍ مِمَّا وَصَفْتُ بِهِ الشَّعْرَاءُ الْبَيْضَةَ وَالِدَّجَاةَ وَالِدِيكَ

فمن ذلك ما وصفوا به البيضة. قال أبو الفرج الأصبهاني من أبيات: [من

الكامل]

فيها بدائعُ صنعةٍ ولطائفُ
خُلطان مائِتان ما اختلفا على
فبياضها ورقٌ وزئبقٌ مُحها
وقال شاعر:

وصفراء في بيضاء رقت غلالة
جمادٍ ولكن بعد عشرين ليلة
وقال كُشاجم من أبيات يذكر فيها جونة أهديت إليه وفيها بيض مسلوق مصبوغ
أحمر: [من الرجز]

وجاءنا فيها ببيض أحمر
حتى إذا قدمه مُقشراً
حتى إذا ما قطع البيض فلق
يخال أن الشطر منه من لمخ
كأنه العقيق ما لم يُفشر
أبرز من تحت عقيق دُرّاً
رأيت منه ذهباً تحت ورق
أعاره تلويته قوس قزح

ومما قيل في الدجاجة والديك

قال الشاعر: [من الوافر]

غدوت بشربة من ذات عرق
وأخرى بالعققل ثم رُحنا
كان الديك ديك بني ثَمير
كان دجاجهم في الدار رُقطاً
فبت أرى الكواكب دانيات
أدافعهن بالكفّين عني
وقال أبو بكر الصنوبري من أبيات يصف ديكاً:

مُغرّد الليل ما يألوك تغريداً
لما تطرب هزّ العطف من طرب
كلايس مطرفاً مُزخ جوائبه
ملّ الكرى فهو يدعو الصبح مَجهداً
ومدّ للصوت لما مدّه الجيدا
تُضاحك البيض من أطرافه السودا

(١) الديقي: نسبة إلى ديق وهي بليدة كانت بين الفرما وتنيس من أعمال مصر.

(٢) ذات عرق: جبل بطريق مكة.

(٣) العققل: كتيب بيدر.

حالي المُقْلَد لو قِيسَتْ قِلَادَتُهُ بِالوَزْدِ قَصَّرَ عَنْهَا الْوَزْدُ تَوْرِيدَا
رَأَى بِفَقْصِي عَقِيْقِي يُذْرِكَانِ لَهُ مِنْ حِدَّةٍ فِيهِمَا مَا لَيْسَ مَخْدُودَا^(١)
تَقُولُ هَذَا عَقِيْدُ الْمَلِكِ مُنْتَسِبَا فِي آلِ كَسْرَى عَلَيْهِ التَّاجُ مَعْقُودَا^(٢)
أَوْ فَارَسٌ شَدَّ مِنْهُمَا زَيْنَهُ حِينَ رَأَى لَوَاءَ قَائِدِهِ لِلْحَرْبِ مَعْقُودَا
وَقَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ: [مَنْ الْمَجْتَثُ]

مَتَوَجَّعٌ بِعَقِيْقٍ مُقَرَّرٌ بِلُجَجَيْنِ
عَلَيْهِ قُرْطُقٌ وَشِي مَشْمَرُ الْكُمَيْنِ^(٣)
قَدْ زَيْنَ النَّخْرَ مِنْهُ ثُنْتَانِ كَالْوَرْدَتَيْنِ
حَتَّى إِذَا الصَّبْحُ يَبْدُو مَطَرَزُ الطَّرَتَيْنِ
دَعَا فَاسْمَعَ مَنَّا مَنْ كَانَ ذَا أُذُنَيْنِ
يُزْهِمِي بِطُوقٍ وَتَاجٍ كَأَنَّهُ ذُو رُعَيْنِ^(٤)
وَقَالَ الْأَسْعَدُ بْنُ بَلَيْطَةَ: [مَنْ الطَّوِيلُ]

وَقَامَ لَنَا يَنْعَى الدُّجَى ذُو شَقِيْقَةٍ يُدِيرُ لَنَا مِنْ بَيْنِ أَجْفَانِهِ سَقَطَا^(٥)
إِذَا صَاحَ أَصْغَى سَمْعُهُ لِنِدَائِهِ وَبَادَرَ ضَرْباً مِنْ قَوَادِمِهِ الْإِنْبَطَا
وَمَهْمَا أَطْمَأْنَتَ نَفْسُهُ قَامَ صَارِخَاً عَلَى خَيْزِرَانٍ نَيْطٌ مِنْ ظُفْرِهِ خَرْطَا
كَأَنَّ أُنُوسَ شِرْزَوَانَ أَعْلَاهُ تَاجَهُ وَنَاطَتْ عَلَيْهِ كَفٌّ مَارِيَةِ الْقُرْطَا^(٦)
سَبَى حُلَّةَ الطَّائِسِ حَسَنَ لِبَاسِهَا وَلَمْ يَكْفِهِ حَتَّى سَبَى الْمِشْيَةَ الْبَطَا
وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَالِكِيُّ:

رَعَى اللَّهُ ذَا صَوْتٍ أَنْسَنَا بِصَوْتِهِ وَقَدْ بَانَ فِي وَجْهِ الظَّلَامِ شُحُوبُ
دَعَا مِنْ بَعِيدٍ صَاحِباً فَأَجَابَهُ يُخَبِّرُنَا أَنَّ الصَّبَاحَ قَرِيبُ
وَقَالَ ابْنُ الْمَعْتَزِ: [مَنْ الْمُنْسَرَحُ]

(١) رنا: أدام النظر في سكون طرف، فهو ران.

(٢) العقيد: الحليف.

(٣) القرطوق: القباء.

(٤) ذو رعين: من ألقاب ملوك اليمن.

(٥) المراد بالشقيقة هنا: عرف الديك. وسقط الزند: ما يقع من النار عند القدح.

(٦) مارية: امرأة قيل كان في قرطبيها درتان كبيضتي حمامة.

بَشَّرَ بِالصَّبْحِ هَاتِفٌ هَتَفَا
مُذَكِّرٌ بِالصُّبُوحِ صَاحٌ لَنَا
صَفَقَ إِمَّا أَرْتِيَا حَةً لِسَنَا أَلْ
وَقَالَ أَيْضاً فِيهِ:

وَقَامَ فَوْقَ الْجِدَارِ مُشْتَرِفٌ
رَافِعُ رَأْسٍ طَوْرًا وَخَافِضُهُ
وَقَالَ السَّرِيُّ الرَّفَاءُ: [من الكامل]

كَشَفَ الصَّبَاحُ قِنَاعَهُ فَتَأَلَّقَا
وَعَلَا فَلَاحَ عَلَى الْجِدَارِ مُوَشَّحٌ
مُزَخٌّ فَضُولَ التَّاجِ مِنْ لَبَاتِهِ
وَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْأَصْفَهَانِيُّ يَرِثِي دِيكَاً وَيَصِفُهُ: [من الكامل]

وَعَزِيَّ أَيْدِينَا نِدَاءً مَشُوقٍ
دَفَعَ الْمَنَايَا عَنْكَ لَهْفٌ شَفِيقٌ^(٢)
حَتَّى دَوَّتْ مِنْ بَعْدِ حَسَنِ سُمُوقٍ^(٣)
وَنَشَأَتْ نَشْوُ الْمُقْبِلِ الْمَوْمُوقِ^(٤)
لَكَ مِنْ جَلِيلٍ خَالِصٍ وَدَقِيقٍ
مُتَلَالِئاً ذَا رَوْنَقٍ وَبَرِيقٍ
تَخَيَّلُهَا يَخْفَى عَلَى التَّحْقِيقِ
لُطْفَتْ مَعَانِيهِ عَنِ التَّدْقِيقِ
وَعَلَى الْمَفَارِقِ مِنْكَ تَاجٌ عَقِيقٍ
وَجَفَّتْ عَنِ الْأَسْمَاعِ بُحٌّ حُلُوقٍ^(٥)
نَعَمٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الْمُوسِيقَى
أَبْنِيَّ مَنْزِلَنَا وَنَشْوُ مَحَلَّنَا
لَهْفِي عَلَيْكَ أبا النَّذِيرِ لَوْ أَنَّهُ
وَعَلَى شِمَائِلِكَ اللَّوَاتِي مَا نَمَتْ
لَمَّا بَقِعَتْ وَصِرَتْ عِلْقَ مَضْئَةٍ
وَتَكَامَلَتْ جُمْلُ الْجَمَالِ بِأَسْرَهَا
وَكُسِيتَ كَالطَّائِوسِ رِيشاً لَامِعاً
مِنْ صُفْرَةٍ مَعَ خُضْرَةٍ فِي حُمْرَةٍ
عَرَضٌ يَجَلُّ عَنِ الْقِيَاسِ وَجَوْهَرٌ
وَكَاَنَ سَالِقَتَيْنِ تَبْرُ سَائِلُ
وَكَاَنَ مَجْرَى الصَّوْتِ مِنْكَ، إِذَا نَبَتْ
نَائِي رَقِيقٌ نَاعَمٌ قُرِئْتُ بِهِ

(١) الأسوار: الرامي بالنبال، أو هو قائد الفرس.

(٢) أبو النذر: كنية الديك.

(٣) السموق من النيات: ما ارتفع وعلا وطال.

(٤) بقع الطير: اختلف لونه. وعلق مضنة: يقال للشيء النفيس الذي يضمن به ويحرص عليه.

(٥) بح: جمع أبح من البحة، وهي خشونة وغلظ في الصوت.

تَزْفُو وَتَصْفِقُ بِالْجَنَاحِ كَمُنْتَشٍ
وخطرت ملتحفاً بمزطٍ حَبْرَتْ
كالجُلَّانَةِ أو ضياءٍ عقيقةٍ
أو قهوةٍ تَخْتَالُ فِي بِلْوَرَةٍ
وكانما الجادِي جَادَ بِصَبْغِهِ
وقال شاعر أندلسي: [من المتقارب]

وكائنُ نَفَى النَوْمِ من عَيْنِ فَإِنْ
بأجفانٍ عَيْنِيهِ ياقوتَتَانِ
على رأسه التاجُ مُسْتَشْرِفًا
وَقُرْطَانِ من جَوْهَرٍ أَحْمَرٍ
له عُتُقٌ حَوْلَهَا رَوْنُقٌ
ودارُ بُرَائِلُهُ حَوْلَهَا
ودارتُ بِجُؤْجُئِهِ حُلَّةٌ
وقامَ لَهُ دَنْبٌ مُفْجِبٌ
وقاسَ جَنَاحًا على ساقِهِ
وصَفَّقَ تَصْفِيقَ مُسْتَهْتِرٍ
وَعَرَّدَ تَغْرِيدَ ذِي لَوْعَةٍ

وقال أبو علي بن رَشِيق^(٦) حيث مَزَقَ عنه جِلْبَابَ المَمَادِحِ، وتركه من شَمَلِ الدَّمِ
في الرَّأْيِ الفَاضِحِ: [من السريع]

قَامَ بِلَا عَقْلِ وَلَا دِينٍ يَخْلُطُ تَصْفِيقًا بِتَأْذِينٍ

(١) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان، يؤتز به وتتلفع به المرأة.

(٢) القهوة: المراد بها الخمر.

(٣) الخلق: ضرب من الطيب.

(٤) الحصان: المرأة العفيفة.

(٥) البرائل: ما استدر من ريش الطائر حول عنقه.

(٦) هو الحسن بن رَشِيق المعروف بالقيروان (أبو علي) شاعر، أديب، نحوي، لغوي، مؤرخ، عروضي، ناقد. توفي سنة ٤٦٣ هجرية. (معجم المؤلفين ٣: ٢٢٥).

فَنَبَّهَ الْأَحْبَابَ مِنْ نَوْمِهِمْ لِيَخْرُجُوا مِنْ غَيْرِ مَا حِينِ
بَصْرَخَةٍ تَبَعْتُ مَوْتِي الْكَرَى قَدْ أَذْكَرْتَ نَفْخَ سَرَافِينِ^(١)
كَأَنَّهَا فِي خَلْقِهِ غُصَّةٌ أَغْصَاهُ اللَّهُ بِسُكَّيْنِ

وَأَمَّا الْحَجَلُ وَمَا قِيلَ فِيهِ - وَالْحَجَلُ طَائِرٌ يَسْمَى: «دَجَاجُ الْبَرِّ» وَهُوَ صَنْفَانٌ: نَجْدِيٌّ، وَتِهَامِيٌّ. فَالنَجْدِيُّ أَخْضَرُ أَحْمَرُ الرِّجْلَيْنِ. وَالتَّهَامِيُّ فِيهِ بَيَاضٌ وَخَضِرَةٌ. وَسَمِّيَ الذَّكَرُ «يَعْقُوبَ»، وَالْفَرْخُ الذَّكَرُ «السُّلْكُ»، وَالْأُنْثَى «السُّلْكَةُ»، وَهُوَ مِنَ الطَّيْرِ الَّذِي يَخْرُجُ فَرْخُهُ كَاسِيًا كَاسِبًا. وَيُقَالُ: إِنَّ الْحَجَلَةَ لَمْ تَلْقَحْ تَمَرَّغَتْ فِي التَّرَابِ وَرَشَّتْهُ عَلَى أَصُولِ رِيشِهَا فَتَلْقَحُ. وَيُقَالُ: إِنَّهَا تَبْيِضُ بِسَمَاعِ صَوْتِ الذَّكَرِ وَبَرِيحِ تَهَبٍّ مِنْ نَاحِيَتِهِ.

قَالَ أَبُو عَثْمَانَ الْجَا حَظْطُ: وَإِذَا بَاضَتِ الْحَجَلَةُ مَيَّزَ الذَّكَرُ الذَّكَوْرَ مِنْهَا فَيَحْضُنُهَا وَمَيَّزَتِ الْأُنْثَى الْإِنَاثَ فَتَحْضُنُهَا، وَكَذَلِكَ هُمَا فِي التَّرْيِيَةِ. قَالَ: وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَعِيشُ خَمْسًا وَعَشْرِينَ سَنَةً. وَلَا تَلْقَحُ الْأُنْثَى بِالْبَيْضِ، وَلَا يُلْقِحُ الذَّكَرُ إِلَّا بَعْدَ مُضِيِّ ثَلَاثِ سِنِينَ. وَالذَّكَرُ شَدِيدُ الْغَيْرَةِ عَلَى الْأُنْثَى. فَإِذَا اجْتَمَعَ ذَكَرَانِ اقْتَتَلَا، فَأَيُّهُمَا غَلَبَ ذَلِكَ لَهُ الْآخَرُ؛ وَذَهَبَتِ الْأُنْثَى مَعَ الْغَالِبِ. وَالْأُنْثَى إِذَا أُصِيبَتْ بِبَيْضِهَا قَصَدَتْ عَشَّ أُخْرَى وَغَلَبَتْهَا عَلَى بَيْضِهَا. وَقَدْ وَصَفَ أَبُو عَلِيٍّ بْنُ رَشِيقٍ الْفَيْرَوَانِيَّ الْحَجَلُ فَقَالَ: [مِنْ مَجْزُوءِ الْكَامِلِ]

مَا أَغْرَبَتْ فِي زِيَّهَا إِلَّا يَعْاقِبُ الْحَجَلُ^(٢)
جَاءَتْكَ مُثْقَلَةً الثَّرَا يُبِّ بِالْحُلِيِّ وَبِالْحُلُلِ^(٣)
صُفَّرَ الْجَفُونَ كَأَنَّمَا بَاتَتْ بِتَبَرٍ تَكْتَحِجَلُ
مَشْقُوقَةً شَقَّ الزُّجَا جِ لِمَنْ أُمِّلَ أَوْ عَقِّلُ
وَصَلَّتْ مَذَابِحُهَا الرُّو سَ بِحُمْرَةٍ فِيهَا شَعْلُ
لَوْلا اخْتِلَافُ الْجِنْسِ وَالتَّ رَكِيبُ جَاءَتْ فِي الْمَثَلِ
كَلَحَى الثَّمَانِينَ الَّتِي خُضِبَتْ وَمِنْهَا مَا نَصَلُ
أَوْ كَاللُّثَامِ أَزَالَهُ فَرَطُ الثَّلَقَاتِ وَالْعَجَلُ
وَتَخَالَهُنَّ جَوَارِيَا لَا يُزْدَرَيْنِ مِنَ الْعَطَلِ

(١) سرافين: جمع سراف، وهو الملك.

(٢) اليعاقب: جمع اليعقوب، وهو ذو العقب.

(٣) الترائب: عظام الصدر مما يلي الترقوتين. أو هو موضع القلادة.

رَمَتْ الثِّيَابَ إِلَى وَرَا ءَ عَنِ الْمَنَاكِبِ تَنْجِدِلُ^(١)
وَبَدَتْ سِرَاوِيلَ ثِيَابِهَا يَسْحَبْنَ وَشَيْئاً مِنْ قُبُلْ
حُمِرُ مِنَ الرُّكَبَاتِ فِي لَوْنِ الشَّقَائِقِ أَوْ أَجَلْ
عَقْدَنَهَا فَوْقَ الصَّدُورِ رُمُخَالَسَاتٍ لِلْقُبُلْ
وَشَدَدَنْ بِالْأَغْضَادِ مِنْ حَذَرٍ عَلَيْهَا أَنْ تُحَلْ
وَكَأَنَّمَا بَاتَتْ أَصَا بَعُهَا بِحِئَاءٍ تُعَلُ^(٢)
مَنْ يَسْتَحِلَّ لَصِيدَهَا فَأَنَا أَمْرُؤُ لَا أَسْتَحِلْ

وَأَمَّا الْكُرْكِيُّ وَمَا قِيلَ فِيهِ - وَيُقَالُ: إِنَّهُ «الْغَرْنِيقُ»؛ وَيُقَالُ: إِنَّ الْغَرْنِيقَ صِنْفٌ مِنْهُ. وَهُوَ طَائِرٌ أَخْضَرُ طَوِيلُ الْمِنْقَارِ وَالرَّجْلَيْنِ. وَسِفَاذُهُ فِي السَّرْعَةِ كَالْعَصْفُورِ. وَلَهُ مَشَاتٍ وَمَصَافٍ. وَفِي طَبْعِهِ التَّنَاصُرُ؛ وَلِهَذَا أَنَّهُ لَا يَطِيرُ مُتَقَطِعاً وَلَا مُتَبَاعِداً بَلْ صَفّاً وَاحِداً، يُقَدِّمُهَا وَاحِداً مِنْهَا كَالرَّئِيسِ لَهَا الْمَقْدَمُ عَلَيْهَا وَهِيَ تَتَّبِعُهُ، يَكُونُ كَذَلِكَ حِيناً، ثُمَّ يَخْلُفُهَا آخَرُ مِنْهَا. وَفِي طَبْعِ الْكُرْكِيِّ وَعَادَتُهُ أَنْ أَبْوِيَهُ إِذَا كَبُرَا عَالِمَاهَا.

وَقَالَ أَرِسْطُو: إِنَّ الْغَرَانِيقَ مِنَ الطَّيْرِ الْقَوَاطِعِ وَلَيْسَتْ مِنَ الْأَوَابِدِ، وَإِنَّمَا إِذَا أَحْسَتْ بِتَغْيِيرِ الزَّمَانِ أَعْتَزَمَتْ عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى بِلَادِهَا. وَكُلٌّ مِنْهَا يَنَامُ عَلَى إِحْدَى رِجْلَيْهِ قَائِماً. وَيُقَالُ: إِنَّ الْكُرَاكِيَّ إِذَا كَبُرَتْ أَسْوَدَ رِيشَهَا وَهُوَ فِي شَبَابِهَا زَمَادِيٌّ. وَقَدْ ظَهَرَ بِالْدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ فِي شَهْرِ سَنَةِ خَمْسٍ عَشْرَةَ وَسَبْعِمِائَةٍ صِنْفٌ مِنَ الْكُرَاكِيَّ أَبْيَضُ اللَّوْنِ نَاصِعُ الْبَيَاضِ حَسَنُ الصُّورَةِ، وَهُوَ أَكْبَرُ جُثَّةٍ مِنَ الْكُرَاكِيِّ الْمَعْتَادِ. وَقَالَ النَّاشِي فِي وَصْفِ الْكُرَاكِيِّ: [مِنْ الرِّجْزِ]

وَمَوْرِدٍ يُجْذِلُ قَلْبَ الْوَامِقِ مُنْظَمٍ بِالْغُرِّ وَالْغَرَانِيقِ^(٣)
وَكُلُّ طَيْرٍ صَافِرٍ أَوْ نَاعِقٍ مَكْتَهَلٍ وَبَالِغٍ وَلا حَقِ
مَوْشِيَّةِ الصَّدُورِ وَالْعَوَاتِقِ بِكُلِّ وَشْيٍ فَآخِرٍ وَفَائِقِ
تَخْتَالُ فِي أَجْنَحَةٍ خَوَافِقِ كَأَنَّمَا تَخْتَالُ فِي قَرَاطِقِ^(٤)
يَزْفُلْنَ فِي قُمْصٍ وَفِي يَلَامِقِ كَأَنَّهُنَّ زَهَرُ الْحَدَائِقِ^(٥)

(١) انحدل: انصرع.

(٢) تعلّ بحناء: تخضب مرة بعد أخرى.

(٣) الغرانق: نبات شجيري معمر من الفصيلة الجارونية.

(٤) يقال: خفق الطير إذا طار، وهو خافق.

(٥) يلامق: جمع يلمق، وهو القباء المحشو.

حُمْرِ الْجِدَاقِ كُحْلِ الْحَمَالِقِ كَأَنَّمَا يَجُلْنَ فِي مَخَانِقِ^(١)

وأما الإوزَ وما قيل فيه - والإوزَ ثلاث أصناف: بطائحي وهو الطويل الأسود بزرقة وتركبي وهو المُدَوَّر المائل إلى البياض، وخبي وهو الضخم الكبير منها. ويقال: إن الإوزَ إذا فرغ من السَّفَاد وسبح في الماء فإنما يفعل ذلك لَتَمَامِ اللَّذَةِ. والأنثى تحضن بيضها ثلاثين يوماً. والذكور تحنو على الفراخ. ولكل منها قُضِيبٌ يَسْفِدُ به كالبَطِّ، والإوزَ البطائحي، وهو المعروف بمصر بالعراقي يخالف الخبي في الصياح؛ لأن الخبي تصيح ذكورها ولا تصيح إناؤها، والبطائحي بخلاف ذلك. والخبي من الطير الأوابد التي لا تبحر من الأماكن التي تُرَبَّى فيها لِثِقَلِ أجسامها، وإذا نهضت فلا ترتفع من الأرض إلا يسيراً. والعراقيات من الطير القواطع التي تنتقل من مكان إلى آخر، وتُرى في وقت دون وقت.

وقال ابن رَشِيق يَصِفُ فَحْلَ إَوْزٍ: [من الطويل]

نَظَرْتُ إِلَى فَحْلِ الْإَوْزِ فَخِلْتُهُ مِنْ الثَّقَلِ فِي وَحْلٍ وَمَا هُوَ فِي وَحْلٍ
يُنْقِلُ رَجْلِيهِ عَلَى حِينِ فَشْرَةٍ كَمُتَّعِلٍ وَلَا يُحْسِنُ الْمَشْيَ فِي الثَّغْلِ
لَهُ عُتْقٌ كَالصَّوْلَجَانِ وَمَخْطَمٌ حَكَى طَرَفَ الْعُرْجُونِ مِنْ يَانِعِ الثَّخْلِ^(٢)
يُدَاخِلُهُ زَهْرٌ فَيَلْحَظُ مِنْ عَلٍ جَوَانِبَهُ أَلْحَاطٌ مُتَّهَمِ الْعَقْلِ
يَضُمُّ جَنَاحِيهِ إِلَيْهِ كَمَا أَرْتَدَى رِءَاءَ جَدِيدٍ مِنْ بَنِي الْبَذْوِ ذُو جَهْلٍ

وأما البطُ وما قيل فيه - وهو أصناف: منها الوَحْشِي، والأَهْلِي، ومن الوَحْشِي «الْقَلْقُ»^(٣)؛ ومن الأَهْلِي «الصَّيْنِي»، وفراخه تَخْرُجُ كَاسِيَةً كَاسِبَةً. وقيل: إن بالزَّابِجِ بَطًّا بِيضًا وَحْمَرًا وَرُقْطًا طَوَالَ الْأَعْنَاقِ قِصَارَ الْأَرْجُلِ. والبطُ يطير على وجه الماء، وليس من طير الماء، لأنه لا يَأْوِيهِ دَائِمًا وَلَا يَغْتَذِي بِالسَّمَكِ، وهو يأكل النباتات والبُذُور، وله قُضِيبٌ يَخْرُجُ مِنْ دُبُرِهِ كَذَكَرِ الْكَلْبِ عَظِيمٌ جَدًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ؛ فِي رَأْسِهِ زُرٌّ كَالْفَلَكَةِ^(٤)؛ فَإِذَا سَفِدَ لَمْ يُخْرِجْهُ حَتَّى يَنْقَلِبَ لَجَنِيهِ، وَيَحْصُلُ لَهُ عِنْدَ السَّفَادِ مِنَ الْإِلْتِحَامِ مَا يَحْصُلُ لِلْكَلْبِ.

وقال أبو علي بن سينا: وطبع البطُ حارًّا أسخن من جميع الطيور الأهلية. قال:

(١) المخانق: القلائد.

(٢) العرجون من النخل كالعنقود من العنب.

(٣) القلق: طائر أعجمي طويل العنق.

(٤) فلكة المغزل: رأسه.

قال بعضهم: وهو يستخّن المبرود ويورث المحرور حتى. قال: وشحمه عظيم في تسكين الوجع وتسكين اللذع من عمق البدن؛ وهو أفضل شحوم الطير. ولحمه يكثر الرياح، وقانصته كثيرة الغذاء؛ ولحمه يسمن، وهو بطيء في المعدة ثقيل. وإذا أنهضم كان أغذى من جميع لحوم الطير؛ وهو يزيد في الباه^(١) ويكثر المنى.

وأما النحام^(٢) وما قيل فيه - قالوا: والنحام يكون أفراداً وأزواجاً. وإذا أراد المبيت اجتمع رُفُوفاً^(٣) فنام دُكُوره ولا تنام إناثه. وتعد لها مباتات، إذا دُعِرَتْ في واحد منها طارت إلى آخر. ويقال: إنه لا يسفد ولا يخرج فراخه بالحضن وإنما تبيض الأنثى من رُق الذكر. وإذا باضت تغرّبت وبقي الذكر عند البيض يذرق عليه ليس إلا، فيقوم ذرقه مقام الحضن. فإذا تمت مدة ذلك خرجت الفراخ لا حراك بها؛ فتجيء الأنثى فتنفخ في مناقيرها حتى يجري ذلك النفخ فيها روحاً، ثم يتعاون الذكر والأنثى جميعاً على التربية، وإذا قويت الفراخ على الطعم وأمكنها التكسب لنفسها طردها الذكر.

وأما الأنيس وما قيل فيه - فقال أرسطو: إنه حاد البصر، وصوته يشبه صوت الجمل ويحاكيه. ومأواه في قرب الأنهار في الأماكن الكثيرة المياه الملتفة الشجر. وله لون حسن وتديبر في معاشه. والناس يتغالون به إذا وقع لهم ويجعلونه في بيوتهم.

وأما القاوند وما قيل فيه - قال صاحب كتاب مباحج الفكر ومناهج العبر في كتابه: كنت أسمع بشخم القاوند ولم أدر ما هو: حيوان هوائي أم مائي أم أرضي، حتى وقفت على كتاب موضوع في طبائع الحيوان وخواصه ليس عليه أسم المصنف، فرأيت قد قال: «القاوند طائر يتخذ وكره على ساحل البحر ويحضر بيضه سبعة أيام، وفي اليوم السابع يخرج فراخه ثم يزقها سبعة أيام. والمسافرون في البحر يتيمنون بهذه الأيام ويوقنون بطيب الريح وحلول أيام السفر».

وأما الخطاف وما قيل فيه - والخطاف يسمى «زوّار الهند»، وهو من الطيور القواطع التي تقطع البلاد البعيدة إلى الناس رغبة في القرب منهم والإلف بهم، وهو مع ذلك لا يبني بيته إلا في أبعد المواضع حيث لا تناله أيديهم. ومن عجيب حاله أن عينه تفلح فترجع؛ وهو لا يرى أبداً يقف على شيء يأكله، ولا يرى يسافد ولا يجتمع بأنثاه، والأنثى تبيض مرة واحدة في السنة، وقيل: مرتين؛ وكلاهما قاله الجاحظ.

(١) الباه: النكاح.

(٢) النحام: طائر أحمر كالأوز.

(٣) الرفوف: جمع رف، وهو القطيع من الطير.

والخُفَّاش عدوُّ الخُطَّاف؛ فهو إذا فَرَّخ وضع في أعشاشه قُضبان الكَرْفَس^(١)، فلا يُؤذي فراخه إذا شَمَّ رائحة الكَرْفَس. وهو لا يُفَرِّخ في عِشٍّ عتيقٍ حتى يُطَيِّنه بطينٍ جديدٍ. وهو يَبني عُشَّةً بالطين والتِّين. فإذا لم يجد طينا مُهيَّأً ألقي نفسه في الماء ثم تَمَرَّغ في التراب حتى يمتلئَ جَنَاحاه ثم يجمعه بِمَنقاره. وهو يُسَوِّي في الطَّعم بين فراخه. ولا يترك في عُشِّه زَبَلاً بل يُلقيه خارجاً. وأصحابُ اليرِّقَان يُلطِّخون فراخَ الخُطَّاف بالزعفران، فإذا رآها صُفْراً ظنَّ أنَّ اليرِّقَان أصابها من شدة الحرِّ، فيذهبُ ويأتيها بحَجَر اليرِّقَان فيطْرُحه على الفِراخ، وهو حَجَرٌ أَصْفَرٌ، فيأخذُه المُحتالُ فيعلقه على نفسه أو يَحْكُه ويشربُ من مائه سِيراً فيبرأ. والخُطَّاف متى سمع صوتَ الرِّعد مات.

وقال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا: قال ديسقوريدس: إنَّ أوَّل بطنٍ للخُطَّاف إذا شَتَّى وُجد فيه حَصَّتان، إحداهما ذاتُ لونٍ واحدٍ والأخرى ذاتُ ألوانٍ كثيرة، إذا جُعِلتا في جِلْد عجلٍ قبل أن يصيبه ترابٌ ورُبِطَ على عَضْد المصروع ورقبته أُنْتَفَع به، قال: وقد جَرَّبْتُ ذلك وأبرأ المصروع. قال: وأكلُ الخُطَّاف يُجِدُّ البَصَرَ، وقد يُخَفِّفُ وَيُسَقِّي. والشربةُ منه مثقالٌ. وقيل: إنَّ دماغه بعسلٍ نافعٌ من ابتداء الماء، وكذلك دماغُ الخُفَّاش. قال: وإنَّ مُلْح الخُطَّاف وَجُفَّ وشرب منه درهمان نَفَع من الخُنَّاق. قال بعضُ الأطباء: المشهور عند الأطباء أن عُشَّ الخَطَّاطيف إذا حُلَّ في ماء وَصَّيَّ وشرب سَهَّل الولادة.

وقد أَلَم الشعراءُ في أشعارهم بوصف الخُطَّاف؛ فمن ذلك ما قاله أبو إسحاق الصَّابِي: [من الطويل]

وهنديَّة الأوطان زَنجِيَّة الخَلْق مُسَوِّدة الأثواب مُخَمَّرَةُ الحَدَقِ
كَأَنَّ بِهَا حُزْناً وَقَدْ لَيْسَتْ لَهُ جِدَاداً وَأَذْرَتْ مِنْ مَدَامِعِهَا العَلَقِ^(٢)
إِذَا صَرَصَرَتْ صَرَّتْ بِأَخْر صَوْتِهَا كَمَا صَرَّ مَلَوَى العودَ بِالْوَتْرِ الحَزَقِ^(٣)
تَصَيِّفُ لَدِينَا ثُمَّ تَشْتَو بِأَرْضِهَا فِي كُلِّ عَامٍ نَلْتَقِي ثُمَّ نَفْتَرِقُ
وَقَالَ السَّرِيِّ الرَّقَاءُ يَصِفُهَا مِنْ أَيْيَاتٍ وَيَذَكُرُ غُرَفَةً: [من الطويل]

وَعَرَفْتُنَا بَيْنَ السَّحَابِ تَلْتَقِي لَهَنَ عَلَيْهَا كِلَّةٌ وَرَوَاقُ
تَقْسِمُ زَوَارَّ مِنَ الهِنْدِ سَقْفُهَا خِفَافٌ عَلَى قَلْبِ النَّدِيمِ رِشَاقُ

(١) الكرفس: عشب ثنائي الحول من الفصيلة الخيمية، له جذر وتدي مغزلي، وساق جوفاء قائمة.

(٢) العلق: الدم الشديد الحمرة.

(٣) الحزق: اسم من حزق الشيء يحزقه إذا شدَّه وضغطه.

عَاجِمْ تَلْتَدُ الْخِصَامَ كَأَنهَا
أَنَسْنَ بَنَا أَنَسَ الْإِمَاءِ تَحَبَّبَتْ
مُوَاصِلَةً وَالْوَزْدَ فِي شَجَرَاتِهِ
وقال أيضاً: [من الطويل]

وغرفتنا الحسنة قد زاد حسنُها
مُبَيَّضَةَ الْأَحْشَاءِ حُمِرَ بَطُونُهَا
لَهْنَ لُغَاتٍ مُعْجَمَاتٍ كَأَنهَا
وقال أبو هلال العسكري: [من الطويل]

وزائرة في كل عام تزورنا
تُخْبِرُ أَنَّ الْجَوَّ رَقَ قَمِيضُهُ
وَأَنَّ وَجْهَ الْعُذْرِ رَاقٍ بِيَاضِهَا
تَحْنُ إِلَيْنَا وَهِيَ مِنْ غَيْرِ شَكْلِنَا
وَيُعْجِبُنَا وَشَطَّ الْعِرَاصِ وَقَوْعُهَا
أَغَارَ عَلَى ضَوْءِ الصَّبَاحِ قَمِيضُهَا
تَصِيحُ كَمَا صَرَّتْ نِعَالُ عِرَائِسٍ
وقال آخر:

أَهْلًا بِخُطَافٍ أَتَانَا زَائِرًا
لَيْسَتْ سَرَابِيلُ الصَّبَاحِ بَطُونُهُ
وقال أبو نُوَاس:

كَأَنَّ أَصْوَاتَهَا فِي الْجَوِّ طَائِرَةٌ
وَأَمَّا الْيَقِيْنُ وَالزُّرْزُورُ وَمَا قِيلَ فِيهِمَا - وَالْيَقِيْنُ: طائر في قَدْرِ الْحَمَامِ اللَّطِيفِ؛ وَأَهْلُ
الشَّامِ يُسَمُّونَهُ «أَبَا زُرِّيْقٍ». وَفِي طَبْعِهِ كَثْرَةُ الْإِلْفِ بِالنَّاسِ، وَقَبُولُ التَّعْلِيمِ، وَسُرْعَةُ الْإِدْرَاكِ
لَمَا يُلْقَنُ مِنَ الْكَلَامِ مُبَيَّنًا حَتَّى لَا يَشْكُ سَامِعُهُ إِذَا لَمْ يَرَهُ أَنَّهُ إِنْسَانٌ؛ وَرَبِمَا زَادَ عَلَى الْبَيِّنَاءِ.
وَلَهُ حِكَايَاتٌ وَأَخْبَارٌ فِي الذِّكَاةِ وَالْفِطْنَةِ يَطُولُ شَرْحُهَا، وَهُوَ طَائِرٌ مَشْهُورٌ بِذَلِكَ.

(١) نعال السبت: نعال تتخذ من جلود البقر المدبوعة بالقرظ.

(٢) العراص: واحدها عرصة، وهي البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.

(٣) الجلام: واحدها جلم، وهو المقص.

وأما الزُرْزُورُ - فيقال: إنه ضَرَبٌ من الغراب يسمّى «العُدَّاف»؛ ويقال: إنه «الزَّاع». وهو يقبل التعليم، ولا يُرى إلّا في أيام الربيع. ولونه أرقط لكن السواد أغلب. وقد يوجد في لونه الأبيض، وهو قليل جداً.

وقال بعض شعراء الأندلس: [من الكامل]

يا رَبِّ أعجمَ صامتٍ لِقْنُثُهُ طُرَفَ الحديثِ فصارَ أفصحَ ناطقٍ
جَوْنُ الإهابِ أَعْيَرَ قوَّةَ صُفْرَةٍ كاللَّيْلِ طَرَزَهُ وَمِیْضُ البارقِ
حِكْمٌ مِنَ التَّدْبِيرِ أعجزتِ الوری ورأى بها المخلوقَ لُطْفَ الخالقِ
وقال آخر: [من مَخْلَع البسيط]

أَمِئْبَرٌ ذاكَ أم قَضِيبُ يَفْرَعُهُ مِضْقَعُ خَطِيبُ
يَخْتالُ في بُزْدَتِي شَباب لَمْ يَتَوَضَّحْ بِهَا مَشِيبُ
أخْرَسُ لَكْنُهُ فَصِيحُ أَبْلَهُ لَكْنُهُ لِسِيبُ

وقال الوزير أبو القاسم بن الجَدِّ الأندلسي من رسالة كتبها إلى الوزير أبي الحسن بن سراج جواباً عن رُقْعَةٍ وصلت منه إليه، يشفعُ لرجل يُعرف بالزُرْزِيرِ، ابتدأها بأن قال:

حُسْنُ لك أبا الحسن ضرائبُ الأيام، وتشوّفتُ نحوكَ غرائبُ الكلام، وأهتزّت لمكاتبتك أعطافُ الأفلام، وجادت على مَخْلُك الطافُ العَمَام، وأشادت بفضلِكَ وتُبْلِك أصنافُ الأنام. فإن كان روض العهد أعزَّكَ الله لم يُصِبْهُ من تَعَهْدنا طُلٌّ^(١) ولا وابل^(٢)، ولا سَجَعَتْ على أَيْكِهِ وُزُقٌ ولا بَلابل؛ فإن أزهاره على شِرْب الصِّفاء نابته، وأشجاره في ثُرْب الوفاء راسخة ثابتة، وقد آن الآن لعقم شجره أن تُطْلِع من الشمر ألواناً، ولعجم طيره أن تَسْجَعَ من النِّعم الحاناً، بما سقط لديّ ووقع عليّ من طائرٍ شِهْي الصِّفير، مبنيّ الاسم على التصغير؛ فإنه رَجَعَ بِأَسْمِكَ جِيناً، وأبتدع في نوبة شكرِكَ تَلْجِيناً، وحرَّكَ من شوقي إليك سكوناً، ودَمَّتْ^(٣) في قلبي لودُّكَ وَكُوناً، ثم اسمعني أثناء ترنمه كلاماً وصف به نفسه، لو تَغَنَّت به الوُرُزَاء، لأَذِنْتُ له^(٤) العنقاء، أو ناح بمثله الحمام؛ لبكى لَشْجُوهِ العَمَام، أو سَمِعَهُ قيسُ بن عاصم في ناديه، وبين

(١) الطل: المطر الخفيف يكون له أثر قليل.

(٢) الوابل: المطر الشديد الضخم القطر.

(٣) دمّت: هيا وسهل.

(٤) أذنت: أصغت واستمعت.

أعاده، لَحَلَّ الزَّمْعُ^(١) حُبَاه، وَأَسْتَرَدَّ الطَّرَبُ صِبَاه:

كلاماً لو أن البَقْلَ يُزْهَى بمثله زها البقل وأخضر الغضا بِمَصِيف
فَتَلَقَيْتُ فَضْلَ صاحبه بالتسليم، وَأَعْتَرَفْتُ بِسَبْقِهِ اعْتِرَافَ الخبير العليم.

وبعد، فإني أعود إلى ذكر ذلك الحيوان الغريد، والشيطان المرید؛ فأقول: لئن سُمِّي بالزُّرْزِير، لقد صُعِّرَ للتكبير؛ كما قيل: حُرَيْقِيصٌ وَسَقَطُهُ يُحْرِقُ الْحَرْجَ، ودَوَيْهِيَّةٌ وهي تلتهم الأرواح والمُهَج. ومعلوم أن هذا الطائر الصافر يفوق جميع الطيور في فهم التلقين، وحسن اليقين، فإذا عُلِمَ الكلام لهج بالتسيح، ولم ينطق لسانه بالقبيح، وتراه يقوم كالنصيح، ويدعو للخير بلسان فصيح. فمن أحب الاتعاظ، لقي منه قس إِيَادٍ بَعُكَاظٍ؛ أو مال إلى سماع البسيط والنشيد، وجَدَ عنده نُحْبَ المَوْصِلِي للرشيد. فطوراً يُبْكِيكَ بأشجى من مرثي أَرْبَدَ، وحيناً يُسَلِّيك بأحلى من أغاني مَعْبَد. فسبحان من جعله هادياً خطيباً، وشادياً مُطرباً مُطِيباً. ولما طار ببلاد الغرب ووقع، وَرَقِيَ في أكنافها وصقَّ وعاین ما اتَّفَقَ فيها في هذا العام من عدم الزيتون، في تلك البطون والمتون؛ أزمع عنها فراراً، ولم يجد بها قراراً؛ لأن هذا الثمر بهذا الأفق هو قِوَامُ معاشه، وملاك أنتعاشه؛ إليه يَقْطَع، وعليه يقع؛ كما يقع على العسل الذباب، وتقطع إلى العَرَادِ الضُّباب، فاستَحَفَّهُ هائج التذكار، نحو تلك الأوكار، حيث يَكْتَسِي ريشه حريراً، وَيَحْتَشِي جَوْفَهُ بَرِيراً^(٢)، ويحتسي قُرَاحاً نَمِيراً، وَيَغْتَدِي على رَهْطِه أميراً. فخذهِ إليك، نازلاً لديك، مائلاً بين يديك، يترثم بالثناء، ترثم الذباب في الروضة الغناء، وقد هَزَّ قِوَادِمَ الجناح، لعادة الاستمناح؛ وَخَبَّرَ من لَمَعِ الْأَسْجَاعِ، وما يصلح للانتجاع، واثقاً بأن ذلك القَطَرِ الناضر سَتَنْفَحُه حدائقه، ولا تَلْفَحُه ودَائِقُه^(٣)؛ لا سيما وفضلُك دليله إلى تَرْعِ رياضِه، وفِرَضِ حياضِه؛ مع أنه لا يَغْدَم في جنباك حَبّاً نَشِيراً، وَخَصَباً كثيراً، وَعُشّاً وثيراً.

فإذا ما أراد كُنْتَ رِشَاءً وإذا ما أراد كُنْتَ قَلِيباً^(٤)

والله تعالى يَكْفِيهِ فيما ينوبه شرّ الجوارح، وبقية شؤم السانح والبارح، بمَنِّه وكرمه.

وأما السُّمَانِي وَمَا قِيلَ فِيهِ - يقال: إِنَّ السُّمَانِي هو السُّلَوِي، وهو من الطيور

(١) الزمع: الخفة والطيش.

(٢) البرير: أول ما يظهر من ثمر الأراك وهو جلد.

(٣) الدويقة: حر نصف النهار.

(٤) القليب: البثر.

القواطع التي لا يُعْلَم من أين تأتي، ويقال: إنه يخرج من البحر المالح؛ فإنه يُرى وهو يطير عليه أوانٌ ظهوره وأحد جناحيه منغمس في الماء، والآخر منتشر كالقِلْع. وأكثر من يعتني بتربيته أهل مصر ويتغالون في ثمنه ويحتفلون بأمره، حتى ينتهي ثمن جِده إلى ألف درهم بعد أن يباع كلُّ عشرة منها بدرهم وأرخص. وهو صُنْفان: رَبِيعِي وطَرْمَاهِي، فالرَّبِيعِي القادم الراحل. والطَّرمَاهِي القاطن في الأرض والبلاد الخصيبة، وَيَبِيض وَيُقَرِّخُ فيها كالحَجَل. وسببُ مُغالاتهم في أثمانها لأجل كثرة صياجها وعدد أصواتها. وقد وُجد فيها ما صاح في الليلة الواحدة إلى الثانية من النهار أربعة آلاف وستمائة صوت. والصوت عندهم أن يُفَصِّلَ بينه وبين الصوت الثاني بسكّته. وهم في تربيته يبدؤون بإطعامه دُقاق القمح (وهو القمح الصغير الذي لا يُمسكه الغُزبال لِصِغَرِهِ) مدّة شهر؛ وتكون ذلك الوقت مجتمعة في قَفص كبير يسمّونه «المرح»؛ ثم يُفَرَّد بعد ذلك كلُّ سُمائِي بمفرده في قفص ويُطْعَم الدُّخْن^(١) والشاذائِق^(٢). ويصبح في مبتدأ أمره مقدار شهر ثم يسكت مدّة شهرين. ويُنْقَلُ إلى أقفاصٍ أُخرٍ يعتنون بجودتها ويرفعونها على البراريذ (والبراريذ عَصِيٌّ تُعَلَّقُ عليها الأقفاص) فيصبح بعد تلك السكّته أربعة أشهر. فإذا دخل فصل الخريف وهبط الماء سكت مدّة شهرين وتَقَرَّصَ^(٣)، ثم يصبح أحياناً ويسكت أحياناً. وهو لا يطولُ عمره أكثر من سنة ونصف. وأوّل ما يصيح قبل أن يتفصّح بالوَعُوْعَة، وحكاية صوته: «وَعْ وَعْ»؛ ثم يصيح بعد ذلك: «شَفْشَلَقْ».

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا في كتاب الأدوية المفردة: إنه يُخاف من أكل لحوم السُمائِي من التمدّد والتشّنج.

وأما الهُدْهُدُ وما قِيلَ فِيهِ - والهدْهُدُ طائرٌ معروف. وقال الجاحظ فيه: والعرب كانوا يزعمون أن القُنْزَعَةَ^(٤) التي على رأسه ثوابٌ من الله عزّ وجلّ على ما كان من بَرّةٍ لأمّه، لما ماتت جعل قبرها في رأسه؛ فهذه القُنْزَعَةُ عَوْضٌ عن تلك الوَهْدَة. وهو طائر مُتَنِيٌّ البَدَنِ من جوهره وذاته. والأعراب يجعلون ذلك الثَّنَّ شيئاً خامرَه بسبب تلك الحَيَافَةِ التي كانت على رأسه. ويستدلّون على ذلك بقول أميّة بن أبي الصَّلْت حيث يقول من أبيات: [من الكامل]

(١) الدُّخْن: نبات عشبي من النجيليات، حبه صغير أملس كحب السمسم.

(٢) الشاذائِق: بزر العنب.

(٣) الباز المقرنص: المقتنى للاصطياد، أو ما ربط من الطير ليسقط ريشه، وقرنس الديك (باب السين): أي هرب من ديك آخر.

(٤) القنزعَة: الريش المجتمع في رأس الديك.

غَيْمٌ وَظُلْمَاءٌ وَغَيْثٌ سَحَابَةٌ أَزْمَانٌ كَقَنْ وَأَسْتِرَادُ الْهُدْهُدُ
يَبْغِي الْفِرَارَ لِأُمِّهِ لِيُجِئَهَا فَبْنَى عَلَيْهَا فِي قِفَاهِ يَمْهَدُ
مَهْدًا وَطِيئًا فَاسْتَقَلَّ بِحَمْلِهِ فِي الطَّيْرِ يَحْمِلُهَا وَلَا يَتَأَوَّدُ
مِنْ أُمِّهِ فَجَزَى بِصَالِحِ حَمْلِهَا وَلَدًا وَكَلَّفَ ظَهْرَهُ مَا يَغْقِدُ
فَتَرَاهُ يُدْلِجُ مَاشِيًا بِجَنَازَةٍ بِقِفَاهِ مَا اخْتَلَفَ الْجَدِيدُ الْمُسْنَدُ

وزعم صاحب الفراسة: أن سبب نثته أنه يطلب الزبل؛ فإذا وجده نقل منه وأبتنى بيتاً منه؛ فإذا طال مكثه في ذلك البيت، وفي مثله ولد، اختلط ريشه وبدنه بتلك الرائحة فورث أبه الثنن، كما ورثه هو من أبيه، وكما ورثه أبوه من جدّه. قال شاعر:

وَأَثْنَنَ مِنْ هُذْهِدٍ مَيَّتٍ أَصِيبَ فَكُفَّنَ فِي جَوْرَبٍ

ويقال عنه: إنه يرى الماء في باطن الأرض كما يراه الإنسان في باطن الزجاج. وزعموا: أنه كان دليل سليمان عليه السلام على الماء ولذلك تفقده، على أحد أقوال المفسرين لكتاب الله تعالى.

وقال الجاحظ فيه: إنه وفّي حفوظ؛ وذلك أن الذكر إذا غابت عنه أنثاه لم يأكل ولم يشرب، ولا يزال يصيح حتى تعود إليه، فإن لم تعد لا يسفد بعدها أنثى أبداً، ولا يزال يصيح عليها ما عاش، ولم يتل بعدها من طعام بل ينال منه ما يمسك رمقه.

ووصفه أبو الشيص^(١) فقال: [من البسيط]

لَا تَأْمَنَنَّ عَلَى سَرِيٍّ وَسِرْكُمُ غَيْرِي وَغَيْرِكَ أَوْ طَيِّ الْقِرَاطِيسِ
أَوْ طَائِرٍ سَأَجْلِيهِ وَأَنْعَثُهُ مَا زَالَ صَاحِبَ تَنْقِيرٍ وَتَذْسِيسِ
سُودٍ بَرَائِثُهُ مِيلَ ذَوَائِبِهِ صُفْرِ حَمَالِقِهِ فِي الْحَسَنِ مَغْمُوسِ
قَدْ كَانَ هَمٌّ سَلِيمَانٍ لِيَذْبَحَهُ لَوْلَا سِعَايَتُهُ فِي مُلْكٍ بِلْقِيسِ
وقال آخر من أبيات: [من البسيط]

كَأَنَّهُ إِذْ أَتَاهُ مِنْ قُرَى سَبَاٍ مُبَشِّرًا قَدْ كَسَاهُ تَاجَ بِلْقِيسِ
يَبْدُو لَهُ فَوْقَ ظَهْرِ الْأَرْضِ بَاطِنُهَا كَمَا تَبَدَّتْ لَنَا الْأَقْدَاءُ فِي الْكُوسِ^(٢)

وَأَمَّا الْعَقَقُ وَمَا قِيلَ فِيهِ - وَيَسْمَى الْعَقَقُ أَيْضًا «كُنْدُشًا»، وَهُوَ طَائِرٌ لَا يَأْوِي

(١) هو محمد بن عبد الله بن رزين وهو ابن عم دعبل بن علي بن رزين الشاعر، وكان في زمن الرشيد: وقد رثاه بعد موته. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٣٧).

(٢) المراد بقوله: «الکوس» الكؤوس، واحدها كأس.

تحت سَفَفٍ ولا يَسْتَظِلُّ به، بل يُهَيِّئُ وَكَرَّهَ في المواضع المشرفة الفسيحة. وفي طبعه الزُّنَا والخيانة والسرقة والخُبْثُ؛ والعرب تَضْرِبُ به المثل في ذلك كله. وإذا باضت الأنثى أَخَفَّتْ بيضها بورق الدُّلْبِ خوفاً عليه من الخُفَّاش، فإنه متى قَرَبَ منه مَذِرٌ^(١) وفسد وتغير من ساعته. وتقول العرب في أمثالها: «أَمَوْقٌ من عَفَقَقٍ». وهو شديد الاستلاب والاختطاف لما يراه من الحَلْيِ الثمين. قال إبراهيم الموصليّ فيه: [من المتقارب]

إذا بَارَكَ اللُّهُ في طَائِرٍ فلا بَارَكَ اللُّهُ في العَفَقَقِي
قصيرُ الدُّنَابِي طویلُ الجناح متى ما يَجِدُ غَفْلَةً يَسْرِقُ
يُقَلِّبُ عَيْنَيْنِ في رأسه كأنهما قَطَرَتَا زُنْبَقِي

وكان سببُ قوله لهذا الشعر فيه ما حكاه إسحاق بن إبراهيم قال: كان لي عَفَقَقٌ وأنا صبيٌّ قد رَبَّيْتُهُ، وكان يتكلَّم بكلِّ شيءٍ يسمعه؛ فَسَرَقَ خاتَمَ ياقوتٍ كان أبي قد نَزَعَهُ من إصْبَعِهِ ودخلَ الحَلَاءَ ثم خرج فلم يجده، فضرب الغلام الذي كان واقفاً، فلم يَقِفْ له على خبر. فبينما أنا ذات يوم في دارنا إذ أبصرت العَفَقَقَ قد نَبَشَ تُراباً وأخرج الخاتَمَ منه، فَلَعِبَ به طويلاً ثم دَفَنَهُ؛ فأخذته وجئتُ به إلى أبي، فَسَرَّ به وقال هذا الشعر.

وأما العَصَافِيرُ وَمَا قِيلَ فِيهَا - والعصافير ضروبٌ كثيرةٌ: منها «العصفور البيوتي» و«عصفور الشوك»، و«عصفور التَّوْفَر»، ومن ضروبها «الْقُبْرَةُ» و«حَسُونُ» و«البُلْبُل».

فأما العصفور البيوتي - ففي طباعه اختلافٌ: ففيه من طبائع سباع الطير أنه يُلْقِمُ فِرَاحَهُ ولا يَرْفُهَا، وَيَصِيدُ أجناساً من الحيوان كالثُمَّلِ إذا طار والجراد، ويأكل اللَّحْمَ. والذي فيه من طباع بهائم الطير أنه ليس بذِي مَخْلَبٍ ولا مَنَسَرٍ؛ وهو إذا سقط على عُوْدٍ قَدَّمَ أصابعه الثلاثَ وآخرَ الذَّابِرَةَ؛ وسباعُ الطير تُقَدِّمُ أصبعين وتؤخِّرُ إصبعين؛ ويأكل الحَبَّ والبَقُولَ. وَيَتَمَيَّزُ الذَّكَرُ منها من الأنثى بِلُحْيَةٍ سوداء. وهو لا يعرف المشي وإنما يرفع رجله ويثب. وهو كثيرُ السَّفَادِ، وربما سَفِدَ في الساعة الواحدة خمسين مرةً، ولذلك عمره قصيرٌ فإنه لا يُعَمَّرُ غالباً أكثرَ من سنةٍ؛ وإنَّها تُعَمَّرُ أكثرَ من ذكورها. والمثل يُضْرَبُ في التحقير والتصغير بأحلام العصافير.

قال دُرَيْدُ بن الصَّمَّةِ:

يا آلَ سَفِيانَ ما بالي وبِالْكُمِ أنتم كبيرٌ وفي الأحلام عصفورٌ

وقال حسان بن ثابت:

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن عِظَمٍ جِسْمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ
وأما عصفور الشوك - فزعم أرسطو أنَّ بينه وبين الحمام عداوةً، لأنَّ الحمامَ إذا
كان به دَبَرٌ حَكَّهُ بالشوك الذي يأوي إليه هذا العصفورُ فيقتله؛ وربما نَهَقَ الحمامُ فتسقط
فراخه أو يبيضه خوفاً منه؛ فلذلك هذا العصفور إذا رأى الحمامَ رَفَرَفَ فوق رأسه وعلى
عنقه وآذاه ونَقَرَه في عَقَرِه أنَّى كان.

وأما عصفور التِّلْوَر - وهو لا يوجد غالباً إلا بَشْغَرِ دِمياط^(١)، وشأنه غريب؛
وذلك أنه عصفورٌ صغير جداً، فإذا كان قبل غروب الشمس جاء إلى بَرَكِ التِّلْوَر فيجد
التِّلْوَرَة وهي طافحةٌ على وجه الماء مفتوحة فيقعده في وسطها، فإذا حصل فيها أنطبقت
عليه وأنغمست في الماء طوال الليل؛ فإذا طلعت الشمس طَفَّت التِّلْوَرَة على وجه الماء
وأنفتحت، فيخرج منها ويطير إلى غروب الشمس، فيأتي ويفعل كفعله.

وأما الثُّبْرَة - فقد عُدَّوها من أنواع العصافير. وهي غَبْرَاءٌ كبيرة المتقار على رأسها
قُبْرَة. وهذا الضرب قاسي القلب. وفي طبعه أنه لا يَهْوُلُه صوت صائح به، ورُبُّما رُمِيَ
بالحجر فاستخفَّ بالرامي ولَطِىءَ إلى الأرض حتى يتجاوزَه الحجرُ، وهو يَضَعُ وَكْرَه
على الجَادَّةِ رغبةً في الأُنس بالناس.

وأما حَسُونٌ - وتُسميه أهل الأندلس «أم الحسن» والمصريون «السقاية» لأنه إذا
كان في القفص أَسْتَقَى الماء من إناء بآلَةٍ لطيفة يُوضَعُ له فيها خيطٌ، فتراه يَرْفَعُ الخيطَ
بإحدى رجليه ويضعه تحت رجله الأخرى حتى يصل إليه ذلك الإناء اللطيف فيشرب
منه. وهو ذو ألوان حسنة التركيب والتأليف من الحمرَة والصفرة والسواد والبياض
والخضرة والزُرْقَة. وله صوتٌ حسنٌ مُطَرَّبٌ. ووصفه أبو هلال العسكري فقال:

وَمُفْتَنَّةُ الْأَلْوَانِ بَيْضٌ وَجُوهُهَا وَثَمَرٌ تَرَاقِيهَا وَصَفَرٌ جُئُوبُهَا^(٢)

كَأَنَّ ذَرَارِيْعاً عَلَيْهَا قَصِيرَةً مُرَقَّعَةً أَعْطَافُهَا وَجُيُوبُهَا^(٣)

وأما البُلْبُل - وهو «العندليب»، وتُسميه أهل المدينة «الثَّغَر». وهو طائرٌ أغبرُ
الرأس لطيف القَدِّ، مأواه الشجرُ.

قال الجاحظ: البلبل موصوفٌ بحسن الصوت والحنجرة، ومن شأنه إذا كان غيرَ

(١) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم والملح والنيل، مخصوصة بالهواء الطيب وعمل ثياب الشرب الفاخر، وهي ثغر من ثغور الإسلام. (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الجنوب: واحدتها الجنب، وهي الناحية، أو الشق من كل شيء.

(٣) الداراي: واحدتها دراعة، وهي جبة مشقوقة المقدم.

حاذق أن يطارحه إنسان بشكل صوته، فيتدرب ويتعلم ويحسن صوته. وقد وصف أبو هلال العسكري البلابل فقال: [من الطويل]

مررتُ بدُكْنِ القُمْصِ سُوْدِ العمائم تُغَيِّي على أطراف غِيْدِ نواعِم^(١)
زُهَيْنَ بأصداغ تَرُوق كَأَنَّها نجوْمٌ على أَعْضَادِ أُسُوْدٍ فَاجِمِ
تَرى ذهاباً مِنْهُنَّ تحت مَآخِرِ لها وَلُجَيْنَا نُطْنَه بِالْقَوَادِمِ
وقال آخر: [من الخفيف]

كيف أَلْحَى وقد خَلَعْتُ على الله و عِذارِي وقد هَتَكْتُ قِنَاعِي
وتعَشَّقْتُ بلبلاً أَنَا مِنْهُ في أَنْزَعاجٍ إِلَى الصُّبَا وَالتِّياعِ^(٢)
أَنَا مِنْ ريشه المَدْبُجِ في زَهْفٍ بِرٍ مِنْ شَجْوِ صوته في سَمَاعِ

ومن رسالة ذكرها العِمَادُ الأصفهانيُّ الكاتب في الخريدة، وهي لبعض فضلاء أصبهان، ذكر فيها وصفَ الرِّياضِ ومفاخرةَ الرِّياحين، وفضلَ فيها الورد، وأنتهى بعد ذكر الورد إلى وصف البلابل، فقال:

«فلما أرتفع صدرُ الثَّهَارِ، وأنقطعَ جدالُ الأزهار؛ سُمِعَ من خَلَلِ الحديقة زَفْرَقَةٌ^(٣) عَنْدَلِيبٍ، قد آتخذَ وَكْرًا على حاشية قَلِيبٍ^(٤)؛ كان يستتر به عن الجمع، ويجعله دريعةً لاستراق السَّمْعِ. وحين أنقن ما وعاه، وأودَّعَه سمعَه وأزعاه؛ انتحى عُصْنًا رطيبًا، فأوقى عليه خَطِيبًا، ثم قال: يا فتنة الخَلِيقَةِ، لقد جئتِ بالشُّعَاءِ الفَلِيقَةِ^(٥)؛ وربَّ بَسْمِ أَسْتَحَالَ أحتدامًا، ولن تَغْدَمَ الحسَناءَ ذاما. إلَامَ تَرُقُلُ في دَلالِ زَهْوِكَ، وتغفلُ عن رذائلِ سهوك! وَحَتَّامَ تَتِيهَ على الأكفاء والأقران، كَأَنَّكَ أَنْتَ صاحبُ القرآن! أَلَسْتُ مِنْ عُجْبِكَ بِنَفْسِكَ، وأسترابتكِ بأبناء جِنْسِكَ؛ لا تزالِ مشتملاً شَوْكَ الغصون، معتصماً منها بأشباه المعازل والحصون! لكنكِ متى أنقضى مَهَبُ الشَّمالِ، وعَدَلُ عن اليمين إلى الشَّمالِ؛ خِيفَ عليك نَفْحُ الإحراق، وتعرَّيتِ من حُلُلِ الأوراقِ؛ وأصبحتِ للأرضِ فِرَاشًا، وتَلَعَبَ بك الهواءُ فَعُدْتَ قَراشًا. ثم ما قدرَ جَوْرَتِكَ حتى تجور! وهل ينتج حضوره إلا الفجور! هذا إذا كنتم على الأصل الثابت، وعُرفتم في

(١) الدكن: جمع دكناء، وهي ما يميل إلى السواد، أو إلى اغبرار اللون.

(٢) الناع القواد: احترق من الشوق أو الهم.

(٣) الزفركة: صدح الطائر عند الصبح.

(٤) القليب: البثر.

(٥) الفليقة: الأمر العجب والداهية.

(٦) النهجوري، نسبة إلى النهبور: جمع النهاير، وهي جبال ورمال مشرفة.

أكرم المغارس والمنابت؛ فكيف وأنتم بين رَمَلِيَّ وَجَبَلِيَّ، وَنَهْجُورِيَّ^(١) أَوْ تَيْهُورِيَّ^(٢). وَهَبْ أَنْكَ وَزَهْطَكَ تَفَرَّدْتُمْ بِمُمَايَلَةِ الْقُدُودِ، وَتَوَخَّذْتُمْ بِمِشَابِهَةِ الْخُدُودِ؛ وَصِرْتُمْ دَرَرِ الْبَحُورِ، وَغَلَّقْتُمْ عَلَى الْجِبَاهِ وَالتَّحُورِ، وَتَحَوَّلْتُمْ جَمَانًا وَمَرْجَانًا، وَحَلَيْتُمْ مَنَاطِقَ وَتَيْجَانًا؛ أَقْدَرْتُمْ عَلَى مَبَارَاةِ الشَّحَارِيرِ، وَمَجَارَاةِ الْقَمَارِيِ الشَّحَارِيرِ! أَمْ مَلَكَتُمْ تَهْيِيجَ الْبَلَابِلِ^(٣)، قَبْلَ أَصْوَاتِ الْبَلَابِلِ! أَمْ وَجَدْتُمْ سَبِيلًا إِلَى وَلُوجِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ، وَاتَّخَذَ الطَّرْبَ وَالسَّمَاعَ؟! هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ، بَعْدَ عَنْكُمْ مَا فَاتَ! بَلْ نَحْنُ ذَوَاتِ الْأَطْوَاقِ، وَبِنَاتِ الْعُصُونِ وَالْأَوْرَاقِ؛ إِنَّمَا يُكْمِلُ صَيْتُكُمْ بِنَغَمَاتِ أَصْوَاتِنَا، وَيَزْهَوُ غَنَاؤُكُمْ بِصَحَّةِ غَنَائِنَا؛ وَيَحْسُنُ تَمَائُلُ دَوْجِكُمْ بِتَرْتَمِنَا وَنَوْحِنَا، وَيَزُوقُ غَدِيرُكُمْ بِهَدِيرِنَا، وَيَشُوقُ تَهْدِيلُكُمْ بِهَدِيلِنَا. لَمْ تَزَالُوا حَمَلَةً أَثْقَلْنَا، وَمُهَوِّدَ أَطْفَالِنَا؛ وَجِيَادَ شُجْعَانِنَا، وَمَنَابِرَ خَطْبَائِنَا. فُرُوعُكُمْ مَحْطُ أَزْجُلِنَا، وَرَوْوَسُكُمْ مَسَاقِطُ أَرْجُلِنَا. إِذَا أَوْفَى مُطَرِّبُنَا عَلَى عُودِهِ، وَعَبَثَ بِمَلَوَى عُودِهِ؛ وَشَدَّ الْمَثَالِثَ وَالْمِثَالِيَّ، شَدَّ الثَّقِيلِينَ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي؛ فَقَدْ أَحْيَا بِاللَّحْنِ الْأَيْكِيَّ، وَبَنَدَ يَحْيَى الْمَكِّيَّ^(٤)؛ وَأَعَادَ إِبْرَاهِيمَ^(٥)، كَحَاطِبِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ، وَخَرَقَ لَهُ أَثْوَابَ مُخَارِقِ^(٦) طَرَبًا وَحَسَدًا؛ وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ سُلَيْمٌ^(٧) غِيظًا وَكَمَدًا؛ وَأَخَذَ قَلْبَ^(٨) آبِنِ جَامِعٍ بِمَجَامِعِهِ، وَطَوَّقَهُ مِنَ الْإِقْرَارِ غَلًّا بِمَجَامِعِهِ؛ حَتَّى كَأَنَّهُ بِصَحَّةِ ضَرْبِهِ وَإِتْقَانِ أَوْتَارِهِ، يَطْلُبُ عَنْدهُمْ قَدِيمَ أَحْقَادِهِ وَأَوْتَارِهِ: [مِنْ الْخَفِيفِ]

فَهِيَ تُصْبِي الْأَبْصَارَ لَوْنًا قَرِيبًا وَتَسُرُّ الْأَسْمَاعَ ضَرْبًا بَعِيدًا
خَضَبَ الْكَفِّ مِنْ دَمِ الْقَلْبِ وَأَبْتَزَ سُدَّ وَيَدَاءَهُ فُطُوقَ جِيدًا
أَعْجَمِيَّ اللِّسَانَ مُسْتَعْرِبُ اللَّحْدِ مِنْ يُعِيدُ الْخَلِيَّ صَبًّا عَمِيدًا
كُلَّ وَقْتٍ تَرَاهُ مِنْ قَزْطِ شَجْوٍ مُظْهِرًا فِي الْغِنَاءِ لَحْنًا جَدِيدًا
تَارَةً يَجْعَلُ النَّشِيدَ بَسِيطًا وَيُعِيدُ الْبَسِيطَ طَوْرًا نَشِيدًا

(١) التيهوري، نسبة إلى تيهور: وهو من الرمل ما له جرف.

(٢) البلابل: الأشجان.

(٣) يحيى المكي: هو يحيى بن مرزوق مولى بني أمية، وكان يكتم ذلك لخدمته الخلفاء من بني العباس خوفًا من أن يجتنبوه. (الأغاني ٦: ١٦).

(٤) هو إبراهيم الموصلي، المغني المشهور. (الأغاني ٥: ١٥٤).

(٥) هو مخارق بن يحيى الجزار، المغني، كان أبوه جزاراً مملوكاً لعاتكة بنت شهدة، وهي من المغنيات المحسنات المتقدمات في الضرب. (الأغاني ٢١: ٢٢٠).

(٦) هو سليم بن سلام الكوفي، يكنى أبا عبد الله، وكان حسن الوجه حسن الصوت. (الأغاني ٦: ١٢).

(٧) هو أبو القاسم إسماعيل بن جامع، وهو من قريش.

مَغْبَدٌ لَوْ رَأَاهُ أَصْبَحَ عَبْدًا وَلَيْبِدٌ أَمْسَى لَدَيْهِ بَلِيدًا
ضَلَّ عَنْ إِلْفِهِ وَأَقْلَقَهُ الْوَجْدُ دُفَامْسَى بِكَأُوهُ تَغْرِيدًا
لَوْ عَارِضَ الْخَلِيلِ^(١) فِي عَرُوضِهِ لِبَكَّتِهِ، أَوْ نَاطَرَ أَبْنَ السُّكَيْتِ^(٢) فِي إِصْلَاحِهِ
لِسَكَّتِهِ؛ أَوْ جَادَلَ الْفَارَسِيَّ^(٣) لَفَرَسِهِ وَجَدَلَهُ، أَوْ نَازَلَ الْكُوفِيَّ لِأَكْفَاهُ عَنْ رُثْبَتِهِ وَأَنْزَلَهُ.

البَابُ الرَّابِعُ مِنَ الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْفَنِّ الثَّالِثِ فِي بُعَاثِ الطَّيْرِ

ويشتمل هذا الباب على ما قيل في القُمْرِيِّ، والدُّبْسِيِّ، والوَرَشَانِ، والفَوَاحِثِ
والشُّفْنِيِّينَ، واليعتبط، والنُّوَّاحِ، والقَطَا واليَمَامِ وأصنافه، والبيَّغَاءِ. وهذه الأصناف قد
عَدَّهَا أَبُو عِثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرِ الْجَاحِظِ أَوْ أَكْثَرَهَا فِي الْحَمَامِ، فَقَالَ: الْحَمَامُ وَخَشِيَّةٌ،
وَأَهْلِيَّةٌ، وَبُيُوتِيَّةٌ، وَطُورَانِيَّةٌ، وَكُلُّ طَائِرٍ يُعْرَفُ بِالنُّوَّاحِ وَحَسَنِ الصَّوْتِ وَالِدَعَاءِ
وَالْتَّرَجِيعِ، فَهُوَ حَمَامٌ وَإِنْ خَالَفَ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الصُّورَةِ وَاللَّوْنِ وَفِي بَعْضِ النُّوْحِ
وَلَحْنِ الْهَدِيدِ.

قَالَ: وَزَعَمَ أَفْلِيْمُونُ^(٤) صَاحِبُ الْفِرَاسَةِ أَنَّ الْحَمَامَ يُتَّخَذُ لَضُرُوبٍ، مِنْهَا مَا يُتَّخَذُ
لِلْأُنْثَى وَالنِّسَاءِ وَالْبَيْوتِ، وَمِنْهَا مَا يُتَّخَذُ لِلْفِرَاحِ، وَمِنْهَا مَا يُتَّخَذُ لِلزُّجَالِ وَالسَّبَاقِ.
وَالزُّجَالُ: إِرْسَالُ الْحَمَامِ الْهَوَادِي. ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ أَوْصَافِ الْحَمَامِ وَمَا فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ
الْمَعْرِفَةِ وَالْمَنَافِعِ مَا نُورِدَهُ عِنْدَ ذِكْرِنَا لِلْحَمَامِ الْمَشْتَهَرِ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ، وَهُوَ الَّذِي أَشَارَ
الْجَاحِظُ إِلَيْهِ. فَلْنَذْكُرْ تَفْصِيلَ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ، فَنَقُولُ بِإِلَهِهِ التَّوْفِيقِ:

أَمَّا الْقُمْرِيُّ وَمَا قِيلَ فِيهِ - فَقَدْ قَالُوا: إِنَّمَا سُمِّيَ الْقُمْرِيُّ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ لِبَيَاضِهِ،
وَالْأَقْمَرُ: الْأَبْيَضُ. وَحِكَايَةُ صَوْتِهِ تَشْبَهُ ضَحْكَ الْإِنْسَانِ. وَهُوَ شَدِيدُ الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ.
أَمَّا مَوَدَّتُهُ فَإِنَّهُ يُفَرِّخُ عَلَى قَتَنِ^(٥) مِنْ أَفْنَانِ شَجَرَةٍ عَلَيْهَا أَعْشَاشٌ لِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ، فَيَصَابِحُهَا

(١) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم.

(٢) هو يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت. كان عالماً بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة
والشعر وله تصانيف كثيرة.

(٣) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار أبو علي الفارسي، واحد زمانه في علم العربية، كان أستاذاً لابن
جني وكانت وفاته سنة ٣٧٧ هجرية.

(٤) أفليمون: كان فاضلاً كبيراً عالماً في فن من فنون الطبيعة وكان معاصراً لبقراط.

(٥) القطن: الغصن المستقيم من الشجرة.

في كلِّ يوم . وأمَّا رحمته فإنه يرَبِّي ولده وَيَعِفُّ عن أنثاه ما دام ولده صغيراً . ومن عادته أنه يعمل عُشَّهُ في طَرْفِ قَنْنٍ دائمِ الاهتزاز ، احترازاً على فرخه لئلا يسعى إليه من الحيوان الماشي ما يقتله .

وقال أبو الفتح كُشَّاجِم يصفه من أبيات رثاه بها أولها :

ومطوَّقٍ من حسن صَنعة ربه طوقين خِلْتُهما من الثُّوَارِ
منها :

لَهْفِي على القُمْرِي لَهْفاً دائماً يَكْوِي الحَشَا بِجَوَى كَلْدُوعِ النارِ
لَوْنُ الغمامَةِ لَوْنُهُ وَمُنَاسِبٌ فِي خَلْقِهِ الأَقْلَامُ بِالْمَنْقَارِ
وَأَمَّا الدُّبْسِيُّ وما قيل فيه - وإنما سُمِّي الدُّبْسِيُّ بذلك للونه ، لأنَّ الدُّبْسَةَ حمرةٌ في سواد . قالوا : والدُّبْسِيُّ أصناف ، منها المصري ، والحجازي والعراقي . وأفخر هذه الأصناف المصري ولونه الدكنة . وهو لا يُرى ساقطاً على وجه الأرض ، بل له في الشتاء مَشْتَى ، وفي الصيف مَصِيفٌ . ولا يُعرف له وكر .

وَأَمَّا الْوَرَشَانُ وما قيل فيه - والورشان أصناف منها الثُّوبِي وهو ورشان أسود ؛ ومنها الحِجَازِي . والنوبي أشجأها صوتاً . وهذا الطائر يوصف بالحُثُو على أولاده ، حتى إنه ربما قتل نفسه إذا رآها في يد القانص .

وقال أبو بكر الصُّنَوْبَرِي فيه : [من الخفيف]

أنا في نزهتين من بستانِي حين أخلو به مِن ورشَانِ
طائرُ قلبُ مَنْ يَغْنِيهِ أُولَى مِنْهُ عِنْدَ الْغِنَاءِ بِالطَّيْرَانِ
مُسْمِعٌ يُودِعُ الْمَسَامِعَ ما شا عت وما لم تشأْ من الأَلْحَانِ
في رداءٍ من سَوْسَنِ وقَمِيصٍ زَرَزْتَهُ عَلَيْهِ تَشْرِينَانِ
قد تَعَشَّى لَوْنُ السَّمَاءِ قَرَاه وتراءى في جِيده الْفَرْقَدَانِ^(١)

وَأَمَّا الْفَوَاحِشُ وما قيل فيها - والفواخِشُ عراقيةٌ ليست حجازية . وفيها فصاحةٌ وحسنُ صوت . وفي طبعها أنها تأنِّس بالناس ، وتُعَشِّشُ في الدُّور . والعرب تضربُ بها في الكذب المثل ، فيقولون : «أكذبُ من فاختة» ؛ فَإِنَّ حكاية صوتها عندهم : «هذا أوانُ الرُّطْبِ» . قال شاعرٌ :

أكذبُ من فاختة تقول وسط الكَرَبِ

وَالطَّلْعُ لَمْ يَبْدُ لَنَا هَذَا أَوْأَنَّ الرُّطْبَ
وهو يُعَمَّر . وحكى أرسطو أن منه ما عاش أربعين سنة .

وقال أبو هلال العسكري : [من الطويل]

مَرَرْتُ بِمَطْرَابِ الْعَدَاةِ كَأَنَّهَا تَعَلَّ مِنَ الْإِشْرَاقِ رَاحاً مُقْلَقاً^(١)
مُتَمَرَّةً كَذَرَاءٍ تَحْسَبُ أَنَّهَا تُجَلَّلُ مِنْ جِلْدِ السَّحَابِ مُفَضَّلاً
بَدَتْ تَجْتَلِي لِلْعَيْنِ طَوْقاً مَمْسُكاً وَطَرْفاً كَمَا تَرْنُو الْغَزَالَةَ أَكْهَلاً
لَهَا ذَنْبٌ وَافِي الْجَوَانِبِ مِثْلَمَا تُقَشِّرُ طَلْعاً أَوْ تَجْرُدُ مُنْضَلاً
إِذَا حَلَقَتْ فِي الْجَوْ خِلَتْ جَنَاحَهَا يَرُدُّ صَفِيرًا أَوْ يَحْرُكُ جُلْجُلًا^(٢)

وأما الشُّفْنَيْنِ وما قيل فيه - والشُّفْنَيْنِ من الطير التي تترنم؛ وصوته في ترنمه يُشْبِهُ صَوْتَ الرَّبَابِ^(٣) . وفي طبعه أنه إذا فقد أنثاه لم يَزَلْ أَغْزَبَ، يَأْوِي إِلَى بَعْضِ فِرَاحِهِ حَتَّى يَمُوتَ؛ وكذلك الْأُنْثَى إذا فَقَدَتِ الذَّكَرَ . وهو متى سَمِنَ سَقَطَ رِيشُهُ وَأَمْتَنَعَ مِنَ السَّفَادِ؛ فَهُوَ لِذَلِكَ لَا يَشْبَعُ . وهو طائر يؤثرُ الْعُرْلَةَ .

وأما اليعتبط وما قيل فيه - وإنما سَمِّيَ اليعتبط بهذه التسمية لصوته، وهو شريف في طيور الحجاز . وحاله حال الْقُمْرِيِّ، ولكنه أَحَرُّ مِنْهُ مِزَاجاً وَأَعْلَى صَوْتاً . قال كُشَاجِمُ:

وَنَاطِقِي لَمْ يَخْشَ فِي النَّطْقِ غَلَطٌ مَا قَالَ شَيْئاً قَطُّ إِلَّا يَعْتَبِطُ

وأما النَّوَاحُ وما قيل فيه - والنَّوَاحُ: طائر كَالْقُمْرِيِّ، وحاله كحاله؛ إِلَّا أَنَّهُ أَحَرُّ مِنْهُ مِزَاجاً وَأَرْطَبُ وَأَدْمَتْ وَأَشْرَفُ . قالوا: يَكَادُ النَّوَاحُ يَكُونُ لِلْأَطْيَارِ الدِّمَّةِ مَلِكاً، وَهُوَ يَهْيِجُهَا إِلَى التَّصْوِيتِ لِأَنَّهُ أَشْجَاهَا صَوْتاً؛ وَجَمِيعُهَا تَهْوِي أَسْتِمَاعَ صَوْتِهِ، وَهُوَ أَيْضاً يَسْرُهُ أَسْتِمَاعُ صَوْتِ نَفْسِهِ . والله أعلم بالصواب .

وأما الْقَطَا وما قيل فيه - والقطا نوعان: «كُذْرَيٌّ» و«جُونِيٌّ»، وَالْكُذْرِيَّةُ غُبْرُ الْأَلْوَانِ، رُقْشُ الظُّهُورِ وَالْبَطُونِ، صُفْرُ الْخُلُوقِ، قِصَارُ الْأَذْنَابِ؛ وَهِيَ الْطُفُّ مِنَ الْجَوْنِ . وَالْجُونِيَّةُ سُودُ بَطُونِ الْأَجْنَحَةِ وَالْقَوَادِمِ بَيْضُ اللَّبَانِ^(٤) وَفِيهِ طَوْقَانِ أَسْوَدُ

(١) الراح: الخمر .

(٢) الجلجل: الجرس الصغير .

(٣) الرباب: آلة وترية شعبية ذات وتر واحد .

(٤) اللبان: الصدر .

(٥) الغتمة: العجمة في المنطق .

وأصفر؛ وظهورها غُبْرٌ رُقْطٌ تعلوها صفرة. وتسمى الجُونِيَّةُ غُتْمًا^(١)؛ لأنها لا تُفْصِح بصوتها إذا صَوَّتَتْ إنما تُعْزِرُ بصوتٍ في حَلْقِها. والكَذْرِيَّةُ فصِيحةٌ تنادي بأسمها تقول: قَطَا قَطَا؛ ولهذا يُضْرَبُ بها المثلُ في الصدق. وتُوصَفُ القِطَا بحسن المشي لِتَقَارُبِ خُطَاها. والعرب تشبّه مشيَ النِّسَاءِ الحَفِرَاتِ بمشيها إذا أرادوا مدْحَهْنَ. قال شاعر يصف القِطَاةَ - وأُخْتِلِفَ في الشاعر من هو، فقليل: هو أَوْسُ بنِ غَلَفَاءِ الهُجَيْمِيِّ، وقيل: مُزَاجِمُ العُقَيْلِيِّ، وقيل العباس بن يزيد بن الأسود الكِنْدِيِّ، وقيل: العُجَيْرُ السُّلُولِيُّ، وقيل: عمرو بن عقيل بن الحجاج الهُجَيْمِيِّ؛ قال أبو الفرج الأصفهاني: وهو أصحُّ الأقوال -: [من البسيط]

أَمَّا الْقِطَاةُ فَإِنِّي سَوْفَ آتَعْتُهَا	نَعْتًا يُوَافِقُ نَعْتِي بَعْضُ مَا فِيهَا
سَكَّاءَ مَخْطُوبَةٍ فِي رِيشِهَا طَرَقَ	سُودٌ قَوَادِمُهَا صُهْبٌ خَوَافِيهَا ^(٢)
مِنْقَارُهَا كَنَوَاةِ الْقَسْبِ قَلَمُهَا	بِمَبْرَدٍ حَازِقُ الْكَفِّينِ بَارِيهَا ^(٣)
تَمْشِي كَمْشِي فَتَاةِ الْحَيِّ مُسْرَعَةً	حِذَارَ قَوْمٍ إِلَى سِتْرِ يُوَارِيهَا
تَسْقِي الْفَرَاحَ بِأَفْوَاهِ مَرْقَقَةٍ	مِثْلَ الْقَوَارِيرِ سُدَّتْ مِنْ أَعَالِيهَا
كَأَنَّ هَيْدَبَةً مِنْ فَوْقِ جُؤْجُوجِهَا	أَوْ جِرَؤَ حَنْظَلَةٍ لَمْ يَغْدُ رَامِيهَا ^(٤)

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي: [من الكامل]

وَلَرُبَّ طَيَّارٍ خَفِيفٍ قَدْ جَرَى	فَسَلَا بِجَارٍ خَلَفَهُ طَيَّارٍ
مِنْ كُلِّ قَاصِرَةِ الْخُطَا مُخْتَالَةٍ	مَشْيِ الْفَتَاةِ تَجَرُّ فُضْلَ إِزَارٍ
مَخْضُوبَةِ الْمِنْقَارِ تَحْسِبُ أَنَّهَا	كَرَعَتْ عَلَى طَمَإٍ بِكَأْسِ عُقَارٍ
لَا تَسْتَقَرُّ بِهَا الْأَيَادِي خَشِيَةً	مِنْ لَيْلٍ وَنِيلٍ أَوْ نَهَارٍ بَوَارٍ

وقال المَرَّارُ أَوْ الْعَكْبُ التَّغْلَبِيُّ - وهي أجود قَصِيدَةٍ قِيلَتْ فِي الْقِطَا: [من الطويل]

بِلَادُ مَرْوَرَةٍ يَحَارُّ بِهَا الْقِطَا	تَرَى الْفَرْخَ فِي حَافَاتِهَا يَتَحَرَّقُ ^(٥)
يَظَلُّ بِهَا فَرْخُ الْقِطَاةِ كَأَنَّهُ	يَتِيَمٌ جَفَا عَنْهُ مَوَالِيهِ مُطَّرَقُ

(١) السكك: صغر الأذن ولصوقها بالرأس. والمخطوبة: التي لونها يضرب إلى الكدرة مشرب حمرة في صفرة - وطرق الريش: أي أن يغطي الريش الأعلى منه الأسفل.

(٢) القسب: التمر اليابس الصلب النواة.

(٣) الهيدب: خمل الثياب وهديه - والجرو: الصغير من الحنظل.

(٤) المرورة: المفازة التي لا شيء فيها.

(٥) الديمومة: المفازة الدائمة البعد.

- بِدَيْمُومَةٍ قَدْ بَاتَ فِيهَا وَعَيْنُهُ عَلَى مَرِّهِ تُغْضِي مَرَاراً وَتَرْمُقُ (١)
 شَبِيهَ بِلَا شَيْءٍ هُنَالِكَ شَخْصُهُ يُوَارِيهِ قَيْضٌ حَوْلَهُ مُتَقَلِّقُ (٢)
 لَهُ مَخْجَرٌ نَابٍ وَعَيْنٌ مَرِيضَةٌ وَشِدْقٌ بِمِثْلِ الزَّعْفَرَانِ مُخَلَّقُ (٣)
 تُعَاجِيهِ كَخَلَاءِ الْمَدَامِيعِ حُرَّةٌ لَهَا ذَنْبٌ سَاجٌ وَجِيذٌ مُطَوَّقُ (٤)
 سِمَاكِيَّةٌ كُذْرِيَّةٌ عَزْرَعْرِيَّةٌ سُكَاكِيَّةٌ عَفْرَاءٌ سَمْرَاءٌ عَسَلَقُ (٥)
 إِذَا غَاذَرَتْهُ تَبْتَغِي مَا يُعِيشُهُ كَفَاهَا رَذَائِبَاهَا الرُّقِيعُ الْهَبَّتُقُ (٦)
 غَدَتْ تَسْتَقِي مِنْ مَنَهْلٍ لَيْسَ دُونَهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْقَطَا مُتَعَلَقُ (٧)
 لَا زُعْبَ مَطْرُوحٍ بِجُوزِ تَنُوفَةٍ تَلْطَى سَمُوماً قَيْظُهُ فَهُوَ أَوْزُقُ (٨)
 تَرَاهُ إِذَا أَمْسَى وَقَدْ كَادَ جِلْدُهُ مِنْ الْحَرِّ عَنْ أَوْصَالِهِ يَتَمَرَّقُ (٩)
 غَدَتْ فَاسْتَقَلَّتْ ثُمَّ وَلَّتْ مُغِيرَةً بِهَا حِينَ يَزْهَاهَا الْجَنَاحَانِ أَوْلَقُ (١٠)
 تَيَمَّمُ صَخْضَاحاً مِنَ الْمَاءِ قَدْ بَدَتْ دَعَامِيصُهُ فَالْمَاءُ أَطْحَلُ أَطْرَقُ (١١)
 فَلَمَّا أَتَتْهُ مُقَدِّحَرًا تَغَوُّثُ تَغَوُّثُ مَخْنُوقٍ فَتَطْفُو وَتَغْرُقُ (١٢)
 تَجَزَّ وَتُلْقِي فِي سِقَاءٍ كَأَنَّهُ مِنْ الْحَنْظَلِ الْعَامِيٍّ جِرْزُ مُعَلَّقُ (١٣)
 فَلَمَّا أَرْتَوَتْ مِنْ مَائِهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا أَنَاءٌ وَقَدْ كَادَتْ مِنَ الرِّيّ تَبْصُقُ (١٤)
 طَمَتْ طَمُوءَةً صُغْدَاءً وَمَدَّتْ جِرَانَهَا وَطَارَتْ كَمَا طَارَ الشَّهَابُ الْمُحَلَّقُ (١٥)

(١) المراه: مرض في العين لترك الكحل - والقبض: قشرة البيضة العليا اليابسة.

(٢) مخجر العين: ما دار بها.

(٣) معاجاة الفصيل: هو أن يرضع بغير لبن أمه إذا كان لا لبن لها أو ماتت.

(٤) سماكية: نسبة إلى السماك، والسماكان: كوكبان نيران - عرعرية: منسوبة إلى العرعر، وهو شجر السرو - السكاكية: منسوبة إلى السكاكة. والسكاكة: الصغير الأذن - والعسلق: الخفيف أو الطويل العنق.

(٥) قيل: الرقيع: هو الكروان، وهو يوصف بالحمق لتركه بيضه واحتضانه بيض غيره.

(٦) الأورق: الذي فيه سواد في غبرة.

(٧) الأولق: الجنون.

(٨) الدعاميص: واحدها دعووص، وهو دويبة، سوداء تكون في الغدران إذا نشأت. الطحلة: لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل كلون الرماد - والطرق: التراكب.

(٩) المقدحز: المتهىء للسباب والشر تراه الدهر منتفخاً شبه الغضببان.

(١٠) طمت: ارتفعت.

ذَكَرُ شَيْءٍ مِّنَ الْأَوْصَافِ وَالتَّشْبِيهَاتِ وَالشُّعْرِيَةِ الْجَامِعَةِ لمجموع هذا النوع الذي ذكرناه

ومن ذلك قول بعض الشعراء: [من الكامل]

وقبلي أبكى كل من كان ذا هوى هتوف البواكي والديار البلاع
وهن على الأفلاق من كل جانب نوائح ما تخضل منها المدامع^(١)
مُزْبِرَجَة الأعناق نمر ظهورها مخطمة بالذر خضر روائح
ترى طرراً بين الخوافي كأنها حواشي برود زنتها الوشائع
ومن قطع الياقوت صيغت عيونها خواضب بالحناء منها الأصابع

وقال أبو الأسود الدؤلي من أبيات: [من البسيط]

وساجع في فروع الأييك هيجني لم أذر لِم ناح مّا بي ولم سجعاً
أباكياً ألقه من بعد فزقته أم جازعاً للنوى من قبل أن تقعا
يدعو حمامته والطيّر هاجعةً فما هجعت له ليلاً ولا هجعاً^(٢)
موشح سندساً خضر مناكبه ترى من المسك في أذياله لمعاً
له من الآس طوق فوق لبتة من البنفسج والخيري قد جمعا^(٣)
كأنما عبّ في مسودّ غالية وحلّ من تحته الكافور فأنثقا
كأن عينيه من حسن أصفرارهما فصان من حجر الياقوت قد قطعا
كأن رجله من حسن أحمرارهما ما رقّ من شعب المزجان فأتسعا
شكا النوى فبكى خوف الأسى فرمى بين الجوانح من أوجاعه وجعا
والريخ تخفضه طوراً وترفعه طوراً فمخفضاً يدعو ومرتفعاً
كأنه راهب في رأس صومعة يتلو الزبور ونجم الصبح قد طلعا

وقال ابن اللبانة الأندلسي^(٤): [من الرجز]

وعلى فروع الأييك شادٍ يختوي طرقي لآخر تحتويه الأضلع

(١) الأفلاق: واحدتها الفلق، وهو المعطن من الأرض بين ربوتين.

(٢) هجع: نام.

(٣) الخيري: نور.

(٤) هو الوزير الأديب أبو بكر بن اللبانة الداني أحد شعراء دولة المعتمد في الأندلس.

يَنْدَى لَهُ رَطْبُ الْهَوَاءِ فَيَغْتَدِي
تَخِذَ الْأَرَاكِ أَرِيكَةً لِمَنَامِهِ
حَتَّى إِذَا مَا هَزَّهْ نَفْسُ الصَّبَا
فَكَأَنَّمَا تِلْكَ الْأَرَاكَةُ مِنْبَرٌ
وَقَالَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ يَصِفُ مُطَوَّقَةً: [من الطويل]

دَعَتْ فَوْقَ سَاقِي دَعْوَةً لَوْ تَنَاوَلْتُ
تُبْكِي بَعِينَ لَيْسَ تُذْزِي دَمَوَعَهَا
مَحَلَّةَ طَرُوقٍ لَيْسَ تُخْشَى أَنْفَصَامُهُ
لَهَا وَشُخٌّ دُونَ التَّرَاقِي وَفَوْقَهَا
تَنَازُعُهَا الْأَلْوَانُ شَتَّى صِقَالُهَا
وَقَالَ شَاعِرٌ أُنْدَلَسِي: [من الطويل]

وَمَا شَاقَنِي إِلَّا أَبْنُ وَزَقَاءِ هَاتِفٍ
مُفْتَقٌ طَوْقٍ لِأَزُورْدِي كُلِّكِلِ
أُدَارَ عَلَى الْيَاقُوتِ أَجْفَانٌ لَوْلُؤٍ
حَدِيدٌ شَبَا الْمِثْقَالِ دَاجٍ كَأَنَّهُ
تَوَسَّدَ مِنْ فَرْعِ الْأَرَاكِ أَرِيكَةً
وَلَمَّا رَأَى دَمْعِي مُرَاقاً أَرَابَهُ
وَحَتْ جَنَاحِيهِ وَصَفَّقَ طَائِراً
وَقَالَ آخَرُ:

كَأَنَّ بَنَحْرَهَا وَالْجَيْدِ مِنْهَا
مَخْطَأٌ كَانَ مِنْ قَلَمٍ لَطِيفٍ
وَقَالَ أَبْنُ الزُّومِي:

مُطَوَّقَةٌ تَبْكِي وَلَمْ أَرِ بَاكِياً
بَدَا مَا بَدَا مِنْ شَجْوِهَا لَمْ يُسَلِّبِ^(٤)

(٢) الأَحْوَى: أَسْوَدٌ مِنْ شِدَّةِ النَّصَارَةِ.

(١) أَبَانُ: اسْمُ جَبَلٍ.

(٣) شَبَا الْقَلَمِ: طَرَفُهُ.

(٤) يُقَالُ: سَلَّبَتِ الْمَرْأَةُ: إِذَا لَبَسَتْ ثَوْبَ الْحَدَادِ.

وقد أوردنا في باب الغزل والنسيب من هذا المعنى فيما قيل على لسان الورقاء ما يُستغنى عن تكراره.

وأما اليمامُ وأصنافه وما وُصف به وما قيل فيه - فالعَرَبُ تقول: إن هذه التسمية واقعة على النوع التي تسميه عامة الناس الحمام؛ وهو أصنافٌ مختلفة الأشكال والألوان والأفعال، منها «الرَّواعِبُ» و«المَرَاعِيشُ» و«العَدَادُ» و«المِيساقُ» و«الشَّدَادُ» و«الْقَلَابُ» و«الشَّقَاقُ»، و«المنسوب».

فأما الرَّواعِبُ - وهو ألوان كثيرة. وزعم الجاحظ أنه تولد بين ورشانٍ ذكرٍ وحمام أنثى، فأخذ من الأب الجئة ومن الأم الصوت، وفاته سرعة الطيران فلم يشبههما فيه؛ وله من عظم البدن وكثرة الفراخ والهديل والقرقرة^(١) ما ليس لأبويه، حتى صار ذلك سبباً للزيادة في ثمنه والحرص على اتخاذه.

وأما المَرَاعِيشُ - وهي تطير مرتفعة حتى تغيب عن النظر فتُرى في الجو كالنجم.

وأما العَدَادُ - فهو طير ضخم، قليل الطيران كثير الفراخ.

وأما المِيساق - وهو أضخم من العَدَادِ وأنبِل، ثَقِيل الجسم لا يستطيع الطيران إلا قليلاً.

وأما الشَّدَادُ - فهو لا يلزم الطيران في الجو، وله قوة في جناحه حتى يقال إنه ربما يكسر الجوز به، ولا يأتي من الغاية ليلته فيه. وأصحاب الرغبات في تربية هذا الصنف يلقونه على البصريّات فيخرج من بينهما حمام يُسمى «المضرب» يجتمع فيه هداية البصريّ وشدة الشَّدَادِ. والشَّدَادُ يطير صُعداً حتى يرى كالنجم. وفي ذنبه إحدى وثلاثون ريشة.

وأما القَلَابُ - فتسميه العراقيون «المَلّاح»؛ وسمي بذلك لتقلبه في طيرانه. والشَّقَاقُ - وطيرائه تحويم.

وأما المنسوب - ويسميه العراقيون «الهُوادي»، والمصريون يسمونه «البَصاري»، يعنون البصرية، وهو بالنسبة إلى ما تقدّم ذكره كالعتاق من الخيل، وما عدها فيها كالبراذين. وفيها «العلوي» وهو الطف جِزْماً وأسرع طيراناً؛ وهو يطلب وكره ولو أرسل من مسافة ألف فرسخ، ويحمل البطائق ويأتي بها من المسافة البعيدة في المدة القريبة. قالوا: وفيه ما يقطع ثلاثة آلاف فرسخ في يوم واحد. وسباع الطير تطلبه أشد طلب. وخوفه من الشاهين أشد من خوفه من غيره. وهو أطير منه ومن سباع الطير

كلها؛ لكنه يُذَعَّر فيجهل بابَ المَخْلَص .

والمحمودُ منه ما وصفه الجاحظُ عن أفليمون صاحبِ الفِرَاسَةِ أنه قال :

جميعُ الفِرَاسَةِ لا تخرجُ عن أربعة أوجه : أولها التقطيعُ ، والثاني المجسَّة ،
والثالث الشمائل ، والرابع الحركة .

فأما التقطيع - فانتصابُ العُنُقِ والخَلْقَةِ ، وأستدارةُ الرأسِ من غيرِ عِظَمٍ ولا صِغَرٍ ،
وعِظَمُ القِرْطَمَتَيْنِ^(١) ونَقَاؤُهُمَا ، وَاَتْسَاعُ المِنْخَرَيْنِ ، وأنهراتُ الشَّدَقَيْنِ ، وَسَعَةُ الجوفِ .
ثم حسنُ خِلْقَةِ العينينِ مع توقدهما ، وقِصْرُ المِنْقَارِ في غيرِ دِقَّةٍ ، ثم اتساعُ الصدرِ ،
وَأَمْتَلَاءُ الجُؤْجُؤِ ، وطولُ العُنُقِ ، وإشرافُ المَنَكِبَيْنِ ، وأنكماشُ الجناحينِ ، وطولُ
القوادمِ في غيرِ إفراطٍ ، ولُحُوقُ بعضِ الخوافي ببعضِ ، وصلابةُ القَصَبِ في غيرِ انتفاخٍ
ولا يُبْسٍ ، واجتماعُ الخَلْقِ في غيرِ الجُعُودَةِ والكِرَازَةِ^(٢) ، وعِظَمُ المَخِذَيْنِ ، وقِصْرُ
السَّاقَيْنِ وَالوِظْيَيْنِ ، وأفتراقُ الأصابعِ ، وقِصْرُ الذَّنْبِ ، وخِفَّتُهُ من غيرِ تَفْنِينٍ^(٣) وتفريقٍ ،
ثم تَوَقُّدُ الحدقتينِ وصفاءُ اللونِ . فهذه علامة الفِرَاسَةِ في التقطيعِ .

وأما علامة المَجَسَّة - فَوُثَاقَةُ الخَلْقِ ، وشِدَّةُ اللَّحْمِ ، وَمَتَانَةُ العَصَبِ ، وصلابةُ
القَصَبِ ، ولينُ الرِّيشِ في غيرِ رَقَّةٍ ، وصلابةُ المِنْقَارِ في غيرِ دِقَّةٍ .

وأما علامة الشمائل - فقلَّةُ الاختيالِ ، وصفاءُ البصرِ ، وثباتُ النظرِ ، وشِدَّةُ
الحَذَرِ ، وحسنُ التَّلَقُّفِ ، وقِلَّةُ الرُّعْدَةِ عندَ الفِرْعِ ، وخِفَّةُ النهوضِ إذا طارَ ، وتركُ
المبادرةِ إذا لَقَطَ .

وأما علامة الحركة - فالطيرانُ في عُلوٍّ ، ومدُّ العُنُقِ في سُمُوٍّ ، وقِلَّةُ الاضطرابِ
في جَوِّ السماءِ ، وضُمُّ الجناحينِ في الهواءِ ، وتتابعُ الرُّكُضِ في غيرِ اختلاطٍ ، وحسنُ
القصدِ في غيرِ دَوْرَانٍ ، وشِدَّةُ المدِّ في الطيرانِ ، فإذا أصبَتْه جامعاً لهذه الصفاتِ فهو
الطائرُ الكاملُ .

وقد وصف الجاحظُ الحمامَ في كتاب الحيوانِ وبسط فيه القولَ ووسَّعَ المجالَ .
ونحنُ الآنُ نُورِدُ ملخَصَ ما قاله فيه ، قال :

ومن مناقبِ الحمامِ حُبُّه للناسِ وأنسُ الناسِ به ، وهو من الطيرِ المَيَّامِينَ ، وهو
إذا عَلِمَ الذَكَرُ منه أنه قد أودَعَ رَجِمَ الأنثى ما يكون منه الولدُ ، تقدُّماً في إغدادِ العُشِّ ،

(١) القرطمتان : نقطتان على أصل منقار الحمام .

(٢) الكرازة : يبس الشيء وانقباضه .

(٣) من غير تفنين : أي من غير اختلاط .

ونقل القصب وشقق الخوص، وأشباه ذلك من العيدان الخوّارة^(١) الدقاق، حتى يعملوا أفحوصة^(٢) وينسجها نسجاً متداخلاً في الموضع الذي اتخذاه وأصطنعاه عشاءً بقدر جثمان الحمامة؛ ثم أشخصا لتلك الأفحوصة حروفاً غير مرتفعة لتحفظ البيض وتمنعه من التدحرج، ولتلتزم كثفي الجؤجؤ، ولتكون رفداً لصاحب الحضن، وسنداً للبيض، ثم يتعاوران ذلك المكان ويتعاقبان تلك الأفحوصة يسخنانها ويدفئانها ويطيئانها ويتقيان عنها طباغها الأول ويخديثان طبيعة أخرى مشتقة من طبائعهما ومُستخرجة من رائحة أبدانهما وقواهما، لكي تقع البيضة إذا وقعت في موضع يكون أشبه المواضع طباغاً بأرحام الحمام مع الحضانة والورثة^(٣)، كي لا تنكسر البيضة ببئس الموضع، ولئلا تنكسر طباغها طباغ المكان، وليكون على مقدار من البرد والسخونة والرخاوة والصلابة. ثم إن ضربها المخاض وطرقت ببيضها، بدّرت إلى الموضع الذي قد أعدته وتحاملت إليه، إلا أن يقرعها رعد قاصف أو ريح عاصف فإنها ربما رمت بها دون الأفحوصة. والرعد ربما أفسد البيض. فإذا وضعت البيض في ذلك المكان الذي أعداه لا يزالان يتعاقبان الحضن ويتعاورانه حتى تنتهي أيامه ويتم ميقاته؛ فعند ذلك ينصدع البيض عن الفرخ، فيخرج عاري الجلد صغير الجناح مُستد الحلقوم؛ فيعلمان أنه لا يتسع حلقه وحوصلته للغذاء، فلا يكون لهما هم إلا أن ينفخا في حلق الفرخ الريح لتتسع الحوصلة بعد ألتمامها، ثم يعلمان أنه وإن اتسعت الحوصلة لا يحمل في أول اغتذائه أن يزق بالطعم، فيزق باللعب المختلط بقواهما وقوى الطعم. ثم يعلمان أن الحوصلة تضعف عن استمراء الغذاء، وهضم الطعم فيأكلان من شروج^(٤) أصول الحيطان - وهو شيء من الملح المخض والتراب الخالص، وهذا هو السبخ - فيزقانه به. حتى إذا علما أنه قد أندبغ واشتد زقاه بالحب الذي قد غب في حواصلهما؛ ثم يزقانه بعد ذلك بالحب والماء. حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعه بعض المنع ليحتاج إلى اللقط فيتعوده. فإذا علما أن إرادته قد تمت وأنه قد قوي على اللقط وبلغ بنفسه منتهى حاجته، ضرباه إذا سألهما الكفاية، ونقياه متى رجع إليهما، وتنتزع تلك الرحمة العجيبة منهما وينسيان ذلك التعطف. ثم يبتدان العمل ثانياً على ذلك النظام وتلك المقدمات. فسبحان الهادي الملهم.

قال: ثم يبتدىء الذكر بالدعاء والطراد؛ وتبتدىء الأنثى بالتأتي والاستدعاء، ثم

(١) الخوّارة: الضعيفة الرخوة.

(٢) الأفحوصة: حفرة تحفرها القطة، أو الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها.

(٣) الورثة: كثرة الشحم، أو الفرائش، أو... (اللسان وثر).

(٤) الشروج: الشقوق والصدوع.

تَزَيِفُ^(١) وَتَشْكُلُ^(٢)، وَتُمْكِّنُ وَتَمْنَعُ، وَتُجِيبُ وَتَضَدُّ بِوَجْهَيْهَا؛ ثُمَّ يَتَعَاشِقَانِ وَيَتَطَاوَعَانِ وَيَكُونُ بَيْنَهُمَا قُبْلٌ وَأَرْتَافٌ وَإِدْخَالٌ فَمِهَا فِي فَمِهِ؛ وَذَلِكَ هُوَ التَّطَاعُمُ وَالْمُطَاعَمَةُ. قَالَ الشَّاعِرُ:

لَمْ أَعْطُهَا بِيَدِي إِذْ بَتَّ أَرْشُفُهَا إِلَّا تَطَاوَلَ غُضَنِ الْجَيِّدِ بِالْجَيِّدِ^(٣)
كَمَا تَطَاعَمَ فِي خَضِرَاءٍ نَاعِمَةٍ مُطَوَّقَانِ أَصَاخًا بَعْدَ تَغْرِيدِ^(٤)

قال أبو عثمان: ومما أشبه فيه الحمامُ الناسَ أن ساعاتَ الحَضْنِ على البيضِ أكثرُها على الأنثى، وإنما يحضنُ الذكرُ حَضْنًا يسيرًا. والأنثى كالمرأة في كفالة الصبي، حتى إذا ذهب الحَضْنُ وصار البيضُ فراخاً كالأطفال في البيت يحتاجون إلى الطعام والشراب صار أكثرُ ساعاتِ الزَّقِّ على الذكر.

وقال: قال مُثَنَّى بن زُهَيْر - وهو إمام الناس في البصرة بالحمام -: لم أر شيئاً قط في رجل ولا امرأة إلا قد رأيتُ مثله في الذكر والأنثى من الحمام. رأيت حمامة لا تُريد إلا ذكرها، كالمرأة لا تُريد إلا زوجها أو سيدها. ورأيت حمامة لا تمنع شيئاً من الذكورة؛ ورأيت امرأة لا تمنع يدَ لأمس. ورأيت حمامة لا تَزَيِفُ إلا بعد طرادٍ شديدٍ وشدةٍ طلبٍ، ورأيتها تَزَيِفُ لأول ذكر يريدها، ورأيت من النساء كذلك. ورأيت حمامة لها زوج وهي تُمكن ذكراً آخر لا تعدّوه، ورأيت مثل ذلك في النساء. ورأيتها تَزَيِفُ لغير ذكرها وذكرها يراها، ورأيتها لا تفعل ذلك إلا وذكرها يطير أو يحضن. ورأيت الحمامة تَقْمِطُ^(٥) الحمامَ الذكرَ يَقْمِطُ الذكر. ورأيت أنثى كانت لا تَقْمِطُ إلا الإناث، ورأيت أخرى تَقْمِطُ الإناث فقط ولا تدعُ أنثى تَقْمِطُها، ورأيت ذكراً يَقْمِطُها ويدعُها حتى تَقْمِطُها. ورأيت ذكراً يَقْمِطُ الذكورَ وتَقْمِطُها؛ ورأيت ذكراً يَقْمِطُ الذكورَ ولا يدعُها تَقْمِطُها؛ ورأيت أنثى تَزَيِفُ للذكور ولا تدعُ شيئاً منها يَقْمِطُها ورأيت هذه الأصناف كلها في السحاقات والألطة. قال: وأمتنعت عليّ خَصْلَةٌ فوالله لقد رأيتها؛ لأنني رأيتُ من النساء من تَزِنِي أبدأً وتُسَاجِقُ أبدأً ولا تتزوج؛ ومن الرجال من يَلُوطُ أبدأً ويزني أبدأً ولا يتزوج، ورأيت حماماً ذكراً يَقْمِطُ ما لقي ولا يُزاوج، ورأيت حمامة تُمكن كلَّ حمام أرادها من ذكر أو أنثى وتَقْمِطُ الذكورة والإناث ولا تُزاوج، ورأيتها تُزاوج ولا تبيض، وتبيض فيفسدُ بيضُها، كالمرأة. قال: ورأيت ذكراً له اثْنَتَانِ

(١) يقال: زافت الحمامة، إذا مشت مدلة متبخترة بين يدي الحمام الذكر.

(٢) شكلت المرأة: إذا كانت ذات شكل، أي غنج ودلال وغزل.

(٣) عطا فلان الشيء: أخذه وتناوله.

(٤) أصاخ: استمع.

(٥) قمت الشيء: أي شد عليه وضيق حتى يلتصق بالجسم.

وقد باضتاً منه، وهو يحضن مع هذه ومع تلك ويَزُقُّ مع هذه ومع تلك، ورأيت أنثى تبيض بيضةً، ورأيت أنثى تبيض في أكثر حالاتها ثلاث بيضات. قال: ورأيت حمامة تزأج هذا الحمام ثم تتحول منه إلى آخر، ورأيت ذكراً فعل مثل ذلك في الإناث، ورأيت الذكر كثير النسل قوياً على القمط.

قال الجاحظ: والحمام يبيض عشرة أشهر من السنة؛ فإذا صانوه وحفظوه وأقاموا له الكفاية وأحسنوا تعهده باض في جميع السنة. والفواخت والأطرغلأت^(١) والحمام البرّي تبيض مرتين في السنة. قال: ويتم خلق الحمام في أقل من عشرة أيام. والحمامة في أكثر أمرها يكون أحد فرخيها ذكراً والآخر أنثى؛ وهي تبيض أولاً البيضة التي فيها الذكر ثم تقيم يوماً وليلة وتبيض الأخرى، وتحضن ما بين السبعة عشر يوماً إلى العشرين. والأنثى أبر بالبيض، والذكر أبر بالفراخ. ولقد أطنب أبو عثمان الجاحظ وأوغل وبسط القول في ذكر الحمام وأوصافه ومناقبه والمغالة في ثمنه والحرص على أقتنائه، حتى إنه قال: وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمام الواحد يباع بخمسائة دينار؛ ولم يبلغ ذلك باز ولا شاهين، ولا عقاب. قال: وأنت إذا أردت أن تتعرف مبلغ ثمن الحمام الذي جاء من الغاية ثم دخلت بغداد والبصرة، وجدت ذلك بلا معاناة، وهذا يدل على أن قوله فيه كان مشهوراً عندهم في وقته. ثم قال: والحمام إذا جاء من الغاية بيع الذكر من فراخه بعشرين ديناراً وأكثر، وبيعت الأنثى بعشرة دنانير وأكثر وبيعت البيضة بخمسة دنانير؛ فيقوم الزوج منها من الغلة مقام ضيعة، حتى ينهض بمؤونة العيال، وبقضاء الدين، وتبني من غلاته وأثمان رقبه الدور والجنان وتبتاع الحوائث. ثم وصف حَجَرَ الحمام ومقاصيرها المبنية في ذلك الزمان وما يُعانيه أهلها من حديثها والاحتفال بها في المسابقة وغيرها. وأطال في ذلك. وقال: وللحمام من حُسن الاهتداء، وجودة الاستدلال، وثبات الحفظ والذكر، وقوة النزاع إلى أربابه، والإلف لوطنه، أن يكون طائراً من بهائم الطير يجيء من مسافة كذا إلى مسافة كذا. قال: ولن ترى جماعة طير أكثر طيراناً إذا كثرت من الحمام؛ فإنهن كلما ألتفنن وضاق موضعهن كان أشد لطيرانهن قال النابغة^(٢): [من البسيط]

وأحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام شراع وإرد الثمد^(٣)

(١) الأطرغلأت: هي الدباصي والقماري والصلاصل ذات الأطواق.

(٢) هو زياد بن معاوية ويكنى أبا أمامة ويقال: أبا ثمامة، وأهل الحجاز يفضلون النابغة زهيراً. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦١).

(٣) الشراع: مجتمعة. والتمد: الماء القليل الذي يكون في الشتاء ويجف في الصيف.

يَحْفُهُ جَانِبًا نَيْقٍ وَتُثْبِعُهُ مِثْلَ الزُّجَاجَةِ لَمْ تُكْحَلْ مِنَ الرِّمْدِ^(١)
 قَالَتْ أَلَا لَيْتَمَا هَذَا الْحَمَامَ لَنَا إِلَى حِمَامَتِنَا وَنَصْفُهُ فَقَدِ
 فَحَسَبُوهُ فَأَلْقَوْهُ كَمَا حَسَبَتْ تَسْعًا وَتَسْعِينَ لَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدِ
 فَأَكْمَلْتُ مَائَةً فِيهَا حِمَامَتُهَا وَأَسْرَعْتُ حِسْبَةً فِي ذَلِكَ الْعَدَدِ
 قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَمْدَحَ الْحَاسِبَ وَسُرْعَةَ إِصَابَتِهِ شَدُّ الْأَمْرِ وَضِيقَهُ عَلَيْهِ
 لِيَكُونَ أَحْمَدَ لَهُ: إِذَا أَصَابَ؛ فَجَعَلَهُ حَزَرَ طَيْرًا وَالطَيْرُ أَخَفُّ مِنْ غَيْرِهِ؛ ثُمَّ جَعَلَهُ حِمَامًا
 وَالْحِمَامُ أَسْرَعُ الطَّيْرِ وَأَكْثَرُ أَجْتِهَادًا فِي السَّرْعَةِ إِذَا كَثُرَ عَدَدُهُنَّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَشْتَدُّ طَيْرَانُهُ
 عِنْدَ الْمَسَابَقَةِ وَالْمَنَافَسَةِ. وَقَالَ: «يَحْفُهُ جَانِبًا نَيْقٍ وَتُثْبِعُهُ»، فَأَرَادَ أَنَّ الْحَمَامَ إِذَا كَانَ فِي
 مَضِيقٍ مِنَ الْهَوَاءِ كَانَ أَسْرَعَ مِنْ أَنْ يَتَسَعَ عَلَيْهِ الْفَضَاءُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

ذَكَرُ مَا قِيلَ فِي طَوْقِ الْحَمَامَةِ

يَقَالُ: إِنَّ نُوحًا ﷺ لَمَّا كَانَ فِي السَّفِينَةِ بَعَثَ الْغُرَابَ لِيُكْشِفَ لَهُ هَلْ ظَهَرَ مِنَ
 الْأَرْضِ مَوْضِعٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَيْفَةٍ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ؛ فَبَعَثَ بِالْحَمَامَةِ، فَاسْتَجَعَلَتْ عَلَى
 نُوحِ الطَّوْقِ الَّذِي فِي عُنْقِهَا فَجَعَلَ لَهَا ذَلِكَ جُغْلًا. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي
 الصَّلْتِ: [مَنْ الْوَافِر]

وَأَرْسَلَتِ الْحَمَامَةَ بَعْدَ سَبْعٍ تَدُلُّ عَلَى الْمَهَالِكِ لَا تَهَابُ
 تَلَمَّسُ هَلْ تَرَى فِي الْأَرْضِ عَيْنًا وَعَايِنَهُ مِنَ الْمَاءِ الْعَبَابِ^(٢)
 فَجَاءَتْ بَعْدَمَا رَكَضَتْ بِقَطْفٍ عَلَيْهِ الثَّأْطُ وَالطَّيْنُ الْكُبَابِ^(٣)
 فَلَمَّا فَرَّسُوا الْآيَاتِ صَاغُوا لَهَا طَوْقًا كَمَا عُقِدَ السُّخَابِ^(٤)
 إِذَا مَاتَتْ تُورِثُهُ بَنِيهَا وَإِنْ تُقْتَلْ فَلَيْسَ لَهَا أَسْتِلَابُ
 وَقَالَ أَيْضًا فِيهَا: [مَنْ الْخَفِيفُ]

سَمِعَ اللَّهَ لَابِنِ آدَمَ نُوحٍ رَبُّنَا ذُو الْجَلَالِ وَالْإِفْضَالِ
 حِينَ أَوْقَى بِذِي الْحَمَامَةِ وَالنَّارِ سُنْ جَمِيعًا فِي فُلْكَهِ كَالْعِيَالِ
 حَاسِبًا خَوْفَهُ عَلَيْهِ رَسُولًا مِنْ خِفافِ الْحَمَامِ كَالْتُمَثَالِ

(١) يحفه: يحيط به - والنيق: الجبل.

(٢) الماء العباب: الكثير.

(٣) الكباب: الثرى والتراب والطين اللازب.

(٤) السخاب: قلادة تتخذ من قرنفل.

فَرَشَاهَا عَلَى الرَّسَالَةِ طَوْقًا
فَأَتَتْهُ بِالصُّدُقِ لَمَّا رَشَاهَا
قوله: «فرشاهها» أي جعل لها جُعلًا.
وقال فيها: [من الطويل]

وما كان أصحاب الحمامة خيفةً
رسولاً لهم والله يُحكم أمره
فجاءت بِقَطْفِ آيَةٍ مُسْتَبِينَةٍ
على خَطْمِهَا وَأَسْتَوْهَبَتْ ثَمَّ طَوْقَهَا
ولا ذَهَباً إِنِّي أَخَافُ نِبَالَهُمْ
وزِدْنِي عَلَى طَوْقِي مِنَ الْحَلِيِّ زِينَةً
وزدني لِطَرَقِ الطَّيْنِ مِنْكَ بِنِعْمَةٍ
يَكُونُ لِأَوْلَادِي جَمَالاً وَزِينَةً
غَدَاةً غَدَّتْ مِنْهُمْ تَضُمُّ الْخَوَافِيَا
يُبَيِّنُ لَهُمْ هَلْ بَرَنْسُ الثُّرْبِ بِأَيْدِيَا
فَأَصْبَحَ مِنْهَا مَوْضِعُ الطَّيْنِ جَادِيَا^(١)
وقالت ألا لا تجعل الطوق حالياً
يَخَالُونَهُ مَالِي وَلَيْسَ بِمَالِيَا
تُصِيبُ إِذَا أَتَبَعْتَ طَوْقِي خِضَابِيَا^(٢)
وَوَرَّثَ إِذَا مَا مِثُّ طَوْقِي حَامِيَا
وعنوان زَيْنِي زِينَةً مِنْ ثُرَابِيَا

ذَكَرُ شَيْءٍ مِمَّا وُصِفَ بِهِ هَذَا النَّوعُ نَظْماً وَنَثْراً

قال عبد الواحد بن فتوح الأندلسي يصف حماماً بسرعة الطيران والسُّبْقِ: [من الكامل]

يَجْتَابُ أَوْدِيَةَ السَّحَابِ بِخَافِقِ
لو سَابَقَ الرِّيحَ الْجَنُوبَ لَغَايَةِ
يَسْتَقْرِئُ الْأَرْضَ الْبَسِيطَةَ مَذْهَباً
ويَظَلُّ يَسْتَرْقِي السَّمَاءَ بِخَافِقِ
يَبْدُو فَيُعْجِبُ مَنْ رَأَاهُ لِحُسْنِهِ
مُتَرَقِّقاً مِنْ حَيْثُ دُرَتْ كَأَنَّمَا
كَالْبَرْقِ أَوْ مَضَّ فِي السَّحَابِ فَأَبْرَقَا
يَوْمَاً لِحِجَاكَ مِثْلَهَا أَوْ أَسْبَقَا
وَالْأَفَقَ ذَا السَّقْفِ الرَّفِيعَةِ مُرْتَقَى
فِي الْجَوِّ تَحْسِبُهُ الشُّهَابَ الْمَحْرِقَا
وَتَكَادُ آيَةُ عُنُقِهِ أَنْ تَنْطِقَا
لَيْسَ الزَّجَاجَةُ أَوْ تَجَلْبَبَ زُنْبَقَا
وقال أبو هلال العسكري في حمام أبلق: [من الطويل]

(١) العثكال: العذق.

(٢) الجادي: الزعفران.

(٣) الخضاب: ما يخضب به من حناء ونحوه.

وَمُتَّفَقَاتِ الشَّكْلِ مُخْتَلِفَاتِهِ لَيْسَنَ ظِلَاماً بِالصَّبَاحِ مُرْقِعَا
أَخَذَنَ مِنَ الْكَافُورِ أَثْفَاءً وَمَنْسِيراً وَخَضْبَنَ بِالْحِجَاءِ كَفّاً وَإِصْبَعَا^(١)
وَتَرْنُو بِأَبْصَارٍ إِذَا مَا أَدْرَنْهَا جَلَوْنَ عَقِيقاً لِلْعَيُونِ مُرْصَعَا
تَطِيرُ بِأَمْثَالِ الْجِلَامِ كَأَنَّهَا جَنَادِلُ تَذْخُوهَا ثَلَاثاً وَأَرْبَعَا^(٢)
تَبُوعُ بِهَا فِي الْجَوْ مِنْ غَيْرِ فَتْرَةٍ كَأَنَّ مَجَادِيفاً تَبُوعُ بِهَا مَعَا^(٣)
إِذَا هِيَ عَبَّتْ فِي الْغَدِيرِ حَسِبَتْهَا تَزُقُّ فَرَاخاً فِي الْمَغَاوِرِ جُوعَا

وقال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي من رسالة يصف طائراً جاء من غاية :
«وكان هذا الطائر أحد الرسل المُسَيَّرَةِ بل المُبَشِّرَةِ، والجنود المجردة بل المستخرّة؛
فإنها لا تزال أجنحتها تحيل من البطائق أجنحة، وتجهّز من جيوش المقاصد والأقلام
أسلحة؛ وتحمل من الأخبار ما تحمل الضمائر، وتطوي الأرض إذا نشرت الجناح
الطائر؛ وتزوي لها حتى ترى ما سيبلغه ملك هذه الأمة، وتقرب بها السماء حتى ترى
ما لا يبلغه وهم ولا همّة؛ وتكون مراكب للأغراض لما كانت الأجنحة قلوفاً، وتركب
الجو بحراً يصفق فيه هبوب الرياح موجاً مرفوعاً؛ وتعلق الحاجات على أعجازها، فلا
تعرف الإرادات غير إنجازها، ومن بلاغات البطائق استعارت ما هي به مشهورة من
السجع، ومن رياض كتبها ألقت الرياض فهي إليها دائمة الرجوع. وقد سكنت البروج
فهي أنجم، وأعدت في كنانتها فهي للحاجات أسهم. وقد كادت تكون ملائكة فإذا
نيطت بالرقاع، صارت أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع. وقد باعد الله بين أسفارها
وقربها، وجعلها طيف اليقظة الذي صدق العين وما كذبها. وقد أخذت عهد الأمانة
فهي في أعناقها أطرافاً، فادتها من أذنانها أوراقاً؛ فصارت خوافي وراء الخوافي،
وعطت سرها المودع بكتمانٍ سحبت عليه ذيول ريشها الضوافي^(٤)؛ تُرغم النوى
بتقريب العهود وتكاد العيون تلاحظها تلاحظ أنجم السعد؛ فهي أنبياء الطير لكثرة ما
تأتي به من الأنباء، وخطباؤها لأنها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء». والله أعلم
بالصواب.

وَأَمَّا الْبَيْغَاءُ وَمَا قِيلَ فِيهَا - وَالْبَيْغَاءُ طَائِرٌ هِنْدِيٌّ، وَحَبَشِيٌّ، حَسَنُ الْخُلُقِ، دَمِيثُ
الْخُلُقِ، ثاقب الفهم، له قوة على حكاية الأصوات بالتلقين والتعليم؛ تتخذ الملوكة

(١) المنسر: منقار الطائر.

(٢) الجلام: ما جاز من شعر وصوف.

(٣) تبوع بها: أي تبسطها في الجو.

(٤) الضوافي: السابعة الكثيرة.

وأكابرُ الناس في منازلهم. وفي لونه الأخضرُ والأغبرُ والأسودُ والأحمرُ والأصفرُ والأبيضُ. وهذه الألوان كلها قليلة نادرة الوجود إلا الأخضر والأغبر. وقد شاهدتُ أنا بالقاهرة المعزِّيَّة دُرَّة^(١) بيضاء. وحكي أنه أُهدي إلى معزِّ الدولة بن بويه ببغداد هدية من اليمن كان فيها ببغاءٌ بيضاء، سوداء المتقار والرجلين، وعلى رأسها ذؤابة فُسْتَقِيَّة. وهذا الطائر يتناول الطَّعْمَ برجله. وله منقار مُعَقَّف قصير يكسر به ما صَلَبَ وَيَنْقُب به ما تعسَّر نَقْبُه. وهو في مأكله ومشربه كالإنسان الثَّرِفِ الطريف. والناس يحتالون على تلقينه بأن ينصبوا تجاهه مرآة يرى خياله فيها ويتكلَّم الإنسان من ورائها، فيتوهَّم الطائر أنَّ خياله في المرأة هو المتكلَّم فيأخذ نفسه بحكاية ما يسمعه من ذلك الصوت.

وقال المولى تاج الدين عبد الباقي اليماني^(٢) رحمه الله فيها مُلغزاً: [من الرجز]

يا سيِّداً أبَدَع في المقالِ	ويا رئيساً فاق في المعالي
ما حيوانٌ مشبهُ الإنسانِ	مُرَّتْلُ الآياتِ في القرآنِ
ذو مَبْسِمٍ صيغٌ من التُّضَارِ	ومُثْلَةٍ قد رُكِبَتْ من قارِ
ومِخْلَبٍ يُكْسِر الصَّلِيبَا	ومنطِقٍ يُفَاخِر الخطيبَا
ذو حُلَّةٍ بَنْدِيَّةٍ البرودِ	منسوجةٍ من أخضر البنودِ
كروضةٍ قد أينعتُ أزهارُها	وأدهشتنا بالِغنا أطيارُها
قد جُمِعت في ذاته ألوانُ	كأنه في خَلْقِه بُسْتانُ
فذاثه من ناصع الزَّبَرَجِدِ	ونُورُه مُرْكَبٌ من عَسَجِدِ
وتارة يُبصرُ من أقاحي	خِلْقَتَه في سائر النواحي
وعُرْفُه من خالص المِدادِ	ونُطْقُه مُسْتَحْكِم الإِرادِ
يأكل بالكفِّ خلافَ الطيرِ	ويَغْتَدِي وهو قديرُ السَّيرِ
إن لَقَطَ الحَبَّ لدى تفريقه	رأيتَ ذُرّاً جال في عَقِيقِه
يحفظ بيتَ المرء في المغيبِ	ويغتدي كالحارس المَرهوبِ
سميَّه في أسفل البحارِ	مُسْتودِعٌ في آخر الثَّيَّارِ

(١) الدُرَّة: الببغاء.

(٢) هو عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليمني المخزومي، المكي، الشافعي (تاج الدين أبو المحاسن) أديب، ناثر، ناظم، لغوي، مؤرخ، كانت وفاته بمكة سنة ٧٤٤ هجرية. (معجم المؤلفين ٥: ٧٣).

إليه يُعزَى الشاعرُ المَجِيدُ والكاتبُ التَّحْرِيرُ والمُجِيدُ
فاكشف مُعَمَّى ما لغزْتُ يا إمام وأسلم على مرِّ الدهور في الدَّوام

البَابُ الْخَامِسُ مِنَ الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْفَنِّ الثَّالِثِ فِي الطَّيْرِ اللَّيْلِيِّ

ويشتمل هذا الباب على ذكر ما قيل في الخُفَّاش، والكُرَّوان، والبُوم، والصَّدى.
فأمَّا الخُفَّاش وما قيل فيه - فالخُفَّاش ليس من الطير في شيء، فإنه ذو أذنين
ظاهرتين وأسنان وحُطْم وخُصَّيتين بارزتين، ويبول كما تبول ذوات الأربع، ويحيض،
ويُلد، ويُرضع، ولا ريش له. قال بعض المفسرين لكتاب الله عزَّ وجلَّ: إِنَّ الخُفَّاش
هو الطائر الذي خلقه عيسى ابن مريم عليه السلام بإذن الله تعالى؛ ولذلك هو مباين
لصنعة الخالق؛ ولهذا سائر الطير تَقهره وتُبغضه؛ فما كان منها يأكل اللحم أكله، وما
لا يأكل اللحم قتله؛ فلذلك لا يطير إلا ليلاً. وطعامه البعوض والفَرَّاش يصيدهما وقتَ
طيرانه، ولا يبلغ ذلك إلا بما فيه من سرعة الاختطاف وشدة الطيران ولين الأعطاف.
وهو مع ذلك ليس بذئ ريش، وإنما هو لحم مُعَشَّى بجِلْد صُلْب كأنه جِلْد ضَفْدَع،
وهو يطير بغير ريش؛ وهذا من العَجَب. وهو لا يطير في ضوء ولا ظلمة، وسببُ
ذلك أنه ضعيف حاسة البصر، قليلُ شعاع العين؛ فالشمس تُضعف بصره عن التحديق
في شعاعها، والظلمة تغمُر ضياء بصره؛ فهو يجعل طيرانه لطلب قوته، وقتَ غروب
الشمس وظهور الشفق. وذلك وقتَ هيج البعوض وانتشاره. ومنازله تكون في الجبال
وصُدُوع الصخور وبسيط الفَيَافِي وجزائر البحر والأماكن الخربة المهجورة. وهو يطلب
قُرب الناس؛ فإذا كان في بيوتهم قصد أرفع مكان وأخصنه فيكون فيه. ويذكر بطول
العمر، ويكبر حتى يكون في قدر الجِدَّة وأكبر. وهو يلد ما بين الثلاثة إلى التسعة.
ويَسِفِد غالباً وهو طائر في الهواء. وهو يحمل ولده تحت جناحه، وربما قبض عليه
بفيه لإشفاقه عليه. وربما أرضعت الأنثى ولدها وهي طائفة. أخبرني مَنْ شاهد ذلك
ممن يُعتمد على نقله، وهو متى أصابه شجر الدُّلْب^(١) خَير.

قال الجاحظ: والخُفَّاش يأتي الرُّمانة وهي على شجرتها فينقب عنها ويأكل جميع
ما فيها حتى لا يدع إلا القشر وخده. قال: ولحوم الخفافيش موافقة للشواهين

(١) الدلب: جنس شجر للترتين، من الفصيلة الدلية، وهو من الزهريات، يحب الماء.

والصُّقُور والبَوَازِي ولكثير من جوارح الطير، وهي تَسْمَن عنها وتَصِح أبدانها عليها، ولها في ذلك عملٌ محمود ناجع عظيم النفع بين الأثر.

وقال بعض الشعراء في الحَقَّاش مُلْغِزاً: [من الرجز]

وطائرِ جَنَاحُه في رِجْلِه أبعد شيءٍ قَصُّه من وَصْلِه^(١)
لم يُوصَف اللُّهُ بخلقٍ مثله وهو على تَأَلُّفٍ في شكلِه
* لو بَيع في سُوقٍ له لم أَغْلِه *

وقال آخر:

أبى علماء الناس أن يُخبروني وقد ذهبوا في العلم في كلِّ مذهبٍ
بجلدة إنسانٍ وصورة طائرٍ وأظفارٍ يَرْبُوعٍ وأنيابٍ تُغْلِبُ
وأما الكَرَوَانُ وَمَا قِيلَ فِيهِ - والكروان طائرٌ من طبعه وعادته الطيرانُ في الليل،
والإذلاجُ والصِّيَاح بالأسحار، والإشراف على مواضع العساكر، ويوصف بالحمق؛
ومن حمقه أنه يقال له: أَطْرُق كَرَا، فَيَلْصَقُ بالأرض حتى يُزْمَى. وتقول العرب:
«أَطْرُق كَرَا أَطْرُق إِنَّ النُّعَامَةَ فِي الْقَرَى»^(٢).

وأما البُومُ وَمَا قِيلَ فِيهِ - ويقال: إنه الصَّدَى، ويقال: بل الصَّدَى ذَكَرُ البوم،
وللبوم ذكر له منه. ويقال: إنه خمسة أصناف: منه ما يصيد الأرنب. ومنه صِنْفٌ له
لونان يأوي الأكامَ والبرِّيَّة. ومنه المدبَّج بالصُّفْرة، وله حواجبٌ وقرونٌ من ريش،
ويسكن الجُدْران. ومنه الهام ويسمى «الغبشية»، ومنه «القن» وهو يصيح كالهَام لكنَّ
صوته أدق. وكل هذه الأصناف تحب الخُلُوة بنفسها. وهي تُبْغِض الغربان، وسائرُ
أصناف الطير تُبْغِضها، فَإِنَّ الطيور إذا رأيتها يَطْرُنَ حولها وَيَنْتَفِنَ ريشها، فلذلك صيادو
الطيور يجعلونها في مصايدهم؛ لأن الطيور إذا رأوها أَجْتَمَعُوا عليها، فتُصَاد عند ذلك.

وأما الصَّدَى وما قيل فيه - العرب تزعم أن الإنسان إذا مات أو قُتِلَ تتصوَّر نفسه
في صورة طائرٍ تصرخُ على قبره مستوحشةً لجسدها. وفي ذلك يقول توبة^(٣):

ولو أن لِيلى الأَخْيَلِيَّة سَلَّمَتْ عليَّ ودوني جَنْدَلٌ وصفائحُ
لَسَلَّمْتُ تسليمَ البَشَاشَةِ أو زَقَا إليها صَدَى من جانب القبر صائحُ
ويحكون على ذلك حكاية. وتقول العرب: إن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر

(١) الوصل (بكسر أوله): كل عظم على حدة لا يكسر ولا يوصل به غيره.

(٢) هذا المثل يضرب للرجل الحقير إذا تكلم الذي لا يشبهه وأمثاله الكلام فيه.

(٣) هو توبة بن الحمير.

حتى يصيرَ في قَدَرِ الْبُومِ، ويسمونه الهَامَ، واحده هامةٌ، وهو يتوحَّش ويصيح ويوجد في الدِّيارِ المعطلة والنَّواويس^(١) وحيث مَصَارِعُ الْقَتْلَى وأجداثُ الأموات. ويقولون: إنه لا يزال عند وَلَدِ الْمَيِّتِ ومُخْلَفِيهِ ليعلم ما يكون بعده فيخبره. وهذا كله أراه من خُرَافَاتِ الْعَرَبِ وأكاذيبها. وما زالوا على ذلك حتى جاء الإسلام فنهى رسولُ الله ﷺ عنه فقال: «لا عَذْوَى ولا طَيْرَةَ ولا هَامَةَ»، الحديث. والله أعلم.

البَابُ السَّادِسُ مِنَ الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْفَنِّ الثَّالِثِ فِي الْهَمَجِ

وقد قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فيه: إنه ليس من الطير، ولكنه مما يطير كالحشرات مما يمشي. والذي أطلق عليه اسمُ الْهَمَجِ هو مما يشتمل عليه هذا الباب، وهو النحل، والزنبور، والعنكبوت، والجَرَادُ، ودودُ الْقَزِّ، والدُّبَابِ، والبَعُوضِ، والبراغيث، والخُرْقُوصِ.

فأما النحلُ وما قيلَ فيه - قال الله عز وجل: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يَوْمًا مِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩]. وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أن رجلاً أتى النَّبِيَّ ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه يا رسول الله؛ فقال النبي ﷺ: «اسْقِهِ عَسَلًا»، ثم أتاه فقال: قد فعلت؛ فقال: «اسْقِهِ عَسَلًا». ثم أتاه فقال: قد فعلت؛ فقال: «اسْقِهِ عَسَلًا»، ثم أتاه في الرابعة؛ فقال: «صَدَقَ اللَّهُ وكَذَبَ بطنُ أخيكِ اسْقِهِ عَسَلًا»؛ فسقاه فبرىء الرجل.

وقال أرسطو: النحل تسعة أصناف: ستة منها يأوي بعضها إلى بعض، وذكر أسماءهما باليونانية. وغذاء النحل من الفضول الحُلْوَةِ والرُّطُوبَاتِ، والنحل لا تقعد على أزهارٍ مختلفة بل على زهرٍ واحد؛ وإن قعدت على زهرٍ آخر فإنما تقعد عليه بعد أن تنصرف إلى الخلية، وبيوتها من أعجب المباني؛ لأنها مبنية على الشكل الذي لا يُنتَهَك ولا يَنخَرَقُ، كأنه حُرَّرَ بِالْقِيَّاسِ هندسي. وإذا هلك شيء من النحل في باطن الخلايا أخرجته الأحياء إلى خارجها. وهو يعمل في فصل الربيع والخريف. والرَّبِيعِيُّ

(١) النواويس: مفردة ناووس، وهو صندوق من خشب أو نحوه يضع النصارى فيه جثة الميت، أو هو مقبرة النصارى.

أجود من الخريفي. والصغير منه أعمل من الكبير. وهو يشرب من الماء النقي العذب الصافي، ويطلبه حيث كان. وهو يسلم جلد كالحيات. وتوافقه الأصوات المطربة. ويجتمع للتصفيق بالأيدي والرقص. والسوس يضره. ودواؤه أن يطرح في كل خلية كف من الملح، وأن تفتح في كل شهر مرة وتدخل بأخفاء البقر.

وقد وصف الشعراء الشهد والعسل في أشعارها؛ فمن ذلك قول إبراهيم بن حنيفة الأندلسي يصف شهدة بعث بها إليه بعض أصدقائه: [من المجتث]

لله ريقه نحل رعى الرعى والشعابا
وجاب أرضاً فأرضاً يغشى مصاباً مصاباً^(١)
حتى أرتوى من شفاء يمخ منه رصاً
إن شئت كان طعاماً أو شئت كان شراباً

وكتب مع هذه الأبيات رسالة، جاء منها: «وكفى النحلة فضيلة ذات، وجلالة صفات؛ أنها أوجي إليها، وأثني في الكتاب عليها؛ تعلم مساقط الأنداء، وراء البيداء^(٢)؛ فتقع هناك على ثوارة عبقه، وبهارة أنقه^(٣)؛ ثم تصدر عنها بما تطبعه سمعه، وتبدعه صنعة وترتشف منها ما تحفظه رصاً^(٤)، وتلفظه شرباً؛ وتتجافى بعد منه عن أكرم مجتنى، وأحكم مبتنى».

وأما الزنبور وما قيل فيه - والزنبور يسمى «الدبر» - وهو جبلي وسهلي. فالجبلي يأوي الجبال والأماكن الخشنة، وقد يعيش على الشجر، ولونه إلى السواد. والسهلي أحمر اللون ويتخذ عشه تحت الأرض ويخرج التراب منه كما يفعل النمل، وهو يختفي في الشتاء فلا يظهر، وأكثره يهلك. ومن السهلي صنف مختلف الألوان مستطيل؛ وفي طبعه الشره يطلب المطابخ يأكل اللحم، ويطير مفرداً ويسكن بطن الأرض.

وصنف الزنبور جميعه مقسوم في وسطه؛ وهو لذلك لا يتنفس من جوفه ألبته. ومتى غمس في الدهن سكنت حركاته وذلك لضيق منافذه.

وقد وصفه الشعراء، فمن ذلك قول السلمي^(٥): [من الطويل]

(١) المصاب: موقع الغيث.

(٢) البيداء: الفلاة.

(٣) البهار: نبت طيب الريح جعد له فقاخه صفراء ينبت وقت الربيع.

(٤) الرصاب: رغبة العسل.

(٥) قد يكون عبد الله بن موسى بن الحسن بن إبراهيم السلمي (أبو الحسن)، محدث، أديب، شاعر، مؤرخ.

ولا يس لون واحد وهو طائر
أغر تردى طيلسانا مدبجاً
إذا حاك أعلى رأسه فكانما
يخاف إذا ولي ويؤمن مقيلاً
بدا فارسي الرزي يغقد خضره
فمغجره الوزدي أحمر ناصع
يرجع الحان الغريض ومغيد

وقال السري الرفاء يصفه: [من المنسرح]

ومخطف الخضر برده خير
مجنح طار في مجنحة
كأنها والرياح تنثرها
لها حومات كأنها شعر
قد أذهبت في الجبين غمرته
سلاحه الدهر في مؤخره
كان شطر الذي يجزده

وأما العنكبوت وما قيل فيه - قد ضرب الله عز وجل المثل في الوهن^(٥)
بالعنكبوت؛ فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ
أَتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:
٤١]. والعنكبوت أصناف: منها صنف يسمى «الرثيلا» من ذوات السموم القاتل، وهو
عنكبوت صغير. ومنه صنف طويل الأرجل. ومنه يسمى «الليث» يصيد الذباب، وله
ست عيون وثمانية أرجل. وقال الجاحظ: ولد العنكبوت يقوى على التسج ساعة
يولد، وذلك من غير تلقين ولا تعليم. وأول ما يولد دوداً صغيراً، ثم يتغير ويصير

(١) الجوامع: جمع الجامعة، وهي الغل لأنها تجمع الديدن إلى العنق.

(٢) الوشائع: جمع وشيعة، وهي الطريقة في البرد.

(٣) العجر: ثوب تلقه المرأة على استدارة رأسها.

(٤) مخطف الخضر: ضامره.

(٥) الوهن: الضعيف.

عنكبوتاً. وهو يُطاولُ في السِّفَاد. ومنه ما هو كبيرٌ ونسجه رديءٌ، ومنه ما هو دقيق. وهو في نسجه يَمُدُّ السِّدَى^(١) ثم يعملُ اللَّحْمَةَ^(٢)، ويبتدىء من الوسط؛ ويَهَيِّئُ موضعاً لِمَا يصيده يكون له كالخِزانة. والأنثى منه هي التي تَنسِجُ، والذكر يحلُّ وَيَنْقُضُ. والتي تَنسِجُه لا تَخْرِجُه من جوفها بل من خارج جسدِها، وقَمُ العنكبوت مشقوقٌ بالطول. وهو إذا صاد الذُّبَابَ يَثْبُ عليه وتُوبَ الفَهْد.

وقال الشيخ الرئيس أو علي بن سينا: إِنَّ نَسِجَ العنكبوت يَقْطَعُ نَزْفَ الدَّمِ إذا جُعِلَ على الجِراحة، وإذا وُضِعَ نَسِجُه على القروح مَنَعَهَا أَنْ تَرْمَ وعلى الجراحات. وإذا طُبِخَ العنكبوت الذي هو غليظ النِّسْجِ أبيضُه بذهن الورد وقُطِرَ في الأذن سَكَنَ وجعُها. قال: وقال بعضهم: إِنَّ نَسِجَ العنكبوت إذا خُلِطَ ببعض المراهم وُضِعَ على الجَبْهَةِ والصُّدُغَيْنِ أبرأ حُمَى الغُبِ^(٣). قال: وزعم بعضهم أَنَّ نَسِجَ الصَّنْفِ الذي يكون نسجه كثيفاً أبيض إذا شُدَّ في خيط وعُلِقَ على العنق والعَضُدِ أبرأ حُمَى الغُبِ.

وقال ابن الرومي يَصِفُ فهد العنكبوت: [من منهوك المنسرح]

أَعَجَبُ مُسْتَفَادٍ	أفادني زمانني
من الفهود فَهْدٌ	في الاسم والعِيَانِ
تلك ذوات أربع	وذاك ذو ثَمَانِ
كأنما أَرْجُلُهُ	مَخَالِبُ النُّغْرَانِ ^(٤)
سيفاه سيفا بَطْلٍ	والسدرُ درعُ جَانِ
مستأنس ما إن بَنَى	والإنس في مكان
وصائدٌ وهو من الـ	مَصِيدٍ في أمان
ذُبَابُهُ في كَفِّهِ الـ	طائرٌ مثل العاني
وليس يبغى بدلاً	بطائر الخَوَانِ
إذا دَنَّا فلم يكن	بينهما عقْدان
عانقهُ أَسْرَعُ من	تعايَنُ الأَجْفَانِ

(١) السِّدَى: خلاف اللحمية، وهو ما يمد طولاً في النسيج.

(٢) اللحمية: الخيوط.

(٣) حمى الغب: التي تتوب يوماً بعد يوم.

(٤) النغران: جمع نغر، وهي أفراخ العصافير.

بِخَفَّةِ الْوُثُوبِ بِلْ بِجُرْأَةِ الْجَنَانِ
فَهُوَ عَزِيزٌ عَزَّةً فِي غَايَةِ الْهَوَانِ
وَقَالَ خَلْفَ الْأَحْمَرِ فِي الرُّثَيْلَاءِ: [من الرجز]

إِيعَثْ لَهُ يَا رَبُّ ذَاتَ أَرْجُلٍ فِي قِمِّهَا أُخْجِنُ مِثْلَ الْمِنْجَلِ^(١)
دَهْمَاءَ مِثْلَ الْعَنْكَبُوتِ الْمُخَوِلِ تَأْخُذُهُ مِنْ تَحْتِهِ وَمِنْ عَلِ
وَأَمَّا الْجَرَادُ وَمَا قِيلَ فِيهِ - فالجراد أحد جُنْدِ اللَّهِ الَّذِي عَذَّبَ اللَّهُ بِهِ قَوْمَ فِرْعَوْنَ؛
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. والعرب
تقول: سَرَّاتُ الْجَرَادَةِ إِذَا بَاضَتْ. فَإِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْضِهِ فَهُوَ «دَبِّي»، وَيُخْرَجُ دُوداً أَصْهَبَ
إِلَى الْبَيَاضِ. فَإِذَا تَلَوَّنَتْ فِيهِ خُطُوطٌ صُفْرٌ وَسُودٌ وَبَيْضٌ فَهُوَ «الْمُسِيخُ»، فَإِذَا ضَمَّ
جَنَاحِيهِ فَذَلِكَ «الْكُتْفَانُ»؛ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَكْتِفُ فِي الْمَشْيِ. فَإِذَا ظَهَرَتْ أَجْنَحَتُهُ وَصَارَ أَحْمَرَ
الْعُبْرَةَ فَهُوَ «الْعَوَّاءُ»، وَالْوَاحِدَةُ عَوَّاءَةٌ؛ وَذَلِكَ حِينَ يَسْتَقِلُّ فَيَمْرُجُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ وَلَا
يَتَوَجَّهُ إِلَى جِهَةٍ. فَإِذَا بَدَتْ فِي لَوْنِهِ الْحُمْرَةُ وَالصَّفْرَةُ وَأَخْتَلَفَ فِي أَلْوَانِهِ فَهُوَ «الْخَيْفَانُ».
وَإِذَا أَصْفَرَتِ الذُّكُورُ وَاسْوَدَّتِ الْإُنَاثُ سُمِّيَ حِينَئِذٍ «جَرَاداً».

وهو إذا أراد أن يبيض التمس لبيضه المواضع الصَّلْدَةُ^(٢) والصخور الصُّلْبَةُ التي لا
تعمل فيها المعاول فيضربها بذنبه فتتفرج له، ثم يلقي ببيضه في ذلك الصَّدْعِ فيكون له
كالأفحوص ويكون حاضناً له ومربيّاً.

والجرادة لها سِتْ أَرْجُلٍ: يَدَانِ فِي صَدْرِهَا، وَقَائِمَتَانِ فِي وَسْطِهَا، وَرِجْلَانِ فِي
مُؤَخَّرِ جَسَدِهَا، وَطَرَفَا رِجْلَيْهَا مَنَشَارَانِ. وَالْجَرَادُ مِنَ الْحَيَوَانِ الَّذِي يَنْقَادُ إِلَى رَئِيسٍ
يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ كَالْعَسْكَرِ، إِنْ ظَعَنَ أَوَّلُهُ تَتَابَعَ كُلُّهُ ظَاعِناً؛ وَإِذَا نَزَلَ أَوَّلُهُ نَزَلَ جَمِيعُهُ. وَلُعَابُهُ
سَمٌّ عَلَى الْأَشْجَارِ، لَا يَقَعُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا أَهْلَكَهُ. وَالْجَرَادَةُ فِيهَا شَبَّةٌ مِنْ عَشْرَةٍ مِنْ
جَبَابِرَةِ الْحَيَوَانِ، وَهِيَ: وَجْهُ فَرَسٍ، وَعَيْنَا فِيلٍ، وَعُتُقُ ثُورٍ، وَقَرْنَا إِبِلٍ، وَصَدْرُ أُسْدٍ
وَبَطْنُ عَقْرَبٍ، وَجَنَاحَا نَسْرٍ، وَقَدْخَا جَمَلٍ، وَرِجْلَا نَعَامَةٍ، وَذَنْبُ حَيْةٍ. قَالَ شَاعِرٌ:
[من الطويل]

لَهَا قَدْخَا بَكْرٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَقَادِمَتَا نَسْرٍ وَجُؤُجُؤُ ضَيْغَمٍ^(٣)
حَبَّتْهَا أَفَاعِي الرَّمْلِ بَطْنًا وَأَنْعَمَتْ عَلَيْهَا جِيَادُ الْخَيْلِ بِالرَّأْسِ وَالْقَمِّ

(١) الأحن: المعوج ويعني به السِّن.

(٢) الصلدة: الصلبة الملساء الشديدة.

(٣) الضيغم: الأسد الواسع الشدق.

وقال أبو علي بن سينا: أجودُ الجراد السمينُ الذي لا جناح له؛ وأرجلُ الجراد ثقُلُ الثاكيلِ فيما يقال. قال: يؤخذ من مُستديراتها اثنتا عشرة وتُنزع رؤوسُها وأطرافُها ويُجعل معها قليلُ آسٍ يابسٍ وتُشرب للاستسقاء كما هي. قال: والجراد نافع لتقطير البول؛ وإذا تُبخر به نفع عسرُه وخصوصاً في النساء. ويُتَبَخَّرُ به من البواسير. والذي لا أجنحة له يُشوى ويؤكل للسهل العقب.

وقال بعضُ الأعراب وذكر فسادَه: «بَاكَرْنَا وَسَمِيَّ»^(١)، ثم خَلَفَهُ وَلِيَّ^(٢)؛ حتى كَأَنَّ الأرضَ وشيئاً منشور، عليه لؤلؤٌ منشور؛ ثم أَتَتْنَا غَيُومُ جَرَادٍ، بِمَنَاجِلِ حَدَادٍ، فَأَخْرَبَتِ الْبِلَادَ وَأَهْلَكَتِ الْعِبَادَ. فسبحان من يُهْلِكُ الْقَوِيَّ الْأَكُولَ، بِالضَّعِيفِ الْمَأْكُولِ».

وقال العسكري يصف جرادة: [من مجزوء الرجز]

أَجْنَحَةٌ كَأَتْهَا	أُرْدِيَّةٌ مِنْ قَصَبٍ
لَكْنَهَا مَنَقُوطَةٌ	مِثْلُ صَدُورِ الْكُثْبِ
بِأَرْجَلٍ كَأَتْهَا	مِنَاشِرٌ مِنْ ذَهَبٍ

وقال أيضاً: [من الوافر]

وَأَعْرَابِيَّةٌ تَزْتَادُ زَادًا	فَتَمْرُقُ مِنْ بِلَادٍ فِي بِلَادٍ
عَدَتْ تَمْشِي بِمِنْشَارٍ كَلِيلٍ	تَبُوعٌ بِهِ قَرَارَةٌ كُلٌّ وَادٍ ^(٣)
وَتَنْشُرُ فِي الْهَوَاءِ رِدَاءَ شَرْيٍ	عَلَى أَطْرَافِهِ نُقْطُ الْمِدَادِ ^(٤)

وقال يعلَى بن إبراهيم الأندلسي:

وَخَيْفَانَةٌ صَفْرَاءُ مَسْوَدَةُ الْقَرَا	أَتَتْكَ بَلَوْنٍ أَسْوَدٍ فَوْقَ أَصْفَرٍ ^(٥)
وَأَجْنَحَةٌ قَدْ أَلْحَقَتْهَا لِرُؤْيَةٍ	تَقَاصَرُ عَنْ أَثْنَاءِ بُزْدٍ مُحَبَّرٍ

وقال آخر: [من المنسرح]

جَرَادَةٌ حَثَّتِ الْقُلُوبَ لَهَا	حِينَ أَشَارَتْ بِنَاطِرِي رَبْرَبٍ
------------------------------------	-------------------------------------

(١) الوسمي: أول المطر.

(٢) الولي: المطر بعده.

(٣) تبوع الشيء: يدرك غايته.

(٤) الشرى: الحنظل.

(٥) القرا: الظهر.

صفراء جسيم يَشُوبُهَا رَقَطٌ فِي نُقْطٍ مِنْ عَبِيرِهَا الْأَشْهَبِ^(١)
 كَأَنَّهَا وَالْجَنَاحُ حُلَّتْهَا رَاقِصَةٌ فِي مَمَسِّكَ مُذْهَبٌ
 ووقفتُ على حكاية عجيبة في أمر الجراد، نقلها أبْنُ حَلْبٍ رَاغِبٌ فِي تَارِيخِهِ فِي
 حَوَادِثِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتَسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، قَالَ: قَالَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ عَبْدُ الرَّحِيمِ
 الْيَسَانِي: حَدَّثَنَا الْقَاضِي بَهَاءُ الدِّينِ بْنِ شَدَّادٍ قَاضِي حَلْبٍ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَةِ مِنْ عَشْرِ شَهْرِ
 رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتَسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَقَدِمَ عَلَيْنَا فِي صَفَرٍ مِنْهَا، قَالَ: كَانَ الْجَرَادُ
 بِالشَّامِ قَدْ زَادَ أَمْرُهُ وَعَظُمَ خَطْبُهُ وَأَمَحَلَّتِ السَّنَةُ بَعْدَ السَّنَةِ وَلَمْ يَسْلَمْ مِنَ الزَّرْعِ إِلَّا أَقْلُهُ؛
 فَأَعْلَمَ الْمَلِكُ الظَّاهِرَ غَازِي صَاحِبَ حَلْبٍ عَنْ طَائِرٍ يَسْمَى «السَّمْنَدَلُ»، إِذَا ظَهَرَ الْجَرَادُ
 بِبِلَادٍ أَخْضَرَ إِلَيْهَا مَاءٌ مِنْ مَكَانٍ مَخْصُوصٍ فَتَبِعَهُ ذَلِكَ الطَّائِرُ وَوَقَعَ عَلَى الْجَرَادِ فَأَتْلَفَهُ
 وَأَسْتَخْرَجَ بَيْضَهُ مِنَ التَّرَابِ وَنَظَّفَ الْبِلَادَ مِنْهُ. قَالَ: فَتَدْبُ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِنَ الْعَجَمِ ذَوِي
 قُوَّةٍ فِي أَبْدَانِهِمْ وَصَبْرٍ عَلَى مَشْيِ الْمَشْيِ فِي أَصْفَارِهِمْ، وَأَزَاحَ عِلَّتَهُمْ بِنَفَقَةٍ وَسَّعَهَا
 عَلَيْهِمْ، وَسَارُوا عَلَى خُورِزْشْتَانِ^(٢)، وَاسْتَدَلُّوا عَلَى الضَّيْعَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ عَمَلِهَا وَفِيهَا هَذَا
 الْمَاءُ، فَوَصَلُوا إِلَيْهَا وَحَمَلُوا مِنَ الْمَاءِ، وَوَجَدُوا هَذِهِ الْعَيْنَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَا تَبْلُغُ
 إِلَى أَنْ تَفِيضَ فَتَسِيحَ وَلَا إِلَى أَنْ تَغِيضَ فَتُسْتَقَى. وَمَنْ تَدْبِيرُ هَذَا الْمَاءِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ بِهِ
 الْمَرَادُ أَنْ يَحْمِلَهُ الْمَاشِي وَلَا يَرْكَبُ، وَإِذَا نَزَلَ بِمَنْزِلَةٍ عَلَّقَهُ وَلَا يَضَعُهُ عَلَى الْأَرْضِ؛
 وَكَانَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ قَدْ سَيَّرَ مَعَهُمْ دَوَابَّ يَرْكَبُهَا مَنْ لَمْ يَحْمِلِ الْمَاءَ بِالثَّوْبَةِ وَيَمْشِي مَنْ
 يَحْمِلُهُ؛ وَمِنْ عَادَةٍ مَنْ يَحْمِلُهُ أَلَّا يَنْفَرِدَ بِنَفْسِهِ وَأَلَّا يَسِيرَ إِلَّا فِي قَافِلَةٍ وَأَنْ يُعْلَمَ أَهْلُهَا بِمَا
 مَعَهُ وَيُشْهِدَهُمْ أَنَّهُ مَا رَكِبَ ظَهَرَ دَابَّةً فِي حَالِ حَمَلِهِ، وَأَنَّهُ مَشَى وَالْمَاءُ فِي إِيَّانِهِ فِي يَدِهِ،
 وَكَلَّمَا وَصَلَتْ قَافِلَةٌ إِلَى بَلَدٍ أَدَّى شُهُودُ الْقَافِلَةِ مَا شَهِدُوا بِهِ عِنْدَ الْحَاكِمِ؛ وَتَبَيَّنَ حَامِلُ
 الْمَاءِ كِتَابًا حُكْمِيَّةً مِنْ قَضَاةِ الْبِلَادِ فِي أَمْرِ الْمَاءِ بِصَحَّةِ نَسَبِهِ وَكَيْفِيَّةِ حَمَلِهِ. قَالَ: وَلَمْ
 يَزَالُوا عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ وَصَلُوا إِلَى حَلْبٍ، فَعُلِقَ ذَلِكَ الْمَاءُ وَوَصَلَ ذَلِكَ الطَّائِرُ فِي
 جَمْعِ كَجَمْعِ الْجَرَادِ وَأَكْثَرُ، وَهُوَ يَشْبَهُ السَّمَائِي فِي قَدْرِهِ وَلَوْنِهِ، وَوَقَعَ عَلَى الْجَرَادِ
 فَأَتْلَفَهُ وَأَسْتَأَصَلَهُ. قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ الْجَرَادَةَ وَالثَّنْتَيْنِ وَالثَّلَاثَ وَالْأَرْبَعَ فِي دَفْعَةٍ وَيَرْمِيهَا
 فِي الْحَالِ فِي بَطْنِهِ، وَإِنَّهُ يَتَّبِعُ مَكَانَ بَيْضِهِ فِي الْأَرْضِ فَيُبْحَثُ عَنْهُ بِمَنَاقِيرِهِ وَأَخْرَجَهُ،
 حَتَّى صَارَتِ الْأَرْضُ كَالْغَزْيَالِ مِنْ أَثَرِ نَقْرِهِ، وَإِنَّ الْجَرَادَ أَرْتَفَعَ مِنَ الشَّامِ وَكُشِفَتْ بِهِ
 الْبَلْوَى. قَالَ: وَأَمْرُ هَذَا الْمَاءِ مَشْهُورٌ مَعْلُومٌ مُسْتَفِيضٌ.

(١) الرقط: جمع الرقطة، وهو لون مؤلف من بياض وسواد؛ أو من حمرة وصفرة وغيرهما.
 (٢) خورزستان: اسم لجميع بلاد الخوز المذكورة. وقيل ليس بخورزستان جبال ولا رمال إلا شيء يسير يتأخم نواحي تستر وجنديسابور. (معجم البلدان لياقوت).

وأما دود القَرِّ وَمَا قِيلَ فِيهِ - ودود القَرِّ وإن لم يكن من الهمَج الذي له جناح، فمأل أمره أن يصير له جناح؛ ولذلك أوردناه في هذا الباب وألحقناه بهذا النوع.

ودود القَرِّ أول ما يكون بزرأ في قَدْر حب التين، وهو البيض الذي يتكون فيه الدود. ويكون خروجه منه في أول فصل الربيع. ويخرج أصغر من الذر، وفي لونه. وإذا تأخر خروجه وضعه النساء تحت ثديهن في صرر. فإذا خرج غُذِيَ بورق التوت. ويأخذ في النمو إلى أن تصير الدودة منه في قَدْرِ الإصْبَع ويتنقل من السواد إلى البياض أولاً فأولاً، وذلك في مدة ستين يوماً فما دونها. وله في غضون هذه المدة تومات لا يأكل فيها شيئاً ألبتة، كل نومة يومان؛ فإذا أَسْتَيْقِظَ أَكَلَ أضعاف ما كان يأكل قبل النوم. فإذا أكمل المدة أمثلاً حريراً فلا يبقى فيه مَسَاغُ لمأكل، فيقطع الأكل عند ذلك ويهيج للنسج؛ فأَيُّ شيء تعلق به نَسَجَ عليه. وهو يَنْسِجُ على نفسه بما يُخْرِجُه من فيه إلى أن يُخْرِجَ ما في جوفه، وهو أَرْقُ من العنكبوت، ويكمل عليه ما بينه، فيكون كهيئة اللوزة. ويبقى محبوساً في غِزْله قريباً من عشرين يوماً، ثم يَنْقُبُ عن نفسه ويخرج فَرَّاشاً أبيض ذا جناحين لا يَسْكُنَانِ عن الاضطراب وقرنين وعينين. وهو إذا نَقَبَ عن نفسه وخرج لا يُنتَفِعُ من نسجه بحريز لأنه يقطع طاقاته. وعند خروجه يهيج للسفاد فيُلصِقُ الذكر ذنبه بذنب الأنثى ويلتحمان ساعة زمنية ثم يفترقان، وتنتثر الأنثى البزر على الصفة التي ذكرناها على خِرْقٍ بَيَضٍ تكون قد فُرِشَتْ له. فإذا نَفِدَ ما فيهما من السفاد والبزر ماتا. هذا إذا أُريدَ من الدود البزر. وإذا أُريدَ منه الحرير تُرِكَ ذلك النسج في الشمس بعض يوم فيموت.

وقد جعله بعض الشعراء مثلاً للحريص على جمع المال، فقال:

يُفْنِي الحريصُ لجمع المال مُدَّتَهُ وللحوادث والوراث ما يَدَعُ

كدودة القَرِّ ما تَبْنِيهِ يُهْلِكُهَا وَغَيْرُهَا بِالَّذِي تَبْنِيهِ يَنْتَفِعُ

وهو كثير العوارض. وأكثر ما يَغْرِضُ له الفساد إذا أَطْعِمَ وَرَقَ الثوت الحامض. وَيَهْلِكُ من صوت الرعد وضرب الطُّسْتِ وَالْهَآوَيْنِ، ومن رائحة الحَلِّ والدُّخَانِ. وكثرة الحر تهلكه وتُذْيِبُهُ؛ وكذلك البرد الشديد فإنه يبْطِئُ به. ويؤذيه مَسُّ الْجُنُبِ والحائض، وَيُخْشَى عليه من الفأر والعصفور والنمل والوَغَّ^(١).

وأما الذُّبَابُ وَمَا قِيلَ فِيهِ - فقد ضرب الله عَزَّ وَجَلَّ به المثل فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِثْلُ مَا اسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٦﴾﴾

(١) الوزغ: جمع الوزغة، وهو سام أبرص (للمذكر والأنثى).

[الحج: ٧٣]. فهذا مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لَضَعْفِ النَّاسِ وَعَجْزِهِمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمَخْلُوقٍ. وجاء في الحديث: «إِذَا سَقَطَ الذُّبَابُ فِي طَعَامِ أَحَدِكُمْ أَوْ شَرِبَهُ فَلْيَغْمِسْهُ فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ دَاءً وَفِي الْآخَرِ شِفَاءً». ويقال: إِنَّهُ يَغْمِسُ جَنَاحَ الدَّاءِ وَيَرْفَعُ جَنَاحَ الشِّفَاءِ، فلهذا نُدِبَ إِلَى غَمْسِهِ. والعرب تجعل النحلَ والقَرَّاشَ والدَّبْرَ من الذُّبَابِ.

قال الجاحظ: «والذُّبَابُ ضَرْوبٌ سِوَى مَا ذَكَرُوا مِنَ الْقَرَّاشِ وَالنَّحْلِ وَالزَّنَائِيرِ؛ فَمِنْهَا الشُّغْرَاءُ. قال الرازي:

* ذِبَابُ شُغْرَاءَ وَنَبْتُ مَائِلٍ *

وللِكَلاِبِ ذِبَابٌ عَلَى جِدَةِ يَتَخَلَّقُ مِنْهَا فَلَا يَرِيدُ سِوَاهَا. وَمِنْهَا ذِبَابُ الْكَلَأِ وَالرِّيَاضِ؛ وَكُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يَأْلَفُ مَا خُلِقَ مِنْهُ.

وَمِنْهَا الذُّبَابُ الَّذِي يَقْتُلُ الْإِبِلَ وَهُوَ أَزْرَقُ. وَالذُّبَابُ الَّذِي يَسْقُطُ عَلَى الدَّوَابِّ وَهُوَ أَصْفَرُ. وَيُقَالُ: إِنَّ الذُّبَابَ يَكْثُرُ إِذَا هَاجَتْ رِيحُ الْجَنُوبِ، وَإِنَّهُ يُخْلَقُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ؛ وَإِذَا هَبَّتْ رِيحُ الشَّمَالِ خَفَّتْ وَتَلَاشَى. وَهُوَ مِنْ ذَوَاتِ الْخِرَاطِيمِ، وَكَذَلِكَ الْبَعُوضُ. وَيُقَالُ: إِنَّ الذُّبَابَ لَا يُعَمَّرُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا.

قال الجاحظ: «وَلَيْسَ بَعْدَ أَرْضِ الْهِنْدِ أَكْثَرُ ذُبَابًا مِنْ وَاسِطٍ^(١)، وَرَبَّمَا رَأَيْتَ الْحَائِطَ وَكَأَنَّ عَلَيْهِ مِسْحًا شَدِيدَ السَّوَادِ مِنْ كَثَرَةِ مَا عَلَيْهِ مِنَ الذُّبَابِ».

ويقال: إِنَّ اللَّبْنَ إِذَا ضُرِبَ بِالْكُنْدُسِ^(٢) وَنُضِجَ بِهِ بَيْتٌ لَمْ يَدْخُلْهُ ذُبَابٌ. وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِ الذُّبَابِ أَنَّهُ يَلْقِي رَجِيعَهُ عَلَى الشَّيْءِ الْأَبْيَضِ أَسْوَدَ وَعَلَى الْأَسْوَدِ أَبْيَضَ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَا يَظْهَرُ إِلَّا فِي مَوَاضِعِ الْعُقُونَاتِ وَالْقَادُورَاتِ، وَمُبْتَدَأَ خَلْقِهِ مِنْهَا، ثُمَّ يَكُونُ مِنَ السَّفَادِ.

قال الجاحظ: وَيُقَالُ: إِنَّ الذُّبَابَ لَا يَقْرَبُ قَدْرًا فِيهِ كَمَاءٌ^(٣).

وَالذُّبَابُ بَطِيءٌ فِي سِفَادِهِ، وَرَبَّمَا يَبْقِي الذَّكَرُ عَلَى ظَهْرِ الْأُنْثَى عَامَّةَ النَّهَارِ؛ فَهُوَ يَتَجَاوَزُ فِي ذَلِكَ الْبَعِيرَ وَالْخَنْزِيرَ. وَهُوَ مِنَ الْحَيَوَانِ الشَّمْسِيِّ لِأَنَّهُ يَخْفَى فِي الشِّتَاءِ وَيَظْهَرُ فِي الصَّيْفِ. وَلِلذُّبَابِ يَدَانِ زَائِدَتَانِ فِي مُقَدِّمِ يَدَيْهِ يَتَّقِي بِهِمَا الْأَذَى عَنْ عَيْنَيْهِ فَإِنَّهُمَا بَغِيرُ أَجْفَانٍ.

والعرب تضرب به المثل في الزُّهْوِ فتقول: «أَزْهَى مِنْ ذُبَابٍ». قالوا: لِأَنَّهُ يَسْقُطُ

(١) واسط: بلد متوسط بين البصرة والكوفة. (معجم البلدان).

(٢) الكندس: الخرشف البستاني، وهو عروق نبات داخله أصفر وخارجه أسود.

(٣) الكماء: واحدها الكمء، وهو فطر من الفصيلة الكمئية.

على أنف الملك الجبار وعلى موق عينيه ويطرُده فلا ينطرد. ويضرب به المثل في القدر وأستطابة الثن. فإذا عجز الذباب عن شم شيء فلا شيء أنتن منه.

وقال ابن عبدل في محمد بن حسان بن سعد ورماء بالبخر:

وما يدنو إلى فيه ذبابٌ ولو طليث مشافره بقند^(١)
يرين حلاوة ويخفن موتاً دُعاً إن هممن له بوزد

ويقال لكل أبخر: أبو ذبان؛ وكانت من كنى عبد الملك بن مروان. وقد وصف الشعراء الذباب؛ فمن ذلك قول عنترة: [من الكامل]

جاءت عليها كل عين ثرة فتركن كل حديقة كالدرهم
فترى الذباب بها يغني وحده هزجاً كفعل الشارب المترنم
غرداً يحك ذراعَه بذراعَه فغل المكب على الزناد الأجدم

وقال العسكري، وجمع بين البراغيث والبعوض والذباب: [من الكامل]

وبدا فغناني البعوض تطرباً فهرقت كأس النوم إذ غناني
ثم أنبرى البرغوث ينقط أضلعي نقط المعلم مشكل القرآن
حتى إذا كشف الصباح قناعه قرأت لي الذبان بالألحان

وأما البعوض وما قيل فيه - والبعوض صنفان: صنف يُشبه القراد، لكن أرجله خفية ورطوبته ظاهرة، يُسمى بالعراق والشام «الجرجس» و«الفسايس» وبمصر «البق». ويشم رائحة الإنسان ويتعلق به. وله لسع شديد. ولده إذا قُتل رائحة كريهة. ويقال: إنه يتولد من النفس الحار ولشدة رغبته في الإنسان لا يتمالك إذا شم رائحته، فإذا كان في السقف رمى بنفسه عليه فلا يخطئه، وهذا الصنف ليس من الطير. والصنف الثاني طائر ويُسميه أهل العراق «البق» و«البعوض»، ويسميه أهل مصر «الناموس». وهو يتولد من الماء الراكد، فإذا صار الماء رقيقاً استحال دعاميص^(٢)، ثم تستحيل الدعاميص قرأشاً. والبعوض في خلقة الفيل إلا أنه أكثر منه أعضاء، فإن للفيل أربع أرجل وخرطوماً وذنباً، وله مع هذه الأعضاء يدين زائدتان وأربعة أجنحة. وخرطوم البعوض أجوف نافذ الخرق، فإذا طعن به جلد الإنسان استقى به الدم. وقذف به إلى جوفه. وفيه من الشره أن يمتص من دم الإنسان إلى أن ينشق ويموت، أو يمتص إلى أن يعجز عن الطيران. ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع، فيبقى طريحاً

(١) القند: عسل قصب السكر.

(٢) الدعاميص: واحده دعموص، وهو دويبة، أو دودة سوداء تكون في الغدران إذا نشأت.

في الصحراء فيجتمع حوله السباع والطير التي تأكل الجيف، فمن أكل منها منه مات لوقته في موضعه. ويقال: إن بعض جبابرة الولاية بالعراق كان يقتل بالبعوض، فيأمر بمن يريد قتله أن يجرد من ثيابه ويُرَبَط ويُخَرَج إلى بعض الآجام التي بالبطائح^(١) فيوجد في أسرع وقت عظاماً عارية من جلد ولحم.

وقال الجاحظ: بعوض البطائح كجارات^(٢) الأهواز وعقارب شهرزور. وربما ظفر بالسكران النائم فلا يبقى فيه إلا العظام العارية.

وقد أكثر الشعراء في وصف البعوض؛ فمن ذلك قول فرج بن خلف الأندلسي:
 بعوض جعلن دمي قهوة وغئني بصنوف الأغان
 كأن غروقي أوتارهن وجسمي الرباب وهن القيان
 وقال آخر: [من الرجز]

إذا البعوض رجلت أصواتها وأخذ اللحن مغنياها
 لم تطرب السامع خافضاتها وأرق العينين رافعاتها
 صغيرة كبيرة أذاتها تنفض عن بغيتها بغاتها
 ولا يصيب أبداً رماها راحة خرطومها قناتها

وقال أبو هلال العسكري: [من الهزج]

غناء يُسخن العين وينفي فرح القلب
 ولا يأتي على الزمر ولا يجري مع الضرب
 غناء البق بالليل ينفي طرب الشرب
 إذا ما طرقت الممرى جرى في طلق الكرب
 إذا ما نقب الجلد أخفى أثر الثقب
 سوى خمر خفيات تحاكي نقت الكتب

وأما البراغيث وما قيل فيها - والبزغوث أسود أحذب. وهو من الحيوان الذي لا يمشي؛ وإنما أوردناه مع ذي الجناح لأنه ذو وثب لا يقصر عن الطيران؛ ومنه أيضاً ما يمشي ولا يثب. وقالوا: إنه يطيل السفاد، ويبيض ويقرخ. وأصله متولد من التراب في المواضع المظلمة. وهو يكثر ويستطيل ويؤذي في أواخر الشتاء وفصل الربيع. وإذا

(١) البطائح: واحدها البطيحة، وهي المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى.

(٢) الجارات: واحدها الجارة: عقير صفراء على شكل التينة، تجر ذنبها.

أشدت عليه الحرُّ هلك.

ومن جناس الكلام فيه قولهم: أذى البراغيث إذا ألبرى غيث. يعنُون بالبرى التراب إذا نزل عليه المطر.

والبرغوث يكمن بالنهار ويظهر بالليل، ويتشد أذاه للإنسان إذا أخذ مضجعه. وهو يطول لبثه بمصر؛ ولا يوجد في البلاد الحارة مثل صعيد مصر ولا في البلاد الشديدة البرد.

وقد أكثر الشعراء في وصف البراغيث وأفعالها؛ فمن ذلك قول أبي الرَّماح الأسدي وكان قد سكن مصر: [من الطويل]

تَطاول بالفُسْطاطِ ليلي ولم أكن
يُورِقْني حُذْبٌ صغارٌ أَذْلَةٌ
إذا ما قتلناهنَّ أَضْعَفْنَ كثرةً
ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً
وَقَالَ العسْكَرِيُّ من أبيات:

ومن براغيث تَنفِي النومَ عن بصري
يَطْلُبْن مَنِّي ثاراً لستُ أعرفه
كَأَنَّ جَفْنِي عن عيني قصيرانِ
إلا عداوة سودانٍ لبيضانِ

وقال أبو الحسن أحمد بن أيوب البصري المعروف بالناهي: [من المنسرح]
لا أَعْدُلُ الليلَ في تطاوله
لي في البراغيث والبعوض إذا
يُلْحِقُنَا جِنْدِسُ الظلامِ قَصَصُ^(١)
إذا تَعَنَّى بَعُوضُهُ طَرِباً
ساعد برغوته الغنا فَرَقَصُ

وقال عبد المؤمن بن هبة الله الأصبهاني:

بات البراغيثُ في الفراش معي
أكلني بعد ما شربن دمي
تَقْسِمُني قسمةَ الموارِيثِ
فَمَنْ مُغِيثِي من البراغِيثِ
وقال أيضاً فيها: [من السريع]

إنَّ البراغِيثَ إذا ساوَرَت
وكلما عنت بَعُوضُ لها
من كَتَها ترقُصُ أو تَقْرُصُ
فهي على شَرْب دمي أحرصُ

(١) الغضى: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفئ.

(٢) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

تَقْفِرُ مِنْ ثَمَّ إِلَى هَاهُنَا كَأَنَّهَا زَنْجِيَّةٌ تَزْقُصُ
وقال عبد الله بن عبد الرحمن الدِّيَنُورِيُّ:

وَحُمَشَ الْقَوَائِمُ حُذْبَ الظُّهُورِ طَرَقْنَ فِرَاشِي عَلَى غِرَّةٍ
وَيَنْقُطُنِي بِخِرَاطِيمِهِنَّ كَنَقَطِ الْمَصَاحِفِ بِالْحُمْرَةِ
وقال ابن المعتز:

وَبِرَاغِيثٍ إِنْ ظَفِرَ نَ بِجَسْمِي خِلْتُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهُ خَالَا
وأما الحُرْقُوصُ وَمَا قِيلَ فِيهِ - فقد ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان فقال: وزعموا
أنه دُوبَّةٌ أَكْبَرُ مِنَ الْبَرِغوثِ؛ وَأَكْثَرُ مَا يَنْبُتُ لَهَا جَنَاحَانِ بَعْدَ حِينٍ. وَعَضَّةُ الْحُرْقُوصِ
أَشَدُّ مِنْ عَضَّةِ الْبَرِغوثِ. قالوا: وَالْحُرْقُوصُ يُسَمَّى الْهُيْكَ. وَأَكْثَرُ مَا يَعْضُ أَخْرَاجَ^(١)
النِّسَاءِ وَخُصَى الرِّجَالِ. قال أعرابي وقد عَضَّ الْحُرْقُوصُ خَصِيَّتَيْهِ:

لَقَدْ مَنَعَ الْحَرَاقِيصُ الْقَرَارَا فَلَا لِيلاً نَقِيزَ وَلَا نَهَارَا
يُغَالِبُنِ الرِّجَالَ عَلَى خُصَاهُمُ وَفِي الْأَخْرَاجِ دَسًا وَأَنْجِجَارَا
وقالت امرأة تشير إلى زوجها:

يَغَارُ مِنَ الْحُرْقُوصِ إِنْ عَضَّ عَضَّةً بِفَخْذِي مِنْهَا مَا يَجْذُو غُيُورُ
لَقَدْ وَقَعَ الْحُرْقُوصُ مِنِّي مَوْعِعًا أَرَى لَذَّةَ الدُّنْيَا إِلَيْهِ تَصِيرُ

البَابُ السَّابِعُ مِنَ الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْفَرْقِ الثَّالِثِ فِي أَنْوَاعِ الْأَسْمَاكِ

قال ابن أبي الأَشْعَثِ: السَّمَكُ يَسْتَنْشِقُ الْمَاءَ بِأَصْدَاغِهِ فَيَقُومُ لَهُ مَقَامَ الْهَوَاءِ
لِلْإِنْسَانِ. وَالسَّمَكُ كُلُّ شَيْءٍ كَثِيرِ الْأَكْلِ، وَحَاسَّةُ السَّمْعِ وَالشَّمِّ فِيهِ أَقْوَى مِنْهَا فِي
الْإِنْسَانِ. وَأَسْتَدِلُّ عَلَى ذَلِكَ بِأَدَلَّةٍ يَطُولُ شَرْحُهَا. وَحَاسَّةُ الْبَصَرِ فِيهِ لَيْسَتْ كَالسَّمْعِ
وَالشَّمِّ وَإِنَّمَا أَوْضَعُ. وَلِسَانُهُ غَلِيظٌ قَصِيرٌ شَبِيهُهُ بِاللِّسَانِ وَلَيْسَ لِسَانًا. وَلَهُ أَضْرَاسُ لَيْسَتْ
لِلْمَضْغِ عَلَيْهَا وَإِنَّمَا لَقَتْلُ مَا يَفْتَرِسُهُ مِنْ حَيَوَانَ الْمَاءِ وَيَفْرُغُ فِيهِ سَمًّا يَكُونُ سَبَبًا لِقَتْلِهِ.
وَصَغَارُ السَّمَكِ تَحْتَزُّ مِنْ كِبَارِهِ بِأَنْ تَطْلُبَ الْمَاءَ الْقَلِيلَ الَّذِي لَا يَحْمِلُ الْكِبَارَ.
وَأَخْتَلَفَ النَّاسُ فِي سِفَادِ السَّمَكِ، فَلَا أَكْثَرَ عَلَى أَنَّهُ يَسْفِدُ مِثْلَ الْحَيَّةِ. وَقَالَ

(١) أحرّاج: واحدها حرج، وهو الحر، أي حر المرأة (اللسان مادة حرج).

الجاحظ: وفي السمك القواطع والأوبد كالطير. ومن أصناف السمك ما هو في شكل الحيات. قال: وهي إما أن تكون كانت برّية أو جبليّة فاكسحتها السيول وألقها في الماء الدائم فتوالدت فيه؛ وإما أن تكون أمهاتها وآباؤها من دواب الماء.

وقال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا في الأدوية المفردة: أفضل السمك في جثته ما كان ليس بكبير جداً ولا ضلب اللحم ولا يابس، ولا دسومة فيه كأنه يتفتت، والذي لا مخاطية ولا سهوكة فيه وطعمه لذيذ، فإن اللذيذ مناسب، وما هو دسم دسومة غير مفطرة ولا غليظة ولا شحمية ولا جريفة، والذي لا يسرع إليه الثنن إذا فصل عن الماء. ويختار من السمك الضلب اللحم ما هو أصغر، ومن الرخص اللحم ما هو أكبر إلى حد ما. وضلب اللحم مملوحاً خيراً منه طرياً. وأما في الأجناس فالشبابيط أفضلها، ثم البني، والبياح البحري لا بأس به. وأما في مأواه فالذي يأوي الأماكن الصخرية ثم الرملية والمياه العذبة الجارية التي لا قدر فيها ولا حمأة وليست بطيحة^(١) ولا نزيّة ولا من البحيرات الصغار التي لا تسقيها الأنهار ولا فيها عيون. قال: والسمك البحري محمود لطيف، وأفضل أصنافه الذي لا يكون إلا في البحر واللجة. والذي يأوي ماء مشكوفاً ترفرف الرياح عليه أجود من الذي بخلافه. والذي يأوي ماء كثير الاضطراب والتموج أجود من الذي يأوي الماء الراكد. والسمك البحري لطيف اللحم لا سيما إذا كان مأواه في الشطوط صخراً أو رملاً، والذي يصير من البحر إلى أنهار عذبة يعارض جريّة الماء بالطبع لطيف كثير الرياضة.

وأما غذاؤه، فالذي يغتذي بالحشيش وأصول النبات خيراً من الذي يغتذي الأقذار التي تطرح من البلاد إلى المستنقعات. وأفضل ما يؤكل السمك اسفيدباجا^(٢) ثم المشوي على الطابق. وأما المقلي فيصلح لأصحاب المِعَد القويّة ومعه الأبايزير^(٣). والمشوي أغذى وأبطأ نزولاً، والمطبوخ بالضد. وأفضل طبيخه أن يطبخ الماء حتى يغلي ثم يُلقي فيه.

وأما المالح، فخير ما كان طرياً قريب العهد بالتمليح. وأحمدّه المَمَقُور^(٤) بالخل والتوابل.

وأما طبعه، فجميع السمك بارد رطب، لكن بعضه أسخن بالقياس إلى مزاج

(١) البطيحة: نسبة إلى البطيحة، وقد تقدم تفسيرها.

(٢) الأسفيدباج: نوع من طعام السمك.

(٣) الأبايزير: التوابل التي منها الكسبرة والمصطكا والفلفل وغيرها.

(٤) الممقور: المنقوع.

السمك مثل الكَوْسَج^(١) والمارماهي^(٢).

وأما أفعاله وخواصه، فالطَّرِي منه يولّد البلغم المائي مُرَخ للأعصاب، غيرُ موافقٍ إلا لِلْمَعِدَةِ الحارّة جدّاً. قال: وجِلْدُ السمك المعروف «سيفيانوس» في ناحية بيت المقدس إن دُرَ رمادُ جلده في عيون المواشي أذهبَ بياضَها. والمالحُ من أصناف السمك يُخرج السِّلَاء^(٣) من المناشب^(٤). قال: ورأس «سماريس» مُخَرَقاً يَقْلَعُ اللحم الزائد في القروح ويمنع سَعَتَها وَيَقْلَعُ الثآليلَ وآليوث. وماء السمك المالح ينفع من القروح العَفِنَةِ ويغسلُها. قال: وإذا أَحْتَقِنَ سِلَاقَةَ المالح مراراً نَفَعَ من وجه الْوَرَك. والسمك الصغار الذي تسميه أهل الشام ومصر «الصَّيْر» إذا تمضمض صاحبُ الْفُلَاح^(٥) الخبيث بِالْمُرِّي الذي يُتَّخَذُ منه نفعه، و«الرَّعَاد» الحيّ إذا قُرِبَ من رأس المصدوع أَخَذَرَهُ عن الحسّ بالصداع. قال: وجلد «سيفيانوس» تُحَكُّ به الأجفانِ الجربةُ فينفع، وجلده المحرَّقُ أيضاً يدخل في أودية العين؛ وَيُذْهِبُ الْاِكْتِحَالُ به مع الملح الظَّفَرَة^(٦) وأكله مَقْلِيّاً يورث غِشَاوَةَ العين بل جميعُ السمك؛ ورؤوسُ السَّمَكَاتِ المملوحة المجفّفة تنفع اللّهُاهُ^(٧) الوارمة، وعلاجٌ جيّدٌ من شَقَاقِ المقعدة. وغراء السمك يُلْقَى في الْأَحْسَاءِ فينفع نَفَثَ الدَّم. قال: وَخَوْضَلَةُ سيفيانوس تُكَيِّنُ البطنَ مع صعوبة انهضامها. قال: ورأس المالح من سماريس مُخَرَقاً يُجْعَلُ على عَضَةِ الْكَلْبِ الْكَلْبِ ولسعة العقرب فينفع ذلك، وكذلك كُلُّ سَمَكَةٍ، ومِرْقَةٌ كُلِّ سَمَكٍ تنفع من السموم المشروبة والنّهوش. قال: والسمك ينفع من غُسرِ النَّفْسِ والرَّبْوِ واليَرَقَانِ ويسهّلُ البلغم وينفع من خُنَاقِ الرَّجَم.

وقد وصف الشعراء السمك في أشعارها؛ فمن ذلك قول ابن الرُّومي يخاطب رئيساً ويستدعي منه سمكاً: [من الكامل]

عَسُرَتْ عَلَيْنَا دَعْوَةُ السَّمَكِ أُنَى وَجُودِكَ ضَامِنِ الدَّرَكِ
اعلم وَقِيَتَ الْجَهْلَ أَنْكَ فِي قَضَرٍ تَلَثَّهُ مَطَارِحُ الشَّبَكِ

(١) الكوسج: نوع من السمك له خرطوم كالمنشار.

(٢) المارماهي: هو حوت طويل.

(٣) السلاء: شوك النخل، الواحدة سلاءة.

(٤) المناشب: جمع منشب، وهو اسم مكان من النشوب.

(٥) القلاع: قرحة تكون في جلدة الفم واللسان مع انتشار واتساع.

(٦) الظفرة: جلدة تنبت عند المآقي وقد تمتد إلى السواد، متغشية.

(٧) اللّهُاه: اللحمة المشرفة على الحلق.

وينات دجلة في فئائككم
بيض كأمثال السبائك بل
حسنت مناظرها وساعدها
فليضطد الصياد حاجتنا
وقال أبو الفتح كُشاجم: [من الطويل]

ومحجوبة بالماء عن كل ناظر
أخذنا عليهن السبيل بأعين
فجئنا بها ببيض المتون كأنها
وقال أبو عبادة البخري وذكر بركة:

لا يبلغ السمك المقصور غايتها
يعمن فيها بأوساط مجنحة
وقال أبو طالب المأموني في المقلبي منه: [من السريع]

ماوية فضية لحمها
يضمها من جلدها جوشن
لونت من فضتها عسجداً
وقال أيضاً:

مائية في النار مضلية
كأنما جلدتها جوشن
يضبغ من فضتها عسجد
مزرقن الصنعة أو مبرد^(٥)

وقال عطاء بن يعقوب يصف سمكة من رسالة يستدعي بها صديقاً، جاء منها:
«قد أهدى لنا صديق سمكة، قد ليست من جلدها شبكة؛ تشبه حملاً شكلاً وقداً، أو
جرباً قد أمتلاً زُبدًا؛ كأنها أرادت أن تحارب نجم السماء، أو حوت الأفلاك؛ فليست
من جلدها جوشناً مزرداً. وسلت من ذنبها سيفاً مجرداً».

(١) قد يراد بـ «نيات دجلة»: السمك.

(٢) العكك: جمع عكة، وهي وعاء من الجلد للسمن.

(٣) التلك: واحدها تكة، وهي رباط السراويل.

(٤) الجوشن: الدرع.

(٥) الزرفين: حلقة الباب.

وقال خالد بن صفوان ليزيد بن المهلب يصف سمكاً: «أُتِثُ ببناتٍ بيضِ البطون، زُرْقِ العيون، سُودِ المتون، حُذْبِ الظهور، مُعَقَّقَاتِ الأذنان، صِغارِ الرؤوس، غِلَازِ القَصْرِ^(١)، عِراضِ السَّرَر».

هذا ما اتفق إيراده في السمك المطلق. فلنذكر أصنافاً من أنواع الأسماك.

ذَكَرُ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَسْمَاكِ

وأنواع الأسماك كثيرة جداً، منها ما يعرفه الناس، ومنها ما لم يعرفوه، ومنها ما يكون في أماكن من البحار دون غيرها. وقد ذهب بعضهم أن كل حيوان في البر يكون مثله في البحر. فلتورد في هذا الفصل ما أمكن إيراده، وهو الدلفين، والرَّعاد، والتَّمساح، والسَّقَنْقُور، والسَّلْحَفَة، واللَّجأة، والفرس النهري، والجندبيدستر والقندُس، والقاقم، والضَّفادع، والسَّرطان، وشيء من عجائب الحيوان المائي، على حكم الاختصار حيث تعذر الاستيعاب.

فأما الدلفين - وهو كالزُّق المنفوخ، وله رأس صغير جداً، وهو يوجد في بحر النيل يَقْدِفُه البحرُ المِلْحُ إليه. ويقال: ليس في دواب البحر ما له رنة غيره، فلذلك يُسمع له التنفُّسُ والتَّفخُّعُ، وهو إذا ظفر بالغريق كان أقوى الأسباب في نجاته؛ فإنه لا يزال يدفعه إلى البر حتى ينجيه. وهو من أقوى الدواب المائية. ولا يؤذي ولا يأكل غير السمك. وربما ظهر على وجه الماء وهو نائم كالمت. وهو يلد ويرضع. وأولاده تتبعه حيث ذهب؛ ولا يلد إلا في الصيف. وفي طبيعه الأُنسُ بالناس وخصوصاً الصبيان. وإذا صيد جاءت الدلافين لقتال صائده، فإذا أطلقه لها أنصرفت. وأهل المراكب في البحر الفارسي إذا رأوه استبشروا به وأيقنوا ببلوغ الأرب سيما الغزاة.

وأما الرَّعاد - ويكون في نيل مصر، ولم أسمع به في غيره. وفيه من الخاصية لأنه لا يستطيع أحد من الناس أن يمسه. ومتى وضع الإنسان يده عليه نزعها بحركته وصاح صيحةً مُنْكَرَةً، ربما دهش الإنسان لها؛ ويجد الرجل في فؤاده حَقَقَاناً من ذلك. وهو متى وقع في شبكة الصياد ارتعدت يداه عند إخراج الشبكة من الماء أو جذب الحبل، فيعلم أنه قد وقع له السمك الرَّعاد.

وأما التَّمساح - وهو أيضاً لا يكون إلا في نيل مصر؛ وزعم قوم أنه يوجد في مهران السند^(٢)، ليزعمهم أنه من النيل. وهو شديد البطش في الماء، وهو يعظم إلى أن

(١) القصر: جمع قصرة، وهي أصل العنق.

(٢) مهران السند: نهر عظيم بالسند تجري فيه السفن ويسقي بلاداً كثيرة ويصب في البحر عند الديبل.

ينتهي في الطول إلى عشرين ذراعاً في عرض ذراعين. ويفترس الفرس والإنسان. ولا يقوى على قتاله من الحيوان إلا الجاموس. وله يدان ورجلان وذنب طويل يضرب به ويلف. وهو لا يصاد إلا أن يضرب في إبطيه، ومنهما مقتله، ويقال: إنه إذا أراد السفاد، خرج هو والأنثى إلى البر فيقلبها على ظهرها ويستبطنها، فإذا فرغ قلبها لأنها لا تتمكن من الانقلاب لقصير يديها ورجليها ويئس ظهرها. وهي تبيض في البر، فما وقع في الماء صار تمساحاً وما بقي في البر صار سقنقوراً. والتمساح يحرك فكّه الأعلى دون الأسفل، ولسانه معلق به. ويقال: إنه ليس له مخرج، وإن جوفه إذا امتلأ خرج إلى البر وفتح فمه فيجاء طائر صغير أزقظ فينقر بمنقاره ما في جوفه ويخرجه، وذلك غذاء الطائر وراحة للتمساح وفي رأس هذا الطائر شوكة فإذا غلق التمساح فمه عليه نحسه بها فيفتحه. ويقال: إن للتمساح ستين سناً وستين عزقاً، ويسفد ستين مرة، ويبيض ستين بيضة. ويوجد في جلده مما يلي بطنه سلعة^(١) كالبيضة فيها رطوبة لها رائحة كالسمك، وتقطع رائحتها بعد أشهر.

ووصفه شاعر فقال: [من الطويل]

وذي هامة كالثرس يفغر عن قم يضم على مثل الحسام المثلّم
ويقتل عن مثل المناشير ركبت على مشفر مثل القلب المهدّم
مشى في شواة من فقارة غيلم وسقف لحياء عن مناكب شيهيم^(٢)

وأما السقنقور - ويمسى الحرذون البحري. ويقال: إنه ورل مائي. ومنه ما هو مصري، وما هو هندي، وما يتولد في بحر القلزم وبلاد الحبشة، وهو يغتذي في الماء بالسمك وفي البر بالقطا. وأثناء تبيض عشرين بيضة وتدفنها في الرمل، فيكون ذلك حضنها. وجلده خشن مذبح بالسواد والصفرة. وهو إذا عض إنساناً وسبقه الإنسان إلى الماء فاغتسل منه مات السقنقور؛ وإذا سبق السقنقور الإنسان إلى الماء مات الإنسان. وبين السقنقور وبين الحية عداوة عظيمة، متى ظفر أحدهما بصاحبه قتله.

وقال الشيخ الرئيس: أجود السقنقور ما صيد في الربيع وقت هيجانه. وأجود أعضائه السرة، وهو ينفع من العلل الباردة في العصب. وملحه يهيج الباء فكيف لحمه، وخصوصاً لحم سرتيه وما يلي كليتيه وخصوصاً شحمها.

وأما السلخفاة واللجأة - يقال: إن اللجأة تبيض في البر، فما أقام به سمي

(١) السلعة: زيادة تحدث في الجسد كالغدة.

(٢) الغيلم: السلحفاة الذكر - والشيهيم: ذكر القنافذ أو ما عظم شوكة من ذكورها.

سُلْحَفَاةٌ، وما وقع في البحر سُمِّيَ لَجَاةً. فأما ما يبقى في البر فإنه يعظم حتى لا يكاد الرجل الشديد يحمله. وقد رأيتُ في سنة سبع وسبعمئة بالقاهرة المعزِيَّة سُلْحَفَاةً تَحْمِلُ الرجلَ وتمشي به وهو قائم على ظهرها. وما ينزل البحرُ يعظم حتى لا يكاد الحمار يحمله، وربما وُجِدَ منها ما زنته أربعمئة رطل. وتبيض أثناء أربعمئة بيضة. وهي تحضن بيضها بالنظر إليه والرَّضِدُ له لا غير. ولِلذَكَرِ نِزْكَانٌ ولِلْأُنثَى فِرْجَانٌ. والذَكَرُ يطيل المُكْتَّ في السِّفَاد. والعرب تَكْنِيها «أَمَّ طَبَقٍ». ويزعمون أنها تبيض تسعاً وتسعين بيضةً، وتبيضُ تمامَ المائة بيضةً يخرج منها أسود (أي ثعبان). وهو مولَعٌ بأكل الحَيَاتِ؛ وإذا أكل الأفعى أكلَ صَغَترا جَبَلِيًّا؛ فإذا أكثر من أكل الحَيَاتِ والصَّغَترِ هَلَكَ. وله تحيُّلٌ فيما يصيده من الطائر، وهو أنه يصعد من الماء ويتمرغ في التراب ويأتي موضعاً قد سقط الطيرُ عليه ليشرب، فيخفي على الطير بكُدْرَةٍ لونه التي أكتسبها من الماء والتراب، فيصيد منها ما يكون له قوتاً ويدخل به الماء فيموت الطائرُ فيأكله.

ووصفها شاعر فقال: [من مجزوء الرجز]

وَسُلْحَفَاةٌ تَمِجُ سَكُونُهَا وَالْحَرَكَهَ
شَبَّهْتُهَا بِذَيْلِمِي سَاقِطٍ فِي مَعْرَكَةٍ
مُسْتَتَرٍ بِتُرْسِهِ عَمَّنْ عَسَى أَنْ يُهْلِكَهُ

وقال أبو بكر الخُوَازِمِيُّ يصف لَجَاةً: [من الخفيف]

بِئْتُ مَاءً بَدَثَ لَنَا مِنْ بَعِيدٍ مِثْلَ مَا قَدْ طَوَى الْبَحَارِيُّ سَفْرَهُ
رَأْسُهَا رَأْسُ حَيَّةٍ وَقَرَاهَا ظَهْرُ تُرْسٍ وَجِلْدُهَا جِلْدُ صَخْرَةٍ^(١)
مِثْلُ فَهْرِ الْعَطَارِ دُقَ بِهِ الْعَطَرُ رُفَحَلَّتْ طَرَائِقُ الطَّيِّبِ ظَهْرَهُ^(٢)
يَقْطَعُ الْخَوْفُ رَأْسَهَا فَإِذَا مَا أَمِنَتْهُ فَرَأْسُهَا مُسْتَقَرَّهُ

وقال آخر: [من المتقارب]

لَحَى اللَّهُ ذَاتَ فَمٍ أَخْرَسَ تُطِيلُ مِنَ الْعِيِّ وَشَوَّاسَهَا
تَكَبَّ عَلَى ظَهْرَهَا تُرْسَهَا وَتُظْهِرُ مِنْ جِلِّهَا فَاسَهَا^(٣)
إِذَا الْجِذْرُ أَقْلَقَ أَحْشَاءَهَا وَضَيَّقَ بِالْخَوْفِ أَنْفَاسَهَا
تَضُمُّ إِلَى نَحْرِهَا كَفَهَا وَتُدْخِلُ فِي جَوْفِهَا رَأْسَهَا

(١) القرا: الظهر.

(٢) الفهر: الحجر الرقيق الذي تسحق به الأدوية.

(٣) الفأس: طرف مؤخر الرأس المشرف على القفا.

وأما الفرسُ النَّهْرِيُّ - وهو عظيم الجثة، وحَلَقَه خَلْقُ الفرسِ؛ إلا أن وجهه أوسع؛ وله أظلافٌ كالبقرة؛ وذنبه مثل ذنب الخنزير؛ وصوته يشبه صوت الفرس، وهو لا يوجد إلا في نيل مصر. وهو يخرج من الماء إلى البر، ويرعى الزرع، وإذا قصد الزرع لا يبتدىء من أوله، ولكنه يجوز منه قطعة بقدر ما يأكل ويبتدىء منها بحيث يكون وجهه إلى البحر، وهو يقتل التمساح ويقهره. وأهل الديار المصرية إذا رأوا أثر حافره في البر تباشروا بزيادة النيل وكثرة الخضب. وفي سنة اثنتين وسبعمائة طلع الفرسُ النهريُّ إلى البر بالجيزة وأبعد عن البحر، فحُيِّلَ عليه وقُتِل. وأهل الثوبة يصيدونه كثيراً، ويتخذون من جلده سيّاطاً يسوقون بها الإبل.

وأما الجندبيدستر - وهو السَّمُور، ويسمى «كَلَبُ الماء». ولا يُوجد إلا ببلاد القفجاق^(١) وما يليها. وهو على هيئة الثعلب، أحمر اللون، لا يدان له، وله رجلان وذنب طويل، ورأسه كراس الإنسان، ووجهه مستدير. وهو يمشي متكئاً على صدره كأنه يمشي على أربع، وله أربع خُصَى: ثنتان ظاهرتان وثنتان باطنتان. وهو إذا رأى الصيادين يجذون في طلبه لأجل الجندبيدستر، وهو خُصِيَّاه الظاهرتان، قطعهما بفيه ورمى بهما إليهم؛ إذ لا حاجة لهم إلا بهما. فإن لم يرهما الصيادون وداموا في الجذ في طلبه استلقى على ظهره ليُرِيهم الدَّم، فيعلمون أنه قطعهما فينصرفون عنه، وهو إذا قطع الظاهرتين ظهر الباطنات وعرض عنهما غيرهما. وفي داخل الخصية شبه الدَّم أو العسل زهم الرائحة سريع التفرك إذا جف. ويقال: إنه يُوَكَّر^(٢) على الأرض، ويولد عليها ويرعى فيها، ويهرب إلى الماء ويعتصم به؛ ويمكنه أن يلبث في قعره حابساً لنفسه زماناً ثم يخرج إلى الهواء.

وأما حيوانُ القُنْدُس والقَاقم - فالقُنْدُس يغتذي بالسمك والنبات. ويقال: إن فيه سادةً وعبيداً، وإنه يتخذ مساكن مرتبةً على ترتيب مساكن الناس. والسادة يتخذون في بيوتهم صُففاً^(٣) مرتفعةً يكونون عليها، وفي أسفلها مواضع للعبيد، وليبيتهم اتفاقاً إلى البر وأبواباً إلى النهر. وبعض هذا الحيوان يُغير على بعض. والسادة لا يتكسب وإنما يتكسب لها العبيد، ويُعرف جلد السيد من جلد العبد بحسن لونه وبصيصه^(٤). وأهل تلك البلاد يسلخون خراطيم القُنْدُس والسَّمُور ويتعاملون بها كما يتعامل بالذنانير

(١) القفجاق: قوم كانوا يعرفون بالخفشاخ إلى بلاد القسطنطينية، وكان لهم ملوك كثيرة في بلاد المغرب. (تقويم البلدان ص ٢٠٦).

(٢) يوكر: أي يتخذ وكراً.

(٣) الصفة من البنيان: شبه البهو الواسع.

(٤) البصيص: البريق واللمعان.

والدراهم بحيث يكون عليها خَتْمُ الملك. وجِلْدُ هذا الحيوان هو الذي يُعْمَلُ شَرَايِشُ^(١) الأمراء وأطواق التَّشَارِيفِ ودوائرها.

والقَاقُم: حيوان يُشبه السُّنْجَابَ إِلَّا أَنَّهُ أَبْرَدُ مِنْهُ وَأَرْطَبُ؛ ولهذا هو أبيضُ يَقْقُ. وهو يُجَلِّبُ من بحر الخَزَر. وجلده يُشبه جلدَ الفَنَكِ^(٢).

وَأَمَّا الضَّفَادِعُ - وهي أصناف كثيرة، تكون من سِفَادٍ وغير سِفَادٍ. وهي تَبْيَضُ في البرِّ وتعيش في الماء. والذي من غير سِفَادٍ يتولد من المياه الضعيفة، ومن العُقُونات، وَغِبَّ الأمطار الغزيرة، حتى يتوهَّم المتوهَّم أنه يسقط من السَّحَابِ لكثرة ما يرى منه على الأسطحِ عَقِيبَ المطر. ويقال: إنه يُخلق في تلك الساعة.

والضَّفَدَع من الحيوان الذي لا عظمَ له. وفيه ما يَنْتَقِي وما ليس يَنْتَقِي. وليس صوت ما يَنْتَقِي من فيه ولكنه من جلودِ رِقَاقٍ تكون إلى جانب أذنيه؛ فإذا أراد النقيق أنفتحت فيخرج الصوت منها. وهي تَنْطَلِقُ في زمن الشتاء فلا تَنْفَتِحُ حتى يعتدلَّ الجو.

قال الجاحظ: والضَّفَدَعُ لا يصيح ولا يُمكنه الصياح حتى يُدْخَلَ حَنَكُهُ الأسفل الماء، فإذا صار في فيه بعض الماء صاح؛ ولذلك لا تسمع للضفادع نقيقاً إذا كنَّ خارجاتٍ من الماء. قال: والضفادع تَنْتَقِي، فإذا أبصرت النار أمسكت، وتوصف بحدة السمع إذا كانت خارج الماء. ويضرب بها المثل في السمع والحذر، فيقال: «أحذَرُ من ضِفْدَعٍ» و«أسمعُ من ضِفْدَعٍ». وقال شاعر يصف الضفادع:

وَمُفْعَدَاتٍ زَائِهْنَ أَزْجُلَ كَقَعْدَةِ النَّاكِحِ حِينَ يُنْزَلُ
* يُكْسِنِينَ وَشَيْأَ وَعْيُونَ تُكْحَلُ *

وقال آخر: [من المنسرح]

دَعْنُكَ فِي فَاضَةٍ مُدْتَرَّةٍ لَيْسَ لَهَا طُرَّةٌ وَلَا هُدْبُ^(٣)
قَدْ نُسِجَتْ مِنْ زَبْزَجٍ فَجَرَى بَيْنَ تَضَاعِيفِ نَسْجِهَا الذَّهَبُ
يَظَلُّ صَمْتاً نَهَارَهُ فَإِذَا أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ بَاتَ يَضْطَخِبُ
وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ مَقْلَتَهُ جَفَنُ وَلَا أَمْتَدَ خَلْقَهُ ذَنْبُ
يُعْجِبُنِي مَا أَرَاهُ مِنْهُ فَنَفِي خَلْقَتِهِ وَأَخْتِلَافُهَا عَجَبُ
وَأَمَّا السَّرَطَانُ وَمَا قِيلَ فِيهِ - وهو ذو فَكَّينَ وَمَخَالِبَ وَأظْفَارٍ جِدَادٍ، كثيرُ الأسنانِ،

(١) الشرايش: جمع شربش، وهو هذب الثوب.

(٢) الفنك: دابة يؤخذ منها الفرو.

(٣) الفاضة: القميص الواسع البراق - ومدنره: أي يشبه وشيها الدنانير.

صُلْبُ الظَّهْر، سريع العَدْو، وعينه على كَيْفِيهِ، وَقَمُهُ في صدره، وفَكَاه مشقوقان من جانِبَيْن. وله ثَمَانِي أَرْجُل. وهو يمشي على جانبٍ واحدٍ؛ وَيَسْتَنْشِقُ المَاءَ والهَوَاءَ معاً. وهو يسلُخُ جلده في السنة سِتِّ مراتٍ، ويَتَّخِذُ بِجُحْرِهِ بَابَيْنِ، أَحَدُهُمَا إلى المَاءِ والثاني إلى البرِّ. فإذا سلخ جلده سَدَّ عليه ما يلي المَاءَ خوفاً من السمك وترك ما يلي البرِّ مفتوحاً؛ فإذا جَفَّتْ رطوبتُهُ وأَشْتَدَّ، فتح ما يلي المَاءَ وطلب مَعاشَهُ.

قال شاعر يصفه: [من السريع]

في سَرَطَانِ المَاءِ أعجوبةٌ ظاهرةٌ لِلخَلْقِ لا تَخْفَى
مُسْتَضْعَفُ المُنَّةِ لَكِنَّهُ أَبْطَشُ من حَارِبَتِهِ كَفَا
يُسْفِرُ لِلنَّاظِرِ عن جملة متى مشى قَدَرَهَا يَضْفَا

وقال أبو عُبَيْدٍ الْبَكْرِيُّ^(١) في كتابه المترجم بالمسالك والممالك: إنَّ بَبحرِ الصَّينِ سَرَطَانَاتٍ تخرج كالذراع والشبر؛ فإذا صارت إلى البرِّ عادت حجارةً وأنقلبت عن الحيوانية؛ والأطباء يتخذون منها كخلاً يجلو البياض.

ذِكْرُ شَيْءٍ من عَجَائِبِ الْحَيَوَانِ الْمَائِيِّ

وعجائب البحر كثيرة لا يُسْتَغْرَبُ ما نذكر منها؛ ولذلك قيل: «حَدَّثَ عن البحر ولا حَرَجَ». وقد حكى صاحبُ كتاب مَبَاهِجِ الْفِكْرِ وَمَنَاهِجِ الْعِبَرِ في كتابه، قال: رأيتُ في بعض المجاميع المجهولة أنَّ في بعض البحار شاةً شَعْرَاءَ تكون في البرِّ مع البهائم حين الرُّغْي؛ فإذا فرغت من رَغِيها عادت إلى المَاءِ، وتَأْكُلُ السمك. قال: وذكر لها خواص. قال: وذكر بعضهم دابةً سَمَّاها «خَزَّ المَاءِ»، ولم يُسَمِّ المَكَانَ الذي تكون فيه، وقال: إنها مثالُ أبنِ عَرَسٍ أو أكبرُ قليلاً، سَبَّاحَتُها في المَاءِ كَجَزْيِها في البرِّ، لها وَبَرٌّ ناعِمٌ تُعْمَلُ منه ثِيَابُ الْخَزِّ، وهذا الْوَبَرُ موجودٌ تأتي به التَّجَارُ من البحر الرومي يُباع بالقاهرة، ويُسمونه صَوْفَ السمك؛ وهو أَخْضَرُ اللَّوْنِ؛ ويقال: إنه إذا طلع من البحر يكون أبيضَ يَفَقًّا، فإذا صار إلى البرِّ وأصابه النسيمُ أَنْقَلَبَ إلى الْخَضْرَاءِ. وهم يَغْزِلُونَهُ وَيُلْجِمُونَهُ به الثِيَابَ الْمُسَدَّةَ بالحرير، وقيمتُهُ لا تقصُرُ عن قيمة الحرير وربما يزيد عليه. وأرخَصُ ما أَتَبَعْتُهُ أنا حساباً عن وزن كلِّ مائة درهم أربعين درهماً. وبه تُخَنَّقُ الْأَفَاعِي بمصر، تُفْتَلُ منه خيوطٌ تُسَمَّى إذا خُنِقَ بها الْأَفَاعِي حَبَالُ الْخَنَاقِ، لها نَفْعٌ في تحليل مرض الْخَنَاقِ.

(١) هو عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٧ هجرية، وكان مولده سنة ٤٣٢ هجرية. (كتاب التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه).

ويقال: إن ببحر الرّوم - وربما بغيره أيضاً - حيواناً يُسمونه «بنات الماء» يُشبهن النساء، لهن شعورٌ سباط، ألوانهنّ إلى السّمرة، ذوات فروج عظام وتُدّي، ولهنّ قهقهة وضجّ وكلام لا يفهم، وربما يقعن لأصحاب المراكب وغيرهم فينكحونهنّ فيجدون لنكاحهنّ لذّة عظيمة ثم يعيدونهنّ إلى البحر. وفي البحر أيضاً أمثال الرجال، يقال: إنهم يظهرون بالإسكندرية وبالبرّلس ورشيد^(١) في صورة الإنسان بجلود لرجة لهم بكاء وعويل إذا وقعوا في أيدي الناس؛ وذلك أنهم ربما برّزوا عن البحر إلى البرّ يتشمّسون فيقع بهم الصّيادون؛ فإذا سمع الناس بكاءهم أطلقوهم رحمة لهم.

البَابُ الثَّامِنُ وَهُوَ الذِّيلُ عَلَى الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْفَنِّ الثَّالِثِ

ويشتمل هذا الباب على ذكر شيء مما وُصفت به آلات الصيد في البرّ والبحر ووصف رُماة البندق، وما يجري هذا المجرى.

ذكر شيء ممّا قيل في رُماة البُنْدُق - ومما وُصفت به الجَلاهِقُ^(٢) وهو قِسيّ البندق. من ذلك ما كُتب به أبو إسحاق الصّابي من رسالة إلى أبي الفرج محمد بن العباس بن فُسَابَخْش، جاء منها: «أقبلت رُفْقَةُ الرُّمَاءِ قد برزت قبل الذُّرُورِ^(٣) والشُّرُوقِ، وشمّرت عن الأذرع والسُّوقِ، مقلّدين خرائط شاكلت السيوف بحماثلها ونيّاطاتها^(٤)، وناسبتّها في آثارها ونيكاياتها؛ تحمل من البُنْدُق المَلْمُومِ، ما هو في الصّحّة والاستدارة كاللؤلؤ المنظوم؛ كأنما خُوط بالجَهر^(٥)، فجاء كبنات الفَهر^(٦)؛ قد أخيّر طيئّه، ومَلِك عجيئّه^(٧)؛ فهو كالكاפור^(٨) المُصَاعِدِ في اللّمس والمنظَرِ، وكالعنبر الأذفر في الشّمّ والمخبّر؛ مأخوذ من خير مواطنه، مجلوب من أطيّب معادنه؛ كافل

(١) رشيد: بليدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية. (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الجلاهِق: قوس تتخذ من القنا، ويلف عليها الحرير وتغزى. وفي وسط وترها قطعة دائرة تسمى الجوزة توضع فيها البندقة عند الرمي.

(٣) الذرور: ظهور الشمس أول شروقها.

(٤) النياط: الذي هو معلق القوس.

(٥) قد يراد بالجهر: الراية الغليظة.

(٦) نبات الفهر: الحجارة الصغيرة.

(٧) ملك العجين: عجنه فأنعم عجنه وأجاده.

(٨) الكافور: صمغ شجر ولونه أحمر ملمع أو أسمر؛ وخشبه أبيض رخو يضرب إلى السواد.

بمطاعم حامليه، مُحَقَّقٌ لآمال آيليه؛ ضامنٌ لحمام الحمام، مُتَنَاولٌ لها من أبعد مَرام، يعرُج إليها وهو سَمٌّ نافع، ويهبط بها وهي رزقٌ نافع.

ومنها في وصف القسي: «وبأيديهم قيسي مكسوة بأغشية السُّندس، مشتملة منها بأحسن ملبس؛ مثل الكُمة في جَواثينها ودُروعها، والجياد في جلالها وقُطوعها^(١)؛ حتى إذا جُرِدَت من تلك المطارق، وأنْضِيت من تلك الملاحف؛ رأيت منها قُدوداً مُخْطَفة^(٢) رشيقة، وألواناً مُعْجِبة أنيقة؛ صُلبَةُ المَكاسير^(٣) والمعاجم، نجبية المنابت والمناجم؛ خُطيةُ الأسماء والمناسب، سَمْهَرِيَّةُ الأعراق والمناصب؛ رُكبت من شظايا الرِّماح الداعسة، وقرون الأوعال الناخسة^(٤)؛ فحازت الشرف من طَرَفِئها، وأستولت عليه بِكُلِّتا يديها؛ قد أنحت أنحناء المَشِيخةِ النَّسَّك، وصالت صيال الفتية الفُتَّك؛ وأستبدلت من قديمها في عزِّ الفوارس، بحدِيثها من نفيس الملابس؛ وأنتقلت من جَدِّها في طراد المَغارات^(٥) إلى هَزْلها في طَرْدِ المُسْهَرات^(٦)؛ ظواهرها صَفَرٌ وارسه^(٧)، ودواخلها سودٌ دائسه؛ كأنَّ شمسَ أصيل طلعت على مُتُونها، أو جنحَ ليل أعتكر في بطونها؛ أو زعفراناً جرى فوق مناكبها أو غالية جَمَدَت على ترائبها؛ أو قضبانَ فضة أذهب شَطْرُها وأحرق شطر، أو حَبَاتِ رَمْلٍ أعتق السود منها صفر».

وجاء منها في وصف الوتر:

«فلَمَّا تَوَسَّطُوا تلك الروضة، وانتشروا في أكتاف تلك الغِيْضَةِ؛ وَبَتَّتْ للزَّمي أقدامهم، وشَخَّصَتْ للطير أبصارهم؛ وتَرَوَّها^(٨) بكل وَتَرٍ فُوق^(٩) سهمه منه، وهو مفارقٌ للسهم وخارجٌ عنه؛ مُضَاعَفٌ عليها من وَتَرَيْنِ، كأنَّه شخص ذو جسدَيْنِ، أو عِناقٌ ضمَّ ضجيعَيْنِ في وسطه عينٌ كَشْرَجَةٍ كَيْسٍ مختوم، أو سُرَّةٌ بطنٍ خَمِيصٍ مهضوم؛ تروغُ قلب الطير بالإنباض، وتُصِيب منها مواقع الأغراض».

(١) القطوع: جمع قطع، وهو ضرب من الثياب الموشاة.

(٢) المخطفة: الضامرة قليلة لحم الجنب.

(٣) يقال: فلان صلب المكسر والمعجم: إذا كان قوياً شديداً عند المختبر.

(٤) الوعل الناخس: الذي نخس قرناه استه من طولهما.

(٥) المغارات: جمع مغارة، وهي مصدر بمعنى الغارة.

(٦) الطرد: الصيد - والمسهرات: طيور يلتذ بها كل من يسمها ويسهر عليها ولا يشتهي النوم من لذة سماعها.

(٧) الوارس: الأصفر.

(٨) وتره: أي أدركه بمكروه وأصابه.

(٩) فوق السهم: إذا وضع في الوتر ليرمي به.

وقال ضياء الدين بن الأثير الجَزَرِيّ من رسالة في وصف القسيّ. وذكر الرُماة، جاء منها:

«وإذا تناولوها بأيديهم قلت: أهلة طالعة في أكف أقمار، وإذا مُثِّل غَنَاؤها وغَنَاوهم قلت: منا يا مسوقة في أيدي أقدار، وتلك قسيّ وُضعت لِلْعَب لا لِلتَّضال، وَلَرْدَى الطير لا لردى الرجال. فإذا نعتها ناعت قال: إنها جَمَعَتْ بين وضفي اللين والصلابة، وصيغَتْ من نوعين غريبين فحازت معنى الغرابة؛ فهي مركبة من حيوان ونبات، مؤلفة منهما على بُعد الشّتات؛ هذا من سكان البحر وسواحله، وهذا من سكان البرّ ومجاهله، ومن صفاتها أنها لا تَتَمَكَّن من البطش إلا حين يُشْتَدّ، ولا تنطلق في شأنها إلا حين تُعْطَف وتردّ. ولها بنات أحكم تصويرها، وصُحِّح تدويرها؛ فهي في لونها صندلية الإهاب، وكأنها صيغت لقوتها من حجر لا من تراب؛ فإذا حَذَفها نحو الأطيّار أحد، قيل: وتصعد من الأرض من جبال فيها من بَرَد، فلا ترى حينئذٍ إلا قتيلاً بِالْمَقْتَل الذي لا يجب في مثله من قَوْد^(١)؛ فهي كافلة من تلك الأطيّار بقبض نفوسها، ومُنزلة لها من السماء على أُم رؤوسها».

ومن إنشاء المولى الفاضل شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي الكاتب - أمتع الله ببقائه، وزاد في علوه وأرتقائه - رسالة في رمي البندق، وصف فيها الرُماة، ومواضع الرُمي ووقته، والقسيّ، وأفعال الرُماة، وجميع طير الواجب^(٢)، لم أف فيهما طالعه لمُتَقَدِّم ولا متأخّر على أجمع لهذا الفن منها؛ وهي مما يستعين بها الكاتب على إنشاء ما يقصده من قدم البندق في أي نوع أراد من طير الواجب. وقد أوردتها بجملتها؛ لحسن التثامها، وأتساق نظامها؛ وجودة ترتيبها، وبديع تهذيبها. وهي:

«الرياضة - أطال الله بقاء الجناب الفلاني، وجعل حبه كقلب عدوه واجباً، وسعده كوصف عبده للمسار جالباً وللمضار حاجباً - تبعث النفس على مجانبة الدعة والسكون، وتصونها عن مشابهة الحمام في الركون إلى الوكون^(٣)؛ وتحضنها على أخذ حظها من كل فنّ حسن وتحثها على إضافة الأدوات الكاملة إلى فصاحة اللّسن؛ وتأخذ بها طوراً في الجِدّ وطوراً في اللّعب، وتُصَرِّفها في ملاذّ السموّ في المشاق التي يستروح إليها التّعب؛ فتارة تحمل الأكابر والعظماء في طلب الصيد على مواصلة

(١) القود: القصاص.

(٢) طيور الواجب: أربعة عشر طائراً وهي على ضربين: الضرب الأول طيور الشتاء.. والضرب الثاني طيور الصيف، أي التي يكثر وجودها فيه.

(٣) الوكون: جمع وكن، وهو عش الطائر في جبل أو جدار.

السُرى، ومقاطعة الكرى؛ ومهاجرة الأوطار، ومهاجمة الأخطار، ومكابدة الهواجر^(١)، ومبادرة الأوابد التي لا تُدرَك حتى تبلغ القلوب الحناجر، وذلك من محاسن أوصافهم التي يُذمُّ المُعرِّض عنها، وإذا كان المقصود من مثلهم جدُّ الحرب فهذه صورة لعب يُخرج إليها منها؛ وتارة تدعوهم إلى البروز إلى المَلَق^(٢)، وتحدوهم في سلوك طريقها مع من هو دونهم على ملازمة الصدق ومجانبة المَلَق؛ فيعتسِفون إليها الدجى، إذا سَجى؛ ويقتحمون في بلوغها حُرَقَ النهار إذا أُنْهَار، ويتنعمون بوعشاء السفر، في بلوغ الظفر؛ ويستصغرون ركوب الحَظَر، في إدراك الوَطَر؛ ويؤثرون السهر على النوم، وألية على اليوم، البندق على السهام، والوَخْدَة على الالتئام.

ولمَّا عُدنا من الصيد الذي أتصل بعلمه حديثه، وشرح له قديم أمره وحديثه؛ ثُقْنَا إلى أن نَشْفَع صيد السَّوانح برمي الصَّواح، وأن نفعل في الطير الجوانح بأهلية القسي ما تفعل الجوارح؛ تفضيلاً لملازمة الارتحال، على الإقامة في الرِّحال^(٣)؛ وأخذاً بقولهم:

لا يَصْلَحُ النَّفْسَ إِذْ كَانَتْ مُدْبِرَةً إِلَّا التَّنْقُلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ
فبرزنا وشمسُ الأصيل تجود بنفْسِها، وتسيرُ من الأفق الغربيِّ إلى جانب رَمْسِها؛
وتُغَارِزُ عيُونَ الثُّوَارِ بِمُقْلَةٍ أَرْمَدَ، وتنظرُ إلى صفحات الوردِ نظراً المريضِ إلى وجوه
الْعُودِ؛ فكأنها كَثِيبٌ أَضْحَى مِنَ الْفِرَاقِ عَلَى فَرْقٍ^(٤)، أو عليلٌ يَقْضِي بَيْنَ صَخْبِهِ بِقَايَا
مَدَّةِ الرَّمَقِ؛ وقد أَخْضَلَتْ عيُونَ الثُّوَارِ لَوْدَاعِها، وهم الروض بخلع حلته المُمَوَّهَة
بذهب شُعَاعِها: [من البسيط]

والطلُّ في أعين الثُّوَارِ تحسَّبه	دمعاً تحيِّرُ لم يَزَقْأ ولم يَكِفْ
كُلُّوْهُ ظِلٌّ عِطْفُ الغصنِ مُتَشِّحاً	بعِثْده وتَبَدَّى منه في شَنَفٍ ^(٥)
يُضَمُّ من سندس الأوراق في صرر	خُضِرَ ويُخْبَا من الأزهار في صَدَف
والشمسُ في طَلَلِ الإمْساء تنظر من	طَرَفٍ غدا وهو من خوف الفِرَاقِ خَفِي ^(٦)

(١) الهواجر: جمع هاجرة، وهي نصف النهار في القيظ خاصة عند زوال الشمس مع الظهر، أو من زوالها إلى العصر، لأن الناس يسكنون في بيوتهم كأنهم قد تهاجروا.

(٢) الملق: الصفوح اللينة الملتزمة من الجبل، وقيل: هي الآكام المقترشة.

(٣) الرحال: جمع رحل، وهو المنزل والمأوى.

(٤) الفرق: الخوف.

(٥) الشنف: الذي ييس في أعلى الأذن، والذين في أسفلها يقال لها قرط.

(٦) الطفل: يقال: طفلت الشمس: أي مالت للغروب.

كعاشقٍ سار عن أحبابه وهَفَا به الهوى فَتَرَاءَاهُمْ على شَرَفٍ
إلى أن نضا المغربُ عن الأفقُ ذهبَ قلائدها، وعَوَّضَهُ عنها من النجوم بِخَدَمِهَا
وولائدها^(١)؛ فَلَيْثُنَا بعد أداء الفرض لُبَّتْ الأهلَةُ، ومنعنا جَفَوْنَنَا أن تَرِدَ النومَ إِلَّا تَحَلَّهْ؛
ونَهَضْنَا وبُرْذُ الليلِ مُوشِعٌ^(٢)، وعَقْدُهُ مرْصِعٌ؛ وإكْلِيلُهُ مُجَوَّهَرٌ، وأَدِيمُهُ مُعَنْبَرٌ؛ وبَدْرُهُ
في خِذْرِ سِرَارِهِ مُسْتَكِينٌ، وفَجْرُهُ في حَشَى مطالعه مُسْتَجِينٌ؛ كَأَن أَمْتِزَاجَ لونه بِشفقِ
الكواكب خَلِيطًا مِنْكَ وَصَنَدَل، وكَأَن ثُرَيَّاها لامتداده مُعَلَّقَةٌ بِأمراسِ كَتَانٍ إلى صَمِّ
جَنْدَلٍ: [من الطويل]

ولاحثِ نجومِ الليلِ زُهرًا كَأَنهَا عَقودٌ على خَوْدٍ من الزُّنْجِ تُنْظَمُ^(٣)
مُحَلَّقَةٌ في الجَوِّ تحسبُ أَنهَا طيورٌ على نَهرِ المَجْرَةِ حَوْمٌ
إذا لاحَ بازي الصبحِ وَلَّتْ يَوْمُهَا إلى الغربِ خوفًا منه نَسْرٌ وَمِرْزَمٌ
إلى حدائقٍ ملتقَّة، وجداولَ مُخْتَفَةٍ؛ إذا جَمَشَ النسيمُ غصونَهَا أعتنقتِ اعتناقَ
الأحبابِ، وإذا فَرَكَ من المِياه متوَنِّها أنسابتِ في الجداولِ أنسابِ الحُبَابِ^(٤)، ورَقَصَتْ
في المناهلِ رقصَ الحِبابِ؛ وإن لَيْثِمَ ثغورِ نَورِها حَيْثَ بِأنفاسِ المعشوقِ، وإن أيقظَ
نواعسَ وَرَقِها غُثَّتْ بِالْحانِ المشوقِ؛ فنسيمُها وان، وشميمُها لَعَرَفَ الجَنانِ عُنوانَ،
ورَدُّها من سَهَرِ نَزْجِها غَيْرَانَ، وطلُّها في خُدودِ الوردِ مُنْبَثٌّ وفي طُرُرِ الريحانِ
حَيْرَانَ، وطائِرُها غَرْدٌ، وماوِها مُطَرِدٌ؛ وغصنُها تارةً يَغْطِفُها النسيمُ إليه فَيَنْعَطِفُ، وتارةً
تحت وَرَقائِها فتَحسبُ أَنها همزةٌ على أَلِفٍ، مع ما في تلكِ الرياضِ من تَوافُقِ المحاسنِ
وتبايُنِ الترتيبِ؛ إذ كُلُّها أَعْتَلَّ النسيمُ صَحَّ الأَرَجِ وكلُّها خَرَّ المِياهُ شَمَخَ القُضيبِ: [من
الكامل]

فكأَئِما تلكِ الغُصونُ إذا ثَنَتْ أَعْطافُها رَسَلَ الصُّبَا أَحبابُ
فلها إذا افترقتِ من أَسْتَعْطافِها صُلُحٌ ومن سَجَجِ الحَمَامِ عِتَابُ
وكأَئِها حَوْلَ العِيونِ مَوائِسا شَرَبٌ وهاتيكِ المِياهُ شَرابُ
فغَديرُها كَأَسٌّ وَعَذْبٌ نِطافِها راحٌ وأُضواءُ النجومِ حِبابُ^(٥)
تُحِيطُ بِمَلَقِ نِطافِها صَافٍ، وَظِلالِ دوحِها صَافٍ، وحِصاها لصفاءِ مائِها في نفسِ

(١) الولائد: جمع وليدة، وهي الصبية والأمة.

(٢) الموشع من الثياب: المعلم.

(٣) الخود: الفتاة الحسنة الخلق الشابة.

(٤) الحباب (بضم الحاء): الحية - والحباب (بكسر الحاء): القرط من جهة واحدة.

(٥) النطاف: جمع نطفة، وهي القليل من الماء.

الأمر راكد وفي رأس العين طاف؛ إذا دغدغها^(١) النسيم حسبت ماءها بتمايلُ الظلال فيه يتبرج ويميل؛ وإذا أطردت عليه أنفاسُ الصبا ظننت أفياء تلك الغصون فيه تارة تتموج وتارة تسيل؛ فكأنه محبٌ هام بالغصون هوًى فمئلها في قلبه، وكأن النسيم كلف بها غار من دنوها إليه فمئلها عن قربه: [من مجزوء الكامل]

والسُرور مثلُ عرائسٍ لُقْتُ عليهنَّ الملاء
شَمَرْنَ فَضَلَ الأُزرَ عن سُوقٍ خَلَجُلْهُنَّ ماء
والنهرُ كالمرأة تُنبِ صر وجهها فيه ألسماء

وكان صَوافٍ^(٢) الطير المبيضة بتلك الملقى خيام، أو ظباء بأعلى الرُفمتين قيام، أو أباريق فضة رؤوسها لها فدام^(٣)، ومناقيرها المحمرة أوائل ما أنسكب من المُدام؛ وكان رقابها رماح أسننُها من ذهب، أو شموع أسود رؤوسها ما أنطفأ وأحمره ما ألهب. وكنا كالطير الجليل عده، وكطراز العُمر الأول جدّه.

من كل أبلج كالنسيم لطافة عَفَّ الضمير مُهَذَّبِ الأخلاق
مثل البدر ملاحاة وكعُمرها عَدَدًا ومثل الشمس في الإشراق

ومعهم قسي كالغصون في لطافتها ولينها، والأهلة في نخافتها وتكوينها، والأزاهر في ترافتها وتلوينها؛ بطونها مُدبّجة، ومتونها مُدرّجة؛ كأنها الشولة^(٤) في أنعطافها، أو أزواقُ الظباء في ألتفافها؛ لأوتارها عند القوادم أوتار^(٥)، ولبنادقها في الحواصل أوكار؛ إذا أنتصبت لطير ذهب من الحياة نصيبه، وإن أنيشت^(٦) لرمي بدا لها أنها أحق به ممن يُصيبه، ولعل ذاك الصوت زجر لبندقها أن يُعطى في سيره، أو يتخطى الغرض إلى غيره؛ أو وخشة لمفارقة أفلاذ كيدها، أو أسف على خروج بنيتها عن يدها؛ على أنها طالما نبذت بنيتها بالعرء، وشفعت لخصمها التحذير بالإغراء: [من البسيط]

مثل العقارب أذنباً مُعقّدة لمن تأملها أو حَقَّق النَّظرا
إن مدها قمرٌ منهم وعائنه مُسافرُ الطير فيها أو نوى سفرا

(١) دغدغها النسيم: جمشها وزغزغها.

(٢) الصواف من الطير: هي التي تصف أجنحتها فلا تحركها.

(٣) الفدام: المصفاة تجعل على فم الإبريق ليصفى به ما فيه.

(٤) الشولة: إحدى منازل القمر في برج العقرب.

(٥) الأوتار: واحدتها الوتر، وهو الذحل أو الظلم فيه.

(٦) انبض الرمي القوس: جذب وتره لتصوت.

فهو المسيء أختياراً إذ نوى سفراً وقد رأى طالعاً في العقرب القمر
ومن البنادق كُرَاتٌ متفقة السُزْد، متحدة العَكْس والطَّرْد، كأنما خُرِطَتْ من
المَنْدَل^(١) الرُّطْبُ أو عُجِنَتْ من العنبر الوزْد؛ تَسْرِي كَالشُّهْبِ فِي الظَّلام، وتَسْبِقُ إِلَى
مَقَاتِلِ الطَّيْرِ مُسَدَّدَاتِ السَّهَامِ: [من البسيط]

مثلُ النجوم إذا ما سِرْنَ في أَقْفٍ عن الأهلَّةِ لكن نونُها راءٍ
ما فاتها من نجوم الليل إن رُمِقتْ إلا ثَبَاتٌ يُرَى فِيهَا وَأَضْوَاءُ
تَسْرِي ولا يشعرُ الليلُ البهيم بها كأنها في جفون الليلِ إغفاء
وتسمعُ الطيرَ إذ تَهْفُو قَوَادِمُهُ خَوَافِقاً فِي الدِّيَاجِي وَهِيَ صَمَاءُ
تَصُونُهَا جِرَاوَةٌ^(٢) كأنها جُزِحَ دُزْرُ^(٣)، أو دُزُجَ غُرَرٌ، أو كِمَامَةٌ ثَمَرٌ؛ أو كِنَانَةٌ
ثَبْلٌ، أو غَمَامَةٌ وَبَلٌ، حَالِكَةُ الأَدِيم، كأنما رُقِمَتْ بِالشَّقَقِ حُلَّةٌ لَيْلِهَا الْبَهِيم: [من
السريع]

كأنها في وصفها مَشْرِقٌ تَنَبَّثَ مِنْهُ فِي الدُّجَى الْأَنْجَمُ
أو دِيْمَةٌ قَدْ أَطْلَعَتْ قَوْسَهَا مُلَوْنًا وَأَنْبَثَتْ تَسْجُجُ
فَاتِهْذُ كُلِّ لَهْ مَرْكَزًا، وتَقَاضَى مِنْ الإِصَابَةِ وَغَدًا مُتَجَزَّأً، وَضَمَنَ لَهُ السَّعْدُ أَنْ
يُصْبِحَ لِمُرَادِهِ مُخْرِزًا.

كأنهم في يُنْمِنُ أفعالهم في نظرِ الْمُنْصِفِ وَالْجَاحِدِ
قَدْ وُلِدُوا فِي طَالِعٍ وَاحِدٍ وَأَشْرَقُوا فِي مَطْلَعٍ وَاحِدٍ
فَسَرَتْ عَلَيْنَا مِنَ الطَّيْرِ عِصَابُهُ^(٤)، أَظَلَّتْنَا مِنْ أَجْنَحَتِهَا سَحَابُهُ؛ مِنْ كُلِّ طَائِرٍ أَقْلَعُ
يَرْتَادُ مَرْتَعًا، فَوَجَدَ وَلَكِنْ مَضْرَعًا، وَأَسْفَ^(٥) يَبْغِي مَاءَ جَمَامَا فُورِدَ وَلَكِنْ السِّمُّ مُنْقَعًا،
وَحَلَّقَ فِي الْفَضَاءِ يَبْتَغِي مَلْعَبًا فَبَاتَ هُوَ وَأَشْيَاغُهُ سُجْدًا لِلْقِسِيِّ وَرُكْعًا؛ فَتَبَرَّكْنَا بِذَلِكَ
الْوَجْهِ الْجَمِيلِ، وَتَدَارَكْنَا أَوَانِلَ ذَلِكَ الْقَبِيلِ.
فَأَسْتَقْبَلُ أَوْلَانَا «تَمًّا»^(٦) تَمَّ بَذْرُهُ، وَعَظُمَ فِي نَوْعِهِ قَدْرُهُ؛ كَأَنَّهُ بَرَقَ كَرَعٌ فِي غَسَقٍ؛

(١) المندل: العود، وقيل: أجوده.

(٢) الجراوة: آلة من جلد يجعل فيها البندق الطين الذي يرمى به عن الجلاهي. والجلاهي: قد تقدم تفسيرها.

(٣) الجرج: وعاء من أوعية النساء.

(٤) عصابة الطير: الجماعة من الطير.

(٥) أسف الطائر من الأرض: دنا منها في طيرانه حتى كادت رجلاه تصيبانها.

(٦) التَمَّ: طائر في قدر الأزو أبيض اللون طويل العنق أحمر المنقار.

أو صَبَحَ عَطَفَ عَلَى بَقِيَّةِ الدُّجَى عَطَفَ النَّسَقِ؛ تَحَسَّبَهُ فِي أَشْدَادِ الْمُنَى غُرَّةً نُجَحِ،
وَتَخَالَه تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى طُرَّةً صُبَحَ؛ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيَاضِ حُلَّةٌ وَقَارٌ، وَلَهُ كُرَّةٌ مِنْ عَنَبِرٍ
فَوْقَ مِثْقَارٍ مِنْ قَارٍ. لَهُ عَنَقٌ ظَلِيمٌ، وَالْفَتَاتَةُ رِيمٌ، وَسُرَى غَنِيمٌ يُصَرِّفُهُ نَسِيمٌ.

كَلُونِ الْمَشِيبِ وَعَضِرِ الشَّبَابِ وَوَقْتُ الْوَصَالِ وَيَوْمِ الظَّفَرِ
كَأَنَّ الدُّجَى غَارَ مِنْ لَوْنِهِ فَأَمْسَكَ مِثْقَارَهُ ثُمَّ قَرَّ
فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَنِ الْهَلَالِ نَجْمًا، فَسَقَطَ مِنْهُ مَا كَبُرَ بِمَا صَغُرَ حَجْمًا، فَأَسْتَبَشَرَ
بِنَجَاحِهِ، وَكَبُرَ عِنْدَ صِيَاحِهِ، وَحَصَّلَهُ مِنْ وَسْطِ الْمَاءِ بِنَجَاحِهِ.

وتلاه «كَيَّ»^(١) نَقِيَ اللَّبَاسَ، مُشْتَعِلٌ شَيْبَ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ فِي عَرَائِنِ شَيْبِهِ لَا وَبِلَهُ
كَبِيرٌ أَتَّاسٌ؛ إِنْ أَسَفَ فِي طَيْرَانِهِ فَعَمَامٌ، وَإِنْ خَفَقَ بِجَنَاحِهِ فَقَلْعٌ لَهُ بِيَدِ التَّسِيمِ زَمَامٌ؛ ذُو
عَبَبَةٍ^(٢) كَالْجِرَابِ وَمِثْقَارٍ كَالْجِرَابِ، وَلَوْ نِ يَغُرُّ فِي الدُّجَى كَالنَّجْمِ وَيَخْدَعُ فِي الضُّحَى
كَالسَّرَابِ؛ ظَاهِرُ الْهَرَمِ، كَأَنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ عَادٍ وَيُحَدِّثُ عَنْ إِرَمَ: [مَنْ الْكَامِلُ]

إِنْ عَامَ فِي زَرْقِ الْغَدِيرِ حَسِبَتْهُ مُبْيَضُّ غَنِيمٍ فِي أَدِيمِ سَمَاءِ
أَوْطَارٍ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ ظَنَنْتَهُ فِي الْجَوْ شَيْخًا عَائِمًا فِي مَاءِ
مُتَنَاقِضِ الْأَوْصَافِ فِيهِ خِفَّةُ أَلِ جُهَّالٍ تَحْتَ رِزَانَةِ الْعِلْمَاءِ
فَتَنَى الثَّانِي إِلَيْهِ عِنَانٌ بُنْدَقِهِ، وَتَوَخَّاهُ فِيمَا بَيْنَ رَأْسِهِ وَعُنُقِهِ، فَخَرَّ كِمَارِدٍ أَنْقَضَ
عَلَيْهِ نَجْمٌ مِنْ أَفْقِهِ؛ فَتَلَقَّاهُ الْكَبِيرُ بِالتَّكْبِيرِ، وَأَخْتَطَفَهُ قَبْلَ مَصَافَحَتِهِ الْمَاءِ مِنْ وَجْهِ
الْغَدِيرِ.

وقارنته «إِوَزَةٌ» حُلَّتْهَا دَكْنَاءٌ، وَجَلِيَّتُهَا حَسْنَاءٌ؛ لَهَا فِي الْفَضَاءِ مَجَالٌ، وَعَلَى
طَيْرَانِهَا خِفَّةٌ ذَوَاتِ التَّبْرِجِ وَخَفَرُ رِبَّاتِ الْجِجَالِ؛ كَأَنَّمَا عَبَّتْ فِي ذَهَبٍ، أَوْ خَاضَتْ فِي
لَهَبٍ، تَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهَا كَالْكَاعِبِ^(٣) وَتَتَأَنَّى فِي خَطْوِهَا كَاللَّاعِبِ^(٤)؛ وَتَغْطُو بِجِيدِهَا
كَالطَّبْيِ الْغَرِيرِ، وَتَتَدَفَّعُ فِي سَيْرِهَا مَشْيَ الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ: [مَنْ الطَّوِيلُ]

إِذَا أَقْبَلَتْ تَمْشِي فَخَطَرَةٌ كَاعِبٍ رَدَّاحٍ وَإِنْ صَاحَتْ فَصَوْلَةٌ حَازِمٍ^(٥)
وَإِنْ أَقْلَعَتْ قَالَتْ لَهَا الرِّيحُ لَيْتَ لِي خَفَا ذِي الْخَوَافِي أَوْ قَوَى ذِي الْقَوَادِمِ

(١) الكَيَّ (بضم القاف): من الطيور التي تظهر في الصيف، وهو طير أغبر اللون إلى البياض أحمر
المنقار والحوصلة وجلاه تضربان إلى السواد.

(٢) الغيبة: اللحم المتدلي تحت الحنك من الديك والبقرة.

(٣) الكاعب: الفتاة التي نهذ ثدياها.

(٤) اللاعب: الذي أعيا من التعب فيتأني في خطوه تعباً.

(٥) الرداح: المرأة الثقيلة الأوراك.

فَأَتَّعِمَ بِهَا فِي الْبُعْدِ زَادَ مُسَافِرٍ وَأَخْسِنَ بِهَا فِي الْقُرْبِ تَخَفَةً قَادِمٍ
فَلَوَى الثَّالِثَ جِدَّهُ إِلَيْهَا، وَعَطَفَ بَوَجهَ قَوْسهَ عَلَيْهَا؛ فَلَجَّتْ فِي تَرْفُعِهَا مُنْعِنَةً،
ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَى حُكْمِهِ مُدْعِنَةً؛ فَأَعْجَلَهَا عَنْ اسْتِكْمَالِ الْهَبُوطِ، وَأَسْتَوَلَى عَلَيْهَا بَعْدَ
اسْتِمْرَارِ الْقُنُوطِ.

وحاذتها «لُغْلَغَةً» تَحْكِي لَوْنَ وَشَيْهَا، وَتَصِفُ حُسْنَ مَشْيِهَا؛ وَتُرْزِي عَلَيْهَا بَغْرَتَهَا،
وَتُنَافِسُهَا فِي الْمَحَاسِنِ كَضَرَّتَهَا؛ كَأَنَّهَا مُدَامَةً قُطِبَتْ^(١) بِمَائِهَا، أَوْ غِمَامَةً شَفَّتْ عَنْ
بَعْضِ نَجُومِ سَمَائِهَا.

بِغَرَّةٍ بِيضَاءِ مَيْمُونَةٍ تُشْرِقُ فِي اللَّيْلِ كَبَدْرِ الثَّمَامِ
وَأَنْ تَبَدَّتْ فِي الضُّحَى خَلَّتْهَا فِي الْحُلَّةِ الدُّكْنَاءِ بَزَقَ الْغَمَامِ
فَنَهَضَ الرَّابِعُ لاسْتِقْبَالِهَا، وَرَمَاهَا عَنْ فَلَكَ سَعْدِهِ بِنَجْمٍ وَبَالِهَا، فَجَذَّتْ فِي الْعُلُوفِ
مُغْنِدَةً^(٢)، وَتَطَارَدَتْ أَمَامَ بُنْدُقِهِ وَلَوْلَا طِرَازُ الصَّيْدِ لَمْ تَكْ لَذَّةٌ؛ وَانْقَضَ عَلَيْهَا مِنْ يَدِهِ
شِهَابٌ خَنَفَهَا، وَأَدْرَكَهَا الْأَجَلُ لَخِيفَةِ طَيْرَانِهَا مِنْ خَلْفِهَا، فَوَقَعَتْ مِنَ الْأَقْفِ فِي كَفِّهِ،
وَنَقَرَ مَا فِي بَقَايَا صَفِّهَا عَنْ صَفِّهِ.

وَأَتَتْ فِي أَثَرِهَا «أَنِيسَةً»، أَنِسَةً، كَأَنَّهَا الْعَذْرَاءُ الْعَانِسَةُ، أَوْ الْأَذْمَاءُ الْكَانِسَةُ^(٣)؛
عَلَيْهَا خَفَرُ الْأَبْكَارِ، وَخِفَّةُ ذَوَاتِ الْأَوْكَارِ، وَحِلَاوَةُ الْمَعَانِي الَّتِي تُجْلَى عَلَى الْأَفْكَارِ؛
وَلِهَا أُنْسُ الرَّيِّبِ^(٤)، وَإِدْلَالُ الْحَبِيبِ، وَتَلَفُّتُ الزَّائِرِ الْمُرِيبِ، مِنْ خَوْفِ الرَّقِيبِ؛ ذَاتُ
عُنُقٍ كَالْإِبْرِيقِ، أَوْ الْعُضَنِ الْوَرِيقِ، قَدْ جَمَعَ صُفْرَةَ الْبَهَارِ إِلَى حُمْرَةِ الشَّقِيقِ؛ وَصَدْرُ
بَهِيِّ الْمَلْبُوسِ، شَهِيٍّ إِلَى الثُّفُوسِ، كَأَنَّمَا رَقَمَ فِيهِ الثَّهَارُ بِاللَّيْلِ أَوْ نُقِشَ فِيهِ الْعَاجُ
بِالْأَبْنُوسِ^(٥)؛ وَجَنَاحٌ يُنْجِيهَا مِنَ الْعَطَبِ، يَحْكِي لَوْنَهُ الْمُنْدَلُ الرُّطْبُ إِلَّا أَنَّهُ حَطَبٌ.

مُدْبَّجَةُ الصَّدْرِ تَفْوِيضُهُ أَضَافَ إِلَى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ
لَهَا عُتُقٌ خَالَهُ مَنْ رَأَاهُ شَقَائِقُ قَدْ سِيَّجَتْ بِالْبَهَارِ
فَوُثِبَ الْخَامِسُ مِنْهَا إِلَى الْعَنِيمَةِ وَنَظَّمَ فِي سَلَكِ رَمِيهِ تِلْكَ الدَّرَّةَ الْيَتِيمَةَ؛ وَحَصَلَ
بِتَحْصِيلِهَا بَيْنَ الرُّمَّةِ عَلَى الرَّتْبَةِ الْجَسِيمَةِ.

(١) قُطِبَتْ: فَرَجَتْ.

(٢) الْمُغْنِدَةُ: الْمُسْرَعَةُ.

(٣) الْعَانِسَةُ: الَّتِي دَخَلَتْ فِي كَنَاسِهَا.

(٤) الرَّيِّبُ: الْمَعَادُ.

(٥) الْأَبْنُوسُ: شَجَرٌ يَنْبِتُ فِي الْحَبِشَةِ وَالْهِنْدِ، خَشَبُهُ أَسْوَدٌ صَلْبٌ، وَيُصْنَعُ مِنْهُ بَعْضُ الْأَدَوَاتِ وَالْأَوَانِي وَالْأَثْنَانِ.

وأتى على صَوْتِهَا «خَبْرُجٌ» تَسْبِقُ هَمَّتَهُ جَنَاحَهُ، وَيَغْلِبُ خَفَقُ قَوَادِمِهِ صِيَاخَهُ؛
مَدْبِجِ الْمَطَا، كَأَنَّمَا خَلَعَ حُلَّةً مَنَكَبِيَّةً عَلَى الْقَطَا؛ يَنْظُرُ مِنْ لَهَبٍ، وَيَخْطُو عَلَى رَجَلَيْنِ
مِنْ ذَهَبٍ.

يَزُورُ الرِّيَاضَ وَيَجْفُو الحِيَاضَ وَيُشْبِهُ فِي اللَّوْنِ كُذْرَ أَلْقَطَا
وَيَهْوَى الزُّرُوعَ وَيَلْهُو بِهَا وَلَا يَرُدُّ الْمَاءَ إِلَّا خَطَا
فَبَدَّرَهُ السَّادِسُ قَبْلَ ارْتِفَاعِهِ، وَأَعَا قَوْسَهُ بِأَمْتَدَادٍ بَاعِهُ، فَخَزَّ عَلَى الْأَلَاءِ^(١)
كِبْسُطَامِ بْنِ قَيْسٍ، وَأَنْقَضَ عَلَيْهِ رَامِيَهُ فَخَصَلَهُ^(٢) بِجِدْقٍ وَحَمَلَهُ بِكَيْسٍ.

وَتَعَدَّرَ عَلَى السَّابِعِ مَرَّامَهُ، وَتَبَّأَ بِهِ عَنْ بُلُوغِ الْأَرْبِ مَقَامَهُ؛ فَصَعِدَ هُوَ وَتَرَبَّ لَهُ
إِلَى جَبَلٍ، وَثَبَتَ فِي مَوْقِفِهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِرَافِقَتِهِمَا قِيلٌ. فَعَنَّ لَهُ «نَسْرٌ» ذُو قَوَادِمَ
شِدَادٍ، وَمَنَاسِيرَ حَدَادٍ، كَأَنَّهُ مِنْ نَسُورِ لُقْمَانَ بْنِ عَادٍ؛ تَحَسَّبَهُ فِي السَّمَاءِ ثَالِثَ أَخُوئِهِ،
وَتَخَالَه فِي الْقَضَاءِ قَبْتَهُ الْمُنْسُوبَةَ إِلَيْهِ؛ قَدْ حَلَقَ كَالْفُقَرَاءِ رَأْسَهُ، وَجَعَلَ مِمَّا قَصُرَ مِنْ
الدَّلُوقِ الدُّكْنَ لِيَبَاسِهِ؛ وَأَشْتَمَلَ مِنَ الرِّيَاشِ الْعَسَلِيِّ إِزَاراً، وَأَخْتَارَ الْعِزْلَةَ فَلَا يَجِدُ لَهُ إِلَّا
فِي قُتْنِ الْجِبَالِ الشَّوَاهِقِ مَزَاراً، قَدْ شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَالِي وَهُوَ لَمْ يَشِبْ، وَمَضَتْ
الدَّهُورُ وَهُوَ مِنَ الْحَوَادِثِ فِي مَغْقِلِ أَشِبٍ.

مَلِيكَ طَيُورِ الْأَرْضِ شَرْقاً وَمَغْرِباً وَفِي الْأَفْقِ الْأَعْلَى لَهُ أَخْوَانٌ
لَهُ حَالٌ فَتَاكٌ وَجَلِيَّةٌ نَاسِكٌ وَإِسْرَاعٌ مِقْدَامٌ وَقَثْرَةٌ وَإِنْ
فَدَنَّا مِنْ مَطَارِهِ، وَتَوَخَّى بِنُبْدَقِهِ عُنْقَهُ فَوْقَ فِي مِثْقَارِهِ؛ فَكَأَنَّمَا هَدَّ مِنْهُ صَخْرًا، أَوْ
هَدَمَ بِنَاءً مَشْمُخِرًا؛ وَنَظَرَ إِلَى رَفِيقِهِ، مَبْشَرًا لَهُ بِمَا أَمْتَازَ بِهِ عَنْ فَرِيقِهِ.

وَإِذَا بِهِ قَدْ أَظْلَتَهُ «عُقَابٌ» كَاسِرٌ، كَأَنَّمَا أَضَلَّتْ صَيْدًا أَفْلَتَ مِنَ الْمَنَاسِيرِ، إِنْ حَطَّتْ
فَسَحَبَ أَنْكَشَفَ، وَإِنْ قَامَتْ فَكَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابِ
وَالْحَشَفِ، بَعِيدَةً مَا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ، إِذَا أَفْلَعَتْ لَجَتْ فِي غُلُوٍّ كَأَنَّمَا تَحَاوَلُ ثَارًا عِنْدَ
بَعْضِ الْكَوَاكِبِ.

تَرَى الطَّيْرَ وَالْوَحْشَ فِي كَفِّهَا وَمِثْقَارِهَا ذَا عِظَامٍ مُزَالَةٍ
فَلَوْ أَمَكْنَ الشَّمْسَ مِنْ خَوْفِهَا إِذَا طَلَعَتْ مَا تَسَمَّتْ غَزَالَةً
فَوُتِبَ إِلَيْهَا الثَّامِنُ وَثْبَةً لَيْثٌ قَدْ وَثِقَ مِنْ حَرَكَاتِهِ بِنَجَاحِهَا، وَرَمَاهَا بِأَوَّلِ بُنْدُقَةٍ فَمَا

(١) الألاء: شجر ورقة وحمله دباغ، يمد ويقصر، وهو حسن المنظر مَرَّ الطعم.

(٢) خصله: أصابه.

أخطأ قادمةً جناحها؛ فأهَوَتْ كَعَوْدٍ صُرْع، أو طَوْد^(١) صُدِع؛ قد ذهب بأسُها، وتذهب بدمها لبأسها؛ وكذلك القَدْر يُخَادِعُ الجَوَّ عن عِقَابِهِ، وَيَسْتَنْزِلُ الأعصم من عِقَابِهِ؛ فحَمَلَهَا بجناحها المَهِيض^(٢)، ورفعها بعد الترفع في أَوْجِ جَوَّها من الحَضِيض؛ ونزلا إلى الرُّفْقَةِ، جَذَلَيْنِ بريح الصَّفْقَةِ.

فوجدا التاسع قد مرَّ به «كُرْكِيٌّ» طويلُ السَّفَارِ، سريعُ الثَّقَارِ، شَهِيُّ الفِرَاقِ، كثيرُ الاغترابِ يَشْتُو بمصر ويَصِيفُ بالعراقِ، لِقَوَادِمِهِ فِي الجَوِّ هَفِيف^(٣)، ولأَدِيمِهِ لَوْنُ سَمَاءِ طَرَأَ عَلَيْهَا غَيْمٌ خَفِيفٌ، تَحَنَّنَ إِلَى صَوْتِهِ الجَوَّارِحِ، وَتَغَجَّبَ مِنْ قُوَّتِهِ الرِّيحِ البَوَّارِحِ؛ لَهُ أَثَرُ حَمْرَةٍ فِي رَأْسِهِ كَوَمِيضِ جَمْرِ تَحْتَ رَمَادٍ، أَوْ بَقِيَّةِ جُزْجٍ تَحْتَ ضِمَادٍ؛ أَوْ فَصُّ عَقِيقٍ شَفَّتْ عَنْهُ بَقَايَا ثِمَادٍ؛ ذُو مَنَقَارٍ كَسَنَانٍ، وَعُثْقٍ كَعَنَانٍ؛ كَأَنَّمَا يَثُوس^(٤)، عَلَى عَوْدَيْنِ مِنْ آبَنُوسَ.

إِذَا بَدَأَ فِي أَفْقٍ مُقْلِعاً وَالْجَوُّ كَالْمَاءِ تَفَافِيفُهُ
حَسِبْتَهُ فِي لُجَّةٍ مَرْكَباً رَجُلَاهُ فِي الْأَفْقِ مَجَادِيفُهُ
فصَبَرَ لَهُ حَتَّى جَاذَهُ مُجَلِّياً، وَعَطَفَ عَلَيْهِ مُصَلِّياً؛ فَخَرَّ مُضْرَجاً بَدَمَهُ، وَسَقَطَ مُشْرِفاً عَلَى عَدَمِهِ. وَطَالَمَا أَفَلَّتْ لَدَى الْكَوَاسِرِ مِنْ أَظْفَارِ الْمَثُونِ، وَأَصَابَهُ الْقَدْرُ بِحَبَّةٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ، فَكَثُرَ التَّكْبِيرُ مِنْ أَجَلِهِ، وَحَمَلَهُ رَامِيهِ مِنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بِرَجْلِهِ.
وَحَاذَاهُ «غِرْثُوقٌ» حَكَاهُ فِي زِيَّتِهِ وَقَدْرِهِ، وَأَمْتَازَ عَنْهُ بِسَوَادِ رَأْسِهِ وَصَدْرِهِ؛ لَهُ رِيْشَتَانِ مَمْدُوتَانِ مِنْ رَأْسِهِ إِلَى خَلْفِهِ، مَعْقُودَتَانِ مِنْ أَدُنَيْهِ مَكَانَ شَتْفِهِ.

لَهُ مِنَ الْكُرْكِيِّ أَوْصَافُهُ سِوَى سَوَادِ الصَّدْرِ وَالرَّأْسِ
إِنْ شَالَ رِجْلاً وَأَنْبَرَى قَائِماً أَلْفِيَّتُهُ هَيْئَةً بِزَجَاسٍ
فَأَصْغَى الْعَاشِرَ لَهُ مُنْصِتاً، وَرَمَاهُ مُلْتَفِتاً؛ فَخَرَّ كَأَنَّهُ صَرِيْعُ الْأَلْحَانِ، أَوْ نَزِيْفٌ^(٥)
بِنتِ الْحَانِ؛ فَأَهْوَى إِلَى رِجْلِهِ بِيَدِهِ وَأَيْدِيهِ^(٦)، وَأَنْقَضَ عَلَيْهِ أَنْقِضَاضَ الْكَاسِرِ عَلَى صِيْدِهِ.

(١) الطود: الجبل.

(٢) المهيص: المكسور.

(٣) الهفيف: صوت هبوب الريح.

(٤) ينوس: يتذبذب ويتحرك.

(٥) النزيف: السكران الذي ذهب عقله.

(٦) الأيد: القوة.

وتَبِعَهُ فِي الْمَطَارِ «صُوغ»^(١)، كَأَنَّهُ مِنَ الثُّنَّارِ مَصُوغٌ؛ تَحْسِبُهُ عَاشِقًا قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ، أَوْ بَارِقًا قَدْ بَثَّ لَفْحَتَهُ.

طَوِيلَةٌ رِجْلَاهُ مَسْوَدَةٌ كَأَنَّمَا مِنْقَارُهُ خُنْجَرٌ
مِثْلُ عَجُوزٍ رَأْسُهَا أَشْمَطٌ جَاءَتْ وَفِي قَمِيَّتِهَا مِغْجَرٌ^(٢)
فَاسْتَقْبَلَهُ الْحَادِي عَشَرَ وَوَتَّبَ، وَرَمَاهُ حِينَ حَازَاهُ مِنْ كَثْبٍ؛ فَسَقَطَ كِفَارِسٍ تَقَطَّرَ
عَنْ جَوَادِهِ، أَوْ وَاقٍ أَصِيبَتْ حَبَّةُ فَوَادِهِ؛ فَحَمَلَهُ بَسَاقَهُ، وَعَدَّلَ بِهِ إِلَى رِفَاقِهِ.
وَأَقْتَرَنَ بِهِ «مُرَزَّمٌ» لَهُ فِي السَّمَاءِ سَمِيٌّ مَعْرُوفٌ، ذُو مِثْقَالٍ كَصُدُغٍ^(٣) مَعْطُوفٌ؛ كَأَنَّ
رِيَاشَهُ فَلَقَ^(٤) اتَّصَلَ بِهِ شَفَقٌ، أَوْ مَاءٌ صَافٍ عَلِقَ بِأَطْرَافِهِ عَلَقٌ.

لَهُ جِسْمٌ مِنَ التُّلُجِ عَلَى رِجْلَيْنِ مِنْ نَارٍ
إِذَا أَقْلَعَ لَيْلًا قَلْبًا تَبْرَقُ فِي الدُّجَى سَارِي
فَاتَتْحَاهُ الثَّانِي عَشَرَ مُمَيِّمًا، وَرَمَاهُ مَصْمُمًا؛ فَأَصَابَهُ فِي زَوْرِهِ، وَحَصَّلَهُ مِنْ قُورِهِ،
وَحَصَلَ لَهُ مِنَ السُّرُورِ مَا خَرَجَ بِهِ عَنْ طُورِهِ.

وَأَلْتَحَقَ بِهِ «شَيْبِطَرٌ»^(٥) كَأَنَّهُ مُذِيَّةٌ مُبَيِّطَرٌ^(٦)؛ يَنْحَطُّ كَالسَّيْلِ وَيَكُرُّ عَلَى الْكَوَاسِرِ
كَالْخَيْلِ، وَيَجْمَعُ مِنْ لَوْنِهِ بَيْنَ صَدَيْنِ يُقْبِلُ مِنْهُمَا بِالنَّهَارِ وَيُذْبِرُ بِاللَّيْلِ؛ يَتَلَوَّى فِي مِثْقَارِهِ
الْأَيْمِ، تَلَوَّى التَّيْنِ فِي الْغَيْمِ.

تَرَاهُ فِي الْجَوِّ مَمْتَدًّا وَفِي فَمِهِ مِنْ الْأَفَاعِي شُجَاعٌ أَرْقَمٌ ذَكَرٌ
كَأَنَّهُ قَوْسٌ رَامَ عُثْقُهُ يَدُهَا وَرَأْسُهُ رَأْسُهَا وَالْحَيَّةُ الْوَتَرُ
فَصَوَّبَ الثَّالِثَ عَشَرَ إِلَيْهِ بَيْنْدُقَهُ، فَقَطَعَ لَحْيَهُ^(٧) وَعُثْقَهُ؛ فَوَقَعَ كَالصُّرْحِ الْمَمْرُودِ، أَوْ
الطَّرَافِ^(٨) الْمَمْدُودِ.

وَاتَّبَعَهُ «عُتَّازٌ»^(٩) أَصْبَحَ فِي اللَّوْنِ ضَيْدَهُ، وَفِي الشَّكْلِ نِدَّهُ؛ كَأَنَّهُ لَيْلٌ ضَمَّ الصَّبْحَ

(١) الصوغ: طائر مختلط اللون من البياض والسواد أحمر الصدر، وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار.

(٢) المعجر: ثوب تعتجر به المرأة وتشده على رأسها.

(٣) الصدغ: الشعر المتدلي على ما بين العين والأذن.

(٤) الفلق: الصبح، وقيل: الفجر.

(٥) الشيبطر: هو طائر أبيض، أسود طرفي الجناحين ورجلاه ومنقاره حمر وهو يأكل الحيات ويوصف بالفتنة والذكاء.

(٦) المبيطر: معالج الدواب. (٧) الأيم: الحية.

(٨) الطراف: بيت من آدم.

(٩) الفتاز: طائر أسود اللون أبيض الصدر أحمر الرجلين والمنقار.

إلى صدره، أو أنطوى على هالة بدره.

تراه في الجوّ عند الصبح حين بدا مُسَوِّدٌ أَجْنَحِيَّةً مَبِيَّضٌ حَيَزُومٌ
كَأَسْوَدٍ حَبَشِيٍّ عَامٍ فِي نَهَرٍ وَضَمَّ فِي صَدْرِهِ طِفْلاً مِنَ الرُّومِ
فنهض تمامُ القومِ إلى التَّيَمَّةِ، وأسفرت عن نُجُجِ الجماعة تلك الليلة المُذْلَهَمَةُ؛
وغدا ذلك الطير الواجِبُ واجِباً^(١)، وَكَمُلَ العدْدُ به قبل أن تُطْلِعَ الشمسُ عِيناً أو تُبْرِزَ
حاجِباً؛ فيا لها ليلةٌ حَصَرْنَا بها الصَّوَادِحَ فِي الفِضَاءِ المَتَّسِعِ، وَلَقِيتُ فِيهَا الطيرَ ما
طارت به من قبل على كُلِّ شَمْلٍ مَجْتَمِعٍ؛ وَأَضْحَتْ أَشْلاؤُهَا على وَجْهِ الأَرْضِ كَفَرَائِدَ
خَانِهَا النُّظَامِ، أو شَرِبَ كَأَن رَقَابَهُم مِنَ اللَّيْنِ لَمْ يُخْلَقْ لَهُنَّ عِظَامٌ؛ وَأَصْبَحْنَا مُتَّيْنِ
مَقَامَنَا، مُتَّيْنِ بِالظَّفَرِ إلى مُسْتَقَرِّنَا وَمَقَامَنَا؛ دَاعِينَ لِلْمَوْلَى جَهْدَنَا، مُذْغِنِينَ لَهُ قِبْلَتَنَا أو
رَدَّنَا؛ حَامِلِينَ مَا صَرَعْنَا إلى بَيْنِ يَدَيْهِ، عَامِلِينَ على التَّشْرِفِ بِخِدْمَتِهِ والِاتِّمَاءِ إِلَيْهِ.

فأنت الذي لَمْ يُلَفَّ مِنْ لَا يَوَدُّهُ وَيَدْعُو لَهُ فِي السَّرِّ أو يَدْعِي لَهُ
فإن كَانَ رَمِيٍّ أَنْتَ تُوضِحُ طُرُقَهُ وَإِنْ كَانَ جَيْشٍ أَنْتَ تَخْمِي رَعِيْلَهُ^(٢)
والله تعالى يجعل الآمالَ مُتَوَطَّةً به وقد فعل، ويجعله كَهْفاً للأولياء وقد جعل.
ومن إنشاء المولى علاء الدين علي بن عبد الظاهر^(٣) في قِذْمَةِ بندق.

ابتدأها بأن قال: «الحمد لله مُهَيِّئِ أسبابِ الارتياح، ومُهَيِّئِ أوقاتِ الانشراح،
وَمُطْلِقِ الأيدي في الاقتناصِ فليس عليها في صيد ذواتِ الجَنَاحِ جُنَاحٌ؛ وَمَزِينِ السماءِ
بِمَصَابِيحِ أنوارِها، وَمَوْسِي الأَرْضِ بِرَوْضِها وتُوارِها؛ وَمَنُورِ الأيامِ بِشُمُوسِها والليالي
أَقْمَارِها، وَمَطَرُزِ مطَارِفِ الآفاقِ بِمَطَارِ أَطْيَارِها. والصلاة والسلام على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
وآلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ أَنْجَدَهُمُ اللهُ مِنْ مَلَايِكَتِهِ بِأُولِي أَجْنَحَةٍ، وَأَهْوَى بَصَرَانَهُمْ وَأَوْهَى
قُوَى مُمَانِعِهِمْ بِعِزَائِهِمُ الْمُتَّجِحَةِ.

وبعد، فَإِنَّ القِنَصَ شَغِفَتْ بِهِ قُلُوبُ ذَوِي العِزَائِمِ، وَصَيَّرَتْهُ عُنْوَاناً لِلْحَرْبِ إِذْ
حَمَامِ الجِمَامِ فِيهِ على الفرائسِ حَوَائِمُ، تَلْتَذُّ نَفُوسُهُم بِالْمَطَارِدَةِ فِيهِ وَتَرْتَاخُ، وَتَهْوَاهُ فَلَوْ
تَمَكَّنْتَ لَرَكَبْتَ إِلَيْهِ أَعْنَاقَ الرِّيحِ، تَرَدُّ مِنْهُ مَوْرَدَ الظَّفَرِ، وَتَتَمَتَّعُ فِيهِ بِبَزِّهِ نَقَسَمُ الحَسَنِ
فِيهِن بَيْنَ السَّمْعِ والبَصَرِ، وَتَتَمَلَّى عِنْدَ السَّرُورِ إِلَيْهِ بِرِيَاضٍ دَبَّجَهَا صَوْبُ مِنَ المَطَرِ لَا

(١) الواجب: الميت.

(٢) الرعيل: مقدمة الجيش والخيول.

(٣) هو علاء الدين علي بن فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر رئيس الكتاب وسيد الرؤساء، وجليس الملوك.

صوب من الفِكَر، وَيَطْوِي من الأرض ما نشرت أيدي السماء به بروداً أَبْهَى من الجبر^(١)؛ فتارةً تستنزل من العواصم الظباء العَوَاصِي، وأونةً تقتنص الطير وقد تحصنت من بروج السُحُب في الصِّيَاصِي^(٢) يبعوثها الدَّانِيَة من كلِّ قاصي. وأحسن أنواعه الذي جمع لمعانيه بين رَوْضَة ورياضة، وغُدرٍ مُقَاضَة؛ ومغازلة عيون الثَّور وهي تدمع حين طَرَفها بذيله نسيماً الصباح، ومباكرة اللذات من قبل أن ترشُف شمس الضحى ريق الغوادي من ثغور الأفاح؛ رمي البندق الذي هو عُقْلة المستوفز^(٣)، وأنتهاز عُقْلة الطائر المتحرز؛ ونزهة القلوب التي إن طالت لا تُمَل؛ وإن اجتاز المتنزّه بموطنها لم يؤجر. أحلى من صيد الظباء، وأشهى من لَمَح من لَمَح الحسناء؛ لا يحتاج إلى رَكْض جَواد، ولا يحتاج فيه خَفْض العيش جَواد^(٤)، ولا يُهاجر متعاطيه إلى الهواجر، ولا يحجر على نفسه في الإفضاء إلى المَحَاجِر^(٥)؛ أربابُه يرتاضون في الروضة الغناء، ويسمعون من نَعَمات الأوتار وشذو الأطيّار مختلف الألحان والغناء؛ وَيَمْتَطُونَ الليل طرُفاً، ويستنيرون من النجوم شُموعاً لا تَقْط ولا تُطْفأ؛ قد آتخذ كل منهم مقاماً أكرم به من مقام، وهام باللذة فترك كرائم كراه وكذا عادة المُسْتَهَام؛ وسبح في لُجج الليل وكرع في نهر النهار، وتجلّى في حُلل الصدق وتخلّى عن حُلل العار. يَهْوُونَ لَذَّة القُنص في الليل إذا عَسَس، والصبح إذا تنفّس، ويرسلون رُسُل المَنَايا إلى صرائعهم فما تنفّس. إذا برزوا عند الغروب توارث شمس الأصيل حياء، وذهبت في حُلتها الذهبية حين بهروها سناً وسناء؛ تراهم كالزُّهر أو الأزهار، أو عِقْد نُظْم باللُّجَيْن والزُّمَرْد والنُّصَار؛ أوجُّههم في أفلاك قَسِيَّهم أقمار، كولدان جنان، وأعطاف أغصان؛ قد طاف بهم سِيَّاحُ المَسَرَّة وأخذق، وحلّوا بشياب سُندس خُضِر واستَبَرَق؛ كأن الأرض ضاهت بهم السماء، فصيرت قَسِيَّهم أفلاكها، وعزّزهم نجومها، وعزائمهم صواعقها وبنادقهم رُجُومها؛ يَخْفق منهم قلب كل خافقه، وتقدّم بعوئهم على ذوات القَوادم فيبنا هي مترافقة إذا بها متفارقة، وكأن صَوَاف الطير لديهم في جو السماء، سطور في صفيحة زَرْقَاء؛ أو كأنها في ألتئامها، عقود دُرّ في نظامها؛ يَفْرُطون سلكها، ويَقْرَبون مُلكها، ويغديرون بها في الغُدر، ويَجْسُرُون عليها في الجسور، وثَقَايِضُ بِنَادِقْهم صرائعهم فيصير وَكْر الطير الجراوة وجراوة البنادق حواصل الطيور. وإذا أسْفَرُوا وجه صباح،

(١) الجبر: ضرب من البرود اليمانية مخطط.

(٢) الصياصي: الحصون وكل شيء امتنع وتحصن به.

(٣) المستوفز: المهية للوثوب.

(٤) الجواد (بضم الجيم): جهد العطش.

(٥) المحاجر: واحدها المحجر، وهو الحديقة، أو الموضع الذي فيه رعي كثير وماء.

سمعت للطير صباحاً والطرب كله في ذلك الصباح؛ وإن عشنا مقاماتهم وجه عشاء رأيت الطير وهي لدى محارب قسيهم وهي سُجود وركع طرائح من بيض وسود كأن أديم الأرض منهن أبقع. وإن تعلقوا بأذيال الليل وسخفه؛ وباتوا في عطفه؛ احتفى منهم بشبهه، وتستر في حجبهم؛ وتوارى عنهم البدر بذيل الغمام، وهال هالته أن تبدو لقسيهم المؤثرة بالجمام. إلى غير ذلك مما ألتموه من محاسن أوصاف وأوصاف محاسن، ووردوه من مناهل مصافاة ماؤها غير آسن، ووجدوه من طيب عيش ما لانوا معه ولا استكانوا إلى المساكن؛ وحفظوه من صناعتهم من شروط وأوضاع، ووقفوا في مقاماتهم من مطيع ومطاع؛ يزعون قدر كبيرهم، ولا يُراع بينهم قلب صغيرهم؛ ويتنافسون في أحكامهم، فالحكم واحد على أمرهم ومأمورهم، إن تفرقوا فهم على قلب رجل واحد، وإن اختلفت منهم المقاعد فقد آتفت منهم المقاصد. ما خلا جوهم من واجب الطاعة، ولا علا بينهم كبير إلا بذلوا في خدمته جهد الاستطاعة؛ وأضحوا وأمرهم عليهم محتوم، وأمسوا وما فيهم إلا من له مقام معلوم؛ بأيديهم قسي قاسية، قضبانها قاضية؛ منعطفة جافية، بعوثها في الخوافي خافية، تمثلها الأفكار في ساحة الفضاء، كزوارق ماثوثة في لجة الماء. وكيف لا! وهي تحمل المنايا إلى الطير، وإن لم تكن سائرة فلها بُعوث سريعة السير؛ كأن صانعها قصد وضعها كالأهلة واقترح، أو حكى بمدبج أثوابها قوس قزح، وكان ظهرها وقد تنوعت به من الغروز مدارجها، مدبر سحيق وزس دب عليه من النمل دارجها؛ إذا حطت عنها أوتارها كانت عصاً لربها فيها مارب ومغانم، يوجس الطير في نفسه منها خيفة وكيف لا! وهي في شكل الأراقم؛ متضادة تخفو وتلين، موتورة وغيرها خزين؛ تضمها أنامل من يسراهم هي أيمن من يمين عرابة بن أوس^(١)، ويطلع كل منهم في فلكها والطلع القمر في القوس؛ لا تعتصم منها الطرائد بالخباء في وكر الدجّة، ولا يخفيها آتخاذها الظلماء جنة؛ ولا يوقئها نزقها، ولا ينقيها ملقها ولا تنجح بخفق الجناح، ولا تستروح بمساعدة الرياح؛ لها بنادق كأنها حبات القلوب لونا، وأشكال العقود كونا؛ كأنما صبيغت من ليل وصيغت من شهب، أو صنعت من أديم للسحب؛ تُفرد من الطير الثؤام، وتجمع بين روحها والجمام؛ قد تحامها الثُمران فاتخذها السماء وكراً، واتفقا أن يصبحا شفعاً ويُمسيّاً وترّاً؛ تقبض منها الأيدي عند إطلاقها رائحة رابحة، جارحة

(١) هو عرابة بن أوس بن قيطي الأنصاري. والإشارة هنا إلى مدح الشماخ بن ضرار المري لعرابة في قصيدة يقول فيها:

رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

من الطير كلٌ جارحة، لا ترى صادحةً إلا صيرتُها صائحة. قلبُ كل طير منها طائر، وكيف لا وهي للسَّهام ضرائر؛ تُضرم النار لإشواء الطريدة قبل مفارقتها للأوتار، وتقتنص من الجوارح كلُّ مُستخفٍ بالليل وساربٍ بالنَّهار؛ تهيج كامن الغنيمة وتشتير، وتبدو كأنما عُجنت من صندلٍ وعَبير.

ولما كان مَنْ هو واسطة عِقْدِ هذه الأوصاف، والرافلُ في بُرودها المَوْشِيَّة للأطراف؛ والمُبْدِع في فَنِّه، والجامع بين فضيلة الرمي وحُسْنه، والمستنطق لسانَ قومه بالإحسان؛ والحافظُ شروطه في طهارة العِرض وصدق اللسان؛ والرامي الذي بلغ بهمته غاية المرام، وضاهى ببُنْدِقِه السَّهام؛ وكان يوم كذا وكذا خرج إلى بَرَزَتِه المباركة وصرع طيرين في وجه واحد، وأبان عن حُسْن الرمي وسَدَاد الساعد؛ وأضحى بينهما كثيراً بين قومه، وجعلهما لهم وليمةً في يومه؛ وهما «تَمَّ» كأنما صيغ من فِضَّة، أو تَدَّرَع من النهار حُلَّةً مَبْيُضَّة؛ أو غاير بياضه الليلَ فلطم وجهه بيد ظَلَمائِه، فاقترض منه وخاض في أحشائه؛ لجناحه هَفِيفٌ^(١) في المَطَار، تسمع منه نغمة الأوتار. و«لَغْلَغَةٌ» كأنها كَوْنَت من شَقِيقٍ وعَمَام، أو مُزِجَ لَوْنُها بماءٍ ومُدَام؛ لها عُرَّةٌ لو بدَّت في الليل خَلَّتْها بَدْرًا، وإن أسفرت عند الصباح حَسِبَتْها فَجْرًا، وحملها فلان وفلان، وقطع شَبَقَه فلان وأذيعي لفلان؛ وعاد الرامي قَرِيرَ العين، مملوء اليدين، إذا فَجَر غيرُه بواحدة فخر بأثنتين؛ مُعْظَمًا بين أترابه، مُكْرَمًا لدى أحبابه؛ ألبسه الله من السرور أزهى أثوابه. بمَنه وكرمه.

وَمِمَّا وَرَدَ فِي وَصْفِ الْجَلَاهِقِ نَظْمًا - قال أبو الفرج البَيْغَاء يصفها: [من الوافر]

وَمِزْنَانِ مُعْبَسَةٍ ضَحُوكِ	مُهَذَّبَةِ الطَّبَائِعِ وَالْكِيَانِ ^(٢)
مُغَالِبَةٍ وَلَيْسَ بِهَا حَرَكَ	وِبَاطِشَةٍ وَلَيْسَ لَهَا يَدَانِ
لَهَا فِي الْجَارِحِ النَّسَبُ الْمَعْلَى	وإن هي خالفته في المعاني
تَطِيرُ مَعَ الْبُرْزَةِ بِلَا جَنَاحِ	فَتَسْبِقُهَا إِلَى قَصَبِ الرُّهَانِ
وَتُدْرِكُ مَا تَشَاءُ بِغَيْرِ رِجْلِ	وَلَا بَاعَ يَطُولُ وَلَا بَنَانِ
وَتَلَحُظُ مَا يَكِلُ الطَّرْفُ عَنْهُ	بَلَا نَظَرٍ يَصِحُّ وَلَا عِيَانِ
لَهَا عُضْوَانِ مِنْ عَصَبٍ وَلَحْمِ	وَسَائِرُ جَسْمِهَا مِنْ خَيْرِ زَانِ
يُخَاطَبُ فِي الْهَوَاءِ الطَّيْرُ مِنْهَا	بَلْفِظٍ لَيْسَ يَصْدُرُ عَنْ لِسَانِ

(١) الهفيف: صوت الريح.

(٢) المرنان: القوس وصف في رنٍّ إذا صَوَّت.

فإن لم تُضغِ أزدثها بطغنٍ
مُقَرَّظقة ممنطقة خلوب
مذكرة مؤنثة تهأدى
معمرة تزاید كل يوم
كأن الله ضمَّنَهَا فبانَتْ
أعزَّ على العيون من المآقي
إذا ما استوطنت يوماً مكاناً

وقال أبو الفتح كُشَاجِم: [من الرجز]

وثيقة مُذْمَجَّة الأوصالِ
تعود إن شئت إلى اعتدال
والظهر منها لقنا الأبطال
في وسطه من صنعة المحتال
تَفْذِي بَصَدَفَات من الصَّلْصال
قَدَى يُقَرَّرَ أَعْيُنَ الآمالِ
رَخِيصَةٌ تُغْنِمُ كُلَّ غَالٍ
تُعُولُ في الجذب وفي الإنحَالِ
مِطْيُهَا عَوَاتِقُ الرِّجَالِ
كم أَفْضَلْتُ على ذوي إفضال

مَخْنِيَّةٌ عَوْجَاءُ كَالِهلالِ
باطئها لِعَاقِلِ الأوعَالِ
يجمعها أَسْمَرُ ذُو أَنْفَتَالِ
مثال عَيْنٍ غَيْرِ ذِي أَحْوَالِ
أَمْضَى من السُّهَامِ وَالنَّبَالِ^(١)
فَاقِعَةُ الصُّفْرَةِ كَالْجِرْيَالِ^(٢)
تُؤْمِنُ مِنْهَا وَثِيَّةُ الْكَلَالِ
وقد يكون الصُّفْرُ كَالْعِيَالِ
في غُلْفٍ ممدودةٍ طَوَالِ
وكم أَنَالْتُ من أَخِي نَوَالِ

* وَقَرَّبْتُ لِلطَّيْرِ مِنْ آجَالِ *

وقال أيضاً فيها من أبيات: [من البسيط]

وفي يَسَارِي من الخَطِيّ مُحْكَمَةٌ
لِلوَعْلِ بَاطِنُ شَطْرِيهَا وَمُعْظَمُهَا
تَأْتِقُ الْقَيْنُ في تزيينها فَعَدَتْ
تومي بأحسن تفضيضٍ وتذهيبٍ^(٣)

(١) يقال: قذت العين تقذي: إذا قذفت ما فيها من قذى.

(٢) الجريال: الخمر أو لونها.

(٣) القين: الحداد.

في وسطها مُقْلَةٌ منها تُبَيِّنُ ما يُرمى فما مَقْتُلٌ عنها بمحبوب
فَقَمْتُ والطيرُ قد حُمَّ الجِمامُ لها على سبيلي في عادي وتجويبي
حتى إذا أَكْتَحَلْتُ بالطين مُقْلَتُها صَبْتُ عليهنَّ حتفاً جَدَّ مُضبوب
فَرَحْتُ جَذْلانَ لم تَكْدُرِ مشارِبُ لَذَاتِي ولم تُلْقَ آمالي بتخييبِ

ذِكْرُ شَيْءٍ مِمَّا قِيلَ فِي سَبْطَانَةٍ^(١)

قال أبو الفرج البَيْغَاءُ: [من المتقارب]

وَجَوْفَاءَ حَامِلَةٍ تَهْتَدِي إلى كل قلبٍ بِمَقْرُوجِهِ
مُقْوَمَةٌ الْقَدُّ مَمْشُوقَةٌ مُهْفَهْفَةٌ الْجِسْمِ مَمْسُوجِهِ^(٢)
مُتَّقِفَةٌ فَمُها عَيْنُها تُبَشِّرُ قلبي بتصحيحه
فإن هي والجراحُ أَسْتَنْهَضَا إلى الصَّيْدِ عاقته عن ربحه
إذا أَلْمَرَّ أودَعَهَا سِرَّهُ لثُخْفِيهِ باحث بتصريحه
مَوَاتٌ تَعِيشُ إذا ما أعاد لها النافِخُ الرُّوحَ من روحه
هي السَّبْطَانَةُ في شكلها ففي القلبِ جَدُّ تَبَارِيحِهِ^(٣)
تَحْطُ أبا الفَرْخِ عن وَكْرِهِ وتَسْتَنْزِلُ الطيرَ من لُوحِهِ^(٤)

وقال أبو طالب المأموني: [من الطويل]

مُتَّقِفَةٌ جَوْفَاءَ تُحَسِّبُ زَانَةً ولكنها لا رُجَّ فيها ولا نُضْلُ
تُسَدُّ نحوَ الطيرِ وهو محلَّقٌ فينْقُذُ عنها للردى نحوه الرُّسْلُ
يطير إلى الطيرِ الرَّدَى في ضميرها فيَجْرِي كما يَجْرِي ويعلو كما يعلو
فيَغْفِلُ ما تنجو به فكأنما يُمَدُّ إليه من بِنادقها حَبْلُ

ذِكْرُ شَيْءٍ مِمَّا قِيلَ فِي عِيدَانِ الدَّبَقِ^(٥)

قال عبد الله بن المعتز فيها مُلَغِزاً: [من الرجز]

- (١) السبطانة: آلة من آلات الصيد تتخذ من خشب، مستطيلة كالرمح مجوفة الداخل يجعل الصائد بندقه من طين صغيرة في فيه، وينفخ بها فتخرج منها بحدّة فتصيب الطير فترميه، وهي كثيرة الإصابة.
- (٢) المهففة: الضامرة البطن، الدقيقة الخصر.
- (٣) تباريح الشوق: توجهه.
- (٤) اللوح: الفضاء بين السماء والأرض.
- (٥) الدبق: شيء يلزق كالغراء يصاد به الطير.

وما رِمَاحٌ غيرُ جارحاتٍ
ولَسَنَ لِلطَّرَادِ والغاراتِ
بريقٍ حتفٍ منجزِ العِداتِ
يَنشَبُ في الصدورِ واللَّبَّاتِ
على عَواليها مُرَكَّبَاتِ
من قَصَبِ الریشِ مجرَّدَاتِ
* أَذْنَابٌ جِرْذَانٍ مُنْكَسَاتِ *

وقال أبو الفتح كُشَّاجِمٌ: [من الرجز]
وَأَسِرَاتٍ مِثْلِ مَأْشُورَاتِ
مُؤْمَلَاتٍ غَيْرِ مُكْذِبَاتِ
نَوَاطِرِ الْأَشْكَالِ ذَاهِبَاتِ
ولا بِمَا يَصِدُنْ عَالِمَاتِ
أَقْتُلْ من سَمَائِمِ الْحَيَاتِ
وَوَصِلَتْ بِالزُّجِّ وَالشُّبَابَةِ
حَوَامِلِ لِلطَّيْرِ مُمَسِكَاتِ
كَأَنَّهَا فِي النِّعَةِ وَالصِّفَاتِ
أَغْدَرُ بِالْوُزْقِ الْمَغْرَدَاتِ
فَهْنٌ مِنْ قَتْلَى وَمِنْ عُنَاةٍ

مُمَكِّنَاتٍ غَيْرِ مُنْكَنَاتِ
صَوَادِقِ التَّعْجِيلِ لِلْعِدَاتِ
كَوَاسِرٍ وَلَسَنَ ضَارِيَاتِ
بِمِثْلِ رِيقِ النِّحْلِ مَطْلِيَّاتِ
لو صَلَحَتْ شَيْئاً مِنَ الْآلَاتِ
كَانَتْ مَكَانَ الثُّبُلِ لِلرُّمَاتِ
تَعَلَّقَ الْأَحْبَابُ بِالْحَبَّاتِ
أَذْنَابُ مَا دَقَّ مِنَ الْحَيَاتِ
فِيهَا مِنَ الْفَتَيَانِ بِالْقَيْنَاتِ
بِلا فَكَالِكِ وَبِلا دِيَاتِ

ذِكْرُ شَيْءٍ مِمَّا قِيلَ فِي الشُّبَاكِ

قال السَّرِيِّ الرَّقَاءُ يَصِفُ شُبَكَةً: [من الرجز]

وَجَدُولٍ بَيْنَ حَدِيقَتَيْنِ
كَسَوْتِهِ وَاسِعَةِ الْقُطْرَيْنِ
رَاصِدَةً كُلُّ قَرِيبِ الْحَيْنِ
مُطَرِّدٍ مِثْلِ حُسَامِ الْقَيْنِ^(٣)
تَنْظُرُ فِي الْمَاءِ بِالْفِ عَيْنِ
تُبْرِزُهُ مُجَنِّحِ الْجَنْبَيْنِ

(١) الإِسَارُ: ما شُدَّ به وهو الرِّبَاطُ - وسِيَةُ الْقَوْسِ: ما عَطَفَ مِنْ طَرَفِهَا.

(٢) مَوْقَعَاتٍ: مَحَدَّدَاتٍ.

(٣) الْقَيْنُ: الْحَدَادُ.

كُمُذِيَّةٌ مَصْفُولَةٌ الْمَثْنَيْنِ كَأَنَّمَا صِيغَ مِنَ اللَّجَيْنِ^(١)

وقال أبو الفرج البيهقي يصف شبكة العصفير: [من المنسرح]

رَقْرَاقَةٌ فِي السَّرَابِ تَحْسَبُهَا عَلَى الثَّرَى حُلَّةٌ مِنَ الزَّرْدِ

كَالدَّرْعِ لَكِنَهَا مُعَوَّضَةٌ عَنْ الْمَسَامِيرِ كَثْرَةَ الْعُقَدِ

سَائِرُهَا أَعْيُنٌ مُفَتَّحَةٌ لَا تَرْتَضِي نَسَبَةً إِلَى جَسَدِ

ذَكَرُ مَا قِيلَ فِي الشَّصِّ، وَهُوَ الصَّنَائِيرُ - قَالَ كَاتِبُ أُنْدُلُسِي يَصِفُهُ مِنْ رِسَالَةٍ:

«صَّنَائِيرُ، كَأَظْفَارِ السَّنَائِيرِ؛ قَدْ عَطَفَهَا الْقَيْنُ كَالرَّاءِ، وَصَيَّرَهَا الصُّفْلُ كَالْمَاءِ؛ فَجَاءَتْ أَحَدٌ مِنَ الْإِبْرِ، وَأَرَقَ مِنَ الشَّعْرِ؛ كَأَنَّمَا مَخْلَبٌ صُرْدٌ^(٢)، أَوْ نَصْفُ حَلْقَةٍ مِنَ زَرْدٍ».

وقال أبو الفتح كُشَاجِمٌ: [من الرجز]

مَنْ كَانَ يَخْوِي صَيْدَهُ الْفَضَاءَ وَلِلْبُرَاةِ عِنْدَهُ ثَوَاءٌ

وَطَالَ بِالْكَلْبِ لَهُ الْعَنَاءُ فَإِنْ صَيَّدِي مَا حَوَاهِ الْمَاءُ

بِمَخْلَبٍ سَاعِدُهُ رِشَاءٌ يَظَلُّ وَالْمَاءُ لَهُ غِطَاءٌ

كَمَا طَوْتُ هِلَالَهَا السَّمَاءُ كَأَنَّهُ مِنَ الْحُرُوفِ رَاءُ

فَهُوَ وَنَصْفُ خَاتَمٍ سَوَاءٌ يَحْمِلُ سَمًّا أَسْمُهُ غِذَاءُ

وَعَطَبًا فِيهِ لَنَا إِحْيَاءُ تَذْمَى بِهِ الْقُلُوبُ وَالْأَحْشَاءُ

عَادٍ إِذَا سَاعَدَهُ الْقَضَاءُ أَمْتَعَنَا الْقَرِيرُسُ وَالشُّوَاءُ^(٣)

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

كامل الجزء العاشر من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» للشيخ العلامة

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب البكري التميمي القرشي نسباً المعروف بالثويري رحمه الله. ويليهِ الجزء الحادي عشر.

(١) اللجين: الفضة.

(٢) الصرد: طائر أبيض اللون أبيض البطن أخضر الظهر ضخم الرأس والمنقار.

(٣) القريس: سمك يطبخ ويتخذ له صباغ ويترك فيه حتى يجمد.

فهرس المحتويات

٣ ذَكُرُ مَا وَصَفَتْ بِهِ الْعَرَبُ الْخَيْلَ
	وأما ما قيل في طبائعها، وعاداتها، والمحمود من صفاتها، ومحاسنها، والعلامات
١٤ الدالة على جودة الفرس ونجابهته
٢٢ ذكر أسماء خيل رسول الله ﷺ
٢٥ ذكر أسماء كرام الخيل المشهورة عند العرب
٢٨ ذكر ما قيل في أوصاف الخيل وتشبيهها نظماً ونثراً
٣٩ طرائف في ذم الخيل بالهزال والعجز عن الحركة
٤٨ الباب الثاني من القسم الثالث من الفن الثالث في البغال والحمير
٤٨ ذكر ما قيل في البغال
٤٩ ذكر بغلات رسول الله ﷺ
٥١ ذكر شيء مما وُصفَتْ به البغال
٥٧ ذكر ما قيل في الحمير الأهلية
٥٩ ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الحمار
٥٩ ذكر شيء مما وُصفَتْ به الحمير على طريقي المدح والذم
٦٣ الباب الثالث من القسم الثالث من الفن الثالث في الإبل والبقر والغنم
٦٣ ذكر ما قيل في الإبل
٦٥ ذكر أصناف الإبل وعاداتها وما قيل في طبائعها
٦٧ ذكر ما ملكه رسول الله ﷺ من الإبل
٦٩ ذكر شيء مما وُصفَتْ به الإبل نظماً ونثراً
٧٢ ذكر ما قيل في البقر الأهلية
٧٤ ذكر ما قيل في الجاموس
٧٥ ذكر ما قيل في الغنم الصّان والمعرّ
٧٥ ذكر ترتيب سِنِّ الغنم

٧٩	القسم الرابع من الفن الثالث في ذوات السموم
٧٩	الباب الأول
٧٩	ذكر ما قيل في الحيات
٨٤	ذكر ما في لحوم الحيات من المنافع والأدوية
٨٥	ذكر شيء مما وصفت به الأفاعي
٨٧	ذكر ما قيل في العقارب
	الباب الثاني من القسم الرابع من الفن الثالث فيما هو ليس قاتلاً بفعله من ذواب السموم
٩١	السموم
١٠٨	القسم الخامس: من الفن الثالث في أجناس الطير وأنواع السمك
١٠٩	الباب الأول من القسم الخامس من الفن الثالث في سباع الطير
١٠٩	ذكر ما قيل في العقاب
١١٢	ذكر ما قيل في البازي
١١٧	ذكر ما قيل في الصقر
١٢١	ذكر ما قيل في الشاهين
١٢٣	فضل
١٢٤	الباب الثاني من القسم الخامس من الفن الثالث في كلاب الطير
١٢٤	ذكر ما قيل في النسر
١٢٥	ذكر ما قيل في الرخم
١٢٦	ذكر ما قيل في الحدأة
١٢٧	ذكر ما قيل في الغراب
١٢٩	الباب الثالث من القسم الخامس من الفن الثالث في بهائم الطير
١٣٣	ذكر ما جاء في الديكة من الأحاديث
١٣٣	وما عُد من فضائلها وعاداتها ومنافعها
١٣٧	ذكر شيء مما وصفت به الشعراء البيضة والدجاجة والديك
١٣٨	ومما قيل في الدجاجة والديك
١٥٦	الباب الرابع من القسم الخامس من الفن الثالث في بُعَاثِ الطير

ذكرُ شيءٍ من الأوصافِ والتشبيهاتِ والشُعريَّةِ الجامعةِ لمجموعِ هذا النوعِ الذي ذكرناه	١٦١
ذكرُ ما قيلَ في طوقِ الحَمَامَةِ	١٦٨
ذكرُ شيءٍ ممَّا وُصِفَ بِهِ هَذَا النَّوعُ نَظْمًا وَنَثْرًا	١٦٩
البَابُ الْخَامِسُ مِنَ الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْقَنْ الثَّالِثِ فِي الطَّيْرِ اللَّيْلِيِّ	١٧٢
البَابُ السَّادِسُ مِنَ الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْقَنْ الثَّالِثِ فِي الْهَمَجِ	١٧٤
البَابُ السَّابِعُ مِنَ الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْقَنْ الثَّالِثِ فِي أَنْوَاعِ الْأَسْمَاكِ	١٨٦
ذكرُ شيءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَسْمَاكِ	١٩٠
ذكرُ شيءٍ مِنْ عَجَائِبِ الْحَيَوَانِ الْمَائِيِّ	١٩٥
البَابُ الثَّامِنُ وَهُوَ الذِّيلُ عَلَى الْقِسْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْقَنْ الثَّالِثِ	١٩٦
ذكرُ شيءٍ ممَّا قيلَ فِي سَبْطَانَةِ	٢١٣
ذكرُ شيءٍ ممَّا قيلَ فِي عِيدَانِ الدُّبِّيِّ	٢١٣
ذكرُ شيءٍ ممَّا قيلَ فِي الشُّبَاكِ	٢١٤